

في ضوء الرسالة

ألوان من الأدب والتاريخ

تأليف

المفكر والأديب

أحمد حسن الزيات

المتوفى 1388 هـ

الناشر

مكتبة الثقافة العربية



مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة

البريد الإلكتروني:

Alsakafa_aldinaya@hotmail.com

هاتف : +2025922620

فاكس: +2025936277

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية:

في ضوء الرسالة (الوان من الادب والتاريخ)

تأليف: احمد حسن الزيات

1- الادب العربى - تاريخ ونقد

ا- العنوان

رقم الإيداع: 2018/17971

الترقيم الدولي: 1-729-341-977-978

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، نحمدك ربي وأنت أهل الحمد والجود والثناء، ونشكر وأنت ذو الفضل والمن والعطاء، ونستعينك وأنت مُسْدِي النعماء، ومُسْبِغ الآلاء، ودافع البلاء، ونستغفرك ونتوب إليك وأنت الغفور لكل خَطْأً، والسَّيِّئ على كل مَنْ أَسَاء.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ذو العز والعظمة والكبرياء، رفع شأن الدعاة والعلماء، وأعلى قدرهم حتى وصلوا ذرى العلياء، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمداً عبد الله ورسوله، إمام الحنفاء، وسيد الأصفياء، وأفضل الدعاة، وأشرف الأتقياء، صلى الله عليه وعلى آله الشرفاء، وصحبه النجباء، الذين أشادوا بدعوتهم صروح الحضارة والمجد والبناء، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما دامت الأرض والسماء، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

يُعد أحمد حسن الزيات قامة ثقافية وفكرية وأدبية كبيرة فهو واحد من جيل العمالقة الكبار الذين نهضت بهم الحياة الثقافية والأدبية في مصر في القرن الماضي، رافق الزيات طه حسين، عباس العقاد، الراجحي، والمازني وغيرهم، وقد تميز الزيات بروعة الأسلوب وجزالة العبارات وقوة الألفاظ ووضوح المعنى، حتى إنه يُعد في نظر البعض من أفضل أدباء مصر، أصدر مجلة الرسالة التي كان لها صدى كبير في الدفاع عن قضايا الأمة العربية والإسلامية، وكانت صوتًا إعلاميًا قويًا لنشر الثقافة والأدب في مصر، ومن على صفحاتها انطلقت شهرة كتاب وأدباء وشعراء من بينهم نجيب محفوظ.

وما أظن أن مثقفًا عربيًا على طول الساحة العربية بل ومن خارجها لا يعترف بأفضلية هذا الرجل وبما أسداه من خدمات جلى للثقافة العربية كيفًا وكَمًا.

وَمِنْ مِنْ أَفْرَادِ جَيْلِ الْمُتَقَفِّينَ فِي أَوَائِلِ الثَّلَاثِينَ وَالْأَرْبَعِينَ لَمْ يَتَلَمَّذْ فِي مَدْرَسَةِ أَحْمَدَ حَسَنِ الزِّيَّاتِ فِي كَلِيَّةِ «مَجَلَّةِ الرَّسَالَةِ» وَعَبَّرَ كُتُبُهُ الْمُفِيدَةُ الْمَوْضُوعَ مِنْهَا وَالْمُتَرْجِمَ عَلَى السَّوَاءِ، حَتَّى أَنَّهُ وَعَلَى طَوْلِ الْمَسَافَةِ فِي تَارِيخِ الصَّحَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَلَّمَا ذَكَرَ اسْمَ «الرَّسَالَةِ» كَمَجَلَّةٍ إِلَّا وَيَنْصَرِفُ لِرِسَالَةِ الزِّيَّاتِ، الَّتِي كَانَتْ بِحَقِّ رِسَالَةٍ غَمَرَتْ بِإِشْعَاعِهَا الْفِكْرِيَّ مَجْمُوعَ الرِّقْعَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْمَحِيطِ إِلَى الْخَلِيجِ، وَأَنْتَسَتْ بَقِيَّةُ الْمَغْتَرِبِينَ الْعَرَبِ فِيْمَا وَرَاءَ الْبَحَارِ.

فَاسْتَطَاعَتْ مَجَلَّةُ «الرَّسَالَةِ» فَعَلًا أَنْ تَوْصَلَ الْمَاضِي بِالْحَاضِرِ، وَتَكُونَ أَدَاةَ «لِلْآدَابِ الرَّفِيعَةِ» وَسُرْعَانِ مِنَ التَّفْ حَوْلَهَا صَفْوَةٌ مِنَ طَلِيعَةِ النُّهْضَةِ الْفِكْرِيَّةِ فِي تِلْكَ الْحَقْبَةِ الَّتِي دَأَبَ أَفْرَادُهَا عَلَى إِثْرَاءِ صَفْحَاتِهَا بِالدراساتِ الْقِيَمَةِ وَالْمَقَالَاتِ الرَّصِينَةِ الْهَادِفَةِ فِي مُخْتَلَفِ «الْآدَابِ وَالْفُنُونِ» فَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمُ الدُّكْتُورُ طَهْ حُسَيْنٌ وَالدُّكْتُورُ زَكِيٌّ مُبَارَكٌ وَالعَالِمُ الْبَاحِثُ صَاحِبُ النَّفْسِ الطَّوِيلِ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ أَمِينٌ وَالْأُسْتَاذُ مُصْطَفَى صَادِقُ الرَّافِعِي وَغَيْرُهُمْ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي كَانَ أَصْحَابُهَا مُصَنِّفِينَ فِي عِدَادِ عَمَالِقَةِ الْفِكْرِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَكَانَ لِكُلِّ مِنْهَا اتِّجَاهُهُ الْفِكْرِيُّ، وَأُسْلُوبُهُ التَّعْبِيرِيُّ وَاسْتِخْصَاصُهُ الدِّرَاسِيَّ، وَتَفَتَّحَتْ مَجَلَّةُ الرَّسَالَةِ عَلَى الثَّقَافَةِ الْعَالَمِيَّةِ فَكَانَتْ تَتَرَجَّمُ مِنَ الْآدَابِ الْآخَرَى كُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ بِالْجُودَةِ وَالْإِبْدَاعِ مِنْ قَدِيمِ الْآدَابِ الْأَجْنَبِيَّةِ وَحَدِيثِهَا، فَتَوَلَّى الْمَرْحُومُ الْأُسْتَاذُ دُرَيْنِي خَشْبَةَ تَرْجُمَةِ أُدُويَا هُومِيروسَ، بَيْنَمَا اضْطَلَعَ الْأُسْتَاذُ فُلَيْكُسُ فَارَسَ بِتَرْجُمَةِ كِتَابِ الْفِيلَسُوفِ الْأَلْمَانِيِّ نَيْتْشَةَ «هَكَذَا قَالَ زَرَادُشْتُنْ»، وَخَلَدَ الْأُسْتَاذُ فُخْرِي أَبُو السَّعُودِ دِرَاسَةً رُبَّمَا لَا يُوْجَدُ لَهَا نَظِيرٌ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا فِي مَوْضُوعِ الْأَدَبِ الْمَقَارَنِ بَيْنَ الْأَدَبَيْنِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِنْجِلِيزِيِّ، كَمَا أَنَّ مَجَلَّةَ «الرَّسَالَةِ» كَانَتْ أَوَّلَ مَنْ اكْتَشَفَ مَوْهَبَةَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ ذِي السَّرْدِ الْأَدْبِيِّ فِي شَخْصِيَّةِ الدُّكْتُورِ أَحْمَدَ زَكِيٍّ رَئِيسَ مَجَلَّةِ تَحْرِيرِ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ سُلْسَلَةِ مَقَالَاتِهِ: «قِصَّةُ الْمَرْكُوبِ وَكَيْفَ كَشَفَهُ رِجَالُهُ».

وَنَذَكُرُ فِيْمَا يَذْكُرُهُ الذَّاكِرُونَ مِنْ رَوَائِعِ الْإِنْتَاكِجِ فِي رِسَالَةِ الزِّيَّاتِ وَصَحْبِهِ، أَعْدَادُهَا الْمُمْتَازَةُ الَّتِي كَانَتْ تَصْدُرُ فِي طَلِيعَةِ كُلِّ شَهْرٍ مُحَرَّمٍ، حَيْثُ تَتَبَارَى الْأَقْلَامُ فِي تَحْدِيدِ مَعَالِمِ الرَّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَنُضْلِ صَاحِبِهَا عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ، وَتُسْتَخْرَجُ

لها صوراً زاهية من بين المواد الخام المعقدة في كتب السير الأخرى وتصوغها في بيان مشرق تكون افتتاحية الأستاذ الزيات عقدًا تتلألأ أحجاره الثمينة في جيد كل عدد من تلك الأعداد.

وبعد حين منْ صدور مجلة الرسالة وما حظيت به من «اتساع في الذبوع والانتشار» بادر الأستاذ الزيات إلى تعزيزها بأختها مجلة «الرواية» التي خصصها لترجمة الآداب الأخرى إلى لغة الضاد فجاءت كمثّل الرسالة، عامرة بأحسن القصص وأروعها في آداب الغرب.

وبذلك فتح الزيات رحمه الله نافذة أوسع للقارئ العربي ليرى من خلالها ما يجري على غير ساحته العربية من ألوان الإنتاج الفكري الغربي قديمه وحديثه الكلاسيكي منه والإبداعي . على حد تعبير الأستاذ الزيات . وعلى مدى عشرين سنة تمكنت مجلة «الرسالة» من تعميق الفكر العربي وإثرائه وسدت الفراغ الهائل في الوطن العربي وجمعت حولها كُتّابًا وقراء ربطت بينهم روابط متينة على الرغم من شط المزار وتباعد الديار.

كما أنها كانت قبل ذلك وبعد ذلك منبع عطاء فكري تميز بخصوبته وبطابعه الأصيل في الآداب والعلوم والفنون.

وبذلك أصبحت مجلدات «الرسالة» تشكل تراثاً للفكر العربي بداية من أوائل الثلاثينيات إلى أوائل الخمسينات، وهي فترة اعتبرت بحق فترة متممة بالحيوية والرصانة مثلما طبعها الانتعاش ثم الازدهار.

ومنْ أفراد جيل هذه الحقبة من لا يتذكر وبشيء غير قليل من الانتشاء تلك المعارك الأدبية التي جرت في ميدان الرسالة حول تلك القضية التقليدية، قضية القديم والحديث، التي ما تزال «الحاسة السادسة» لاستكشاف المتعة الأدبية تتذوقها وتتلذذ بل وتنشّي بها، مضموناً وتعبيراً، إلى يومنا هذا وفي زمننا هذا.

حتى إذا احتجبت مجلة «الرسالة» متأثرة بظروف الحرب وعواقبها، تركت ذلك الفراغ الهائل الذي ما أظن أن مجلة أخرى قد تمكنت من سده رغمًا عن كثرة أسمائها وتعداد أماكن صدورها واختلاف مذاهبها وطرائفها «وموضاتها» كذلك، وذلك في

وقت مُنِي في الفكر العربي بآفة أخرى تجلى مفعولها في صراع «الطوائف» المذهبية الذي كلما ظهرت فيه طائفة لعنت أختها.

بينما بقيت آفة العقوق تطارد صاحب الرسالة الأستاذ الزيات حيث لم يجد من الاهتمام أو السند ما يساعده على ما كان يأمله من القيام بعملية بعث لمجلته فضاعت نصائحه وتوجيهاته واقتراحاته في أجواء مشحونة بالصخب والضجيج.

وتولى الأستاذ المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات في أواخر أيامه رئاسة تحرير مجلة «الأزهر» وظل يتفرج على ما يجري في الساحة العربية من الشيء ونقيضه في الحقل الثقافي إلى أن لقي ربه مثلما يلقيه كل ذوي الرسالات الصادقة فرحمه الله وجزاه خير على ما قدمه من خدمات جلى للثقافة العربية وآدابها.

فرحمة الله على الأستاذ الزيات، فقد عاش حياته مدافعاً عن العربية وآدابها فقد كان يرى أن الكلام كائن حي، روحه المعنى وجسمه اللفظ.. رحم الله الزيات صاحب الذهن الثاقب، والخيال الخصب، والكلمة القوية.

ترجمة المؤلف



اسمه:

هو أحمد حسن الزيات باشا، من كبار رجال النهضة الثقافية في مصر والعالم العربي، ومؤسس مجلة الرسالة. اختير عضواً في المجامع اللغوية في القاهرة، ودمشق، وبغداد، وحاز على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 1962 م في مصر.

مولد الزيات ونشأته:

ولد الزيات في قرية كفر دميرة القديم التابعة لمركز طلخا بمحافظة الدقهلية بمصر في 16 جمادى الآخرة 1303 هـ/ 2 إبريل 1885 م، ونشأ في أسرة متوسطة الحال، تعمل بالزراعة. تلقى تعليمه في كتاب القرية، فحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة، ثم أرسل إلى أحد العلماء في القرية المجاورة ليتعلم القراءات السبع وأجادها في سنة واحدة.

تعليمه الجامعي وعمله:

التحق الزيات بالجامع الأزهر وهو في الثالثة عشرة من عمره، وظل فيه عشر سنوات، وتلقى في أثنائها علوم الدين واللغة العربية، إلا أنه كان يفضل الأدب فتعلق بدروس الشيخ سيد علي المرصفي الذي كان يدرس الأدب في الأزهر، كما حضر شرح المعلقات للشيخ محمد محمود الشنقيطي، أحد أعلام اللغة العربية البارزين آنذاك.

اتصل بطله حسين، ومحمود حسن الزناتي، وكانوا يقضون أوقاتاً طويلة في دار الكتب المصرية لمطالعة عيون الأدب العربي، ودواوين فحول الشعراء. ولكن لم يكمل الزيات دراسته بالأزهر وإنما التحق بالجامعة الأهلية فكان يدرس بها مساء ويعمل صباحاً بالتدريس في المدارس الأهلية. والتقى الزيات في عمله بالعديد من رجال الفكر والأدب في عصر النهضة، مثل: العقاد، والمازني، وأحمد زكي، ومحمد فريد أبو حديد. ولقد اختير من قبل الجامعة الأمريكية بالقاهرة رئيساً للقسم العربي بها في عام 1922م، وفي أثناء ذلك التحق بكلية الحقوق الفرنسية، وكانت الدراسة بها ليلاً، ومدتها ثلاث سنوات، أمضى منها سنتين في مصر، وقضى الثالثة في فرنسا حيث حصل على ليسانس الحقوق من جامعة باريس في سنة 1925 م. في عام 1929 م اختير أستاذاً في دار المعلمين في بغداد، فترك العمل في الجامعة الأمريكية وانتقل إلى هناك. ولم يتتمي الزيات طيلة حياته لأي حزب سياسي. وظل الزيات محل تقدير وموضع اهتمام حتى وفاته في القاهرة في صباح الأربعاء الموافق 16 ربيع الأول 1388 هـ/12 مايو 1968 عن عمر ناهز 83 عاماً. وقد نقل جثمانه إلى قرية كفر دميهر ودفن فيها.

مجلة الرسالة:

بعد عودة الزيات من بغداد عام 1933 م ترك التدريس، وانتقل للصحافة والتأليف. وفي 18 رمضان 1351 هـ/15 يناير 1933 م قام بإصدار مجلة الرسالة، التي صار لها أثراً قوياً على الحركة الثقافية الأدبية في مصر.

استمر صدور "الرسالة" نحواً من عشرين عاماً، وكانت مدرسة أدبية ومجالاً لظهور كتاب وشعراء من الجيل الجديد بنوا شهرتهم على صفحاتها. وقد أصدر الزيات بعد

ذلك مجلة أخرى اسمها "الرواية" وكانت تختص بالقصة القصيرة أو الرواية المطولة تنشرها مسلسل، واستمر صدورها عامين وكتب فيها كبار القصصيين، كما كانت تشجع القصصيين الشبان وبينهم كاتب ناشئ هو الأديب نجيب محفوظ، وكانت أول قصة نشرها بعنوان "ثمن الزوجة"، ثم أدمجت "الرواية" بالرسالة وأخيراً اضطر الزيات إلى التوقف عن إصدار "الرسالة الرواية" بسبب الظروف الاقتصادية، وتولى رئاسة مجلة الأزهر. ولما أتممت الصحافة في مصر، حاولت وزارة الإرشاد القومي إحياء "الرسالة" وعينت الزيات رئيساً لتحريرها مرة أخرى، ولكن المحاولة لم تنجح لأن الزمن كان قد تغير، وأذواق القراء قد تطورت، والصحافة اتجهت وجهات جديدة، فلم يكتب للرسالة أن تستعيد مكانتها السابقة أو تجدد مجدها القديم، وتوقفت مرة أخرى بعد بضعة أعداد، وكان صدورها في مرحلتها الثانية دليلاً صارخاً على أن الصحافة لا يمكن أن تكون جزءاً من الجهاز الحكومي، ولا تعيش إلا في جو الحرية وهوائها الطلق.

الزيات أدبياً:

يُعد الزيات صاحب أسلوب خاص في الكتابة، وهو أحد أربعة عُرف كل منهم بأسلوبه المتميز وطريقته الخاصة في الصياغة والتعبير، والثلاثة الآخرون هم: مصطفى صادق الرافعي، وطه حسين، والعقاد، ويقارن أحد الباحثين بينه وبين العقاد وطه حسين، فيقول: «والزيات أقوى الثلاثة أسلوباً، وأوضحهم بياناً، وأوجزهم مقالة، وأنقاهم لفظاً، يُعنى بالكلمة المهندسة، والجملة المزدوجة، وعند الكثرة الكاثرة هو أكتب كتابنا في عصرنا».

امتاز أسلوب الزيات بنصاعة الديباجة وروعة البيان، وكان يولي دقة اللفظ وموسيقى الجملة وإيقاعها عناية كثيرة، وكان يعتمد إلى السجع من وقت لآخر دون تكلف ولا إملا. وقد اتهمه البعض بتغليب الأسلوب على الفكرة والشكل على الموضوع، ولكنه كان أدبياً مترسلاً يتحرى المعنى النبيل في اللفظ الجميل، وكان له أثر كبير في رعاية سلامة اللغة العربية، وكان يحرص على الأسلوب العربي السليم في كل ما ينشره في "الرسالة". وكان يفتتح كل عدد من أعدادها بافتتاحية من طول واحد، متخيرة الألفاظ، يستوحي موضوعاتها من أحداث الساعة، وقد جمعها فيما بعد في كتاب من أربعة أجزاء بعنوان "وحي الرسالة".

ما قاله النقاد عنه:

الزيات أحد أعلام كثيرين أنجبهم الريف المصري وأطلعهم على الحياة الأدبية مشاعل مضيئة ، كان لها في تاريخنا الأدبي المعاصر أثر كبير ، ودور لن تغفى عليه الأيام .

يقول (العقاد) : الزيات كاتب متألق لا يكتب الصفحة الواحدة إلا في يومين أو أيام، ولولا اضطراره إلى مسامرة (الرسالة) لشغل نفسه بالصفحة الواحدة أسابيع ، وتأنق الزيات تأنق مقبول .. ولكنه حرم أسلوبه من قوة الحركة ، فهو يقهر القارئ على الوقوف من وقت إلى وقت ليسأل عن الطريق .

وفي أسلوبه يقول (محمد مندور) : أسلوب الزيات مصنوع صنعة محكمة ، صنعة كاملة ، ولكن الصنعة تبعدنا عن الحياة ، ولكن الكمال يمل . وهناك في أساليب كبار الكتاب ما يحسه البلاغيون والنحويون ضعفاً وعبثاً ولكنه أمانة الأصالة ودليل الطبع ، وإذا كان في جلال أسلوب (شكسبير) أو (فاليري) ما يسمونه كسر البناء ، فكيف لا يطمئن جهد الزيات حتى يقيم الموازين ، ويقيس المسافات .

من مؤلفاته:

- تاريخ الأدب العربي
- في أصول الأدب
- دفاع عن البلاغة
- وحي الرسالة" وجمع فيه مقالاته وأبحاثه في مجلة الرسالة.
- في ضوء الرسالة
- ومن أعماله المترجمة من الفرنسية:
- آلام فرتر" لغوته.
- رواية روفائيل للأديب الفرنسي لامارتين.
- بالإضافة لذلك له مجموعة قصصية بعنوان "من الأدب الفرنسي".

وفاته:

توفي في صباح الأربعاء الموافق 16 من ربيع الأول 1388 هـ = 12 من مايو 1968م عن ثلاثة وثمانين عامًا .

مصادر ومراجع الترجمة:

- نعمة رحيم العزاوي . أحمد حسن الزيات كاتبًا وناقلاً . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة 1986م.
- نعمات أحمد فؤاد . قمم أدبية . عالم الكتب . القاهرة - 1984م.
- محمد مهدي علام . المجمعون في خمسين عامًا . مطبوعات مجمع اللغة العربية . القاهرة . 1406 هـ = 1986م.

عملنا في الكتاب

سار عملنا في الكتاب وفق المنهج التالي:

- 1- نسخ الكتاب نسخًا علميًا دقيقًا.
 - 2- مطابقة النص ومراجعته.
 - 3- تخريج الآيات القرآنية وفق مواضعها من المصحف الشريف.
 - 4- إضافة تعليقات المؤلف وحواشيه.
 - 5- ترقيم النص حسب قواعد الترقيم الحديثة.
 - 6- صنع ترجمة وافية للمؤلف المفكر والأديب أحمد حسن الزيات.
 - 7- وضع تعليقات على بعض المواضع الهامة التي تحتاج إلى شرح وبيان وبدأنها بـ(قلت) للفرقة بينها وبين حواشي المؤلف.
 - 8- عمل فهرس تفصيلية لأبواب الكتاب.
- وأخيرًا فهذا هو جهد المقل، والمرجو ممن يطلع على كتابنا فيجد فيه عيبًا أن يبادرنا بالنصيحة، والتصويب، فكلُّ معرض للخطأ، ولا كمال إلا لله سبحانه وتعالى.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.
- المحقق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قبل أن تقرأ

هذه ألوان من الأدب والتاريخ والسياسة والنقد والتراجم والذكريات والقصص كتبها في أحوال مختلفة وأزمان متقاربة بعد احتجاب (الرسالة)، وجريت فيها على منهاج ما كتبت من قبل في طبيعة التفكير وطريقة التعبير ونبالة الغرض؛ ولذلك سميتها (في ضوء الرسالة).

وضوء الرسالة الإنسانية التي احتجبت قبس من ضوء الرسالة الإلهية التي لن تحتجب، فهو لا يفنى بفناء المصباح كما لا تفنى الروح بفناء الجسد، إنه لا يزال ملء عيني وملء قلبي، فأنا أبصر كل ذات بنوره، وأستشعر كل معنى بشعوره، وأرسل أشعته على ظلمات ماضي البعيد فتتجلى فيها عواطف صباي ومواقف كهولتي كما تتجلى للعين والنفس أحداث الأمل وأعمال اليوم، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

إن المعنى إذا اتضح في الذهن اتضح في اللفظ، ولا يكون الغموض أو التعقيد إلا حيث تنبهم الفكرة وتختلط الصورة، والانبهام والاختلاط لا يصيبان الكاتب أو الشاعر إلا إذا فقد الضوء وضل الطريق، وما المذاهب الأدبية المنحرفة إلا ضلال الطريق أو خبال العقل، فالرمزية والسريالية واللامعقولية بدع من الخطل الفكري أو التعقد النفسي ابتدعها الغرور أو الشذوذ أو المرض، فالأديب السوي الذي يدرك بالفطرة ويعلم بالضرورة أن وظيفة اللغة أن تنقل ما في ذهنه إلى أذهان الناس عن طريق أقرب وأوضح وأسهل، لا يسوغ في منطقته أن يضرب على أسلوبه هذا الضباب الذي يخفي المعنى ويبعد الغرض ويتعب القارئ؛ إلا إذا أراد رياضة الذهن وامتحان الذكاء بالأحاجي والألغاز، وتلك لها أحوال تقتضيها ليس منها على كل حال تأليف القصة ولا وضع المسرحية ولا نظم القصيدة.

إن الكاتب الذي يترك المستقيم إلى المجال، والواضح إلى المبهم، والمعقول إلى اللامعقول، كاتب شارد وقف وحده على نتوء من الصخر في حاشية الطريق وصاح بالسابلة: ها أنذا ؛ لا أفكر كما تفكرون ولا أعبر كما تعبرون، لأن التفرد في أن نمتاز، والتجدد في أن نبتكر، ولا يعنيه بعد ذلك أن يفكر بعقل أو بغير عقل، وأن يعبر بلفظ أو بغير لفظ، ما دام قد تميز في الكتاب تميز البقعة السوداء في النسيج الأبيض.

إن مثل هذا الكاتب الذي تقعر في صناعة البيان حتى أغرب، مثل الفقيه الذي تنطع في صناعة الفقه حتى أضحك؛ فقد ورد في بعض الكتب: أن فقيهاً تجاوز في الفرض حد المعقول فافترض أن إماماً من أئمة المساجد تولد من إنسان ونعجة، ثم صلى بالناس صلاة عيد النحر، وبحث وأطال البحث هل يجوز أن يُضحى به بعد الصلاة أو لا يجوز؟ وأن رجلاً من المصلين صلى وعلى ظهره قرية مملوءة بغاز البطن، وبحث وعمق البحث هل تصح صلاته أو لا تصح؟!.

هذا الفقيه وذلك الأديب يعبثان بالفكر عبث الممسوس، فلا يمكن أن يكون لأحدهما رأي يتبع في الفقه، ولا للآخر مذهب يناقش في الأدب.

* * * * *

كنت أريد أن أناقش في هذه المقدمة بعض القضايا الأدبية التي كثر عليها الكلام وطال فيها الجدل، ولكنني ذكرت حديثاً جرى بيني وبين أديب إذاعي سألني فيه أسئلة، وأجبتة عنها أجوبة تناولت بعض هذه المسائل، فأنا أثبتة هنا نقلاً عن تسجيله.

قال محدثي:

(س): في حياة كل كاتب أدب عالمي تأثر به في إنتاجه الأدبي، وأدباء معينون تأثر بهم في أدبه وحياته معاً .. فما الأدب الذي تأثرت به؟ ومن هم الأدباء الذين أعجبت بهم وآمنت بطريقتهم في الأدب والحياة؟

(ج): الأدب العالمي الذي تأثرت به بعد الأدب العربي هو الأدب الفرنسي، وذلك لأسباب أهمها أن اللغة الفرنسية هي لغتي الثانية، فمن الطبيعي أن أقرأ بها وأن أبدأ بأدبها، والأدب الفرنسي كالأدب العربي يعتمد على بلاغة الأسلوب في الصورة

والفكرة، وعلى براعة الذهن في الخلق والتصوير، وهو أقرب الآداب الأوربية إلى أذواقنا المرفهة وعواطفنا المشبوبة، ولعل للطباع المشتركة بين أمم البحر الأبيض دخلاً في ذلك.

أما الأدباء الذين أعجبت بهم فأكثرهم من أدباء القرن التاسع عشر كهوجو ولامرتين وشاتو بريان وفلوبير ودوديه، وهم يمثلون الأدب الفرنسي في أوج ازدهاره، وقد تأثرت بهم في تخليص أسلوبهم من الفضول والحشو والسطحية والميوعة ووصف الأشياء بالتقريب لا بالتحديد، والتعمق في درس الموضوع والإحاطة بجملته وتفصيله وبيئته وجوه.

(س): قمتم خلال حياتكم الأدبية المديدة بعدد من الأعمال المجيدة في شتى حقول الأدب، لعل أبرزها هذه الترجمات التي كانت بمثابة نافذة واسعة نطل منها على ثقافة الغرب، ولكن الملاحظ أن اختياركم في الترجمة كان ذا طابع رومانتيكي بحت، تمثل في آلام فرتر ورفائيل، فما سر التفاتكم إلى هذا اللون بالذات؟ ولو عدتم إلى الترجمة مرة أخرى، فهل تعتقدون أن هذا اللون سيكون أقرب إليكم دون غيره من الاتجاهات الجديدة المعاصرة؟

(ج): كان الأسلوب الابتداعي أو الرومانسي⁽¹⁾ هو الأسلوب الغالب على الشاعر والأذواق في الشرق العربي أوائل هذا القرن، لأنه الأسلوب الذي يجمع بين الفكر

(1) قلت: اشتق مصطلح الرومانسية من كلمة رومان ، وكانت تعني في العصور الوسطى حكاية المغامرات شعرا ونثرا وقد دخلت هذه الكلمة إلى اللغة الإنجليزية بهذه الدلالة ثم أصبحت مصطلح يدل على مجموعة هذه الصفات ثم أصبحت تتصف بها بعض الأعمال الأدبية كالعاطفة الشديدة والغربة ثم أصبحت اسما لهذا المذهب الأدبي الذي يضم هذه الصفات وصفات أخرى .

خلال سيطرة الكلاسيكية على الأدب ونتيجة لتشددها في تطبيق قواعدها المقررة ظهرت في أنحاء متفرقة من أوروبا دعوات إلى التحرر منها والتفlect من قيودها العقلية الصارمة مثل الدعوة إلى العقلية المتشددة وظهرت أعمال أدبية لا تنضبط بقواعدها وفي أواخر القرن الثاني عشر الميلادي كثرت الانتقادات الموجهة إليها وتهيأت عوامل أخرى تشجع الاتجاه المناقض لها وأهمها عاملان:

والعاطفة والخيال في صورة جميلة من الفن، ولأن حياتنا الاجتماعية كانت لا تزال بسيطة لم تتعد بعد، فلا تحتاج من الكاتب التحليل والتعليل والكشف، ثم كنا وكان الناس يومئذ انفعاليين تتأثر بسبحات الخيال أكثر مما تتأثر بصدمات الواقع، ونطرب للصور البيانية التي تهز القلب والوجدان أكثر مما نطرب للصور الواقعية التي تحرك العقل والذهن.

ذلك إلى أنني كنت حين ترجمت آلام فرتز ورفائيل أعاني التجربة التي عاناها جيته ولامرتين، وهذا النوع من القصص الذي يتحدث فيه كاتب عبقرى عن نفسه وعن حبه وعن ماضيه أحب أنواع القصص إلى نفسي، ولو عادت إليّ الدوافع التي دفعتني إلى ترجمة آلام فرتز ورفائيل لترجمت بقية السلسلة التي أعجبتني من هذا النوع وهي هيلويز الجديدة، ورينيه، وأتالا، وأدولف، ودومينييك، وماريون دلورم، ومانون ليسكو، وجرازيلا، وجان دي جريف، وما زلت أعتقد أن القصص الابتداعي هو أبلغ القصص في تربية الذوق وتهذيب الغريزة وتقوية الروح وتنمية العاطفة، وهي المقومات الجوهرية لشخصية الإنسان المتمدن.

=

- 1- ظهور تيار فلسفي يدعو إلى الانطلاق بالفكر والتحلل من جميع الضوابط والمفاهيم كالتقارير الاجتماعية والقواعد الدينية مع نقد الأسس الفلسفية والاجتماعية التي تقوم عليها الكلاسيكية ويقوم على هذا التيار فلاسفة منتشرون في أوروبا وأهمهما جان جاك روسو وهيغل و شاميتور و داليان.
- 2- اضطراب الظروف الاجتماعية والسياسية وما خلفه هذا الاضطراب من أثر فما شهدته أوروبا في هذا القرن أي الثاني عشر من أحداث كثيرة أهمها الثورة الفرنسية والحروب الطاحنة بين الدول الأوروبية والصراع على المستعمرات وحروب نابليون بونا برت ونتيجة عن هذه الحروب من اضطرابات فكرية زادت من حدتها موجات الإلحاد المتزايدة وقد ترك ذلك في نفوس الأوروبيين قلقا شديدا وشعورا بالمرارة وخيبة الأمل وانتشر بينهم ما يسمى اصطلاحا مرض العصر وهو إحساس حاد بالكآبة وضيق شديد من الواقع المعاش وبحث عن مخرج منه ، وقد تفاوتت آثارها في هذه الشعوب واختلفت كذلك في أدبهم وظهرت رومانسيات مختلفة ولكنها تجتمع على عدد من الخصائص المشتركة تجعل من الممكن أن ننظر إلى رومانسية غربية موحدة.

(س): هناك إجماع من النقاد والقراء معًا على أنك رائد لمدرسة فن الأسلوب، ولقد ترك هذا الأسلوب آثارًا بعيدة الغور في نفوس كل من عاصروه، فهل نسمع منك الآن تفسيرًا لاهتمامكم بالأسلوب إلى هذا الحد؟ وهل تعتقدون أن الأسلوب يمثل مشكلة فنية خاصة بالنسبة لأدبنا؟

(ج): الأسلوب كما عرفته في كتابي " دفاع عن البلاغة " هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام. وهو مظهر لتلك الهندسة الروحية لملكة البلاغة النفسية، يبرزها للحس ويصل بينها وبين الذهن وينقل أثرها المضمّر إلى الأغراض المختلفة والغايات البعيدة.

والبلاغة التي أعنيها هي البلاغة التي لا تفصل بين العقل والذوق، ولا بين الفكرة والكلمة، ولا بين المضمون والشكل؛ لأن الكلام كائن حي، روحه المعنى وجسمه اللفظ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفسًا لا يتمثل والجسم جمادًا لا يحس.

وأنا حين قلت: إن الأسلوب هو الطريقة الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام، كنت أريد اختبار الألفاظ على النحو الذي يرتضيه الذوق وتأليف الكلام على الوضع الذي يقتضيه العقل. فالأسلوب خلق مستمر: خلق الألفاظ بواسطة المعاني، وخلق المعاني بواسطة الألفاظ، فليس هو المعنى وحده، ولا اللفظ وحده، وإنما هو مركب من عناصر مختلفة يستمدّها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه. وتلك العناصر هي الأفكار والصور والعواطف ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة. هذا هو تعريف الأسلوب كما أراه وأتبعه وأدعو إليه.

أما خصائص هذا الأسلوب فقد شرحتها بالتفصيل في كتابي " دفاع عن البلاغة " ومجملها أن يجتمع للأسلوب صفات ثلاث:

الأصالة: وهي ألا يكتب الكاتب كما يكتب غيره، وإنما يكون أصيلاً في نظريته وفكرته وصورته وكلمته ولهجته، فلا يستعمل لفظاً عاماً ولا تعبيراً محفوظاً ولا استعارة مشاعة.

والأصالة تقوم على ركنين أساسيين: الكلمة الخاصة والعبارة الجديدة، فخصوصية اللفظ دلالة التامة على المعنى المراد، ووقوعه الموقع المناسب، بذلك يضمن الكاتب

الدقة في التعبير والوضوح في المعنى والصدق في الدلالة. وجدة العبارة أساسها الابتكار في حكاية الخبر وتصوير الفكرة وتقويم الموضوع.

والصفة الثانية الإيجاز: وهو الاعتماد على التركيز والاقتصار على الجوهر والتعبير بالكلمة الجامعة والاكتفاء باللمحة الدالة، وليس من الإيجاز أن يقص الكاتب أجنحة الخيال ويطفئ ألوان الحس ويترك أسلوبه كأسلوب التلغراف شديد الاقتضاب والجفاف.

أما الصفة الثالثة التي يجب أن تتوفر في الأسلوب البليغ فهي التلاؤم أو الموسيقية أو الهرمونية: وتكون في الكلام بآثلاف الحروف وتوافق الأصوات وحلاوة الجرس، وفي الكلام بتناسق النظم وتناسب الفقر وحسن الإيقاع، وسبيل ذلك المزاجية بين الكلمات والجمال كقول الله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ۚ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۚ﴾ [الصفات 117 - 118]. فأتيناها مثل وهديناها، والكتاب مثل الصراط، والمستبين مثل المستقيم.

ولا بأس أن ينثر في خلال السياق قليل من السجع المطبوع في المواقف الشاعرية العاطفية. وهذا الأسلوب لا يجري على مذهب معين من المذاهب المعروفة في الأدبين العربي والأوربي، فهو يأخذ من الاتباعية أو الكلاسيكية⁽¹⁾ التقيد بالقواعد المقررة

(1) قلت: الكلاسيكية مذهب أدبي، ويطلق عليه أيضاً "المذهب الاتباعي" أو المدرسي.. وقد كان يقصد به في القرن الثاني الميلادي الكتابة الأرستقراطية الرفيعة الموجهة للصفوة المثقفة الموسرة من المجتمع الأوروبي.

أما في عصر النهضة الأوروبية، وكذلك في العصر الحديث: فيقصد به كل أدب يبلور المثل الإنسانية المتمثلة في الخير والحق والجمال "وهي المثل التي لا تتغير باختلاف المكان والزمان والطبقة الاجتماعية" وهذا المذهب له من الخصائص الجيدة ما يمكنه من البقاء وإثارة اهتمام الأجيال المتعاقبة. ومن خصائصه كذلك عنايته الكبرى بالأسلوب والحرص على فصاحة اللغة وأناقة العبارة ومخاطبة جمهور مثقف غالباً والتعبير عن العواطف الإنسانية العامة وربط الأدب بالمبادئ الأخلاقية وتوظيفه لخدمة الغايات التعليمية واحترام التقاليد الاجتماعية السائدة.

والتشدد في استعمال اللغة الصحيحة، ومن الابتداعية أو الرومانسية الانطلاق مع الطبع والتحرر من التقيد، ومن الواقعية توخي الصدق في التعبير والاعتماد في الوصف على الواقع.

(س): الملاحظ أن الشبان الذين لهم محاولات أدبية يتأثرون بالآداب الأجنبية وعلى الأخص - الأدبين الفرنسي والأميركي الحديثين - في مجالات القصة والرواية والمسرحية أكثر من تأثرهم بالتراث العربي.

فما رأيكم في هذه الظاهرة؟ وهل تعتقدون أنها تخدم الحركة الأدبية الجديدة؟

(ج): لأدبائنا الشباب والشيوخ العذر الواضح في تأثرهم بالآداب الأجنبية في مجالات الأقصوصة والقصة والمسرحية، لأن أدبنا العربي الفصيح لم يعن بهذه الأنواع حتى يضع لها القواعد ويورد لها النماذج، وإنما عنى بالأخبار والأمثال والمقامات والمقالات والرسائل دون أن يدخلها في أبواب البلاغة، وترك للأدباء الشعبيين القصص طواله وقصره.

=

ويقوم المذهب الكلاسيكي الحديث، الذي أنشأته المدرسة الفرنسية مؤسسة المذهب على الأفكار والمبادئ التالية:

تقليد الأدب اليوناني والروماني في تطبيق القواعد الأدبية والنقدية وخاصة القواعد الأرسطية في الكتابين الشهيرين: فن الشعر وفن الخطابة لأرسطو.

- العقل هو الأساس والمعيار لفلسفة الجمال في الأدب، وهو الذي يحدد الرسالة الاجتماعية للأديب والشاعر، وهو الذي يوحد بين المتعة والمنفعة.

- الأدب للصفوة المثقفة الموسرة وليس لسواد الشعب، لأن أهل هذه الصفوة هم أعرف بالفن والجمال، فالجمال الشعري خاصة لا تراه كل العيون.

- الاهتمام بالشكل وبالأسلوب وما يتبعه من فصاحة وجمال وتعبير.

- تكمن قيمة العمل الأدبي في تحليله للنفس البشرية والكشف عن أسرارها بأسلوب بارع ودقيق وموضوعي، بصرف النظر عما في هذه النفس من خير أو شر.

- غاية الأدب هو الفائدة الخلقية من خلال المتعة الفنية، وهذا يتطلب التعلم والصناعة، ويعتمد عليها أكثر مما يعتمد على الإلهام والموهبة.

والقصص الشعبي الموروث كألّف ليلة وليلة، وعنترة، وسيف بن ذي يزن، يختلف كل الاختلاف عن القصص بمعناه الحديث في بنائه وأسلوبه ومراميه. فاتجاه الأدباء إلى الأدب الأوروبي والأميركي لاقتباس قواعده واحتذاء أساليبه اتجاه طبيعي سليم، عاد على الأدب العربي الحديث بفوائد عظيمة أكملت من نقصه وزادت في ثروته.

(س): باعتبارك مؤلف كتاب " دفاع عن البلاغة " ما رأيكم في الاتجاهات النقدية الحديثة في دراسة الأدب العربي وتقويمه؟

(ج): الواقع أن في أدبنا المعاصر نهضة ملحوظة في النقد تتناول الكتاب والقصيدة والقصة والمسرحية، وتتجلى في الأندية والإذاعة والصحافة. وهذا النقد في الغالب يصدر عن اطلاع واسع وذوق سليم وتقدير عادل؛ ولكنه في جملته لم ينبثق من طبيعة الأدب العربي ولا من بيئته، وإنما ينبثق من طبيعة الأدب الأوروبي وقواعده ومذاهبه، لأن أكثر النقاد درسوا هذا الأدب وتعمقوه وتأثروا به، ولم تنهياً لهم الفرص ولا الوسائل لدراسة أدبهم دراسة منتجة لسوء تعليمه وقبح عرضه، فاضطروا إلى أن يقيسوا الأدب العربي بمقاييس الأدب الغربي، وأن يخضعوه لمذاهب غريبة عنه كالرمزية والوجودية والواقعية المتطرفة، ولو اقتصر الأمر على الأنواع المقتبسة كالقصص والتمثيل لما كان في ذلك بأس، وإنما البأس كله في أن يطبقونها على سائر الأساليب ولاسيما المقالة والقصيدة. وهم لإيثارهم العامة على الفصحى، لا يدخلون في حسابهم مخالفة المنقود لقواعد اللغة وقوانين البلاغة. ولو اتجه هؤلاء النقاد بعقليتهم المتحررة وثقافتهم المتجددة إلى دراسة أدبنا تحت الضوء الصادر عنهما لأوجدوا فيه فناً مستقلاً من النقد المبني على العلم والخبرة والأصالة، يتمم ما بدأ به عبد القاهر وأبو هلال وابن الأثير، وغيرهم من مؤسسي فن النقد عند العرب.

(س): المتتبع لحركتنا الأدبية المعاصرة يعلم أي خسارة أصابت هذه الحركة باحتجاب " الرواية " أولاً. و " الرسالة " ثانياً. ويعلم أيضاً أن الفراغ الذي خلفه احتجاب الشقيقتين لم يملأ بعد.

فهل تسمحون بإلقاء الضوء على طبيعة الظروف التي صاحبت اختفاء الشقيقتين... وهل تعتقدون أن هذه الظروف ما تزال تقيم عقبة أمام أية محاولة في سبيل إيجاد مجلة أدبية يتاح لها التفوق والانتشار اللذان كانا " للرسالة "؟

(ج): كانت " الرسالة " بحكم ثقافة القائمين بها والمحررين فيها مجلة عربية إسلامية شرقية، تعتمد على الأدب العربي قديمه وحديثه في كل زمن وفي كل بلد، وتؤثر الأسلوب الرفيع واللغة الفصحى والأغراض النبيلة، وكان ظهورها على فترة من المجلات الأدبية الجديرة بهذا الوصف، فوجد فيها الكتاب العرب مجالاً للتعارف والبحث والظهور، وميداناً للجهاد في سبيل وحدة مشتتة ووطن مسلوب وحرية مفقودة. والأمة العربية مفطورة على حب تقاليدها في اللغة والأدب والعقيدة والخلق، فلم تكد مجلة ترعى هذه التقاليد وتجري عليها حتى شعرت بأنها وجدت شيئاً كانت تفتقده وتنتظره. وكان الذوق العربي لا يزال سليماً بفضل ما كان يغذيه من جهود خريجي الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي والجامعة المصرية في عهدها الأول، والصحافة التي كانت تقوم على المقالة، والسياسة التي كانت تعتمد على الخطابة، فلما ساء تعليم اللغة وطغى سلطان العامية فزاحمت الفصحى في كتابة القصص والمسرحيات والأفلام والإذاعة والأغاني، وتساهل النقاد في قبول الأسلوب العامي أو الركيك اكتفاء بوضوح الدلالة، وتبلد الحس البلاغي في الناس حتى أصبحوا يستسيغون التافه، ويستحسنون القبيح، وينفرون من الكتاب الدسم والمجلة المفيدة، فراجت الكتب الخفيفة وانتشرت المجلات المسلية، وماتت مجلات " المقتطف والكاتب المصري والكتاب والثقافة والرسالة والرواية والرسالة الجديدة ". وما دامت هذه الظروف التي ذكرت بعضها قائمة، فلن يرجى لأمثال هذه المجلات عودة ولا بقاء، اللهم إلا بمعونة من القائمين على شئون الثقافة تضمن لها أداء رسالتها مستقلة عن ميل الجمهور أو نفوره.

(س): لابد أنكم تتابعون الحركة الشعرية الجديدة في عالمنا العربي، والتي يؤمن أصحابها بمفهوم ومصطلح جديد للشعر. فما رأيكم في هذه الحركة؟

(ج): الشعر في كل أمة مصدره الغناء، وكما أن الغناء لحن وإيقاع، فإن الشعر وزن وقافية، على هذا قام عمود الشعر، وعلى هذا تربت الأذواق وتعودت الأذان، فإذا جردنا شعرنا من موسيقاه التقليدية، تركناه نوعاً عجيباً من الكلام لا هو نظم ولا هو شعر، وهذا النوع الذي ارتضاه بعض الشعراء ليس من مبتكرات اليوم وإنما هو تقليد لنوع من الشعر ظهر في أوروبا أواسط القرن السادس عشر، متحرراً من قيود القافية وهو الشعر الأبيض، أو متخففاً من أثقال العروض والتفاعيل وهو الشعر الحر.

ومحاولة إقحام هذين النوعين على العروض العربي تزييف على الطبع وتحامل على الذوق، وما كان مخالفاً للطبع أو مجافياً للذوق لا يمكن أن ينجح، وإن نجح بحكم الولوع بالجديد فلا يمكن أن يدوم، ولا أدري علة لهذا الانحراف، فإن كانت العلة هي جماله فلا جمال لكلام لا موسيقية فيه، وإن كانت العلة هي التيسير على الشاعر فإني أفهم أن تيسر الكتابة ويسهل النحو، ولكني لا أفهم لماذا ييسر الشعر، أليكون الناس كلهم شعراء؟ لا يا سيدي. المسألة في الفن استعداد واجتهاد وقريحة.⁽¹⁾

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعْهُ وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

(س): ثمة ازدواج لغوي حاد في لغتنا الأدبية، وطرائق شتى في التعبير، فهناك من ينادي بأن تبقى الفصحى لغة الأدب سرّداً وحواراً، وهناك من يرى أن تكون العامية لغته سرّداً وحواراً، وهناك من يقصر العامية على الحوار فقط، وهناك من يحاول تطويع العامية ورفعها إلى مستوى الفصحى في الحوار الأدبي. فهل نستمع إلى رأيك في هذا الموضوع؟

(ج): الازدواج اللغوي أمر طبيعي تقتضيه سنة التطور في كل لغة، وقد يتسع الفرق بين لغة الحديث ولغة الكتابة حتى تصبحا لغتين مستقلتين لا يتفاهم أصحابهما إلا بصعوبة كما هو الحال بين الفرنسية والأسبانية والبرتغالية بالنسبة للاتينية، أو العربية والعبرية والفينيقية والأشورية بالنسبة للسامية، وقد كان هذا ممكن الحصول في اللغة

(1) قلت: البيت من الوافر، وهو لعمر بن معديكرب في ديوانه ص 145؛ وتاج العروس 21/ 159

(زمع)، 466 (طوع)، 22/ 303 (ودع)؛ والأصمعيات ص 175.

العربية لولا أنها جزء من حقيقة الإسلام، فهي لسان الوحي ولغة القرآن ورباط القومية العربية، ولولا المحافظة عليها لما كان للعرب اليوم كيان يتعارف أو يتحد أو يتوحد، ومن المحافظة عليها تطويرها مع الزمن وتطويرها لقبول الألفاظ المستحدثة والتعبير عن المعاني الجديدة، وتقريبها من العامة لتضييق ما بينهما من الفروق بتوخي الأساليب السهلة واستعمال الألفاظ الشائعة والمولدة مع المحافظة على الإعراب، وهذا ما يضطلع به الآن مجمع اللغة العربية.

أما لغة القصة والتمثيل فيجب أن تكون الفصحى، لأن الكاتب الذي يطمع في الخلود لا يقصر كتابته على قطر واحد وزمن معين، ولا بأس أن يكون بعض الحوار باللغة العامية إذا اقتضت ذلك طبيعة المتكلم وبيئته.

(س): يحرص كل كاتب، يشعر أنه أدى قسطاً كبيراً من رسالته، على تسجيل حكاية حياته الحافلة في قصة أو مذكرات أو ترجمة ذاتية، وحتى الآن لم تقرأ لك ترجمتك الذاتية في كتاب، ولعلك قد كتبت هذه الترجمة كما يقول بعض الأدباء. فهل يمكن أن تذكر لنا الخطوط العريضة لحياتك.. خاصة الجانب الأدبي منها؟

(ج): من أحب الأعمال إلى الكاتب إذا تقدمت به السن واقترب من ساحل الحياة أن يجتر ما مضى من حوادث عمره وتجارب قلبه بكتابة مذكراته أو ترجمة حياته، فإن الشيخ كما ستعلم بعد يعيش بالذكرى كما يعيش الشاب بالأمل. وقد حاولت فعلاً أن أكتب من ذلك في كتاب سميت "ذكرى عهود"، أما حياتي الأدبية فقد قضيت فيها زهاء خمسين سنة في التعليم والتأليف والكتابة والترجمة والصحافة والإذاعة، ولكنني أذكر منها ثلاث مراحل تميزت بأثر مستقل مباشرة:

المرحلة الأولى: كانت في ثورة 1919 وكنت يومئذ مدرساً للصفوف العليا من المدرسة الإعدادية الثانوية بميدان الظاهر، وكانت تضم أكثر من ألف طالب من الشبان الناضجين المتحمسين، فألفوا منهم ومن طلاب مدرسة الحقوق الخديوية لجنة تنفيذية تثير الشعب على الانكليز بتدبير المظاهرات وتوزيع المنشورات وإلقاء الخطب، وكان عملي فيها كتابة هذه المنشورات والخطب بأسلوب ثوري ملتهب لتوزع سرّاً في المدن

والأقاليم، فكانت تتداول وتحفظ، وتحدث من الأثر في ثورة 1919 ما أحدثته الأغاني والأناشيد في حرب بورسعيد.

والمرحلة الثانية: كانت في سنة 1929، حين انتدبتني حكومة العراق أستاذًا للأدب العربي في دار المعلمين العليا ببغداد، فاستطعت بتوفيق من الله أن أخرج طبقة من المعلمين والأدباء كانوا ألسنة صدق لمصر ورواد خير للوحدة، ثم كان لما ألقيت من المحاضرات وكتبت من المقالات أثر في توثيق العلاقات الفنية بين أدبنا وأدب العراق، ولا يزال الساسة والقادة والأدباء يذكرون هذه المرحلة بالخير.

أما المرحلة الثالثة: فكانت في سنة 1933 حين أصدرت " الرسالة ". فقد استطاعت هذه المجلة في مدى عشرين سنة أن تنشئ جيلاً من الكتاب والشعراء لهم أثرهم القوي، وأن تنشئ مدرسة في الأدب لها طابعها الخاص، وأن تعرف أدباء العرب بعضهم لبعض على انقطاع الأسباب وتباعد الديار، وأن تجمع القلوب والشعوب على فكرة واحدة وغاية معلومة، وأن تكون سفيراً روحياً لمصر في جميع البلاد العربية والإسلامية، حتى قال الأستاذ مصطفى أمين في " أخبار اليوم " بعد جولة طويلة في بلاد الشرق: لو أغلقت الحكومة المصرية عشر سفارات وأبقت مجلة الرسالة لكان خيراً لها وللعرب. وقال الزعيم عبد السلام عارف للأستاذ موسى صبري: " إننا لم نتلق دروس الوحدة والقومية والأدب إلا عن مجلة الرسالة ".

وهذا فضل يذكر لكل من عاون أو شارك في تحرير هذه المجلة.

(س): هناك كثير من الأدباء يتخذون من الجنس موضوعاً لأدبهم .. وقد يكون هذا الاختيار هو الطابع العام لإنتاجهم أو صورة مميزة لبعض هذا الإنتاج ..

وهذه القضية تثير موضوع " الأدب والأخلاق " .. فما رأيكم في نتائج هذه المحاولات بالنسبة للأدب العالمي عامة .. وبالنسبة لأدبنا العربي خاصة ..؟

(ج): يا سيدي .. إن معركة الحياة من مبدئها إلى منتهاها إنما تدور على شيئين: المرأة والرغيف .. المرأة لبقاء النوع، والرغيف لحفظ الذات. وإذا كان الكلام في الرغيف وما يتصل به من وسائل ومشاكل من شأن العلم، فإن الكلام في الجنس وما يتصل به من عواطف وغرائز من شأن الأدب.

فدوران القصة والرواية والشعر على الأمور الجنسية أمر طبيعي لا حيلة فيه ولا مفر منه. درج الناس على هذا في القديم والحديث وفي الشرق والغرب، ولكن الأدب الحق هو الذي يهذب الغرائز ولا يثيرها، ويرتفع بالعواطف ولا ينزل بها، وذلك هو عمل الأديب الذي اصطفاه الله لرسالة الحق والخير والجمال، والأدب الملفوف أقوى وأبلغ وأصعب من الأدب المكشوف، وكلاهما أدب من الوجهة الفنية له في ميزان النقد وزنه وقيمته.

(س): منذ احتجبت " الرسالة " لم يعد القراء يجدون لكم كتبًا جديدة في المكتبات .. فهل يعني ذلك أنكم آثرتم البعد عن عالم الأدب في الآونة الأخيرة؟

(ج): الواقع أنني بعد أن قضيت عشرين سنة في تحرير " الرسالة " أعمل بلا انقطاع ولا راحة، أدركني بعد احتجاجها ما يدرك المسافر من التعب بعد سفر شاق طويل. ثم اتخذ هذا التعب شكل المرض في الأعصاب والنفس، فأخلدت قليلاً إلى الراحة، ثم عُدت إلى الكتابة في مجلة الأزهر وبعض الصحف زيادة على عملي في المجمع اللغوي، وأخذت أهمل الأسباب لظهور كتابين أرجو أن يساعدني الله على إخراجهما وهما " ذكرى عهد " و " عبقرية الإسلام " وسيكون هذان الكتابات كما أرجو خير ختام لحياتي الأدبية.

أول ما عرفتُ الأدبَ ...

كان ذلك وأنا في الحادية عشرة من عمري حين حفظت القرآن وأحسنّت القراءة وجودت الخط استعدادًا للانتساب إلى الأزهر. والأزهر يومئذ هو المعهد العلمي الذي كان الريفيون لا يعرفون غيره، ولكنني حتى ذلك الحين لم أنتفع بما أحسنت من القراءة والكتابة، وإنما كان ينتفع بهما (سيدنا الشيخ حسن⁽¹⁾) معلم الكتاب الضرير، فقد كان يكلفني بعد انصراف الصبيان أن أكتب له التائم للممسوسين والمرضى من أهل القرية، وأن أحفظه قصيدة البردة ليتزعم بها المنشدين أمام الجنائز.

لم يكن في دارنا غير كتابين كان أبي يقتنيهما للبركة: كتاب الله وأنا أحفظه عن ظهر قلب، وكتاب آخر كانوا يقولون إنه البخاري ولا يسمحون لي بالاطلاع عليه. فلما استقر رأي الأسرة على أن يزوجوا أخي الأكبر امتلاءً دولاب المنطرة بالكتب في يوم وليلة. وسبب ذلك أن تقاليد الريفيين في تلك الأيام كانت تقضي عليهم أن يبدأوا العرس قبل ليلة الزفاف بثلاثة أسابيع على الأقل. ولم يكن أهمّ ما يشغلهم في هذه المدة "شوار" العروس أو ثياب العريس فقد كانا لصالّة شأنهما أهون الأمور، إنما كان شغلهم الشاغل فيها طحن الأردب من القمح التي أرصدها لوليمة الفرح. وكانوا يطحنونها قبل أن تخترع المطاحن الآلية في الطاحونة التي تديرها الدواب، وهي تساقط القمح من القادوس حبتين حبتين، فلا تطحن الكيلة إلا في ساعتين؛ لذلك كانت مدة الطحن تطول وتمل فاقترضت الحال أن يُقصرُوا طولها باللعب ويدفعوا مللها باللهو، فكان أهل القرية يجتمعون في دار العريس كل يوم آخر النهار وأول الليل، فيلعب الفتيان (الصينية والخاتم)⁽²⁾ وتغني الفتيات على الطبلّة والأرغول، ويجلس الكهول والشيخوخ في الساحة حول الشيخ منصور فينشدهم بصوته النّدي الأَجش أشعار بني هلال أو أخبار عنتره.

(1) اقرأ (سيدنا الشيخ) في المجلد الثالث من وحي الرسالة

(2) انظر شرح هذه اللعبة في صفحة 48 .

اشترى أبي الليالي الطاحون الساهرة قصة سيف بن ذي يزن، وسيرة عنتر ابن شداد، وألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وانعقد السامر لسماع المختار منها حول القارئ الممثل قرابة شهر، وكنت في الصبيان القلال الذين فضلوا سماع القصص والشعر على سماع الغناء والموسيقى. وكان مجلسي بجانب الفانوس الذي يقرأ الشيخ منصور على صوته، فكنت أرى كيف يصور العواطف على قسماط وجهه، ويمثل المواقف بنبرات صوته، فأهتز لحماسة الأداء، وأطرب لطلاوة العبارة، وألتذ من جاذبية القصة، فإذا انفض السامر بقيت الصور والأشخاص والمواقع ماثلة في ذهني مثل الحلم الجميل بعد اليقظة، تتسع وتنمو وتتلون فتتحرك في نفسي رغبة الاستزادة وشهوة المحاكاة. وأخذ هذا الأثر يقوى ويزداد ليلة بعد ليلة وقصة بعد قصة، حتى مضت أيام الطاحون ولياليها، وانقضت ملذات العرس ومباهجه، فعادت الكتب إلى الدولاب، وانقلب كل امرئ إلى شأنه، إلا أنا فقد عدت إلى سيف بن ذي يزن، أقرأ ما بقي من أجزاءه، وأعيد ما أعجبني من وقائعه.

وكان في حارتنا رجل من الصالحين تنفس به العمر حتى لفع الشيب رأسه ولحيته. وكان الشيخ عطا هذا قد كف بصره على الكبر بعد أن غامر في خضم الحياة بالمجداف والقلع، فجدد في قوة السودان، وشخر في حفر القناة، وعمل في (جفلك) على شريف، حتى قيده الشيوخوخة عن السعي، وكفاه ابنه الوحيد وابنتاه تكاليف العيش فانقطع إلى الله.

كان أزهر اللون كالترك، سبط الجسم كالعملاق، سليم الصدر كالطفل، وكان أمياً على الفطرة، ولكنه كان مجبولاً على نوع من الذكاء الهادئ والمنطق الرزين، فتعلم بالتجربة، وتأدب بالسماع، واستفاد من كثرة النقل ومن طول الأجل فحصل جملة مما سار على الأفواه من الأمثال والأزجال والأقاصيص، فإذا حكاهما نسب كل مثل إلى لقمان، وكل زجل إلى ابن عروس، وكل نادرة إلى حجا. وكان أنس الحارة من الوحشة وأمنها من المخافة حين يخرج أهلها مبكرين إلى الحقول ويبقى هو في مجلسه المهيب أنيس الطلعة بين ملعب الأطفال ومقعد النسوة. كانت زوجه العجوز ورد الشام تفرش له الحصيرة أمام الدار في ظل الجدار وتضع على رأسها المخدة الغليظة ومن

ورائها القلة الحمراء، ثم يأتي هو بعد صلاة الضحى أو بعد صلاة العصر من المسجد يدب على عصاه حتى يبلغ مجلسه المعهود فيخلع بلغته على طرف الحصيرة، ويلقي عكازته بجانب الحائط، ثم يجلس في سكون وصمت، فلا يتحرك إلا ليترد ذبابة، ولا يتكلم إلا ليرد تحية.

وكان كلما جلس هذه الجلسة حدثت حركتان متضادتان في وقت واحد: يتعد الأطفال حتى آخر الحارة ليأمنوا شر زوجته، ويقرب كلبه الأبقع الضخم حتى يربض بجانب بلغته.

سمع صوتي ذات يوم فدعاني. فلما أقبلت عليه قال: إنك ختمت القرآن، ولا بد أنك فككت الخط، فهات قصة عنتر وتعال.

وصادف هذا الطلب هوى في نفسي فذهبت إلى الدولاب، ورجعت إليه الجزء الأول من هذا الكتاب، وقعدت بإزائه وجعلت أقرأ.

كنت أتعثر في أول الأمر فأتوقف ولا أنطلق، ويتخلف ذهني عن لساني فأقرأ ولا أفهم. وكانت الجملة تستغرق على فهمي وفهمه فيستعيدها حتى تفتتح على صواب أو خطأ. وكان قد سمع القصة مرة أو مرتين في عمره الذاهب فعرف أعلام الأشخاص وأسماء الأماكن وأسباب الحوادث فكان يوضح ويصحح على مقدار علمه.

لذنتي القصة وأعجبني الأسلوب وسحرني الشعر فملأت فراغي كله بالقراءة له، حتى انتهينا من عنترة وبدأنا في ألف ليلة وليلة. وكان يضيق صدره بالشعر فيطلب مني أن أتركه، ولكنني كنت أستلذه وأستسيغه فأعود إليه وحدي فأنظر فيه وأحفظ منه.

وقضيت أنا وشيخي عطا سنة على هذا الحال قرأنا فيها القصص الشعبية كلها قصارها وطولها، والقصص تتكرر أو تتشابه، فحفظت الكلمات والتعابير، وفهمت الاستعارات والتشبيه. ثم أحسست أن فراغاً في رأسي قد امتلأ ويريد أن يفيض، وأن أجنحة في مخيلتي قد ارتاشت وتهم أن تطير، فبدأت أنظم الشعر ! أستغفر الله ! أكتبه ولا أنظمه، فإن النظم يقتضي الوزن، والبيت الذي كنت أقوله لم يكن له من الشعر إلا بياض في وسطه وقافية في آخره.

واطلع على شعري المقفى غير الموزون عمدة القرية، وكان رجلاً صافي الذهن، لطيف الحس، يدمن القراءة والدرس، ويولع بالأدب والتاريخ، فشجعني على النظم في كل مناسبة، وعلى الإنشاد في كل حفلة ! وصدّق أبي رحمه الله أنني شاعر فأهدى إليّ ديوان المتنبي، فكان أول كتاب اقتنيته، وأول شاعر أحببته.

أما النشر فلم ألق بالي إليه إلا بعد عام من محاولتي للشعر حين أصدرت في القرية مجلة عنوانها (الانتقاد) وموضوعها مدح العمدة وذم خصومه بالمقال والقصيدة والزجل. كنت أكتب منها نسخة واحدة بيدي، وأقرأها للمشاركين بنفسي، ثم توقفت بانتقالي إلى القاهرة عند عددها الرابع.

وهكذا دخلت الأزهر وأنا كبعض الأدباء اليوم: شاعر لا ينقصني إلا العروض، وكاتب لا يعوزني إلا النحو !.

ولعلي بعد ما أفدته من القصص الشعبية التي كونت ملكتي الأدبية لم أفد من علوم اللغة وكتب الأدب إلا ضبط أسلوبى بالقواعد، وتوسيع لغتي بالاطلاع، وترقية ذوقي بالنماذج الرفيعة.

قرآنُ الفجر

سهرت بجانب المذياع ليلة أستمع إلى أم كلثوم في حفلتها الإذاعية الشهيرة، وكان صوتها ينبعث من الجهاز رخيماً عذباً فيملاً جوانب نفسي وحسي كأنما كنت أسمع به جسمي كله. فإذا انقطعت (الوصلة) أخذ المذيع يثرثر بالفارغ وبعض الملائن فينقلني من نشوة النغم المرفه إلى صحوة السأم الممض، حتى أقبلت هoadى الليل واستأنفت المطربة العظيمة الغناء في وصلتها الأخيرة. وكان الشارع قد سكن، والبيت قد نام، والمذيع قد فتر، فأحسست أن الصوت الساحر ينسكب في مسمعي نقيًا كرنين الفضة، نديًا كترجيع البلبل، نقيًا كتسبيح الملائكة، فاعترتني حال من الصوفية الشاعرة، فيها الحب والشوق، وفيها الفناء والعبادة. حتى إذا انتهى الغناء الأسر، وانفض السامر النشوان، أويت إلى مضجعي ألتمس النوم فامتنع علي، ووجدت بي نزوعًا إلى اجتلاء الطبيعة في مجتلاها الرحب، فصعدت إلى سطح البيت المنعزل وأرسلت عينيَّ تجولان حول البيوت المظلمة النائمة، ومن ورائهما خيالي ينفذ من وراء الجدر والستور إلى أنماط شتى من الناس تفاوتوا في الحظوظ وتباينوا في الأحوال؛ فمن خلى ينام ملء جفنيه نوم الطفل لا يعود طيف ولا يزعجه حلم! ومن شجى يسامرهم ويساوره القلق فلم تكتحل عيناه بغمض؛ ومن مريض يتململ على فراشه النابي فلا يسكن إلا ليتقلب، ولا يسكت إلا ليئن؛ ومن حبيب يخلو إلى حبيبه خلوة النوال بعد الرغبة، أو الوصال بعد القطيعة، وثالثهما شيطان يحرض أو ملك يحرس؛ ومن زوج يسكن إلى زوجه سكون المودة والرحمة، وتحت جناحيهما أفراخهما الزغب ينعمون بالنوم السعيد في العش الهادئ الدافئ؛ ومن مجرم يطوي أحشاء صدره على سوء، فهو يبيت بليل ما سيقترف غدًا من العدوان والإثم، ولا يجد من ضميره الغافي حسابًا على ما اقترف بالأمس من المنكر والبغي؛ ومن مؤمن قضى موهنًا من الليل يتعجد بالصلاة ويتعبد بالذكر، ثم غفا قليلًا ليهب على نسيم السحر ودعاء المؤذن إلى بيت الله القريب. كل هؤلاء ضمنتهم هذه البيوت المتجاورة المتغايرة كما تضمن السرائر نوازع القلوب ونوازي الأنفس فلا يعلمها إلا الله الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

ثم نظرت نظرة في النجوم وهي تسبح في أفلاكها بين متألق وخاب، ودان وقاص، وصاعد ومنحدر، فتواردت على خاطري مختلف الآراء التي استقرت في أذهان الناس عنها في القديم والحديث؛ فقد اختلفوا في النظر إليها كما اختلفوا في النظر إلى حقائق المعاني الثابتة كالحق والعدل، كل يفهمها على حسب ما يستفيد منها أو يعلم عنها أو يتأثر بها... فالمؤمن يراها مصابيح الدجى ومعالم الهدى ورجوماً للشياطين. والشاعر يراها لآلئ قد رصعت رقيق السماء، أو أزاهر بيضا قد طفت على وجه الماء. والبدوي يراها صوراً من الأحياء على هيئة الإنسان والحيوان والطير، تحب وتبغض، وتسالم وتحارب، فهو يضع لها الأسماء، ويسرّج حولها الأحاديث، ويؤلف عنها الأساطير، ويقول فيها الشعر. والمنجم يراها مطالع للسعد والنحس، مفاتيح للسر والغيب. والعالم يراها أجراماً هائلة تجري في الفضاء بتقدير العزيز العليم، فيها الجبال والأغوار والأخاديد، وليس فيها الجمال ولا الحياة ولا التأثير ولا الأمل. فهل آن للعلم الروسي أو الأمريكي أن يجوس بالإنسان خلال هذه الكواكب فيرود المجهول ويعلم الغيب ويحتل السماء، وتصبح العوالم الأخرى مدبرة بمشيئته مسخرة لأمره؟

* * * * *

كنت مشغولاً بفكري وخيالي في الكونين الأدنى والأعلى حين وقع في مسمعي تسبيح المؤذن على مأذنة (قايتباي)، فعدت من التفكير في الملكوت إلى التفكير في المالك، وانتقلت من التوجه إلى المخلوق إلى التوجه إلى الخالق. وانبعث آنئذ من جانب البيت الملاصق صوت خاشع يقرأ سورة الإسراء بتجويد بين وترتيل حسن، وكان القارئ المتهجد قد بلغ في قراءته قول الله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) [الإسراء 78 - 79] فأصغيت بسمعي وقلبي إلى كلمات الله وهي تصعد إليه من فم هذا الرجل في جلوة السحر وخلوة المكان وقد سجي الليل، ورق الظلام، وعمق النوم، واختلط سنا (الزهرة) بتباشير الفجر فايض الأفق الشرقي ايضاض اللؤلؤ؛ وتجاوب أذان المؤذن وترتيل المرتل تجاوب الوحي

والدعوة، فذكرت بالقرآن الله الذي أوحى، وبالأذان الرسول الذي بلغ، واتحد الصوتان في نفسي بصوت إيماني القوي بالموحي والمبلغ، ففني وجودي المادي في وجودي الروحي، فلم أعد أشعر بالفلك ولا بالزمن ولا بالعالم، وانمحي من مسمعي ما كان يشغلها من الأصداء الملحة لشدو أم كلثوم ولحن السنباطي ونظم رامي، وبقياً فارغين خالصين لسُبْحان السحر وقرآن الفجر يتقبلانها بقوة ولذة واستيعاب، فيسريان في كياني ووجداني مسرى البرء في السقم، أو الروح في البدن، أو الإيمان في القلب، لا لحسن الصوت ولا لجمال الإيقاع، ولكن لشعور سماوي لا تدركه حاسة، ولا تصفه لغة، ولا يعرفه إلا من وقف هذه الوقفة مستحضراً في ذهنه جلال الله، مستشعراً في نفسه جمال الطبيعة...

إنا لنسمع القرآن والأذان في كل يوم وفي كل صلاة؛ ولكننا حين نسمعها لا نجد في أنفسنا تلك الجلوة التي تنشأ عن الصفاء، ولا ذلك الاستغراق الذي يصل ما بينها وبين السماء، ذلك لأن مشاعرنا تكون في النهار مشغولة بضجة العمل وزحمة العيش فلا تخلص لمواحي الروح في العالم الآخر.

أما الاستماع إليهما وقد هب المتقون من إغفاءة الفجر اللذيذة حين لا يكون المرء إلا روحاً تمض وفكراً يجول وخيالاً يحلق ونفساً تصلي، فتلك هي ساعة التجلي، ساعة يندمج فيها الشاهد في المشهود، وينفعل العابد بالمعبود، ويشعر ابن آدم القليل الضئيل المرتفق على سور السطح أنه شعاعة من نور الله إذا انقطعت عن مدده خمدت، وهباءة في فضاء الكون إذا أفلتت من جذبه فقدت !.

* * * * *

وقف القارئ عند قول الله تعالى اسمه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾ [الإسراء 105-106] حين قال المؤذن: حي على الصلاة ! حي على الفلاح ! الصلاة خير من النوم، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله ! ثم غابت غرفة القارئ ومنازة المؤذن في السكون الشامل؛ وأخذ الفجر ينسج من خيوط البيض غلالة شفة على وجه المشرق، وأخذ الصبح الجميل

يتنفس رويدًا بين فرعي النيل الكبير والصغير من منيل الروضة؛ وبدأت القاهرة الراقدة تتشاءب وتمطى استعدادًا لليقظة؛ فسمعت من قريب سيارة نقل تتحرك، ومن بعيد قطار حلوان يصفر، فهبطت من السطح لأقيم صلاتي وأدرك قليلا من النوم، قبل أن أبدأ عمل اليوم !.

المعركة التي أنقذت الإسلام والعروبة

(1)

أيام النصر كواكب سعد تتألق في ليل جهادنا الداجي الطويل، أو هي أعلام مجد تخفق على شواهد تاريخنا الجليل الحفيل؛ فيوم بدر، ويوم مكة، ويوم اليرموك، ويوم القادسية، ويوم حطين، ويوم المنصورة، ويوم رشيد، ويوم بورسعيد، مراحل هادية في طريق الركب البشري نقلته كل مرحلة منها إلى منزلة من منازل الكمال الاجتماعي؛ من الشرك إلى الوحداية، ومن الرق إلى الحرية، ومن همجية الفوضى إلى مدنية النظام، ومن فرقة الجهالة إلى ألفة السلام، ومن قيادة الهوى الحاكم إلى سياسة العقل الحكيم، فالاحتفال بذكرياتها احتفال بكرامة الإنسان وغلبة العدل والإحسان وسيادة العلم والنور.

وقد احتفلت جمهوريتنا منذ أسابيع بيومي رشيد وبورسعيد، وستحتفل في الثامن من هذا الشهر: شهر فبراير بيوم المنصورة، وهو اليوم الأغر الذي صدق الله فيه وعده للمسلمين فانطفأت على مياه (البحر الصغير) آخر حرب أوقد نارها الاستعمار الكافر باسم الصليب البريء على أرض الكنانة فأنقذ الأمة الوسط من عاقبة كعاقبتها في الأندلس مع الفرنج، ومن كارثة ككارثتها في العراق من المغول.

(2)

كان العرش العباسي في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد قد زرع المغول قوائمه وأوشكوا أن يقوضوه، وكان الوطن العربي قد مزقته المطامع وكاد أهله أن يفقدوه، وكان آل الصليب ممن وترهم صلاح الدين في حطين يجمعون الأهبة ويتحينون الفرصة لاسترداد بيت المقدس بالعودة إلى غزو الشام وفلسطين؛ ورأى لويس التاسع ملك فرنسا أن الفرصة قد واثته بهجوم التتار على العراق، وعبث الحشاشين في الشام، وتنازع الأيوبيين في مصر، فاعتزم الغزوة الصليبية السابعة، ونصح له أصحاب رأيه وأركان حربه أن يستولى أولاً على مصر؛ لأنها معقل الإسلام وموئل العروبة، والاستيلاء عليها يفتح الطريق إلى فلسطين وسورية والعراق فيدخلها من غير

حائل ولا وائل. أليست مصر هي التي سحقت الصليبيين في حطين فأنقذت دين الله، وصدت التتار في عين جالوت فأنقذت تراث محمد صلى الله عليه وسلم؟! هنالك دعا القسيس لويس ومن شايعه من أقطاب النصرانية إلى الغزو الأمراء والفرسان وعشاق المغامرات ممن يطمعون أن يكون لهم في مصر إقطاعيات وإمارات على نحو ما كان لأسلافهم في بلاد الشام وشمال العراق منذ قرن ونصف. فاجتمع إليهم من فجاج الأرض زهاء خمسين ومائة ألف فارس، واحتشد لديهم من مواني البحر ألف وثلاثمائة سفينة، وأبحروا إلى مصر بهذا الجيش العرمرم في هذا الأسطول الضخم، يسوقهم الإيمان الأعمى، ويقودهم الطمع الجشع، ويرشدهم ضلال من سبقوهم من الغزاة المغلوبين، ويحرضهم الثأر لمن صرعهم صلاح الدين. ولو أن الجد الناهض كان في صف العدو لوقعت مصر والشرق العربي كله في قبضة فرنسا منذ سبعة قرون، ولا استحال على العرب وهم تحت سلطانها المميت المدمر أن يدركوا معنى الوجود إلى يوم الناس هذا؛ ولكن موقعة المنصورة وهي حطين الثانية كانت كلمة من وعد الله الصادق بالنصر لحماة دينه، فحولت مجرى التاريخ، وغيّرت وجه الأحداث، وألّقت إلينا بمقاليد القدر.

(3)

في أواخر سبتمبر من عام 1248م أرسى أسطول القديس لويس على شواطئ (ليماسول) ميناء قبرص، فنزل منه الفوارس الغلاظ الشداد عليهم القمصان البيض والصلبان السود، فسطعت في أنوفهم من بعيد ريح الخمر القبرصية وما ينتشر حولها من وهيج الشواء وأريج النساء وفوحة الزهر، فتلقاهم ملك الجزيرة (هنري) بما يشتهون. فلبثوا يقصفون ويفسقون ثمانية أشهر جعلوا قبرص كلها في هذه المدة ماخوراً كبيراً وحانة عظيمة! وكان الملك القديس في أثنائها يجمع المئونة ويكمل العدة وينتظر من تخلف عنه من هواة الإقطاع، ويستقبل من وفد عليه من سفراء المغول؛ ليحالفوه على قبض النفوذ المصري من الشرق بعد أن استحال عليهم ذلك. فلما قرروا الإبحار إلى مصر كتب لويس إلى ملكها الصالح نجم الدين أيوب كتاباً ينذره فيه بالهجوم جرياً على سنن الفروسية في العصر الوسيط جاء فيه على ما روى المقرئ:

" أما بعد: فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية، كما أني أقول إنك أمين الأمة المحمدية. وإنني غير مخف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ... وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل وعددهم كعدد الحصى ".
فرد عليه الملك بجواب من إنشاء القاضي الشاعر بهاء الدين زهير نقتطف منه قوله:

" ... وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا فرد إلا جددناه، ولا ينبغي علينا باغ إلا دمرناه، وستعض أناملك ندماً في يوم أوله لنا وآخره عليك، ونعود إلى قول الله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة 249] ".

(4)

رسا الأسطول الفرنسي على ساحل دمياط في اليوم الرابع من شهر يونيه من السنة نفسها وكانت غير محصنة فاحتلتها، ودخلها الفرنسيون دخول الطاعون الوافد؛ فوجدوا أهلها قد جلوا عنها وراء القائد فخر الدين ابن شيخ الشيوخ وتركوا منازلهم معمورة بالأرزاق ومتاجرهم مغمورة بالبضائع، فرتعوا فيها رتوع الخنازير، واشتعلوا بها اشتعال الجردان، وحول الجيش المدارس مواخير والسباحات مراقص، كما حول الملك لويس المسجد الجامع كنيسة للعدراء، والمساجد الأخرى كنائس للقديسين. وحصن القواد الأسوار، وشيدوا الأبراج، وأعدوا وسائل الدفاع. وظل القائد القديس يقيم القداديس ويقدم القرايين وجيشه يقيم المراقص ويأتي الفواحش أربعة أشهر، ثم قرروا المسير إلى القاهرة عن طريق المنصورة.

وكان جيشنا يستعد في القاهرة للدفاع، وشعبنا يتجمع في الدلتا للهجوم، وآلاف المتطوعين يتقاطرون على معسكرات العدو يستغفلونهم بالليل ويتخطفونهم بالنهار.

ورأى القواد المصريون أن يحاصروا الغزاة في الدلتا وألا يخلو بينهم وبين القاهرة، فتقدم الملك الصالح الجيش إلى المنصورة وهي قلعة مصر الشمالية ونزل بقصرها ليكون على مقربة من المعركة.

وبين عيشة وضحاها انقلب هذا الشعب الأصيل الحر من فلاح يحرق وصانع يعمل وتاجر يبيع وعاطل يلهو، كتلة واحدة من البأس تتسعر شوقاً إلى الحرب، وتفور حقداً على العدو، وتبذل كل ما تملك في سبيل الذيادة عن الوطن والدفاع عن استقلاله. وأعجب العجب أن بلاء المتطوعين كان أشد وجهادهم كان أصدق.

تجمع الجيش النظامي في المنصورة وانتشر المتطوعون حول جيش العدو في الموقع المثلث الذي اختاره بين الشمال الشرقي من بحيرة المنزلة، والشمال الغربي من فرع دمياط، والجنوب الشرقي من بحر أشموم طناح، وكانت قيادة العدو قد عسكرت في شرمساح والبرمون، فلم يكن بين الجيشين من فاصل إلا (البحر الصغير) وكان النيل لا يزال في فيضانه. وتعذر على الفرنسيين عبور البحر الصغير فظلوا يكابدون هجوم العصابات من المجاهدين المتطوعين في كل ساعة من ساعات الليل والنهار.

ولهؤلاء الفدائيين آيات من التضحية والبطولة سجلها مؤرخو هذه المعركة. منها أن أحدهم قور بطيخة ووضع رأسه فيها ثم سبح في النهر غائصاً حتى اقترب من الشاطئ الشرقي، فنزل أحد الصليبيين ليأخذ البطيخة فسحبه المصري وعاد به سابحاً إلى المعسكر.

فلما أعيى الفرنسيين الأمر لجأ ملكهم إلى الصلاة، فيقال: إن من (كراماته) أن أعرابياً خائئاً طمع في مالهم فدلهم على مخاضة في النهر عند (سلامون) فخاضها فريق من الجيش بقيادة الكونت دارتوا أخي الملك، وباغتوا المصريين بالمدينة في اليوم الثامن من شهر فبراير عام 1250 فوقع الاضطراب وعم الفرع واغتيل القائد فخر الدين حتى قال ابن واصل المؤرخ، كان فيمن جاهد وشاهد: " انزعجنا وغلب على الظنون بوار الإسلام، على أنه كان من سعادة المسلمين تفرق الإفرنج في الأزقة ". وتولى القيادة بيبرس فحصر بالمماليك البحرية الجيش المهاجم في شوارع المنصورة الضيقة، وأخذوهم بالسيوف والدبابيس، وتلقفهم الأهليون قذفاً بالحجارة وضرباً بالحديد وخطفاً

باليد، فلم يدروا كيف يتقون المنايا وقد تخطفتهم من كل مكان فهلكوا جميعاً وفيهم (دارتوا). وطلب الجيش والشعب بقية الصليبيين جنوب النهر، فالتحم الفريقان وتعاقب بينهما المد والجزر. وكان الأسطول المصري قد شارك في القتال فحصر مراكب العدو في النيل وقطع ما بينها وبين جيشه، فعز القوات وفشت المجاعة وانتشر الوباء واستحر القتلى، ففقد الصليبيون أربعين ألف قتيل ومائة ألف أسير، فلم ير ملك فرنسا بداً من أن يتقهقر هو وأركان حربه إلى (منية أبي عبد الله) وأن ينزل في بيت امرأة فرنسية كانت من أهل ضواحي باريس، ثم استسلم واستأسر. وتفاوض المصريون والفرنسيون في شروط الهدنة، فاتفقوا على أن يسلم هؤلاء دمياط، وأن يقدوا ملكهم بثمانمائة ألف دينار، وأن يسجن حتى ينفذوا هذه الشروط.

(5)

اقتيد الملك لويس التاسع والكونت أنجو، والكونت بواتو، إلى دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء، وكلف الطواشي صبيح بالقيام على أمره، فلبث في السجن حتى ردت دمياط وأديت الفدية، فحمل هو من معه على سفينة جنوبية أقلتهم إلى عكا، والمصريون يودعون بهذه الأبيات التي قالها جمال الدين ابن مطروح:

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبغني ملكها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به في ناظرك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم	إلا قتيلاً أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكمو يستريح
وقل لهم إن أزمعوا عودة	لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح

وقد أجاب الله دعوة الشاعر فعاد حفدة لويس إلى ديارنا يرتكبون الجرائر، وانتقلت دار ابن لقمان وقيدها وطواشيها من مصر إلى الجزائر !.

مَثَلٌ مِنَ الْإِلْحَادِ الْأَحْمَرِ

منذ أسبوعين اثنين أذاع راديو موسكو حديثًا للمحرر الأول في مجلة العلوم السوفييتية قال فيه: إن القمر الروسي الذي انطلق أخيرًا بين أجرام السماء مزودًا بالأجهزة العلمية الدقيقة التي تبصر وتسمع وترصد لم يرسل بين أنبائه ما يثبت من قريب أو بعيد تلك الدعوى التي ادّعتها الأديان المختلفة من وجود ملكوت أعلى في السماء يستوي على عرشه إله، وتحف من حوله ملائكة، ويطوف بأبوابه رسل، وتقوم على أرجائه الجنة والنار، وتصدر عن محكمته الأقضية والأقدار.

فلم يكن هناك إذن إلا وهم جسمه الجهل في عقول الناس، أو خداع تذرع به الطامحون إلى ملك الأرض!!

وليت شعري؛ ماذا كان ينتظر هذا الأحمق الأحمر من قمره أن ينبئه به؟ أكان ينتظر منه أن يقول له إنه رأى الله جالسًا فوق كرسيه في السماء، وسمع الملائكة وهم يسبحون الله في غيابات الفضاء، وشم روائح الأجساد وهي تحترق في سكير جهنم، وذاق ثمار الجنة وهي تتدلى من شجر الخلد، ولمس خدود الحور وهن يتخطرن في خمائل عدن؟.

قطعة من الجمار يبلغ وزنها طنًا وبعض طن، أفلحوا في قذفها إلى ما وراء الجاذبية الأرضية فاتخذت لها مدارًا اضطراريًا حول الأرض أو حول القمر، فمجالها محدود وبقاؤها موقوت؛ وما كان محصور المكان أو موقوت الزمان استحال عليه أن يحيط باللانهاية أو يشعر بالأبدية.

وماذا تعرف الهباءة عن الأفق الذي لا ينتهي، أو القطرة عن المحيط الذي لا يحد؟!.

إن الإله الذي ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: 255] لا يجوز في العقل أن يحتويه منها موضع، وإن الجنة التي ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: 133] لا يدخل في الإمكان أن يستوعب طولها موقع، وإن (اللعبة) التي تطفل بها العلماء على مسابح الأجرام إنما تمسكها قدرة الله لا قدرة الإنسان، وتديرها قوة (النظام) لا قوة

العلم، فهي شاهد إثبات لا شاهد نفي، وذليل إيمان لا دليل كفر، ولكن المسألة ليست مسألة عقل ولا علم، إنما هي الشيوعية التي كفرت بالله وآمنت بماركس، وفرطت في الروح وأفرطت في المادة، وأرادت أن تسلب بني آدم في جميع أقطار الأرض نعمة الحرية وعزة الإرادة ولذة الاقتناء؛ لتجعلهم قطيعًا واحدًا من العُبدان على جباههم سمة (المطرقة والمنجل⁽¹⁾) يعملون كما تعمل الآلات، ويأكلون كما تأكل الأنعام، ثم يهلكون كما تهلك الدواب. وتلك هي حياة كل شيوعي وحاله: أرض ولا سماء، ويوم ولا غد، طريق ولا غاية، وعمل ولا تبعة، ودنيا ولا آخرة !!

* * * * *

لقد رأت الشيوعية أن الأديان هي العقبة الكأداء في سبيل إرادتها وقيادتها، فجعلت همها الأول إطفاء النور الإلهي في القلوب بإشاعة الإلحاد ونشر الإباحية وتسليط الغرائز وتحكيم الشهوات وإثارة الفتن، لتكون النفوس مهياة بعد ذلك لقبول كل مبدأ وسلوك أي مسلك. وكان الإسلام هو عدوها الألد، لأنه الدين العملي الذي ينظم الدنيا بالدين في السياسة والاجتماع والاقتصاد، فألف بين القلوب، وآخى بين الناس، وساوى بين الأجناس، وعالج الفقر وهو علة العلل بما لو أخذ به المصلحون لوقاهم شرور هذه الحروب، وكفاهم أخطاء هذه المذاهب: عالجه بالسفارة بين الغني والفقر على أساس الاعتراف بحق الملكية والاحتفاظ بحرية التصرف، فلا يدفع مالك عن ملكه، ولا يُعارض حرفي إرادته، وإنما جعل الفقير في مال الغني حقًا معلومًا لا يكمل دينه إلا بأدائه. فالأرض التي تشرق بهذه المبادئ لا تستطيع خفافيش الشيوعية أن تعيش فيها. لذلك عبأت لهدم الإسلام قوي الباطل وأسلحة الضلال فافترت عليه الأكاذيب. وطيرت حواليه الشكوك، وقالت في كتبها وصحفها وإذاعتها: إن الإسلام لا يعرف العدل لأن القرآن يقول: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: 71] ولا يعرف المساواة لأن القرآن يقول: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: 32]. ولا يعرف الحرية لأنه قيد كل شيء بقيد: قيد الرزق بالملكية، وقيد المرأة بالزوجية، وقيد تصرف النفوس بالعقيدة، وقيد تداول الأموال بالإرث، وزعمت أنها براء من كل هذه (النقائص)

(1) المطرقة والمنجل: شعار الشيوعية.

لأنها تقول: كل شيء مشاع، وكل أمر مباح، وكل شهوة طليقة، فالمزارع والمصانع والنساء وسائل عامة للإنتاج العام، يعطي كل على حسب كفايته، ويأخذ كل على حسب حاجته.

وهكذا يزعم الشيوعيون أنهم أعلم من الله بأحوال خلقه، وأعدل منه على تقسيم رزقه، فهم لذلك ينكرون دينه، ويغيرون شرعه، ويحاولون أن ينسخوا ما خلفه الأنبياء والحكماء من الشرائع والعقائد والقيم، ليأتوا بنظام آخر لا يقصدون به العدل المطلق ولا الخير العام، وإنما يقصدون به طغيان بشر على إله، وسلطان شعب على عالم. وما أدري لم كتب الله على العراق الحبيب أن يكون في ماضيه وحاضره مباءة للنحل الشاذة والمذاهب الهدامة، تنبت فيه كالنبات السام، أو تفد إليه كالوباء الفاشي، ثم تنتقل منه فتهدد روح الإسلام، وتبدد شمل العروبة؟.

قال القرامطة فيه بالأمس ما يقول الشيوعيون فيه اليوم: (لا حقيقة في هذا الوجود وكل أمر مباح) وكان أول من بذر هذه البذرة الخبيثة في الشرق الإسلامي بابك الخرمي في القرن الثالث من الهجرة، ومن بعده عبد الله بن ميمون، ومن بعده الحسن الصباح شيخ الجبل؛ وأغروا بثمارها المحرمة عباد اللذة ورواد المنكر من ضعاف العقول وصغار الأنفس، وأمعنوا في الغي والضلال، واشتركوا في النساء والأموال، وفي سبيل ذلك نشروا الإرهاب وبددوا النظام وزعزعوا الأمن.

* * * * *

وفي هذه الأيام تجددت في العراق البابكية باسم الشيوعية، فدعت إلى الإلحاد والإباحية جهراً بعد الخفوت، وقهراً بعد الحيلة، وأخذت تهاجم الله وكتابه، والإسلام وأهله، بسفاهات من القول البذيء والفعل الفاحش، وهي فتنة حمراء لن يحترق في لظاها إلا الطماعون الخداعون الذين أضرموها بثقاب الشعوبيين ووقود الروس، ولكن الإسلام الذي تغلب على كل نحلة وفتنة نجمتا في العراق من قبل، سيتغلب على هذه الفتنة اليوم، فإن له منبعين من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يزالان يتدفقان بالصفاء والطهر، فكلما تلوثت مجاريه البعيدة، بمثل هذا الدنس أقبل الفيض الإلهي فطهر ماؤه النقي كل رجس، وجرف تياره القوي كل حاجر. ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: 17].

من الفتوة الإسلامية

(1)

روعت أوروبا وأخذها المقيم المقعد حين علمت أن صلاح الدين قد استرد مدينة القدس وقوض مملكة اللاتين في فلسطين وسورية. وورد على انجلترا وفرنسا من قوة الجيش المصري وقدرة العاهل الأيوبي ما أقلقهما على حاضر الإقطاع الصليبي في الشام، ومستقبل الاستعمار الأوربي في الشرق، فألبتا عليهما الفروسية المسيحية بقساوتها وضراوتها وتعصبها وحقدتها وغدرها لتقلم أظفار الجيش الظافر، وتحبس عنان القائد الطموح.

وكان موقف فيليب وريكاردوس من صلاح الدين هو موقف حفيديهما جي موليه وإيدن من جمال عبد الناصر. والسبب الأول للموقفين واحد، هو خطر الجيش المصري القوي على الغزو الصليبي الذي بدأ في آخر القرن الحادي عشر واستمر حتى منتصف القرن العشرين !.

أقبلت جيوش الغزوة الصليبية الثالثة إلى الشام سنة 1189م يقودها سبعة وعشرون ملكاً وأميراً يتقدمهم فيليب أغسطس ملك فرنسا، وريكاردوس قلب الأسد ملك بريطانيا، وفريدريك باربروس ملك بروسيا، فبدأت بحصار عكا، ثم انتهت بعد ثلاث سنوات بهدنة الرملة، وحسبي من حديث هذه الغزوة أن أجلو لك من صفحاتها صفحة الفتوة أو الفروسية التي تجلت في شجاعة صلاح الدين وشهامته ونبله:

طلب إليه الملوك الصليبيون قبل القتال أن يجتمع بهم لسمع منهم ويسمعوا منه. فسار إليهم في كتيبة من أقوياء جنده وسألهم ماذا يريدون. فقالوا له: إن أوروبا رمتك بما لا قبل لك به من ملوك وجيوش وقادة، وإن من الخير لك ولقومك أن تجلو عن بيت المقدس وإلا ذقت وبال أمرك.

فقال صلاح الدين: إنكم تعتزون بكثرة العدد ونحن نعتر بقوة الإيمان، وإنكم تحبون الدنيا وتعلقون بها، ونحن نحب الآخرة ونعمل بها، ولن ينتصر من أحب الحياة، ولن ينهزم من طلب الموت.

فنهض ملك انجلترا من بين الملوك وقال للترجمان: قل لصلاح الدين: إن أنا قلب الأسد والقوة عندنا هي كل شيء، وسأريه البرهان. ثم دعا بقضيب من الحديد قطره ثلاثة سنتيمترات ووضع طرفه على منضدة وطرفه الآخر على منضدة، ثم سل سيفه وأهوى به على القضيب فاخترطه نصفين. ثم عاد إلى مكانه بين تصفيق الحضور ولغده منفوخ وأنفه شامخ. فضحك صلاح الدين ضحكة المستهزئ وقال لريكاردوس: ليست الحرب صلابة سيف وقوة ساعد، وإنما الحرب مضاء حد وسداد يد. ثم أخرج من منطقته منديلاً من الحرير الرقيق وقذف به إلى أعلى ثم تلقاه بسيفه فشطره. ثم تناول شطري المنديل بشبابة سيفه وألقاهما في حجر قلب الأسد وهو يقول: بمثل هذا السيف سنلقاتكم غداً! وانصرف وترك الملوك والفرسان مبهوتين مشدودين ينظر بعضهم إلى بعض وقد استولى عليهم صمت عميق. ثم انفجروا معجبين بصلاح الدين حين حاول ريكاردوس أن يقطع المنديل بإمراره على حد سيفه فلم يقطع!

(2)

قال العماد الأصفهاني كاتب صلاح الدين في كتابه (الفتح القدسي): " وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة متزينة، قد اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجزائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعن أن هذه قرية ما فوقها قرية، ولاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة. وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية، فعجبوا كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية "

ومضى العماد يذكر ماذا كان يفعل أولئك النسوة في استغواء الأغرار واستراق الأخبار واستلاب الأنفس. وتكتيب الغواني في جيوش الاستعمار سياسة سنتها فرنسا ونهجتها انجلترا، وصادفت هوى في نفوس الصهيونيين فطبقوها على نطاق واسع في السياسة والتجارة والحرب، ولا يزال إخواننا الفلسطينيون يذكرون سوء عقباها في التمهيد لقيام إسرائيل!.

كان بين هؤلاء الحسان المجندات فتاة استخلصها الملك ريكاردوس لنفسه، فكانت تقوم على خدمته في خيمته، وتعنى براحته مع أخته وزوجته، وكانت الفتاة على حظ عظيم من جمال الوجه ورقة القلب وخفة الروح، فأحبها قلب الأسد كل الحب، وأخلصت هي له كل الإخلاص، فكانت عينه على أقرانه وأذنه بين قواده، فعلمت من طريقها الخاص أن فريقاً من القادة قد ضاقوا بحدة طبعه وشراسة خلقه فائتمروا به ليقتلوه. فأخبرته بما علمت، فاتهم الخبر وأبى أن يصدق أن أحداً من خلق الله يجرؤ على مواجهته بالسيف. وكان من عادة ريكاردوس أن يطوف بالليل على قواده وأجناده ليتعرف حالهم ويطمئن بالهم. فافتقدته الفتاة في خيمته ذات ساعة من الليل فلم تجده. فخرجت تبحث عنه فضلت الطريق ودخلت في معسكر المسلمين، فظنها الحراس جاسوساً فرماها أحدهم بسهم فسقطت على الأرض تتلوى وتئن، واتفق حينئذ أن مر صلاح الدين في طوافه بهذا المكان فسمع الأنين فاقترب من مصدره فإذا الفتاة مضرجة بالدم فاقدة الوعي، فاحتملها على ذراعيه إلى أول خيمة في المعسكر. ودعا لها بطبيب أخرج النصل من فخذها وتعهدها بالعلاج حتى برئت. وكان صلاح الدين يسأل عنها الحين بعد الحين. فلما مثلت بين يديه بعد البرء راعه ما رأى من جمالها فأضمر حبها في قلبه، وأنزلها على الرحب من عطفه.

وفي إحدى الأماسي عرض قواده عليه بعض كبار الأسرى وهو في خيمته فعرفت الفتاة من بينهم قائداً من خواص قلب الأسد فاستأذنت السلطان أن تتحدث إليه فأذن. فلما سألته عن مولاه أخبرها أنه سمع اليوم أثناء المعركة أن خصومه من الفرنسيين والانجليز قد قرروا اغتياله في هذه الليلة، ولولا أنه وقع في الأسر لذهب إليه يحذره. فجذعت الفتاة على ملكها، ولم تملك سوابق دمعها، فاسترسلت في البكاء. فسألها صلاح الدين عما بها، وعما قاله الأسير لها، فأفضت ليه بجلية الأمر.

لو لم يكن صلاح الدين مطبوعاً بحكم نشأته وعقيدته على خلال الفتوة الإسلامية لاغبط بهذه المؤامرة التي ستكفيه شر عدوه وهو عماد الحرب الصليبية وفارسها الأول، ولكنه فعل ما نشر في آفاق الغرب فضله، وخلد على وجه الزمان ذكره! أرسل

إلى مكان المؤامرة الذي عينه الأسير سرية من أشجع فرسانه لينقذوا ريكاردوس من كيد خصومه.

وكان قلب الأسد قد خرج على عادته بعد المعركة يتفقد أحوال جنده، وكان قد خرج في هذه الليلة وحده، لأن القواد الثلاثة الذين كانوا يرافقونه في جولاته أسر أحدهم وقتل الآخرين في اليوم نفسه، أخذ يمشي في ساحة القتال ساهمًا حزينًا يتوسم الوجوه ويتسمع الأنات فيترحم على القتلى ويتألم للجرحى، وينحني على من يعرفه منهم فيودعه بالرحمة أو يشجعه بالأمل، حتى رأى قائدًا ملقى على وجهه، فجثا على ركبتيه يقلبه فعرف فيه قائدًا فرنسيًا كان يقدمه ويكرمه، فاشتد حزنه عليه وأطال وقوفه عنده، فلما أدار ظهره إليه لينصرف نهض من رقدته ونفخ في بوق صغير فإذا رجال يقومون من بين القتلى ويحدقون بريكاردوس وقد شهروا السيوف! فدهش الملك من المفاجأة أول الأمر ثم تذكر سيفه فأعمله فيهم وكاد يأتي عليهم لولا أن احتشوه في الظلام وطوقوه بالكثرة فأيقن أنه هالك. وفي هذه اللحظة الحرجة جاءت نجدة صلاح الدين فصرعتهم من حوله، ثم طلبوا إليه أن يصحبهم إلى السلطان فسار معهم مطمئن القلب لاعتقاده أن الملك الذي ينقذ عدوه من القتل يستحيل عليه أن يسلم ضيفه إلى الأسر.

وكان لقاء السلطان للملك لقاء جميلًا نبيلًا كأنهما لم يقتتلا طوال اليوم، ولن يقتتلا طوال الغد! وبالحق صلاح الدين في إكرام ضيفه فدعا بحبيته إليه. فلما رآها تخرج من خيمة السلطان خالجه فيها الشك وساوره عليها الغضب، ولكن بطل الإسلام ورمز الفتوة أخبره بما كان منها وبما حدث لها، فضمها الملك مسرورًا إلى صدره، وخرج بها مخفورًا إلى معسكره.

* * * * *

كان صلاح الدين قد أحب الفتاة كما قلت، وكان في مقدوره ومن حقه أن يتخذها سبية حرب، ولكنه حين علم منها أن الملك يحبها وأنها تحبه لم ينس أنه صلاح الدين، فمحا صورتها من ذهنه، وغلب في أمرها وفاءه على حبه، كما غلب في أمر ملكها مروءته على بغضه !.

المُرَابِي الَّذِي دَخَلَ الْجَنَّةَ

سعادة في شقاء:

لا أريد بالسعادة ما تناله من لذات العيش فُتَاتًا أو على أجزاء كلقاء صديق بعد فرقة، أو وصال حبيب بعد قطيعة، أو قضاء ساعة في ملهى، أو انبساط قلب في نزهة، أو انتشاء نفس من منادمة، أو استغراق حس في جمال، فإن تلك الحالات فلتات عرضية كالانطلاق والضحك والأنس، تنفك ولا تلزم، وتنقطع ولا تدوم، إنما أريد بالسعادة تلك الحال التي تغلب على المرء في أكثر عمره فيستلذ معها ألم التعب وذل الحرمان ومض اللوم وقبح السمعة وهي حال لا أستطيع تعيينها بحد ولا توضيحها بتعريف.

وقصارى ما أستطيعه أن أسوق إليك مثلاً من أمثالها الكثيرة المختلفة ستجد في ذاكرتك من غرائبها ما يؤكد لك أن السعادة لا تعرف الإطلاق، وإنما هي بالإضافة إلى كل إنسان ما ينبثق من الرضا في نفسه، ويصح من الهوى في اعتقاده.

عرفت وأنا في سن الحداثة رجلاً في أعقاب العمر كان يعيش في قرية مجاورة، كنت أراه وهو يمر بقريتنا على الطريق الزراعي العام ذاهباً إلى البندر في الصباح أو آيئاً منه في المساء، فيلفتني إليه جثته الضخمة على بغلته السوداء، وعمامته المكورة على رأسه الحليق، وجبته الجرداء على جسمه البدين، ووجهه المُطَهَّم⁽¹⁾ على صدره العريض، وبطنه المنتفخ على بردعة بغلته المضلعة، فأملأ عيني من منظره العجيب، ثم أتبعه بصري إلى أن يغيب.

وكان في موعدَي غدوه ورواحه أدق ضبطاً من قطار الصباح في ذهابه إلى دمياط، ومن قطار المغرب في عودته إلى المنصورة، فكان أصحاب الحقول الواقعة على جانبي طريقه يوقتون بهما، فيقول أحدهم للآخر: سأعلق الساقية أو سأحل المحراث عند مرور الشيخ (علي).

(1) قلت: جَهْ مُطَهَّمٌ : بَارِعُ الْجَمَالِ ، مُتَمَلِّئُ الْحَدَّيْنِ . وَالْمُطَهَّمُ : السَّمِيْهُ الْفَاحِشُ السَّمْنِ . وَالْمُطَهَّمُ : الْمُنْتَفَخُ الْوَجْهِ . وَالْمُطَهَّمُ : الْكَرِيمُ الْحَسْبِ .

وترددت بحكم الجوار القريب على قرية الشيخ علي فعلمت أن له في حياة الناس شأنًا لا يقل عن شأن القدر والحظ، كانت بغلته كبغلة العُشر التي توزع الذهب واللؤلؤ على الموعودين في ليلة عاشوراء كما تقول الأسطورة: كان خُرجها كحواصل الطير يغدو فارغًا إلى البنك ثم يروح ملآن إلى القرية، فيجد أصحاب الحاجات من رجال ونساء قد تكدسوا أما الباب وفوق المصطبة ينتظرون ساعة الفرج ومع كل منهم قطعة من نحاس في يده، أو حلية من ذهب في جيبه، فيدخل الشيخ الحجرة الخاصة ويتبعه كاتبه مبروك أفندي، فيجلس بجانب الخزانة المغبرة، ويقعد الكاتب أمام المنضدة العتيقة، ثم يدعو المنتظرين واحدًا بعد واحد، فمن كان رهنه ذهبًا وضعه في الخزانة، ومن كان رهنه نحاسًا ألقاه في المخزن، ومن كان رهنه عقارًا أخذ منه سند الملكية، ثم يختم الراهن ويوقع على بياض ثم ينصرف! حتى إذا خلت المصطبة والزقاق من المأزومين والمعوزين صلى المرابي العشاء وتبلغ بشيء من الخبز اليابس مفتوتًا في اللبن الحليب، ثم أخذ يباشر هو والكاتب تحقيق الأشخاص وتقويم الرهون وتقرير السلفة وتقدير الفوائد وتحرير الصكوك، حتى ينقضي الهزيع الثاني من الليل فينصرف الكاتب، ويعمد هو إلى الخزانة فيحكم القفل، وإلى المخزن فيوثق الرتاج، وإلى الدهليز فيغلق الباب. فإذا اطمأن قلبه على أولئك كله تسلل إلى حجرة نومه دون أن يتيح الفرصة لزوجته الصابرة فتطلب النفقة، أو لأولاده التسعة فيشكوا الضيق، فينام نوم المهموم القلق حتى يطلع الفجر فيصلي. ثم يجد الخادم قد وضعت بجانبه على العادة موقد الكحول وبكرج اللبن ورغيفين من الخبز الرقيق الجاف، فيشعل النار ويغلي الحليب ويفت الخبز ويفطر، ثم يتهيأ للانتقال إلى حجرة العمل فيختبر في طريقه إليها الأبواب ويفحص الأقفال ثم يفتح الخزانة باسم الله ويمد عينه ويده إلى كل موضع من مواضعها الظاهرة والباطنة، حتى إذا لم يجد ما يريه أخرج النقود المطلوبة على حسب البيان الذي كتبه في الليل مبروك، وجاء المقترضون بعد بزوغ الشمس ليقبض كل منهم المبلغ الذي قدره له رهنه وشأنه. ثم تقف بغلة الشيخ في مياعها المألوف على الباب فيركبها إلى المنصورة، ليقدم إلى محاميه مستندات قضية، أو ليحضر معه جلسة الحكم في نزع ملكية!.

لم يكن الشيخ علي يذوق اللحم إلا مدعوًا، ولا يشتري الثوب إلا مضطرًا، ولا يعرف معنى الأنس في أسرة ولا مجلس، ولا متعة الحديث في قهوة ولا دار، فيئست زوجته من عطفه فانصرفت إلى الدجاج والبط، وقنط أولاده من عونه فتصرفوا في الربا والتجارة، وحصر هو دنياه في البغلة والخادم، وفي الخزانة ومبروك، وفي المحكمة والمحامي، وفي البورصة والسمسار، فأصبح لا يجد سعادة نفسه ولا لذة عيشة إلا في مال يقبضه، أو حكم يكسبه، أو ملك ينزعه، أو عقار يشتريه.

أما الألم الذي يسببه الحرمان، والذل الذي يجلبه الطمع، والندم الذي يبعثه الضمير، فقد مات كله في شعوره، وغاب أثره عن باله، عند البنون ولا يجد فيهم عزًا ولا زينة، وفي بيته الخير ولا يبلغ به رضا ولا سكينه، وفي يده المال ولا يأكل في الدار إلا الخبز في اللبن، ولا في القهوة إلا السميد في الشاي، وكل عزه وغاية رضاه أن يرى المحتاجين يترامون على بابه باكين أو ضارعين يتوسلون إليه أن يعجل السلفة أو يؤجل السداد أو يرفع الحجز، وهو يزور عنهم ويتدلل عليهم رافعًا رأسه من التيه، لاويا شذقه من الكبير.

ومرت الأعوام على خطوات البغلة وصفقات المرايبي فخربت دور لتعمر دوره، وغاضت موارد لتفيض موارده، وطفحت الخزانة بالذهب فترك البغلة وركب القطار، وأنكر المنصورة وعرف الإسكندرية، وأفرج خزانة النقود، ليضارب في بورصة العقود، فلم يحل عليه الحول حتى خسر تسعين ألف جنيه عينًا. وحينئذ أحس بالشقاء وشعر بالفراغ، وأدرك أن كل شخص يزدرية، وأن كل شيء يعوزه. فلما رجع مبروك أفندي صفى معه الحساب فوجد أن ما خسره في المضاربة هو كل ما ربحه من الربا، فانبعث في صدره إيمان كان قد مات، وتيقظ في ضميره شعور كان قد رقد، ورأى أن هناك غير المال الذي عبده إلهاً آخر لا يضيع في البورصة ولا يغيب في المصيبة ولا يتخلى في الشدة. فرجع إلى الله وأصبح يصلي ووجهه إلى القبلة بعد أن كان يصلي ووجهه إلى الخزانة. ثم ضم زوجة إلى قلبه، وآوى بنيه إلى عطفه، وأطلق أيديهم فيما بقى من ثروته وهي الأرض الطيبة والتجارة الحلال، وتفرغ هو لاستقبال التوجيه السماوي للخير، فمسح بالصدقة دموع الربا، وفرج بالمعروف كروب المنكر، وتغير في ذهنه مدلول

السعادة فاعتقده في إثارة الغير لا في أثره النفس، وفي بسمه الشاكر لا في دمة المحتاج. وانحصرت في دنياه حدود الغبطة فلم تتعد الإيمان بالله والإحسان إلى الناس، فحج البيت وتطهر فيه، وبنى المسجد ووقف عليه. ثم تنفس به العمر حتى شارف المائة فانتقل إلى جوار ربه وحياته الحافلة بالكد والدأب والربح والخسارة والشر والخير مصداق لقول الرسول الكريم ⁽¹⁾ " إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " تغمده الله بالغفران على ما أساء، وَمَنْ عَلَيْهِ بِالرِّضْوَانِ عَلَى مَا أَحْسَنَ.

(1) قلت: هو حديث عبد الله بن مسعود: (قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ - قَالَ: " إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ عَاقِبَةُ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضَعَّةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا فَصَوْرُهُ ، وَخَلْقُ سَمْعِهِ وَبَصَرُهُ ، وَجِلْدُهُ وَشَعْرُهُ ، وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ ، وَأَجَلَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ يَقُولُ: يَا رَبِّ ، أَذْكَرَ أَوْ أُنْثَى ؟ ، فَيَجْعَلُهُ اللَّهُ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ، أَسَوِيٍّ أَوْ غَيْرِ سَوِيٍّ ؟ ، فَيَجْعَلُهُ اللَّهُ سَوِيًّا أَوْ غَيْرِ سَوِيٍّ ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ، مَا رِزْقُهُ ؟ ، فَيَقْضِي رُتْكَ مَا شَاءَ ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ، مَا أَجَلُهُ ؟ فَيَقُولُ رُتْكَ مَا شَاءَ ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ، مَا خُلُقُهُ ؟ ، أَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ ؟ ، فَيَجْعَلُهُ اللَّهُ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ فَيَقْضِي اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَمْرَهُ ، فَيَكْتُبُ مَا هُوَ لَاقٍ حَتَّى النَّكْبَةُ يُنْكَبُهَا ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَدْخُلُهَا".

أخرجه البخارى (3/1174، رقم 3036) ، ومسلم (4/2036، رقم 2643) ، وأبو داود (4/228، رقم 4708) والترمذى (4/446، رقم 2137) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (1/29، رقم 76).

آخر فارس في آخر مدينة

ظل نور الإسلام يشع في سماءات الأندلس بالهدى والحضارة والعلم ثمانية قرون، كان في أربعتها الأولى شديد السطوع والشيوع لأنه كان ينبثق من مصدر متحد، ويشرق في صحو شامل، فلا غيوم كانت تحجب ضوءه، ولا عواصف كانت تبدد سناه. فلما وهنت اليد المصرفة، ووهي السمط الجامع، انتشر الرأي الجميع، وانفرط العقد النظيم، وانقسم ملك عبد الرحمن الناصر إلى دويلات تتنافس في الحكم، وتتخاذل في الشدة، وتتواطأ مع العدو.

ثم انطفأ في قلوب المسلمين نور الله فضلت الهداة وتعاادت الإخوة وتحاربت الجيرة وجف الثرى بين بعض البلاد وبعض، على حين كانت أسبانيا النصرانية تقتارب وتتجاذب حتى اتحدت ممالكها الخمس في مملكة قشتالة. ثم أخذت تغير على أسبانيا المسلمة مستعينة على إخضاعها وابتلاءها بأمثال الجلاوي من البربر، وأشباه نوري السعيد من العرب، حتى لم يبق في أيدي المسلمين منها إلا غرناطة !.

وكان الملك في هذه المدينة الباقية قد استقر في بني الأحمر وانتهى إلى آخرهم الملك أبي عبد الله محمد. وكان هذا الملك مأفون السياسة مغموز الوطنية خوار العزيمة، فلم يكدر يعلم أن فرديناند الخامس ملك قشتالة قد مد عينيه إلى غرناطة عروس الأندلس وموضع الحمراء وآخر ما بقى في ملك العرب من الفردوس المفقود حتى أشفق على نفسه وملكه فترك الدفاع وآثر العافية. وأرسل إلى العدو سرًا من يفاوضه في تسليم المملكة على أن يقطع بعض الأرض ليحكمها تحت لوائه وفي ظله. وأبرمت المعاهدة في الظلام، وحن موعده التسليم، فعارض فيه جماعة من فرسان غرناطة لا تزال فيهم بقية من نخوة العروبة ونجدة الفتوة.

* * * * *

وكان على رأس هؤلاء الفتية فارس من سلاسل الملوك يقال له: موسى ابن أبي الغسان، كان مثلاً للفروسية العربية التي تركت طابعها البارز في الفروسية الغربية، وكان مجتمعا للصفات الجمالية التي جعلته موضع إعجاب الشباب ومهوى قلوب الأوانس.

وكان منقطع القرين في أدب السيف وأدب اللسان، ومغامراته الحربية والغرامية كانت حديث المجالس في أسبانيا النصرانية والإسلامية. ومن العجيب أنني أنقل حديث هذا البطل عن المصادر الأوربية، لأن المصادر العربية لا تكاد تفصح عن أمره ! قال ابن أبي الغسان لملكه الهلوع الرخو في لهجة الغضبان الأنوف:

" يا ملك المسلمين قل لملك النصارى: إن العربي لا يقبل الحيف، ما دام يحمل السيف، وإن الأبى الحر يفضل أن يكون له قبر في أنقاض غرناطة، على أن يكون له قصر في رياض أندرش "

وأندرش هي مقر الإقطاعية التي رضي أبو عبد الله أن يعيش على ريعها في حمى فرديناند وإيزابيلا، فلم يسع أبا عبد الله إلا أن ينزل على حكم السادة والقادة فطوي المعاهدة واتخذ الأهب للدفاع.

وأصبح الناس ذات يوم فإذا هم يرون في أودية (شنيل) ثمانين ألفاً من جنود قشتالة يقصدون مرج غرناطة ليحاصروها. وكان موسى حبيب الجيش والشعب قد قسم الدفاع عن المدينة بين الرؤساء والقادة، وتولى هو قيادة الفرسان يعاونه محمد بن زائدة ونعيم ابن رضوان. وانقدت نار الحرب بين قشتالة يناصرها أرجون وليون ونافار، وبين غرناطة لا يناصرها إلا البأس والصبر والإيمان.

وكان لفروسية ابن أبي الغسان في وقائعها حملات مظفرة أرهقت قوات العدو وعوقت أمداده وقطعت سبله. ولكن القشتاليين أحكموا الحصار على غرناطة وأهلكوا ما حولها من الزروع، وحالوا بينها وبين المدد من البحر والبر.

وأقبل الشتاء فغطى الحقول والمروج بالثلج فلم يستطيع الفرسان أن يتسللوا إلى الخارج ليجلبوا الميرة والذخيرة. ودام هذا الحصار الشديد سبعة أشهر قل فيها القوات وضاق الوسع وأوشك الصبر أن ينفذ. فتقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبد الملك إلى مجلس الحكم وقرر أن الجوع آت لا ريب فيه، وأن الدفاع عناء لا جدوى منه. فابتدره موسى بقوله: " إن نفوس المجاهدين الصابرين لا تعرف اليأس " ثم أمر ففتحت الأبواب وخرج بكتيسته إلى لقاء العدو وجهاً لوجه، وقال لفرسانه: " لم يبق لنا من الأندلس كلها إلا الأرض التي نقف عليها، فإذا فقدناها فقدنا الوطن والحرية " ثم حمل

بهم على المحاصرين حملة صادقة فكشفوهم عن المدينة، ولكنهم عادوا فأطبقوا عليها. واستمرت المعركة أيامًا على المد والجزر حتى مس الجنود الضر وساورهم اليأس فارتدوا إلى المدينة حتى لم يبق في المعركة غيره.

وفي مساء ذلك اليوم عقد الملك في بهو الحمراء مجلسًا من الفقهاء والزعماء والقادة قلبوا فيه الأمر على وجوهه المختلفة ثم اجتمع رأيهم على التسليم. وهنالك نهض موسى وحده يفند الرأي ويعارض الاستسلام ويحاول أن يبعث في النفوس القانطة روح الرجاء. قال فيما قال:

" يا قوم إن وسائلنا الدفاعية لم تنفذ بعد، فما زلنا نملك الوسيلة التي تبطل المستحيل وتصنع المعجزات وهي اليأس ! فلنحي في نفوس الشعب روح التضحية، ولنضع في أيديه السلام، ولنقاتل نحن وهو حتى نفنى جميعا. وإذا لم يجد كل منا القبر الذي يواريه، فإنه لن يعدم السماء التي تغطيه. ولخير لنا أن نحصى فيمن جاهدوا وقتلوا، ومن أن نحصى فيمن سلموا وسلموا..".

ولكن بلاغة موسى لم تصادف في هذه المرة هوى في النفوس فأعرضوا بأسماعهم عنها. وأجال الملك التعس نظره في الجلوس يجد على الوجوه إلا السهوم والوجوم، فصاح بأعلى صوته: الله أكبر ! فلتكن إرادة الله ! فردد القوم ما قال وبكوا، وإلا موسى فقد ظل صامتًا لا يتكلم، شاخصًا لا يطرف.

* * * * *

فلما رأى بعض الوزراء يخرجون ليفاوضوا العدو في تنفيذ المعاهدة ثار الدم في وجهه وقال: " يا قوم لا تخذعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن الأسباب إذا عاهدوكم يفون. إن الموت أقل ما تخشون. وسترون إذا سلمتم أن مدينتنا تخرب وأموالنا تنهب ونساءنا تستباح ومساجدنا تدنس ونواصينا تذل وأجسادنا تساط ودماغنا تراق وبقيتنا تنفى. سترون كل ذلك وأفزع منه يا من تضنون بنفوسكم على الموت الكريم، أما أنا فوالله لن أراه".

ثم نهض مسرعاً من مكانة فاجتاز (بهو الأسود) من قصر الحمراء ومضى لا يلوي على أحد حتى دخل داره فلبس سلاحه وركب جواده ثم خرج من باب (البيرة) إلى ظاهر غرناطة.

وهنا يقول المؤرخ الأسباني القس انطونيو أجابيدا: في عشية ذلك اليوم الذي خرج فيه بطل الأندلس على هذه الحال كانت كوكبة من الفرسان الأسبان يسرون على نهر شنيل فأبصروا في ضياء الغروب الشاحب فارساً مسلماً قد غاص هو وفرسه في الحديد، فاستوقفوه ليعرفوه، فعمد إلى كبيرهم فانتزعه من سرجه وضرب به الأرض. ثم حمل عليهم حملة من يطلب الموت، يهجم ولا يدافع، ويضرب ولا يتقي، حتى قتل أكثرهم.

ثم تناوشته السيوف من كل جهة فجرح، وأصاب الرماح فرسه فصرع. فلما خر مضرباً بدمه ترجل الفرسان ليحيوه أو ليأسروه، فجثا على ركبتيه: واستل خنجره وأخذ يشخن فيهم حتى خارت قواه من كثرة ما نzf من دمه وخشي أن يقع في أسر عدوه فارتد إلى الورا وقذف بنفسه في النهر فغاص من ثقل دروعه إلى قاعه.

فهل تجد فرقاً في غير الزمن والعدد بين أبطال بورسعيد وبطل غرناطة؟ إن للوراثة سرّاً يكمن في الدماء، وإن للجنس عبقرية تنتقل من الآباء إلى الأبناء.

لماذا يُقدس المصريون الخبز؟!

من العادات التي اعتادها المصريون دون غيرهم من سائر الناس تقديس الخبز دون غيره من سائر الأقوات. فترى المصري ولاسيما القروي يرى بقايا اللحم أو الخضر أو الفاكهة مطروحة على الأرض فلا تلفت نظره ولا تشغل باله.

وربما سقط من يده أو من فمه بعض البيضة أو الثمرة أو السجارة فيأنف أن يلتقطها ولا يكلف نفسه أن يجنبها وطء الأقدام التي تليه، ولكنه إذا وجد كسرة من الخبز على سواء الطريق أو على جانبه وقف وانحنى وبسمل وتناولها بخشوع ونفخ ما عليها من التراب وقبلها ثم حملها معه أو دفنها في مكان أمين!.

وترى القرويين إذا قعدوا للأكل جماعة حرصوا على أن يضعوا الخبز على شمائلهم أو فوق مناديلهم، فإذا انتثر منه فتات على الأرض سارعوا إلى التقاطه وتقبيله. فإذا ندت عن أحدهم فتية ولم يبادر إليها نهروه وقالوا " اللي ما يلم النعمة (يعمى) " وهم يطلقون على الخبز وحده لفظ (النعمة) أو لفظ (العيش) لأنه سبب النعيم والحياة. ومن آيات حبهم للخبز أنهم يسرفون في أكله، وأنهم يضعونه بركة في أساس البيت الذي يقيمونه، ويجعلونه تيممة في حزام الطفل الذي يعزونه. فما السر في هذه القداسة؟ وما السبب في هذا الحب؟

* * * * *

كان القمح وحده مادة القوت منذ درج المصريون على جنبات الوادي (لأن الذرة جاءت متأخرة من أمريكا). وكان فلاحنا القديم عبداً لهذه الحبة، لا يعمل إلا لها، ولا يهتم إلا بها، يبذرهما في غرين النيل حين ينحسر الماء بعد مائة يوم من شهر مسرى، ثم يطلق الخنازير في الحقل لتدفن البذور بأرجلها في القربة، ثم يتتبع أطوارها المتعاقبة من إبراق وإسبال وإحصاد، فيستفيد بالملاحظة والتجربة بعض العلم يصوغه في ضوابط مسجوعة لا تزال الأفواه تتناقلها من جيل إلى جيل، كقولهم مثلاً:

إذا صح قمح بابه، غلب النهاية.

هاتور، أبو الذهب المنثور.

في برمهات، اسرح الغيظ وهات.

في برمودة، دق بالعودة.

وهكذا تدور أمثالهم وتقصر أعمالهم على إنتاج هذه الحبة، كان إنتاجها موقوفاً بحكم الجفاف على فيضان النيل، وكان النيل بحكم الطبيعة يفي ويخلف.

فإذا وفي انطلق المنادون في الشوارع والأزقة، واحتفلت الحكومة بوفائه في العواصم والأقاليم، وجرت الجوارئ على مائه الذهبي بالبهجة والغبطة، فيرقص النساء ويغني الرجال ويكون من كل أولئك عيد قومي يدخل الأنس في كل بيت والسرور في كل قلب. وذلك لأن وفاء النيل معناه وفرة القمح ورخص القوت وتخلف الرباء. وإذا أخلف اقشعرت الأرض وماتت الحياة واشتد القحط وغلا القوت وفشا الطاعون وأصاب الناس بلاء عظيم.

* * * * *

كان نقص الفيضان نذيراً بالغلاء والوباء والانحلال والفوضى. وفي المقريري وابن إياس وأبي المحاسن والبغدادى من مؤرخي مصر صفحات سود عن المجاعات التي كابدها المصريون في السنين العجاف التي دبر أمثالها من قبل نبي الله يوسف ابن يعقوب.

من هذه المجاعات التي لازمها الطاعون (الشدة العظمى) التي ضربت على مصر الجوع والخوف والموتان ثمانية أعوام في عهد المستنصر بالله الفاطمي سنة 1053م حتى أكل الناس القطط والكلاب ثم أكل بعضهم بعضاً !.

والمجاعة الكبرى التي حاقت بالبلاد في عهد الملك العادل سنة 1201م فحولتها في بضعة أعوام مقبرة هائلة وارى فيها الموت الأسود أكثر الأحياء من غير لا حد ولا شاهد ! وكان يزور مصر وهي هذه المحنة عبد اللطيف البغدادى الكاتب العالم المؤرخ فكتب يصفها:

" ودخلت سنة سبع (597هـ) مفترسة أسباب الحياة، وقد يئس الناس من زيادة النيل، وارتفعت الأسعار، وأقحطت البلاد، وأشعر أهلها البلاء وهربوا من خوف الجوع،

وانضوى أهل السودان والريف إلى أمهات البلاد، وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجار واليمن، وتفرقوا في البلاد أيدي سبا، ودخل إلى القاهرة منهم خلق عظيم، واشتد بهم الجوع، ووقع فيهم الموت، واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والقطط والكلاب والبعر والأرواث. ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بني آدم! فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل... ورأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد أحضر إلى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما... ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضاً حتى تفانى أكثرهم. ودخل في ذلك جماعة من المياسير والمساتير، منهم من يفعله حاجة. ومنهم من يفعله استطابة!... وكثيراً ما يترامى النساء والوالدان الذين فيهم صباحة على الناس أن يشتروهم أو يبيعوهم.

وقد استحل ذلك خلق عظيم، ووصل سبيهم إلى العراق وأعماق خراسان.. ولو أخذنا نقتص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهذر. وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه، وإنما هو شيء صادفناه اتفاقاً، بل كثيراً ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره".

* * * * *

ذلك بعض ما كان يقاسيه المصريون في سني يوسف من فقدانهم حبة القمح وحرمانهم لقمة الخبز وما يتبع ذلك بالضرورة من انتشار الطاعون واضطراب الأمن. فإذا أدبرت السنون العجاف وأقبلت الأعوام السمان امتلأت الأجران بالحبوب الذهبية وأقبل الناس عليها فرحين مستبشرين يقبلونها بالأيدي، ويقبلونها بالأفواه، وينزلونها من أنفسهم منزلة حبات العيون وحبات القلوب فلا يتركون منها سنبلة في حقل ولا حبة في بيدر ولا عوداً في طريق!.

ثم يذكرون كلما رأوها تسيل دقيقتاً في الطاحون، أو تستدير رغفاناً في الفرن، أو تستحيل لقمًا في الفم، كيف كانوا يمسكون رmqهم في غيبتها بأكل الميتة وما هو شر من الميتة، فيزداد حبهم لها وضمنهم بها فينسبون إليها الأعاجيب، وينظمون فيها المواويل،

وينسجون حولها الأساطير، فيقولون مثلاً: إنها الحبة الوحيدة التي هبطت مع آدم وحواء من الجنة !.

تلك عهود خلّت ! وهيهات والحمد لله أن تعود !.

فمنذ العام الثاني من هذا القرن أمانة بخران أسوان الموت الأغبر وهو موت الجوع. وأمانة بالطب الوقائي الموت الرخيص وهو موت الوباء. وعلى الرغم من ذلك ما زلنا متأثرين بآلام الماضي ومآسيه فنسمي الخبز بالعيش (أي الحياة) وندعو على العدو بالكبة (أي الطاعون) ! وأغلب الظن أن هاتين الكلمتين المأثورتين لن تموتا من لغتنا المصرية حتى بعد (السد العالي) الذي سيحول الصحراء جنة، وسيجعل الناس من طغيان الصحة والقوة جنة !.

* * * * *

من أمجاد الجيش المصري

(ديسمبر سنة 1956)

- 1 -

كانت الأمة العربية في آخر القرن الخامس الهجري وما بعده قد أوهنتها العلل السياسية والاجتماعية حتى تركتها في نزاع الروح، كانت تسير في طريقها المظلم إلى مصيرها المبهم من غير قائد يقود ولا ذائد يزود ولا صالح يصلح! كان وطنها قد تقسمته الأطماع وحكمته الفوضى، وكان دينها قد أفسدته الأباطيل وشوّهته الجهالة.

وكانت الأقدار تجرى على سنة الله في المستضعفين من خلقه، تهىء الأسباب لعدوان القوى، وتعد الوسائل لسلطان القاهر: كانت تهىء بطرس الناسك ليهاجمها بعصية الصليب من الغرب، وتعد هولاء الفاتك ليدهمها ببربرية التتار من الشرق. وقضى الله أن يقهر الصليبيون القدس وأكثر بلاد الشام، وأن يجتاح التتار بغداد وأكثر بلاد العراق. وصحب هذين الباءين فواجه في الأنفس والأعراض والأموال لا يقاس بها ما قاسته بورسعيد على فظاعته! ذبح الفرنسيون الذين استولوا على بيت المقدس سنة 492هـ بقيادة جود فروادي بويون سبعين ألفاً من المسلمين ذبح الخراف، وقد بلغت دماؤهم المسفوكة في محراب داود ومسجد عمر ركبتي الفارس الصليبي كما قال المؤرخ الفرنسي "فك برنتانو"، وظن السفاكون الذين رسموا على قمصانهم أشرطة الصليب أن المسلمين قد ابتلعوا ما يملكون من النقود فكانوا يبقرون بطونهم لبيحوا فيها، فلما أتعبهم شق البطون وفتق المصران كدسوا جثث الأحياء والأموات أكداً وأوقدوا فيها النار وأخذوا يبحثون في رفاتها عن الذهب المصهور والجوهر المكنون! ومثل ذلك وأفضع منه فعله التتار في بخارى وبغداد!.

وعلى هذه الوحشية الطاغية ظل أجداد (جي موليه) ينشرون الفزع والجوع والذل في فلسطين والشام إحدى وتسعين سنة تددت في عواصفها أضواء الإسلام، وتطامنت في زلازلها كبرياء العروبة. ووقع بعد قرن ونصف من الزمان ذلك الطوفان الدموي الذي فار في الشرق بتغلب التتار على الخلافة في العراق ثم انتشر حتى اجتاحت الشام

وهدد مصر، فدجا الظلام حتى كاد يسطو على نور الوحي، وكلب الزمان حتى كاد يعفي على تراث النبوة. ولولا أن تداركهما الله بالجيش المصري فسحق الصليبيين في (حطين)، ومحق التتار في (عين جالوت) لحلت الكارثة!.

- 2 -

سار صلاح الدين سلطان مصر بجيشه المظفر إلى إمارات الفرنج بفلسطين وسورية مخترقاً جبال سيناء الوعرة في وقدة القيظ حتى احتل طبرية. وفطن الأمراء الصليبيون لما يريد فاستنفر بعضهم بعضاً وتجمعوا بصفورية. وفي اليوم الرابع من شهر يوليو سنة 1187م التقى الصليب والهلال على تلال " حطين ".

فلما تراءى الجمعان ثارت في دماء المصريين حمية الجهاد فمسحوا اللاتين بالسيف وكسحوهم بالخيـل حتى قال المؤرخ الفرنسي م. بوجولا في كتابه تاريخ أورشليم: " لقد استحر القتل والأسر بالصليبيين حتى كان من ينظر القتلى يظن أن المسلمين لم يأسروا أحداً، ومن ينظر الأسرى يظن أنهم لم يقتلوا أحداً ".

وانخلعت لهذا النصر المبين قلوب الأمراء المستقلين بالمدن الساحلية من فلسطين وسورية فاستسلموا لصلاح الدين ونزلوا على حكمه. وبذلك تطهرت فلسطين من رجس الدخيل الباغي فلم يبق في أيدي الفرنج منها إلا القدس وقد لجأ إليها المنهزمون من المدن المفتوحة، فسار إليها السلطان البطل من عسقلان، وكان حريصاً أن يجنبها ويلات الحرب لقداستها المشتركة بين الأديان الثلاثة، فاستوفد إليه بعض زعمائها وطلب منهم تسليم المدينة فأبوا إلا القتال فأقسم ألا يأخذها إلا بالسيف، وأمر الجيش فسلط على أسوارها المنيعة قذائف الدمار، فلما استيقن " يليان " أن السور لا يمنع وأن القتال لا يدفع، طلب الأمان فأباه عليه السلطان لئلا يحث في يمينه، فقال له " يليان " بلهجة اليأس: إن في المدينة ستين ألف مقاتل سيخرجون إليك بعد أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم، ويدمروا متاعهم وأموالهم، ثم يقاتلوا حتى يُقتلوا. فارتاع صلاح الدين لهذا التهديد واستفتى الفقهاء في يمينه فأفتوه بأن ما وقع من القتال وراء السور كاف لإبرار قسمه، وأن في وسعه أن يعتبر من في المدينة من الصليبيين أسرى حرب، فأخذ بهذا الرأي وجعل الفداء عشرة دنانير عن كل رجل، وخمسة عن كل امرأة، ودینارًا عن كل

طفل. وأجلهم أربعين يومًا يؤدون إليه فيها الفداء، فمن وجد منهم في المدينة بعد انقضاء الأجل المضروب أصبح مملوكًا للسلطان. ودخل جيشنا المدينة دخول المهاجرين يشرب: ذكر الله على لسانه، وتقواه ملء قلبه، فلا عين تمتد إلى متاع، ولا يد تنبسط بمكروه. وقام الجباة على الأبواب، فخرج " يليان " ومعه سبعة آلاف فقير أدى عنهم الفدية. وأقبل في عقبه البطريك الأكبر ومعه كنوز الكنائس من جواهر وذخائر وأموال، فلم يعرض صلاح الدين لشيء مما معه على الرغم من اعتراض أصحابه، وأبى أن يأخذ إلا الدنانير العشرة المقررة. ثم انقضى الأجل ولا يزال في المدينة آلاف من الفقراء الذين لا يملكون الفداء فأصبحوا أرقاء.

قال المؤرخ الصليبي " أرنول " وكان فيمن شهدوا ذلك اليوم: " فتقدم العادل إلى أخيه صلاح الدين وقال له: سيدي، إني أعتك والحمد لله على فتح هذه البلاد، فهب لي ألفًا من أرقاء هذه المدينة. فلما أجابه إلى ما طلب أعتقهم من فوره. وتقدم " يليان " والبطريك إلى السلطان بما تقدم به العادل، فوهب كلا منهما ألفًا فأعتقاهم. والتفت صلاح الدين إلى من حوله وقال: لقد أدى أخي صدقته وكذلك فعل " يليان " والبطريك، وبقي أن أؤدي أنا أيضًا صدقتي. ثم أمر بأن ينادى في المدينة أن العاجز عن أداء الفدية حر لوجه الله وله أن يخرج! فاستغرق خروجهم بياض النهار لكثرتهم كما قال أرنول.

فأين ما فعل صلاح الدين مما فعل جود فروا؟! أليس الفرق بين الفعالين هو الفرق بين الكفر والإيمان، وبين الوحش والإنسان؟!

- 3 -

استولى السفاح هولاكو على العراق سنة 656هـ ثم اندفع منه إلى الشام اندفاع السيل الجارف عليها، ثم وقف بجنوده القساة على حدود مصر، فلو أنه فتحها لفتح المغرب العربي كله ودمر الحضارة الأوروبية تدميرًا لا حيلة فيه ولا نجاة منه كما يعترف بذلك المؤرخون الأوروبيون أنفسهم. وتلك يد أخرى للجيش المصري على العالم بأسره.

أرسل هولاء إلى سلطا مصر الملك المظفر يتوعده ويتهدده إذا لم يبذل الطاعة ويقر بالخضوع. فثارت به الحمية وملكته غزة النفس واستنفر المصريين لجهاد التتار فنفروا خفاً وثقالاً وهم يعلمون أن العدو الذي لم يهزم قط بلاء لا يكشف وقضاء لا يرد، فسار بهم إلى فلسطين مقدماً أمامه الأمير بيبرس وجرت بين المصريين والتتار موقعة عظيمة عند عين جالوت في شهر رمضان من سنة 658.

يقول المقرئ في وصف هذه المعركة: " فلما كان يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان اصطدم العسكران وفي قلوب المصريين وهم عظيم من التتر، وذلك بعد طلوع الشمس وقد امتلأ الوادي، وكثر صياح أهل القرى، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء فتحيز التتر إلى الجبل، فاضطرب جناح السلطان وانتفض طرف منه، فألقى الملك لمظفر عند ذلك خوذته عن رأسه وصرخ بأعلى صوته: وا إسلاماه ! وا إسلاماه ! وحمل بنفسه وبجيشه حملة صادقة فكسروا التتار ثلاث كسرات في ثلاث مرات. وقتل قائداهم كتبغا وانهزموا هزيمة منكرة صدتهم عن مصر وأجلتهم عن الشام وردتهم إلى العراق.

هذان مجدان من أمجاد الجيش المصري كان فيهما مثابة لأمن الشرق وملاذاً لثقافة الإسلام وحمى لحضارة العالم. ولن يكون مجده في بورسعيد آخر أمجاده، ولا جهاده الصادق فيها أعظم جهاده.

ساعة حرجة من يوم عصيب

كنا نشيع جنازة الشهداء الأربعة الذين قتلهم جنود الاحتلال الانجليزي في المظاهرة الكبرى التي قامت في اليوم الثامن من شهر إبريل سنة 1919 واشترك فيها علماء الأزهر وقساوسة الأقباط ورجال القضاء والمحاماة وضباط الشرطة والجيش وطلبة المدارس والمعاهد وموظفو الدولة والشركات وأعضاء الجمعية التشريعية وتجار القاهرة وشيوخ القبائل وسائر الطبقات من العمال والصناع والباعة، ومن ورائهم جميعاً أرتال السيارات والعربات تحمل السيدات والأوانس. وتعرض لها الأستراليون الغلاظ بالرصاص، ورد عليهم المتظاهرون العزل بالطوب، فقتل منا أربعة وجرح كثيرون. وتفرق هذا الجمع الحاشد الحاقداً ليجتمع في ضحوة اليوم التالي ليشيع جنازة شهدائه ويتحدى ببسالته ندالة أعدائه.

ولم يكد المشيعون يبلغون ميدان القلعة حتى وجدوا الطريق إلى مقبرة (الإمام) مسدوداً بكتل من الجنود الحمر في أيديهم السلاح وفي عيونهم الشر، فتركوا النعوش تمر وحجزوا من خلفها السيل الدافق من الناس، وانهالوا عليهم دعساً بسنابك الخيل، وطعنوا بأسنة البنادق، وترويعاً بطلقات الرصاص، فتدافع من تدافع، وتراجع من تراجع، وتمزقت الجموع المذعورة في كل طريق.

ووجدنا أنفسنا في حي السيوفية نختفي تارة ونظهر، ونسرع حيناً ونبطئ، وصفير الرصاص تسمعه من كل اتجاه، وفزع الناس تراه في كل مكان، حتى دفع بنا الطريق إلى شارع عبد العزيز فإذا بنا في وسط معركة دامية بين الشعب والإنجليز، فيها المتاريس على مدارج الطريق، والخنادق على أفواه الأزقة، والناس مستبسلون في الدفاع، يتلقون بصدورهم رصاص الإنجليز والهنود من الشوارع، ورصاص الأرمن واليهود من البيوت. فتسللنا لوأداً إلى المسالك الضيقة المتشعبة، فتسكعنا فيها طويلاً حتى قرت الفورة وهدأت الحركة وتفرق الجمعان. وآن لنا أن نستريح قليلاً من الفزع والإعياء فدخلنا قهوة (نيوبار) بميدان الأوبرا.

كنا ثلاثة أئحداً الأستاذ يوسف الجندي رحمة الله عليه وكان قد لجأ منذ أيام إلى القاهرة فاراً من القوة الأسترالية التي احتلت مدينته (زفتى).

وكانت زفتى كسائر مدن الوادي وقراه قد رفعت علم الثورة، فدمرت السكة الحديدية، وقطعت المواصلات التلغرافية والتليفزيونية، وتآلفت بها لجنة لقيادة الثورة برئاسة الأستاذ الجندي، فأعلنت استقلال المدينة بشؤونها السياسية والإدارية، وانضوى إليها مأمور المركز والذين معه من رجال الشرطة.

وتأدى الخبر إلى السلطة العسكرية البريطانية فجهزت إلى زفتى قوة من الجنود الأستراليين فحاصرتها، واستعد الأهلون للدفاع فأعدوا البنادق، وحفروا الخنادق، وأقاموا السدود، وتهيأ الأستراليون للهجوم فظموا القوة وصوبوا المدافع وشرعوا الأسنة، وأوشكت الواقعة أن تقع لولا أن تدارك الخطب مأمور المركز فنصح لأهل المدينة أن يسالموا ولا يقاوموا فانتصحووا بقوله، ودخل الجنود زفتى، وهمهم الأول أن يقبضوا على أعضاء لجنة الثورة فلم يجدوا في القوم من يرشد إليهم، وكان يوسف حاكم زفتى قد توقع هذه العاقبة فتزيا بزي الفلاح وخرج من المدينة المحاصرة بليل، ومضى على وجهه ينتقل من قرية على قرية حتى دخل القاهرة ونزل على أصدقائه الأذنين ومن أخصهم الأستاذ محمد فريد أبو حديد، وظل مطلوباً إلى المحكمة العسكرية حتى أفرج عن سعد وتآلف الوفد.

أما أنا فكنت يومئذ ألبس الجبة والقفطان وأدرس الأدب العربي في المدرسة الإعدادية الثانوية التي أسسها المغفور له الشيخ عبد العزيز جاويش، وكان طلابها يربون على الألف وأكثرهم ممن أخرجوا من مدارس الحكومة لوطنية السلوك أو علو السن، فلما حان حين الثورة كانوا هم وطلاب مدرسة الحقوق أول من جمعوا لها الحطب وأوقدوا فيه النار، ومن هاتين المدرستين تآلفت اللجنة التنفيذية للطلبة وكان عدد أعضائها خمسة وعشرين، وكان عملي في هذه اللجنة أن أشارك من بعيد في تحرير المنشورات الثورية التي كانت توزعها سرّاً في أنحاء البلاد، وكنت أحمل منها دائماً صوراً مخطوطة أو مطبوعة.

وبينما كنت أقرأ على صاحبي مسودة منشور جديد ونحن جلوس إلى إحدى الموائد الداخلية، إذ حاصر الإنجليز القهوة من كل جانب وأمروا الناس ألا يتحركوا، فالقاعد لا يقوم، والقائم لا يقعد. وأخذوا يفتشون عن الأسلحة والأوراق وبدأوا

التفتيش من خارج القهوة، وكان معي ورق ومع يوسف مسدس، والعثور في جيوبنا على هذا وذاك عريضة اتهام صريحة إلى المحكمة العسكرية البريطانية، وإذا شهد خطي عليّ بأنني أحرص المؤمنين على القتال، وأثبت التحقيق أن يوسف هو (إمبراطور زفتى) الهارب، كان الحكم الذي لا دافع له ولا رحمة فيه.

سارع الجالسون إلى جيوبهم أثناء الفرزة المفاجئة فألقوا بمسدساتهم على الأرض في القهوة بعيداً عن الموائد، وأخفى بعضهم ما معه منها في (الطاولات) وأطبّقوها على الأقسطة والزهر، واحتل الجنود القهوة ليراقبوا حركات الجلوس أثناء هذه (العملية)، وكان المرحوم يوسف قد أخرج مسدسه من جيبه ثم أعجلته الحال فلم يملك أن يرده إليه ولا أن يلقيه عنه فوقفت به يده تحت المنضدة، وحاولت أن أجد مخرجاً من هذا المأزق المهلك فانحنيت قليلاً على المائدة ومددت يدي فأخذت المسدس وغيبته في جيبِي، ثم تلملت في كرسيّ كأنني أريد أن أريح جسمي بوضع آخر.

ولم تغب هذه الحركة عن عين الجندي المراقب فأقبل عليّ والغضب في وجهه يزجر بكلام لم أفهمه. ونظر إليّ فلم أقل شيئاً، ونظر إلى الأرض فلم يجد شيئاً، فوقف على رأسي وقفّة السياف يتربص بي حكم القدر، وخشعت الحركة في القهوة وعمّ الصمت، وجاشت الهموم في الصدور وزاد القلق، وشغلّنتي رهبة الموقف عن التفكير فيما نحن فيه وفيما نصير إليه، وفيم يفكر السائر الأعزل إذا دهمه قطاع الطريق، أو الأسير المقيد إذا أحرق به جيش العدو؟ إن الأمل الوحيد الذي كان يشيع في اضطراب نفسي، ويشع في ظلام يأسِي، هو أن العمامة ربما توهمهم أنني من رجال الأزهر، وهم على قسوتهم يظهرون شيئاً من الرحمة برجال الدين.

وجاء دورنا في التفتيش، ففتش الضابط صاحبي تفتيشاً دقيقاً فلم يدع جيئاً من جيوب الجاكتة والبنطلون إلا مر عليه بيديه، ثم أشار إليّ أن أقف فوقفت ممتقع اللون واجف القلب، ووقف الرجل أمامي لحظة لا يتكلم ولا يتحرك، حار في أمري، كيف يفتش ثوبي، وأين يجد جيبِي؟ إنه يعرف جيوب (الأفندية) لأنها كجيوبه، أما جيوب (المشايع) فلا يعرف أين تكون. أتكون في الأعلى أم في الأسفل، أم تكون في الخلف أم في الأمام؟.

وكان لابد للضابط أن يخرج من حيرته وسكونه، فاكتمى بأن مر يديه مرًا خفيًا فوق صدري وتحت إبطي، وكان المخبأ لو علم يتدلى على ركبتي! ثم ابتسم وانصرف إلى غيري!.

* * * * *

وانتهت (الكبسة) بأن أمر جنوده فالتقطوا المسدسات المطروحة على الأرض وخرج بهم إلى قهوة أخرى. وتنفسنا الصعداء وانفجرت صدورنا بالتشهد!.

وكنا كلما جرنا الحديث إلى هذا الحادث نقول: إننا مدينون بحياتنا أو بحريتنا لذلك القفطان المبارك! وهذا الدَّين هو الحسنة الوحيدة التي أذكرها لهذا الزي؛ وكفى بها حسنة!.

قريتي منذ ستين سنة (صورة من الذاكرة)

ترتد حياة الشيوخ إلى الماضي حين تصطدم بالنهاية، فهم يعيشون بالذكري، وتندفع حياة الشباب إلى المستقبل حين تنطلق من البداية، فهم يعيشون بالأمل، فالعيش في الشيخوخة اجترار⁽¹⁾ ومن لوازم الاجترار التفكير والتأمل، والعيش في الشبيبة أكل، ومن لوازم الأكل الاستمرار⁽²⁾ والتذوق.

فأنا حين ألتفت بقلبي إلى ذكريات الطفولة ومسرات الحداثة أطاوع هذه النزعة الطبيعية في كل شيخ. ولا أقصد ما يقصده أصحاب الحاضر الفارغ حين يجدون أنفسهم عاجزين عن مجاراة العصر في تنعمه وتقدمه فيقولون في حسرة نفس وهزة رأس: " والله كان زمان ! ".

إن حياة القرية التي أصور لك جانباً من جوانبها في هذا الحديث لا يُقاس بحياتها التي تحياها اليوم، لا في اتصالها الوثيق بالشعور العام، ولا في إدراكها الصحيح للوطن المشترك، ولا في تأثرها المباشر بالحضارة الحديثة، ولا في تمتعها النسبي بالعيش الناعم.

كانت حين فتحت عيني على الدنيا وحدة من الناس والأرض لا يربطها بالعالم الخارجي إلا سبب ضعيف من الإدارة أو التجارة. كان لا يدخلها على أهلها إلا مفتش الصحة كلما فشت الحمى فيأمرهم بالكنس والرش وتبييض الجدران ثم يذهب ولا يعود إلا مع الوباء. فإذا أقبل شهر أكتوبر من كل عام أقبل عليهم تجار القطن من الأروام إقبال الربيع، فتمتلئ الأيدي بأعواد القصب والبرتقال والبلح، وتشرق دور العرسان باللعب واللهو والمرح.

(1) قلت: اجترار: أي تكرار وإعادة، اجترُّ الكلام : كرّره ، أعاده مرّات من غير الإتيان بشيء جديد يجترُّ أفكار السابقين. ما جاء في كلامه مجرّد اجترار : إعادته الكلام نفسه في كلّ مرّة.

(2) قلت: استمر الطعام وغيره : وجده مقبولا مستساغاً ، استطابه.

أما قرية اليوم فقد غدت بفضل السيارة واتساع الحضارة ضاحية من ضواحي المدينة تنعم بما تنعم به من طيبات الرزق ومرفهات المدينة، ولكن هل استطاعت بأغاني الإذاعة وملاهي السينما وأحاديث المقاهي أن تنعم بما كانت تنعم به قرية الأمس من سعادة النفس وسلامة القلب وهدوء البال؟ ذلك ما أشك فيه.

من الصور التي لا تزال عالقة بذاكرتي من صور القرية القديمة صورة العرس، وهي إحدى الصور التي محاها أو شوهاها التطور الاجتماعي الحديث. ومن الخير أن تسجل أصلها في محفوظات الفن وسجلات التاريخ.

كانت الأعراس في الريف، تُقام غالبًا في الخريف بعد أن يستبدل القرويون الذهب الأصفر وهو الجنية بالذهب الأبيض وهو القطن، فتدور الطاحونة على قمح الوليمة، ويجتمع النساء في دار العرس يغربلن ما يحمل إليها، وينخلن ما ينقل منها، وهن يغنين الأغاني التقليدية بأنغام ساذجة ممدودة يستوي في أدائها الصوت الحسن والصوت المنكر.

فإذا أقبل المساء أوقدت الفوانيس وغصت الدار والساحة بالشباب والكهول لا يتخلف منهم إلا الشيخ الفاني والمريض الموجه، فبعضهم يلعبون الصينية وهي لا تلعب إلا في الأعراس إذ يفترق اللاعبون فرقتين ثم يأتون بصينية القهوة ويصفون الفناجيل على شكل دائري، ثم يخبئ رئيس الفرقة البادئة خاتمًا تحت فنجال من الفناجيل ويطلب من الفرقة الأخرى كشفه بالتخمين، فإذا كشفه هو أو أحد رفاقه انتقلت الصينية إليهما، ولهم في الربح أو الخسارة اتفاق يحدث من تنفيذه كركرة وتصفيق وهتاف يشيع في الدار الأانس والبهجة.

أما الآخرون فبعضهم يجتمعون على الزمر بالأرغول أو الناي، والنقر على الطبل أو على الطست، وبعضهم يتحلقون حول شاعر ينشد أو قصاص يحكي، وتظل القرية على هذه الحال، حتى إذا لم يبق على يوم الزفاف إلا أربعة أيام ذهب نفر من أهل التجربة إلى البندر فقاولوا الطبال والفراش والطاهي وقضوا لكل منهم حاجة عمله.

وفي ضحى اليوم السابق ليوم العرس يسيل طريق القرية بالحمير والجمال تحمل هؤلاء وما معهم من فراش وآلة، فإذا بلغوا مدخل البلدة نزل الطبالون فنقروا على الطبول ونفخوا في المزامير ودخلوها في موكب من الناس عظيم.

وأول ما كان يعمل صاحب الطبل أن يخرج من الفرقة طبالاً وزماراً ومهزّجاً ليجمعوا من الدور الخرق والأطباق والقدور، فكانوا يسرون في الأزقة وعن يمينهم كاتب وقلم، وعن يسارهم حمار وكيس، ومن حولهم حشد حاشد من الأطفال يساعدون النقر والزممر بالصياح والجلبة، فيكون من ذلك كله افتتاح طنان لمهرجان الفرح، كانوا يقفون على كل دار ريشما تخرج إليهم صاحبتهما بالخرقة فيضعها صاحب الحمار في الكيس، أو بالطبق فيكتب صاحب القلم على ظاهره اسم المرأة، فإذا رجعوا أخذ الطاهي القدور ليركبهما على الوجاق⁽¹⁾، والأطباق ليملاها بقرم الدين، وانفرد مهرج الطبل بكومة الخرق البالية ليلفها طبقات على جرائد النخل أو على أعواد القطن، ثم يشد كل منهما بالخيط حتى تتجمع، ثم يغمسها بالزيت حتى تتشبع. وهذه هي المشاعل التي تستضيء بها زفة العريس بالليل.

ها هم أولاء في عصر ذلك اليوم وقد نُصِب السُرادق وُصِفَت الدكك، وتربع فوقها القوم وأدخل أبو سعد في فمه المزمارة، وأقبل المزين يحمل حقيبته ويجلس في وسط السرادق على حصير، فيهيئ العدة ويضع بجانبه الطاسة التي يبل بمائها الشعر، ثم يأتي العريس والصبيان الذين سيزفون زفة الختان من إخوته فيجلسون بين يديه فيجري موساه على رؤوسهم بأشكال من النقش والزينة تختلف في رأس العريس عنهما في نواصي المطهرين.

وفي أثناء ذلك تفرع الطبول وترجّع المزامير وتجلجل الزغاريد وتتساقط قطع النقود في طاسة المزين، ثم ينصرفون إلى داخل الدار ويلحق بهم الحلاق فيغسل أجسادهم بالصابون ويخضب أطرافهم بالحناء.

(1) قلت: أوجاق (بالتركزية الحديثة: ocak، ومعناها الأصلي: الموقد، ثم عُربت إلى وجاق).

ثم ينتقل الحفل إلى دار العروس فتفعل الماشطة بها ما فعله المزين بالعريس، وبيت العروسان ساهرين على كرسيين لا يبسطان يداً ولا يحركان قدماً ومن حولهما الأقارب والأصحاب يغنون ويرقصون ويسمرون حتى مطلع الفجر، فإذا صلى الناس العصر من يوم الزفاف أُقيمت في الشُرادق حفلة كحفلة الأمس، وجاء العريس فوقف فوق إحدى الدكك، وأقبل المزين وفي يده صرة فيها ثياب الفرح من عمامة وجبة وقفطان وحزام وحذاء، فينزعه عن العريس الواقف ثيابه القديمة قطعة قطعة، ثم يلبسه الجديدة قطعة قطعة، وكلما نَصَا⁽¹⁾ عنه ثوباً وألبسه ثوباً تغيرت دقة الطبل ونغمة المزممار وزغرودة النسوة وقيمة التقوط حتى يأخذ زينته كاملة فيعود إنساناً آخر عليه رواء الغواني وأبهة الملوك. وحينئذ يأتونه بفرس مُطَهَّم⁽²⁾ فيستوي عليه، وقد يركبون العروس خلفه، أو يفردونها في محمل على جمل. ثم يسير موكب الزفاف يتقدمه هواة " البرجاس " ثم لاعبو " الحطب " ثم فرقة الطبل، ثم هودج العروس، ثم المطهرون يسندهم على صهوات الخيل بعض الشباب، ثم القرية كلها تغرق هؤلاء جميعاً في موج حي يصطفق بالسرور ويصطخب بالمرح، ويستمر الموكب دائراً حول البلدة حتى يعود إلى حيث بدأ. وهنالك يحمل العريس عروسه على صدره بين الزغرودة والتصفيق ورش الملح ويمشي بها مثاقلاً حتى يلقيها على السرير في غرفتها الخاصة. ثم يعود إليها في منتصف الليل بعد زفته الصاخبة فيغلق الباب ويؤدي مع الماشطة عملية جراحية من غير مخدر، فيعلو الصراخ في الداخل، ويغطي عليه زياط القوم في الخارج، حتى تخرج من غرفة العملية امرأة من أهل العروس تزغرد وهي ترفع بيديها شاشة بيضاء قد بقعها الدم فيتهلل المنتظرون ويضحون بالأغنية المعروفة " بيضت الشاش يا عروسة ! " .

وفي تلك الهوسة يخرج العريس كالقذيفة هارباً إلى الحقول في أثره الشباب الأعزاب، فإذا أدركوه تناولوه باللكم والقرص والعض وعادوا به دامياً كالعروس! وفي الصباح توزع الفطائر وبقايا الحلوى على كل من أعان أصحاب العروس بخدمة أو دابة

(1) قلت: نَصَا النَّوْبَ عَنْهُ : خَلَعَهُ وَأَلْقَاهُ عَنْهُ ، نَزَعَهُ.

(2) قلت: جَوَادٌ مُطَهَّمٌ : مُكْتَمِلٌ ، تَامٌ ، مُتَنَاهٍ فِي الرَّشَاقَةِ .

أو ماعون، بينما يكون الطبالون قد أخذوا يعملون الصباحية فينصب رئيسهم راية فوق السطح، ويخطب خطبة في الدهليز، ويشنق أم العريس بشال عمامته ولا يفك عنها إلا إذا فداها أبوها وأخوها بقدر من المال !.

تلك هي الخطوط المشخصة لعرس القرية القديمة رسمتها على أسلوب المقالة، ولو رسمتها على أسلوب القصة لكانت الألوان أزهى والظلال أدل والتفاصيل أكمل.

جَزِيرَةُ الرُّوضَةِ فِي التَّارِيخِ

ضحوت الشمس على سطح داري بجزيرة الروضة، وكانت برودة الريح قد ضربت في حرارة الشمس فدفع الجو دفئاً معتدلاً يلذ الشعور به ويطيب المكث فيه. وإذا عمك الدفء وشملك السكون وعزلتك الوحدة فلا مفر من حديثك إلى نفسك وانطوائك على وعيك.

وكان الذي مهد للحديث بيني وبين نفسي وقوع بصري على جامع قايتباي الذي بناه القاضي فخر الدين ناظر الجيش سنة 730هـ وجدده الملك الأشرف قايتباي، وهو قبالة داري من جهة الغرب، فمثل لخاطري الشيخ جلال الدين السيوطي وهو يغدو إليه كل يوم من داره المجاورة له فيعقد فيه مجلساً للعلم والأدب يغشاه طلاب المعرفة من القاهرة والجيزة. ثم يخرج في أيام الثلاثاء إلى "المشتهى" وهو منتزه أريض كان يقع في شرقي هذا الجامع ويطل على الفرع الصغير للنيل. وقد طاب مقام السيوطي بجزيرة الروضة وأحبها فاقضاه هذا الحب أن يكتب في تاريخها كتاباً جامعاً سماه "كوكب الروضة".

ثم رجعت بي الرؤيا الخيالية إلى ماضي هذه الجزيرة التي خلقتها الطبيعة على صورة سفينة هائلة أرسى على مدى قصير من ساحل مصر القديمة، مقدمها اليوم قصر المنسترلي والمقياس، ومؤخرها المستشفى الجامعي وفونتانا، فوجدتها على توالي القرون وتعاقب الدول قد كانت إما حصناً يحفظ الأموال والأنفس، وإما روضاً يمتع الأرواح والحواس.

اعتصم بحصنها القديم المقوقس حين استولى العرب على قصر الشمع فحطم الجسر ثم مكث بها هو ومن تبعه من الروم والقبط ردحاً من الزمن، ثم أخلاها المدينة العربية فقامت بها القصور والدور والرياض في ولاية عبد العزيز بن مروان. وكان مقياس النيل في حلوان، فلما سقط عموده هناك أمر سليمان بن عبد العزيز عامله أسامة ابن يزيد أن يقيمه في الطرف الجنوبي من الجزيرة، فأقامه ولا يزال.

وكان على الأرض الواقعة على الشمال من المقياس دار الصناعة فنقلها محمد ابن طنج الإخشيد إلى ساحل الفسطاط سنة 325هـ وشاد في مكانها قصرًا سماه "المختار" كان آية في جمال الفن وغاية في حسن الزخرف، وظل بستانه متنزه الخاصة في عهدي الإخشيدية والكافورية وأوائل عهد الفاطمية. وكان البنيان في الجزيرة قد اتصل والعمران قد استبحر حتى عينوا لها واليًا وقاضيًا وقالوا في التقسيم الإداري لحاضرة الدولة: القاهرة ومصر والجزيرة. فلما استبد الأفضل ابن أمير الجيوش بأمور الخلافة خط له في شمال الجزيرة بستانًا وقصرًا سماه الروضة فسميت الجزيرة كلها باسمه.

* * * * *

وكان الخليفة الأمر بأحكام الله مولعًا بالبدويات الحسان، فترامى إليه أن بالصعيد أعرابية بارعة الحسن تقول الشعر وتجيد الحديث تسمى الغالية، فتزوجها بقوة السلطان ونقلها إلى قصره فضاقت نفسها فيه واشتهت الفضاء، فبنى لها على النيل في جنوب الروضة قصرًا على طراز فريد سماه الهودج.

وكانت الغالية تحب فتى شاعرًا من بني عمها يقال له: ابن مياح، فنازعته نفسها إليه وبرمت بمقامها عند الخليفة. ولج المصريون بحديث الغالية وابن مياح، وشاع في الناس أن الشاعرة أرسلت إلى الشاعر هذه الأبيات:

يا ابن مياح إليك المشتكى	مالك بعدكمو قد ملكا
وأنا الآن بقصر موصد	لا أرى إلا خبيثًا ممسكا
كم تشنينا كأغصان النقا	حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى	حيثما شاء طليق سلكا

فأجابها بقوله:

بنت عمي والتي غذيتها	بالهوى حتى جلا واحتبكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها	لو غدا ينفع منا المشتكى
مالك الأمر إليه يشتكى	هالك وهو الذي قدا أهلكا
شأن داود غدا في عصرنا	مبدئيًا بالتيه ما قد ملكا

وبلغت هذه الأبيات مسامع الخليفة فقال: لولا بيته الرابع لجمعت بينهما على شريعة الله.

ولهذه القصة سابقة ولاحقة. فأما السابقة فقصة ميسون زوج معاوية فقد أتى بها من القفر إلى القصر ولكنها لم تلبث أن قالت:

ليبت تخفق الأرواح فيه أحب إلى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقرَّ عيني أحب إلى من لبس الشفوف
وخرق من بني عمي نحيف أحب إلى من علج عنيف

وأما اللاحقة فقصة البدوية التي تيمت الخديوي فؤاد عباس الأول فتزوج منها وأنزلها قصرًا في ظاهر القاهرة وأخذ يختلف إليها سرًا حتى أنقذها منه من اغتاله في قصره بينها.

وسار على الأفواه حديث هذه البدوية فنُسجت حولها الأساطير ونظمت فيها الأغاني. ولا يزال المغنون يرددون هذه الأغنية: "يا حالي ع البدوية".

* * * * *

وفي أواخر الدولة الأيوبية ابنتى الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة بهذه الجزيرة فخرَّب المختار والهودج؛ ودمر الدور والمساجد، وقطع النخل والشجر، ثم رفع أبراجها الستين على المثلث الجنوبي كله من الروضة. ثم جعلها مقر ملكه ومعسكر ممالكه ومستودع أسلحته. كان من مفاخر هذه القلعة الإيوان الملكي الذي أفتنت فيه الأيدي الصنائع فصفحوا أبوابه بالذهب، وجللوا جدرانها بالمرمر ووشوا سقوفه بالزخرف، وزينوا أرضه بالمجزع. ثم جعلوا من وراء سورته معرضًا لسباع الوحش والطير يتفرج به السلطان، ومن خلف معرضه مروجًا يتدفق فيها النيل، فيكون لها منظر رائع وهي المنيل.

فلما حكم المماليك تقسموا أبراج القلعة ونقلوا ما كان فيها من رخام وحجر وخشب فبنوا به بعض المباني العامة. ثم جرت بعد ذلك على الجزيرة جوار بالأنس والوحشة وبالنعيم والبؤس حتى استهل العصر الحديث فاختط إبراهيم باشا البستان

الكبير في طرفها الشمالي وجلب إليه النوادر من الشجر والزهر، والأوابد من الوحش والطيور، وشق به القنوات وسلسل فيها الماء، وأرسى الروابي ونمنم فوقها النبات، على نحو ما نرى اليوم في بستان الخديوي إسماعيل بالجيزة " حديقة الحيوان "، ثم جعله منتزها للناس يرتادونه في الأعياد والمواسم.

وبنى حسن باشا المناسترلي كتحدا مصر في عهد عباس الأول قصره في طرفها الجنوبي. ثم قضى نظام الطبقات أن يسكن العامة الجانب الغربي على النيل الكبير، وأن يسكن الخاصة الجانب الشرقي على النيل الصغير، فبنى إسماعيل قصره وبستانه في الشرق من جامع قايتباي وهو قصر محمد علي الذي صار متحفاً في عهد الثورة. ثم تتابع السراة على البناء فقامت قصور قاسم باشا وذي الفقار وعلي شريف وسليم الجزائري، ونشأت بساتين شاكر بك والبارودية والمندورة، ثم عبثت يد الفناء بالناس، وعصفت ريح البلى بالدور، فذهبوا وبقيت الأطلال !.

ثم جرى على هذه الأطلال حكم الديمقراطية فتوزعها الشعب وأقام على القصور دوراً ومدارس، وعلى الدوائر عمائر ومتاجر، وعلى اللهو إنتاجاً وخدمة.

* * * * *

على أن الروضة كانت في عهودها المختلفة أرحب البقاع صدراً بالشعب، فكانت متنفسه في الضيق ومستراذه في النزهة ومحتفله في المواسم، وبخاصة في يوم شم النسيم وفي ليلة الغطاس، وهي الليلة الحادية عشرة من شهر طوبة، وكان الأقباط يحيونها في الروضة فيوقدون النيران ويشعلون المشاعل ويتبسطون في القصف والعزف واللهو حتى تحين الساعة فيغطسوا وينصرفوا..

وكان المسلمون حتى الخلفاء يشاركونهم في إحيائها بالوقود واللهو، قال المسعودي في مروج الذهب: " حضرت سنة 330 ليلة الغطاس بمصر، والإخشيد في داره المعروفة بالمختار في الجزيرة، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشموع. وقد حضر النيل في تلك الليلة ألوف من المسلمين والنصارى، منهم في الزوارق، ومنهم في الدور الدانية من النيل، ومنهم على الشطوط، لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل

والمشارب وآنية الذهب والفضة والجواهر والملاهي .. وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورًا، ولا تغلق فيها الدروب، ويغطس أكثرهم في النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض".

تلك صورة الروضة ومنيلها في شتى العصور منذ الفتح، مرت بخاطر السيوطي فجعل منها كتابًا، ثم مرت بخاطري فجعلت منها مقالة !.

كَانَتْ وَكُنَّا، ثُمَّ صَارَتْ وَصَرْنَا

كانت انجلترا في حين من الدهر الغافل قد أصبحت بفضل المكر والصبر والمراوغة والبرود والأسطول المركز العصبي في رأس العالم كله. تقول للدولة كوني فتكون، وللحكومة قومي فتقوم، وللأمة اخضعي فتخضع، وللبحار والجزر أطيعي فتطيع، لا يخالف عن أمرها شعب، ولا يدور في غير فلكها كوكب، ولا تغيب من ملكوتها شمس. ملكت عوالم الرومان والهنود والعرب، وهزمت جيوش نابليون وغليوم وهتلر. وسخرت لأمرها أقطاب العلم والعمل والمال فحولوا مجاري الأرزاق في كل بقعة من بقاع الأرض إلى جزيرتها الجديدة فرضيت وغضب الخالق، ونعمت وشقى الخلق!.

وكنا كما كان غيرنا مدفوعين بالكره إلى مدارها المظلم، مجروفين بالقوة في تيارها البارد، لا ندرك لذاتنا وجودًا مستقلًا، ولا نعرف لحياتنا غاية معينة. وكان الذين دفعونا إلى ذلك المدار، وألقونا في ذلك التيار، رجالاً يحترفون السياسة أو يتجرون بالدين، ركبهم شيطان الاستعمار فباعنا بعضهم له بيع السماح، وزوجه بعضهم من مصر زواج الأبد!

كان عرشنا في القاهرة ومَلَكْنَا في لندن، وحكومتنا في ميدان لاظوغي ورئيسنا في دوننج ستريت⁽¹⁾. فلا وزارة تسقط أو تقوم، ولا قانون يصدر أو ينفذ، ولا أمر يبرم أو ينقض، ولا موظف يعين أو يقال، إلا إذا وافق قصر الدوبارة⁽²⁾!

وما ننسى لا ننسى تأليف إحدى الوزارات المصرية بمرسوم من الدبابات البريطانية استخذي له الملك الضخم ولم يعارض، واستكانت المعارضة ولم تعترض، واكتأب له الشعب ولم يغضب! وأساءت هذه الوزارة نفسها الحكم وأفرطت في الإساءة، حتى ضجت الصحافة وسخطت الأمة واحتجت الأحزاب وقدموا باحتجاجهم عريضة إلى القصر " التمسوا " في ختامها قبول الولاء وإقالة الوزارة! فتنسم الشعب نسيم الأمل،

(1) الشارع الذي تقيم فيه رئاسة الحكومة البريطانية في لندن.

(2) قصر السفارة البريطانية في القاهرة.

وتوقعت الأحزاب نجاح المسعى، واشترأت أعناق المستوزرين إلى الكراسي الخالية، وجرت أقلام الديوان الملكي بالمراسيم الجديدة، وإذا ببرقية من الوزير الإنجليزي إيدن تهبط على السفير البريطاني كيلرن تقول في عبارة موجزة آمرة: "نو تشنج: " لا تغيير " فقرت فورة من فار، وخاب رجاء من رجا، وتضاغرت كبرياء من استكبر، وانسابت "جمعية المنتفعين" من حزب الوزارة في شوارع القاهرة يهتفون بعبارة البرقية الإنجليزية "نو تشنج ! نو تشنج !".

كذلك كانت انجلترا وكانت مصر في الزمن الذي غفا فيه الشرق وزهق الحق وفجر الاستعمار وطغت القوة.

ثم فعلت الشيخوخة بانجلترا فعل الخريف بالشجرة العتيقة، زعزع جذعها النخر، وأسقط ورقها الذابل. وهبت عليها العاصفة من شطآن النيل وكثبان القناة في يوم 23 يوليو سنة 1952 فهزتها هزة الزلزال فتقلص ظلها في إفريقيا وانقبض نفوذها في آسيا. وكان عقلها قد خرف وصبرها قد وهن وبرودها قد فتر وأسطولها قد بلى فصارت إلى الغروب الذي يعقبه الظلام والبرد واليأس. وكان ليلنا الطويل قد آذن بالإصباح، وكان الشروق في هذه المرة قد بزغ من " عين شمس "⁽¹⁾ وكان الأحرار من شباب الجيش هم الذين هتكوا عنه الحجب فشع بالنور والحرارة والهداية والأمل، فهربت الخفافيش التي يعميها الضوء، وبادت الجرائم التي يقتلها الطهر، ووقفت مصر النقية الفتية لعدوها الكافر بالحق، الفاجر بالباطل، فاقتلعت جذوره السامة من أرضها الطيبة، وأخرجته منها محسورًا مدحورًا كما أخرج الله إبليس من الجنة لم تغن عنه وسوسته ولا أفعاه.

فلما أممنا شركة القناة الفرنسية الإنجليزية أوهمه ضلاله القديم أن الفرصة قد سنحت ليعود إلى فردوسه المفقود، ولكن جون بول قوي الذاكرة، لم ينس هجمات الأسود في الليالي السود على جنوده الضارين على ضفاف القناة، فاستنصر مريان ويهوذا⁽²⁾ وهما يتسعران بالحقد الأسود على مصر لوقوفها موقف الذائد الحامي من

(1) المكان الذي اندلعت فيه جنة نار الثورة الناصرية.

(2) مريان فتاة حسناء يجعلها الفرنسيون شعار لهم، ويهوذا علم جنس على اليهود .

عرب الجزائر وفلسطين. وهجم الأعداء الثلاثة هجوم الغدر على سيناء وبورسعيد، وأنساهم خذلان الله أن بورسعيد غير التل الكبير، وأن عبد الناصر غير محمد توفيق، وأن الجيش الذي كان يعد بالآلوف وهو أعزل، أصبح يعد بالملايين وهو مدجج، وأن مصر الثورة قد أصبح لها في الميزان الدولي وزن يقام ورأي يرجح، وهي توشك أن تجعل من الأمة العربية والأمم الشرقية كتلة ثالثة لتقتل الاستعمار فتقتل العدوان، وتضمن الحياد فتأمن الحرب.

أراد الأحمق إيدن أن يكون هذا الهجوم الدنيء على مصر، وأراد الله أن يكون على انجلترا نفسها. وقدر الغبي أن تكون النصرة له في أسبوع، وقدر القدر أن تكون عليه في هذه المدة. وخرجت مصر من الحرب وقد أصابت كل شيء، وخرجت منها انجلترا وقد أصيبت في كل شيء: أصابت الحرب مجدها فجعلته حطامًا، وأصابت شرفها فقلبته نذالة. ثم أصابت اقتصادها فجعلته أزمة لا تنفج، وأصابت حاضرها في الغرب فجعلته ماضيًا لا يعود، وأصابت مستقبلها في الشرق فجعلته وهمًا لا يتحقق. وعاون عبد الناصر قضاء الله في بريطانيا الباغية بدفاع حربي مجيد وهجوم سياسي بارع: دافع بالصبر والصدق والبسالة والاستماتة، وهاجم بالحق والقانون والأمم المتحدة والدول الحرة. وكانت هذه المعركة التي نشبت بين دولتي الاستعمار ومصر أول معركة في تاريخ الإنسان احتشدت فيها أمم الأرض جمعاء بألستها وأسلحتها بجانب دولة لم توضع عن عنقها الأغلال إلا منذ أربع سنين لتظاهرها على دولتين من كبريات الدول تعاونتا على العدوان والإثم، وتآمرتا على الأمان والسلام.

وابتلى الله إيدن بالفشل وأتم عليه الخيبة فانسحب من بورسعيد كما انسحب أستاذه تشرشل من دنكرك، ولكن شتان بين انسحاب تم بعد هزيمة، وانسحاب وقع بعد جريمة!.

ثم أخذ يستعرض في خياله فلول جيشه والسفن تجري بهم على أثباج⁽¹⁾ البحر موتى أو جرحى أو مرضى، ويستعيد في ذهنه ما جره على وطنه وقومه من الجوائح والفضائح، وينظر في الوقت نفسه في أمر خصمه الألد عبد الناصر فيراه قد بلغ من توفيق الله إياه أن صار رجل العالم في سنة 1956 وأن مصر قد صارت بقيادته قبلة الأنظار ومهوى الأفئدة ومثابة العروبة، فانسأقت قواه وانهارت أعصابه واشتدت أوصابه فانتحر بكتاب الاستقالة الذي قدمه إلى ملكته وهو محزون، فتقبلته وهي مسرورة! وهذه هي المرة الأولى التي تُسقط فيها مصر وزارة انجليزية، بعد أن ظلت انجلترا طول الاحتلال تسقط كل وزارة مصرية !.

وهكذا صار أمر بريطانيا إلى دولة غير عظمى ليس في طوقها وسع ولا في يدها زمام، وصار أمر مصر إلى دولة زعيمة لها في روسيا شأن وفي أمريكا مقام.

(1) قلت: الثَّبِجُ : وَسَطُ الشَّيْءِ تَجَمَّعَ وَبَرَزَ ومنه ثَبِجَ البحر ، وثَبِجَ الصدر ، وثَبِجَ الظهر ، وثَبِجَ الأكمة.

بين الواقعية والكليّة

الواقعية مذهب من مذاهب الأدب عند الإفرنج في القرن التاسع عشر بعد الميلاد.

والكليّة⁽¹⁾ مذهب من مذاهب الفلسفة عند الإغريق في القرن الرابع قبله.

فالجهة الجامعة بين المذهبيين لا تتمثل في الذهن، لا من الزمن ولا من الموضوع

ولا من الغاية. فما الذي حملني على أن أجمع بينهما في هذه الكلمة؟

استمر على كل حال في القراءة فلعلك واجد فيما تقرأ علة هذا الجمع وطبيعة هذه

العلاقة.

(1) قلت: الفلسفة الكليّة Cynicism مذهب فلسفي أسسه في القرن الرابع قبل الميلاد الفيلسوف أنتيستينيز، أحد أتباع الفيلسوف اليوناني سقراط. وكانت نقطة البداية لهذا الفيلسوف هي مذهب معلمه، الذي يرى الفضيلة وليس المتعة. الهدف الأساسي للحياة، وأنها تمثل السعادة الحقيقية. ويرى أنتيستينيز أن الشخص الحكيم هو الذي ينظر باحتقار لكل الرغبات المألوفة في الحياة، ويعيش غير عابئ بالثروة والجاه. وأكد أن السعادة الدائمة أمر غير ممكن، مادامت للشخص حاجات ورغبات لا يستطيع إشباعها، وهو غير مقيد بأية التزامات، نحو المجتمع أو الدولة أو الأسرة، لأن هذه الأشياء تولّد رغبات لا يمكن إشباعها.

والتشاؤميون أشبه بالكليين بعدم الثقة من وجود الخير في الطبيعة البشرية. ومن الذين كان لهم أثر بارز في فلسفة التشاؤم الفيلسوف الألماني شوبنهاور.

وكان ديوجين واحدًا من أتباع أنتيستينيز المتحمسين، إذ اتبع الفلسفة الكليّة إلى درجة التطرف. ويقال إنه كان يعيش على أردأ أنواع الخبز، وينام في أحد الأحواض. وقد أنشأ زينون الفلسفة الرواقية، وهو مذهب كلي ساد في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الثالث ق.م.

وتشير بعض المراجع إلى أن الاسم "كلي" نسبة إلى سينوساليس، وهو اسم لصالة تريض خارج أثينا، التقى فيه الكليون لأول مرة. وتشير المراجع الأخرى إلى أن الاسم مستمد من الكلمة اليونانية κύων (تشلق: كينك) التي تعني كلب. وأنها إشارة إلى تجاهلهم للمجتمع والنظافة والعائلة والمال، وكذلك سلوكهم الفظ ونباحهم في وجه المجتمع الفاسد ليتخلى عن حماقاته. وفي الحديث العادي لدى الغربيين، يوصف الشخص الذي يسخر من الفكرة القائلة بوجود الخير في الطبيعة البشرية بأنه كلي Cynic.

الكلية كما فهمها (ديوجين)، والواقعية كما فهمها (بلازاك)، والطبيعية كما فهمها (زولا)، تتفق جميعاً في تنظيم حياة الإنسان أو الفنون على مقتضى الطبيعة .. فالكليون كانوا يرون الحكمة في رفض الثراء ونبد الفضول، والعزوف عن اللذة، والزهد في الرفاهية، والتحلل من كل قيد للاجتماع، والخروج على كل نظام للسلوك. وكان زعيمهم يسكن في برميل ويمشي حافيًا ويغترف الماء بيده، ويستتر برداء واحد على اللحم، وينام تحت السماء في أروقة المعابد طول العام. وُسِّموا بالكليين لأنهم كانوا يحملون على عابري السبيل بالتهكم اللاذع فشبهوهم بالكلب العقور.

والواقعيون كانوا يرون البلاغة في تصوير الطبيعة على الواقع المحسوس، وتفسير غوامضها على المعنى الحق، والواقع يكون خيرًا كما يكون شرًا، والمعنى يكون حسنًا كما يكون قبيحًا، ولكنهم يجعلون بالهم إلى دقائق الحياة المبتذلة القبيحة أكثر مما يجعلونه إلى دقائقها المصونة الجميلة، لاعتقادهم أن الشر في الناس هو الأصل، وأن القبح في الطبيعة هو الجوهر.

شق الطربوش الذهبي في فم الإنسان تجد الناب، واخلع القفاز الحريري عن يده تجد المخلب.

فالواقعية تلاحظ الطبيعة وتنقلها نقلاً موضوعياً محايداً أميناً لا تدخل الفنان بشعوره الشخصي فيه، ولا تحفل بإظهار السمات الجمالية به، ولا تقصد إلى استنباط المغزى الخلقي منه.

وللواقعية في معنى من معانيها بذرة في شعر عبد الله بن المعتز، فقد كان يعرف الشر ويبرر هذه المعرفة، ويهوى القبح ويعلل هذا الهوى. فهو في الشر يقول:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
فمن لا يعرف الشر من الناس يقغ فيه
ويقول في القبح:

قلبي وثاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه

على أن هذه البذرة الضائعة في حقول شعره كانت أضعف من أن تثمر المذهب الواقعي في الأدب العربي، لأنها خاطرة عن خواطر شاعر، لا فكرة من فكر فيلسوف. والواقعية مجالها القصص والمسرح لا الشعر والقصيدة.

والطبيعيون يشاركون الواقعيون في تصوير الواقع، ولكنهم ينفردون عنهم بطريقة تفسيره، فالواقعي يكتفي بالملاحظة والتسجيل والتعليل، والطبيعي يزيد على ذلك التجربة والوراثة والعلم. وهؤلاء وأولئك يشترطون (الفنية) في المذهب. فلا يخرجون على قواعد اللغة ولا يتمردون على قوانين البلاغة، ولا ينقلون عن الطبيعة نقل المصور الفوتوغرافي يقف عند جهد الآلة ولا يضيف إلى الصورة نوراً من فكره ولا لوناً من خياله.

صحيح أن الواقعية من حيث الفكرة تعتمد على الحقائق والوثائق لا على الفروض والأخيلة، ولكن من الصحيح أيضاً أنها من حيث الصورة لا تقص أجنحة الخيال ولا تطفئ ألوان الحسن. أليس من زعماء الواقعية وأساطينها (فلوير) صاحب (مدام بوفاري)؟ إن واقعته في الموضوع لا في الشكل، وإن شعبيته في الفكرة لا في الصورة، وإن أسلوبه آية في البلاغة والدقة، وغاية في الأناقة والجمال.

كتب قصته الجميلة (سلامبو) عن الحضارة الفينيقية في قرطاجنة، فاقتضته واقعته التي تعتمد على الوثائق أن يقرأ في موضوعها ثلاثة وخمسين كتاباً، وأن يزور أطلال هذه المدينة فيستنطق الآثار، ويستوحي المنازل، ويجمع الأسانيد، ويرصد الأحاسيس، ويصور المناظر. واقتضته (فنيته) التي تعتمد على الألوان أن يصوغها في نظام من البلاغة مونتق باللفظة المختارة، مشرق بالعبارة العذبة.

وقلّ مثل ذلك في سائر زعماء المذهب كبلزاك وموباسان وزولا.

فإذا فهمنا الواقعية في أدبنا المعاصر على أنها تصوير للناحية الدنيا من حياة الشعب الكادح بما فيها من عناء وشقاء وألم، وما بها من شذوذ وعوج ونقص، لنوقظ الطموح إلى الكمال في شعور العامة، ونحرك النزوع إلى الإصلاح في نفوس الخاصة، كان هذا الفهم حقاً لا جدال فيه.

أما إذا فهمناها على أنها الانطلاق من كل قيد، والتنكر لكل عرف، والاستخفاف بكل قيمة، والنزول بالفن نفسه إلى مستوى إدراك الرجل العامي وذوقه، فنكتب له الأدب بقلم " العرضحالجي "، ونعزف له الموسيقى بزمارة الراعي، ونرسم له الجمل والمحمل بفرشة النقاش، فتلك هي الكلية لا الواقعية.

أنا أميل بطبعي إلى الواقعية بمعناها الفني الصحيح، ولكني أكره لنفسي ولغيري غلو الغالين فيها بنقل الطبيعة والحقيقة نقلاً آلياً، قبْحاً بقبح، وعرياً بعري، وغثاء بغثاء، دون أن يسمحوا للذوق أن يهذب ولا للفن أن يجمل. وأرجو أن تظل الواقعية كسار المذاهب الجدية محدودة بحدود الفن محكومة بأحكامه، وحيثما يكن الفن يكن الجمال.

إن الفن كما أعتقد لا تُطلب منه الحقيقة التي تُطلب من العلم. إنما يطلب منه أن يعرض شبهها مجملًا بألوانه مزيّنًا بوشيه. وكأنما وُضع بين الفن والنفس ميثاق ترخّص له الحواس بمقتضاه أن يزور الحقيقة. وهو في مقابل تلك الرخصة يحقق لها السرور واللذة.

فرخصة الشعر أن يتكلم بالوزن والقافية، ويعبر بالمجاز والاستعارة، ويرتفع بالقصيدة أو المسرحية إلى مستوى لا يكون في الحقيقة. ورخصة التصوير أن ينقح الواقع كما يجب، ويغير الوضع كما يشاء، ويرتفع بالصورة أو المثال إلى مستوى لا يوجد في الطبيعة. ورخصة الموسيقى أن تذهب في الإيقاع مذهب الإبداع فتؤلف من اختلاف الأصوات وتنوع النبرات وتعدد الطبقات لحناً متكاملًا متلائمًا لا يطرق الآذان له مثل في الواقع. وهذه الرخص التي تموه الحقيقة لابد منها للفن على اختلافه لبيدع ما لم تبدعه الطبيعة من الجمال الذي يبعث الإعجاب ويحدث اللذة.

إن في الفن شيئاً أكثر من التقليد المحض. اسمع آلة تقلد تغريد البلبل كما هو بسذاجته ورتابته فلا تجد فيما تسمع جمالاً يعجب ولا لحناً يطرب، ولكنك إذا سمعت الآلات الموسيقية تعبر عنه في سيمفونية أعجبت كل الإعجاب وطربت غاية الطرب، لأن الفن قد دخل التقليد في هذه الحال فنقح وصحح وزاد.

لم توجد في الطبيعة سيمفونية (بتهوفن)، ولم توجد في الخليقة فينوس ميديتشي. وإنما الفن وحده هو الذي ألف من النبرات الرخيمة المتفرقة في أصوات الطبيعة هذه السيمفونية، وصاغ من الملامح الجميلة الموزعة على أجسام الخليقة هذا التمثال. وعلى نحو من ذلك تقول في الشاعر الذي ينظم من الأحاسيس الذاتية والمناظر الطبيعية قصيدة، وفي الكاتب الذي يؤلف من الوقائع الفردية والطبائع الإنسانية قصة. ومن الجائز ألا يكون لهذه القصيدة مثال في الكون، ولا لهذه القصة وجود في المجتمع، ولكن العبرة في الفن الحدوث الممكن لا الحدوث المحقق.

ذكرت العلاقة بين الفن والطبيعة لأقول إن الواقعيين الغلاة الذين يتوخون الحقيقة ويتحرون الواقع ويؤثرون الدون وينكرون الذات إنما يكفرون بأثر الفن في رفع النفوس ودفع البؤس وتجميل الحياة.

الواقعية لا تعادي الفن

عَقَّبَ الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي محرر الصفحة الأدبية في جريدة (الشعب) على كلمتي في الواقعية والكلبية، فبدأ تعقيبه بكلام ينم عن حرجه من نشر ما يخالف رأيه أو يعارض مذهبه. ثم خفف عن ضميره ثقل التبعة بأن ألقى عليّ مسئولية ما كتبت، وفَوَّضَ الأمر في الرفض أو القبول إلى القارئ الذي يثق به، والعامي الذي يعتمد عليه، ودعا جميع الواقعيين المصريين إلى مناقشتي فيما رأيت، أو محاسبتي على ما جنيت!.

وكنت أحب للأستاذ الشرقاوي أن يبدأ بغير هذا الكلام، فإني أعيده بالله أن يجري على خاطره معنى من معاني الحجر على حرية الفكر وهو من (الذين اندفعوا مع حركة الزمن إلى أمام).

وكلمتي التي كتبتها لأحدد فيها العلاقة بين الواقعية والفن والطبيعة لم تمس بوجه من الوجوه عقيدة من عقائد الدين، ولا فضيلة من فضائل الخلق، ولا مادة من مواد القانون، ولا سنة من سنن العرف.

ولم يخطر ببالي وأنا أكتبها أدباء معينون لا من الشباب ولا من الشيوخ؛ ففيم إذن هذا الضيق؟ ولم إذن هذا الغمز؟ وعلام إذن هذا الاستعداد؟

يظهر لي ولمن قرأ المقالين أن الأستاذ الشرقاوي قد حاول جاهداً أن يلتمس فيما كتبت المقالين موضعاً للتعقيب فلم يجد، ولكنه وعد بأن يعقب فاكتمنى بأن يقول: " إنه أحد الذين لا يوافقون على كل ما في هذا المقال من أفكار " واضطر إلى أن يخرج على مبادئ الواقعية فترك الموضوع وأمسك بالذات، وأهمل المكتوب وتعلق بالكاتب!.

ضربت المثل في مقالي بفلوبير، وضرب المثل في رده بمنيرة المهدية، وهو لا يقصد بالطبع إلى أن منيرة من زعيمات الواقعية، وإنما يقصد إلى أنها " لم تحترم ذكرياتها فوقت تغني منذ ثلاثة أعوام، كما كانت تغني منذ ثلاثين عاما " فهو يضربها مثلاً لأمثالنا (الذين رفضوا أن يندفعوا مع حركة الزمن إلى أمام) ثم لا يزالون يكتبون! وكان الأجدر بالأستاذ الشرقاوي أن يضرب المثل بأم كلثوم، فقد عاصرت (منيرة) ولا

تزال أميرة الغناء العربي في العالم كله دون أن تنزل إلى مبتدعات عبد الوهاب والطويل!.

على أن ملكة الكاتب لا يعتريها ما يعتري حنجرة المغني من الخشونة والضعف بتقدم السن. وليست الكتابة بقوة العضل واكتناز اللحم، وإلا لم يظفر بجوائز نوبل شيخ من شيوخ الأدب والعلم. ثم تطف الكاتبة الشاب فنعتني بأستاذية الأدب القديم، ونصحني أن آخذ في كلام غير الواقعية وأسمعي من (زركشة الأكفان) و (برودة الرخام) ما لم أفهم، وقولني عن الواقعية وفلوثير ما لم أقل.

وكل ذلك لغو لم يوجبه خطأ واقع، ولا ضغن قديم، ولا خلاف حادث، وإنما هو الاعتقاد الشائع بأن النقد أو الرد يحدث من الدوي بلسع اللسان وافتراء الباطل أكثر مما يحدثه بسداد المنطق وإتباع الحق!.

وكان الظن بالأدباء الشباب الذين يدعون إلى أدب أفضل وأسلوب أحسن أن ينهجوا للنقد منهجاً يتفق مع سمو الشعور وراقي العقل.

لندع هذا ولنعد إلى حديث الواقعية، وليغفر لي الأستاذ المعقب إعراضي عن نصيحته هذه المرة، فإني إن سكت لا ينحسم بسكوتي الخلاف بيني وبينه. ولكن أي خلاف؟.

أنا لا أعلم بيني وبين الأستاذ الشرقاوي ولا بيني وبين غيره خلافاً في مدلول الواقعية العالمية، لا من حيث الينبوع والموضوع، ولا من حيث الطريقة والغاية.

وأظنني قد اتخذت من أصولها مذهباً لنفسني جريت عليه منذ كتبت، لا يختلف عنها إلا بتقويم الجمال وتقدير الخلق. وما كان لي أن أكتب على غير هذا المذهب بعد ما فرضته عليّ الطبيعة والبيئة، فقد نشأت في قرية صغيرة فقيرة من قرى مركز طلخا، وهو أوحده المراكز المصرية جميعاً في فحش النظام الإقطاعي وفجوره.

كان يملكه طوسون والبدرأوي ومحمد علي وسيف الدين وسرسق ووزارة الأوقاف، فلم يكن للفلاح الذي يعيش فيه إلا أمتار ينام فوقها وهو حي، وأشبار يرقد تحتها وهو ميت .. وفي المدة التي تفصل بين انتقاله من ظهر الأرض إلى بطنها كان

عبداً للمالك يستذله ويستغله ويملك عليه الحياة والموت. كان يعمل ولا يجد القوت، ويمرض ولا يجد الدواء، ويظلم ولا يجد الرحمة.

في غمرة هذا البؤس الذي لا حد له ولا حيلة فيه نشأت وعشت، فرأيت الأمير كيف يطغى وينسى الله، والباشا كيف يبغى وينسى العدل، والفلاح كيف يذل وينسى الحرية، والأجير كيف يهون وينسى الحياة.

ومن ينبوع هذا الشقاء الذي لا ينضب معينه ولا يسكن تياره استمددت موضوعاتي التي ضمها كتابي (وحي الرسالة) في مجلداته الأربعة. والقراء يذكرون أنني أول من كتب عن أعدائنا الثلاثة: الجهل والفقر والمرض، ووضعت لمكافحتها المنهاج المفصل لوزارة الشؤون الاجتماعية في سنة 1939م.

ربما كان الخلاف بين الواقعية المصرية والواقعية الأوروبية، أو بين الواقعية المتطرفة والواقعية المعتدلة، أن من الواقعيين المصريين من يريد أن يهبط باللغة والأسلوب إلى مستوى الأميين فيكتب لهم بالعامية ويدني المعاني من أفهامهم بتجريد الأسلوب من خصائصه البلاغية وسماته الجمالية حتى لا يكون الأدب في ذاته غاية يصفو به الذوق وتسمو به الروح وتجمل به الحياة، والواقع الذي تحققت من اختلاطي بالشعب في حياة القرية وتحرير الرسالة أن القارئ من الزراع والصناع يفضلون الشعر على الزجل، ويتأثرون بالمقال البليغ أكثر مما يتأثرون بالقول الساذج. والأدب هو الجزء السماوي في الإنسان ينزع به دائماً إلى ما هو أعلى وأكمل؛ فهو له كالجناحين للملك، يرفعه من كثافة المادة إلى لطافة الروح. ومن واجب الأديب أن يقوي هذا النزوع في نفوس الشعب بتصوير المثل العليا للجمال والفضيلة وحمله بطريق الشقيف على أن ينظر إليها من فوق رأسه لا من تحت قدميه.

إن الحياة فيها المسجد والسوق، وفيها المدرسة والمصنع، وفيها الحديقة والمعلم، وفيها الاستديو والورشة، وكل جهة من الجهات المعنوية تعدل الجهة التي تقابلها من الجهات الحسية، فلماذا نكره الأدب على أن يتقلب في الجهات الدنيا لا في الجهات العليا، وأن يعيش مع ابن آدم في حيوانيته لا في إنسانيته؟.

إن الأدب للشعب كله ما في ذلك خلاف، ولكنه إذا نزل إلى عامته فإنما ينزل ليرفعهم إلى السطح لا ليغوص معهم إلى القاع. وقول من يقول: إن الأدب للأدب يدخل بهذا المعنى في قول من يقول: إن الأدب للحياة.

إن الواقعية بمعناها العام مذهب من مذاهب الأدب. والأدب عند الأمم جميعاً فكرة سليمة في صورة جميلة، وجمال الصورة في كل لغة لا يتحقق أولاً وبالذات إلا بسلامة العبارة من الخطأ والغلثاء.

والواقعية لا تعادي الفن ولا تنافيه. والواقعيون أجمعون هم من الكتاب الأفذاذ الذين أوتوا ملكة البيان وفقهوا أسرار البلاغة. وما نعرف أحداً منهم تعاطى الكتابة في لغته وهو ينكرها كل الإنكار ويتنكر لأدبها كل التنكر، فهل يريد الواقعيون المصريون أن يكونوا بدعاً من سائر الكتاب فيفصلوا بين الواقعية والفن وبين الكتابة واللغة؟.

إن كانوا يريدون ذلك فهو الخلال الذي لا ينتهي بيننا وبينهم، وإن كانوا يدعون إلى واقعية مصرية تنبثق من حياة الشعب، وتحرص على تقاليد العروبة، فتؤثر الفصحى وتقدس الخير وترعى الجمال فأنا وإياهم على كلمة سواء.

الأدب يوجه ولا يوجه

ليس الكاتب أو الشاعر الخلق بهذا الوصف إنساناً كسائر الناس تبين له الوجهة وتعين له الغاية، وإنما هو إنسان أعلى، مَيَّزَهُ الله بقوة الفكر وحدة العاطفة وسمو الخيال؛ ليشترك في عملية التقدم العام لركب الخليقة، يدفعه بحوافزه العظمى إلى الأمام، ويرفعه بمثله العليا إلى فوق.

فهو من أصحاب الرسائل الفكرية الذين يشعرون قبل غيرهم بالنقص لقوة الحس فيهم، ويفكرون أكثر من غيرهم في الكمال لصفاء النفس منهم، ويتخيلون دون غيرهم ما وراء الواقع لخصوبة لخيال لديهم. وحكمهم في تبليغ رسائل الله عن طريق الإلهام، وحكم الأنبياء الذين بلغوا رسالاته عن طريق الوحي؛ إلا أن طبيعة الرسالة الأدبية تختلف عن طبيعة الرسالة الدينية: رسالة الأدب تغذية الشعور بالجميل والجليل، ورسالة الدين تقوية الضمير بالخير والحق.

والأدباء كالأنبياء يصطفاهم الله من خلقه، ويصنعهم على عينه، ويؤتيهم العلم من لدنه .. فقول رجال الدين: " ما اتخذ الله من نبي جاهل، ولو اتخذ له علمه " يصدق على الأديب. فهوميروس ودانتي وشكسبير وموليير وبرناردشو في الغرب، ولقمان وكونفوشيوس وزهير وعلي وابن المقفع والمنتبي في الشرق، كانوا في العلم اللدني أشبه بموسى وعيسى ومحمد في الرسل، لم يتلقوا الآداب عن أستاذ، ولم يتخرجوا في العلوم من جامعة، وإنما أفاض الله عليهم من علمه، وكاشفهم بالمحجوب من غيبه، فانبثقت في أفئدتهم أشعة الهداية، وتفجرت على ألسنتهم ينابيع الحكمة، فأتوا بما لم يأت به فيلسوف ولا عالم!

فالأديب الموهوب زعيم بالفطرة، توجهه نفسه الكبيرة بطبيعتها إلى أن يحرك في شعبه الشعور بالنقص، ويوقظ في وعيه الطموح إلى الكمال، بتلك الصرخات التي يرسلها فيه، مؤلفة في كتب، أو منظومة في قصائد، أو مصورة في مقالات، أو محللة في قصص، أو ممثلة على مسرح.

يفعل ذلك من تلقاء نفسه لا عن تلقين ملقن ولا توجيه موجه. وإلا فمن الذي وجه ديدرو ومونتسكيو وروسو إلى التمهيد للثورة الفرنسية؟ ومن الذي وجه تولستوي وجوركي وتورجنيف إلى التمهيد للثورة الروسية؟ ومن الذي وجه الأفغاني ومحمد عبده والبارودي ونديم إلى التمهيد للثورة العربية؟ فقول السادة القائلين بأن الأدب يجب أن يوجه إلى الحياة أو إلى الشعب، وأن يقصد به بعد الجلاء إلى اليمين أو إلى اليسار، قول من يعتقدون أن الأدب آلة لا نفس، وصنعة لا طبع، وعملية لا إلهام، وفي الاعتقاد نزول الأدب إلى منزلة الوسائل المادية للعيش، يوجه إلى القصد الذي تريده الجماعة، كما توجه العمارة أو النجارة إلى الطراز الذي تقتضيه الحضارة! وليس هذا من عمل الأدب أو الفن، وإنما هو من عمل العلم أو التعليم. العلم وحده هو الذي يوجه إلى تحقيق تلك الوسائل وتطبيقها على الوجه الملائم لحاجة الشعب ورفاهيته.

أما الأدب فهو السياسة العليا للأمة كما سموه بحق، زعامته مستقلة، ورسالته متبعة، يوجه ولا يوجه، ويقود ولا يُقاد. وإذا جاز للجيش أن يوجه القائد، جاز للشعب أن يوجه الأديب.

ومن المحال أن يجوز ذلك؛ لأن الشعب ينفعل بالأدب ولا يفعله، ويتأثر به ولا يؤثر فيه. ولا تعترض عليّ بالمأثورات الشعبية " الفولكلور " باعتبارك إياها إنتاجاً للشعب، فإن أولئك الأدباء المجهولين الذين أرسلوا الأمثال والحكم، ونظموا المواويل والأغاني، وألفوا الأساطير والنوادر، وصاغوا الضوابط الزراعية والمناخية من نحو قولهم: " قمح بابه، غلب النهاية " و " في برمهات، اسرح الغيط وهات " و " في توت، عيان الحمير يموت " أولئك الأدباء الموهوبون قوم تميزوا على نظرائهم من العامة بما آتاهم الله من صحة التفكير وقوة التعبير وصدق النظر، فارتفعوا في طبقتهم وبيئتهم إلى مقام القادة، يأخذ الناس بتجاربيهم في الأمور، وينزلون على أحكامهم في القضايا. ولا فرق بينهم وبين الأدباء المعلومين إلا أنهم جهلوا لغة الخاصة فاستعملوا لغة العامة، فغض ذلك منهم، وصرف عين التاريخ عنهم، ولكن البلاغة ليست مقصورة على قوم دون قوم، ولا خاصة بلغة دون لغة.

وقصارى ما أقوله للسادة الذين يريدون أن يخلقوا الأديب بالأمر، وينشئوه على القواعد، ويسددوه بالنقد، أن الأديب من صنع الله ومن إعداد الطبيعة، فانتظروا حتى يرسله فإذا أرسله فاتبعوه ودعوه يعمل على سجيته، لا ترسموا لرسالته الحدود، ولا تقيموا لقريحته الحواجز، ولا تحبسوه في القفص الذي حبستم فيه البلبل، ولا تعوقوه بالسد الذي عوقتم به النهر، دعوه يرسل التغريد في كل أفق، ويسلسل الخرير في كل اتجاه.

ولا يشتبهن عليكم أمره فإن له علامات تميزه وتدل عليه:

إنه إنسان متمرد متجدد منطلق، لا يرجه القهقري، ولا يطيق الركود، ولا يقبل الإسفاف .. لا يهتم بقواعد البلاغة لأن قوانينها مقتبسة من فنه، ولا يعاب بمذاهب النقد لأن مقاييسها مقدرة على كلامه. يبصر في الظلام أبعد مما يبصر في النور، ويشعر في الشدة أقوى مما يشعر في الرخاء، وينتج في القيد أبلغ مما ينتج في السراح! لأن الرسول إنما يرسله الله حين يطغى الظلم ويبعد الضلال ويبغى المنكر، حتى إذا بلغت الرسالة واستكان الجور واستبان الطريق، فتر الوحي وهدأ الجهاد وقرت النفس وعادت الأنوار إلى مشرقها الأول.

أما إن كان غفلاً من هذه الدلائل، خلوا من تلك الصفات، فهو من طبقة المتشاعرين والمتكاتبين الذين يمسكون الأقلام الحديد، كما يمسك خطباء المساجد السيوف الخشب!.

أنتم وشأنكم معه ! قيدوه بما شئتم من القيود، ووجهوه بما استطعتم إلى خارج الحدود!.

قصة الشعر المرسل

كتب إلي السيد محمد رضا من أدباء الثغر بكرموز يسألني عن هذا النوع من الشعر الذي يقرأه من حين إلى حين في الصحف، فلا يدري كيف ينسبه إلى بحر من بحور العروض؟ ولا كيف يرجعه إلى فن من فنون القريض؟ ويشكو من أن أذنه لا تسيغه وذهنه لا يهضمه .. والسائل الأديب يقصد ولا شك تلك المقطوعات العاطفية التي ينظمها بعض الشعراء الشباب مطلقة من قيود القافية، وذلك ما نسميه بالشعر المرسل ويسميه الإفرنج بالشعر الأبيض.

وكان أول من استحدث هذا النوع الشاعر الإيطالي " تريسينو " سنة 1525م فأنكره قوم وعرفه آخرون، ولكن الأذان لم تلبث أن ألفتها وصغت إليه فانتشر في أوروبا ونظم منه شكسبير بعض دراماته. ثم تطوير وغلا في التطور حتى اشتق منه نوع آخر يتخفف من بعض أثقال العروض ويقبل أن يتألف بيت من تفعيلة أو اثنتين وبيت يليه من أربع أو أكثر، وذلك هو " الشعر الحر " ⁽¹⁾.

(1) قلت: ظل شكل القصيدة قبل عصر النهضة في الأدب الحديث . وهي فترة النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي . يجري على نمطه الذي كان سائداً خلال العصر العثماني . فظل، بالرغم من تفاهة أفكاره وابتذال معانيه وأساليبه المثقلة بالصنعة والبديع، محافظاً على شكل القصيدة التقليدية سواء في بحورها الخليلية أو قافيتها الموحدة أو بيتها المكون من صدر وعجز .

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر، بدأ الشعر العربي الحديث يغير نمطه وكانت أهم تجديدهات متصلة بالموضوعات وإن ظل شكل القصيدة يتبع القالب التقليدي ولا يخرج عنه . وأصبح من أهم الأغراض الشعرية شعر الحماسة والكفاح ضد الاستعمار، والغناء للوطن، والدعوة للإصلاح الاجتماعي، والثورة ضد الفقر والجهل والمرض، والدعوة للحاق بركب الأمم .

ومع النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي أخذت النهضة الفنية في الشعر العربي الحديث تتبلور في اتجاهات فنية محددة بلغت ذروتها خلال القرن العشرين . وعلى يد رواد هذه الاتجاهات، بدأ التجديد في القصيدة الحديثة يتجاوز المعاني والصور والأفكار إلى تجارب فنية تتصل بالشكل، فبدأت محاولات الشعر الحر والشعر المرسل الذي لا يتقيد فيه الشاعر بالوزن وقد لا يتقيد بالقافية أيضاً .

وعندما تصل مسيرة الشعر الحديث إلى الأربعينيات من هذا القرن يتحول نط القصيدة العمودية أو ما يسمّى بالقصيدة التقليدية إلى نط جديد هو الذي عُرف بالشعر الحر. وقد تعددت أشكاله بين الشعر المرسل والشعر المنطلق وقصيدة النثر...

تعريف الشعر الحر:

يعني ألا يتبع الشاعر القواعد التقليدية لكتابة الشعر، فلا يتقيد الشاعر ببحر واحد أو قافية واحدة أو إيقاع واحد. وبظهور الشعر الحر، بدأ الشعراء يكتبون على نهج جديد باستخدامهم أعداداً غير منتظمة من المقاطع في البيت الواحد وقافية غير موحدة وأوزاناً متداخلة ونهايات غريبة الإيقاع في الأبيات. ولكن ليس الشعر الحر حُرّاً من كل قيد، فهو يستخدم فنوناً شعرية أساسية مثل تكرار الحرف الواحد وتكرار الكلمات.

ازدهر هذا الشعر في الآداب الأوروبية خلال القرن التاسع عشر الميلادي، عندما تبوّأ الرومانسيون هذا الأسلوب. وقد كانت تجربة الشاعر الإنجليزي جون ميلتون في القرن السابع عشر الميلادي إلهاماً مبكراً لهذا اللون من الشعر. ولكن الشاعر الأمريكي والت ويتمان يُعدُّ الأب الحقيقي للشعر الحر في القرن التاسع عشر، وتُعد قصيدته أغنية نفسي (1855م)، الشكل الأمثل لهذا الأسلوب. كما كان الشاعر الإنجليزي جيرارد مانلي من المحددين الذين سلكوا دروب الشعر الحر في القرن التاسع عشر. وفي أوائل القرن العشرين، بدأت الحركة التصويرية تستخدم الشعر الحر. فظهر شعراء كبار يكتبون على نهجه. وكان تي. إس. إليوت وعزرا باوند هما العمود الحقيقي لبلورة حركة الشعر الحر.

وفي الشعر الغربي أضحى الشعر الحر، في منتصف القرن العشرين، هو الشكل المألوف للشعر وخاصة في أعمال كبار الشعراء مثل روبرت نويل و دي. إتش. لورنس ووليم كارلوس وليمز.

وفي الشعر العربي، كانت نازك الملائكة هي رائدة هذا الاتجاه، على خلاف في ذلك، في قصيدتها الكوليرا في أواخر الأربعينيات، فقد استخدمت في هذه القصيدة بحراً واحداً هو الخنب وإن وزعت تفعيلته فَعْلُنْ بأعداد متفاوتة في الشطر الواحد الذي حل محل البيت ذي الصدر والعجز في القصيدة التقليدية. وإن كان الشعر الحر في الآداب الأجنبية يعني تعدد الأوزان في القصيدة الواحدة، فهو في العربية يعني شعر التفعيلة التي تحررت من التناسب، أي من التفعيلات المتساوية في كل بيت من أبيات القصيدة إلى تفاوتها من بيت لآخر في القصيدة الحرة في الشعر العربي. وهذا الفرق في الدلالة لمصطلح الشعر الحر بين العربية والإنجليزية، مثلاً، هو الذي جعل بدر شاكر السياب يستخدم مصطلحاً آخر

هو الشعر المنطلق وهو ترجمة لمصطلح شكسبير، إذ هو يقوم على انطلاق التفعيلة من التساوي في العدد إلى التفاوت فيه.

ولم يكن السيّاب، أو غيره، رائد هذا المصطلح، فقد استخدمه علي أحمد باكثير عام 1937م في ترجمته لمسرحية شكسبير: روميو وجوليت، ومسرحية أخرى بعنوان: أختاتون ونفرتيتي. كتبها على بحر الخنب نفسه مراعيًا مبدأ التفاوت في الأبيات الشعرية لعدد التفعيلات لا مبدأ التساوي كما هو الحال في الشعر التقليدي.

وعلى كلٍّ، فإن ما قامت به نازك الملائكة أو باكثير أو السياب أو غيرهم لم يكن استعارة حرفية لنموذج الشعر الحر في الآداب الأجنبية، ولكنه ممارسة لمبدأ التحرر ضمن السياق العضوي لبنية الشعر العربي وإيقاعاته العروضية.

ولما كانت الأوزان العربية كلها لا تقبل مبدأ تحرر التفعيلة، إذ إنها تتراوح بين مركبة ونصف مركبة وبسيطة، انتهت من ثم تجارب الشعراء إلى تحرير ثمانية بحور من صيغها القديمة المتساوية إلى صيغ جديدة متفاوتة. هذه الصيغ تُدعى أحيانًا الشعر الحر وأخرى شعر التفعيلة ولكن مصطلح الشعر المنطلق لم يكتب له الفوز بالبقاء مع أنه أكثر دلالة على طبيعة التطور الذي دخل بنية العروض العربي. وكما أن هناك بحرًا تامًا وبحرًا مجزوءًا وبحرًا منهوگًا، فيمكن القول إن هناك بحرًا منطلقًا أيضًا على القياس نفسه. وهكذا تولدت في حركة الشعر الحديث قيم عروضية جديدة وبحور شعرية محدثة وهي التي تشكل عروض الشعر الحر في شعرنا الحديث، نجملها فيما يلي:

منطلق الخنب - فعلن / فاعلن

منطلق الرمل - فاعلاتن

منطلق الهزج - مفاعيلن

منطلق الكامل - متفاعلن

منطلق الوافر - مفاعيلن

منطلق الرجز - مستفعلن

منطلق المتقارب - فعولن

إلا أن القصيدة ليست أوزانًا وقوافي مجردة، بل هي تعبير عن معاناة إنسانية تتوفّر فيها الفكرة والعبارة والصورة والانفعال والإيقاع، فَرْنين الكلام وحده لا ينتج شعرًا.

من هنا، علينا أن نميز بين النظم والشعر والإيقاع أو الموسيقى والوزن، وكل هذا ما هو إلا حاضن للإنسان ومعناه وجوهره وشفافيته. وهذا هو معيار الشعر الحقيقي.

الشعر المرسل:

هو الشعر المتحرر من القافية الواحدة والمحتفظ بالإيقاع أي محتفظ بوحدة التفعيلة في البحر الشعري دون احتفاظه بالوزن. وقد يحافظ الشاعر في الشعر المرسل على القافية حين يتبع نظامًا أقرب ما يكون إلى نظام الشعر في اللغات الأوروبية بقوافيه المتعاقبة أو المتقاطعة. وقد يلتزم الشاعر كذلك بالقافية والإيقاع معًا ولكن الوزن قد يختلف. مثال ذلك قصيدة الشاعر كيلايي سند أنا وجارتي حيث التزم القافية ووحدة التفعيلة مع تنوع الوزن:

لا تقلقي

إننا بذرنا درينا بالزنبق

ستبصرينه غدًا خميلة من عبق

أتعرفين جارتي بثوبها الممزق

وكفها المشقق

كم قلت لي جارتنا ككومة من خرق

غدًا ترينها غدًا في ثوبها المنمق.

وكتابة هذا اللون من الشعر أشد عسرًا من كتابة الشعر الملتزم بالأوزان التقليدية في بحورها المحددة. ذلك أن هذا الشعر يقتضي معرفة دقيقة بأسرار اللغة، الصوتية، وقيمها الجمالية مع دراية بالتناسب المطلوب بين الدلالات الصوتية والانفعالات المتراسلة معها، وما يتبع ذلك من سرعة في الإيقاع أو بطء فيه، وما يصاحبه من تكرار وتوكيد وتنويع في النغم، وهو أمر لا يقدر عليه إلا شاعر مرهف الحس قد ملك أدواته اللغوية والفنية.

ومن أطيب أمثلة هذا اللون من الشعر قصيدة نزار قباني إلى مسافرة وهي تدل على أن الشاعر إن ملك ناصية أدواته الشعرية، كتب شعرًا مرسلًا مبدعًا:

صديقتي، صديقتي الحبيبة

غريبة العينين في المدينة الغريبة

شهر مضى؛ لا حرف ... لا رسالة خضبية

لا أثر ... لا خبر

=

منك يضيء عزلتي الرهيبة
 أحبارنا
 لا شيء يا صديقتي الحبيبة
 نحن هنا
 أشقى من الوعود فوق الشفة الكذوبة
 أيامنا
 تافهة فارغة رتيبة
 دارك ذات البذخ والستائر اللعوبة
 هاجمها الشتاء يا صديقتي الحبيبة
 بغيمة
 بثلجه
 بريحه الغضوبة
 والورق اليابس غطى الشرفة الرهيبة
 فَصِيدُهُ النَّثْرُ:

هناك تمايز عالمي وتاريخي بين الشعر والنثر في كل الآداب، وما يتميز به النثر من منطق وروية ووضوح وعبرة غير موزونة، يقابله الشعر بكثافة المعنى، أو ماتدعوه البلاغة العربية بالإيجاز والشفافية والصورة والموسيقى والنزوع إلى الوجدان.

ومنذ الثورة على المذاهب التقليدية وقيمها المستقرة، اتجهت جهود المبدعين إلى هدم الحواجز بين الأجناس الأدبية أو ابتكار فنون جديدة أو تطعيم جنس بجنس أدبي آخر وهكذا.

فقصيدة النثر هي جنس في يستكشف مافي لغة النثر من قيم شعرية ويستغلها لخلق مناخ يعبر عن تجربة ومعاناة من خلال صورة شعرية عريضة، تتوافر فيها الشفافية والكثافة في آن واحد. وتعوّض انعدام الوزن التقليدي فيها بإيقاعات التوازن والاختلاف والتماثل والتناظر معتمدة على الجملة وتموجاتها الصوتية بموسيقى صياغية تُحسّ ولا تُقاس.

وقد تعددت المصطلحات التي تدلّ على هذا الجنس من ثقافة إلى أخرى. فقد استخدم أمين الريحاني مصطلح الشعر المنشور، الذي لا وزن له وأدخله في الشعر الحر، أي شعر التفعيلة عندنا الذي يقاس ويوزن.

وكان أكثر ما يستعمل النوعان في الملاحم والمسرحيات والمطولات إشفافاً على الشاعر من جرائر القافية كالتكرار والحشو والغرابة.

وكان من العوامل التي مهدت لقبول الشعر المرسل في العروض الأوروبي أن القافية بمعناها العربي لم تكن عنصراً جوهرياً في الشعر الإفرنجي، وإنما كانت القافية فيه نوعاً من الاتحاد الصوتي بين الكلمة والكلمة وهو "أسونانس" كما يكون بين كتاب ونظام وبين عظيم وقدير. فلما اتصل "التروبادور" وهم شعراء جنوب فرنسا في القرون الوسطى بعرب الأندلس اقتبسوا منهم القافية بحكم الجوار والخلاط.

قال المؤرخ الفرنسي "لويس فياردو" في الجزء الثاني من كتابه تاريخ العرب والبربر في أسبانيا: "كان الشعر الفرنسي مضروباً على مثال الشعر الأسباني المأخوذ عن الشعر العربي، لأن الأسبان لم يقفوا على الشعر اليوناني ولا على الشعر الروماني قبل القرن الرابع عشر حتى يقلدوهما .. ولقد أخذنا صناعة الشعر ونظام القوافي عن العرب، جاءتنا مع التجار الأسبان عن طريق مرسيليا وطولون".

أما الشعر فله خصيصتان يتميز بهما على سائر الشعر: إحداهما القافية الواحدة للقصيدة مهما تطل؛ والأخرى بناء كل بيت في القصيدة على عدة التفاعيل في بناء البيت الأول، فتكون القصيدة كلها كاملة أو مشطوبة أو مجزوءة على حسبه.

=

لكن شعراء العربية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، استخدموا مصطلح قصيدة النثر، وهو مصطلح فرنسي استخدمه بودلير وبعض معاصريه، وشاع شيوعاً كبيراً في المرحلة الحديثة. وجرى مع انفتاح الشعراء العرب على التجارب الإبداعية العالمية، فإن دخول الشعر المنشور أو قصيدة النثر إلى شعرنا العربي الحديث وإن سوغته تطورات ضمنية، في حياتنا الأدبية، قام على مبادرات شعراء عرب استوحوا نماذج شعرية وتجارب إبداعية من الآداب الأخرى.

ويُعد شعر المهجر مهد ميلاد قصيدة النثر في الشعر العربي؛ فقد كتب شعراء المهجر: أمين الريحاني وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران محاولات شعرية متأثرين فيها بالشاعر الأمريكي والت ويطمان، ثم انتقلت من هناك إلى المشرق.

لم تجد قصيدة النثر رواجاً كبيراً في الشعر العربي الحديث؛ إذ إن الذائقة العربية ماتزال محكومة بوزن الشعر العربي وإيقاعه في نماذجه الموروثة.

وللقافية سلطان قوي على النفس العربية، لذلك الشعر في طوره البدائي وهو طور السجع، وفي طوره الراقي وهو طور الرجز، وفي طوره الأرقى وهو طور القصيد. ولم يحاول شاعر في العصور الأولى أن يتخلص منها بالشعر المرسل إلا ما روى أبو عبيدة لابنة أبي مسافع وقد قتل أبوها يوم بدر:

أظـافـير وإقـدام	فما ليـث غريـف ذو
وجـوه القـوم ألـوان	كحـي إذ تلاقـوا و
ء منهـا مزيـد آن	وأنت طاعن النـجلا
رم أبـيض خـدام	وبالكف حسام صا
وما نحن بصـحبان	وقد ترحل بالركب

وإلا ما روى غيره لغيرها من نحو قول الشاعر:

بملك يدي أن الكفاء قليل	ألا هل ترى إن لم تكن أم مالك
إذا قام يتتاع القلوص ذميم	رأى من رفيقيه جفاء وغلظة
بمهلكه والعاقبات تدور	فقال أقلا واتركا الرحل إنني
لمن جمل رخو الملاط نجيب	فبيناه يشري رحله قال قائل

وهذان المثالان وغيرهما مما روي ولم نطلع عليه إنما صدر عن ذوق متخلف طبع متكلف فلا دلالة فيه على مذهب نشأ ولا على تطور حدث.

على أن من شعراء الأندلس والعراق من ضاق بتمائل النعمة وتكرارها في التزام روي واحد في القصيدة المطولة فعالجوا ذلك الرتب بتنوع القافية على نحو ما فعلوا في الموشح والزجل. ولكن شعراء هذا العصر الحديث حينما دُفِعوا بحكم التطور إلى نظم الروايات المسرحية والمطولات القصصية قاسوا من التزام القافية رهقاً شديداً وقعوا منه في الغرابة أو الركافة أو الفضول أو النبؤ، فدعوا إلى إرسال الشعر من غير قافية وقصروا هذه الدعوة على الشعر القصصي والتمثيلي وما في حكمها من القصائد ذوات الحوادث المتعددة والمواقف المختلفة.

بدأ ذلك الأستاذ محمد فريد أبو حديد فنشر في مجلة الرسالة سنة 1933م استفتاء في الشعر المرسل كانت مادته ترجمة بالشعر المرسل لخطبة أنطونيوس في رواية يوليوس

قصر لشكسبير، فاستطار حولها الجدل وتقسم فيها الرأي، ومضى يؤيد رأيه بالعمل فنظم بالشعر المرسل " مقتل سيدنا عثمان " و " خسرو وشيرين " و " زهراب ورستم "، وحذا حذوه المرحوم الدكتور أحمد وزكي أبو شادي فترجم بهذا الشعر رواية " ممنون " لفولتير، و " ترنيمه أتون " لبرستيد.

ومن قبل هذين الرائدین عالـج الشعر السيد توفيق البكري في قصيدته " ذات القوافي " وجميل صدقي الزهاوي في " المؤيد " وعبد الرحمن شكري في " الجريدة ". ثم فترت الدعوة وخشع الدعاة واستمسكت القافية على عرك النقد وشدة التطور حتى أتاح الله لها داعيًا جديدًا بعد فترة دامت عشر سنين هو الأستاذ دريني خشبة فجدها في " الرسالة " 1943م وأيدها بقوة. ولكن الأذواق لا تقارع بالمنطق ولا تجابه بالدليل ولا تتغير بالأمر، فظل الشعر الحر أُمّية في بعض النفوس وحديثًا في بعض المجالس، حتى أصيب الغناء المصري في العهد الأخير بالتجديد المسيخ المفتعل فزيف شعور أهله وقطع تيار ماضيه ووضع في الأغنية الواحدة أنغامًا من كل لحن وأصواتًا من كل أمة. والغناء أصل الشعر، والشعر مادة الغناء، فتأثير أحدهما في الآخر تفاعل من عمل الطبيعة يحدث من غير اكتساب ولا قصد. فكما أراد بعض الملحنين أن يخضعوا الغناء المصري للغناء الأوروبي في الموسيقى، أراد بعض الناظرين أن يخضعوا الشعر العربي للشعر الأوروبي في العروض، فأصبحنا نقرأ ما ننكر كما نسمع ما نكره !.

وأكثر ما ينشر اليوم من المرسل هو الشعر الحر الذي يتخلص غالبًا من التزام القافية، ويتجرد دائمًا من تساوي الشطرات. والشعر الحر يُقبل في الأغاني والموشحات، كما يقبل الشعر المرسل في الملاحم والمسرحيات. واستعمالهما في غير ذلك قلب للأوضاع، وحرب على الأذواق والأسماع، ونزول بالقصيدة الرّيضة المحكمة إلى مستوى هذه الرقاعات الصوتية التي ينطبق عليها كل اسم تشاء ما عدا الغناء !.

كل شيء يجوز النزول به إلا الفن. وكل فن يجوز التيسير فيه إلا الشعر. وكل تيسير يجوز النظر فيه إلا القافية. وذلك أن الشعر يتميز من سائر ضروب الكلام بخصائص

ثلاث: موسيقية شديدة الحساسية، وصعوبة عسيرة التسهيل، وقدرة على تثبيت الفكرة بلفظها في الذاكرة. فالشعر الحر يستطيع أن يدرك شيئاً من الموسيقية إذا زواج الشاعر بين الأبيات واستفاد من الحرية التي أوتيها، فتخير الألفاظ وعدّل الأقسام وألف الألوان وحرك المعاني ونوع الصور. وأخشى بعد ذلك كله ألا يرتفع عن النثر البليغ المحكم.

ولكن الصعوبة التي تلقى الشاعر في كل بيت عند القافية فيسلط عليها ذهنه وفنه وذوقه ولغته حتى يفجأ أذنك، وهي تنتظر في غير صير، بتلك الحيلة الفنية واللفتة الذهنية والكلمة الصادقة الموسيقية، لا تجدها في غير الشعر المقفى .. كذلك يعجز الشعر الحر عن أن يهيئ للذاكرة في التمثيل على الأخص ما تهيئه لها القافية من نقط الارتكاز وعلائم الطريق حتى لا تجور ولا تضل.

على أن تسهيل الشعر بإلغاء القافية يخمد الذهن ويجذب القريحة، لأن الصعوبة ترهف الفكر فيدق إحساسه، وتوقظ العقل فيزيد إنتاجه، وتبعث الفن فيحيا بين إلهام الشاعر وإعجاب القارئ.

والواقع أن القافية لم يشكها شاعر مطبوع ولا ناظم مطلع، فإن الطبيعة الغنائية للشعر العربي من جهة، ووفرة الثروة اللفظية للشاعر من جهة أخرى، تجعلان القافية من أخص لوازم الشعر وأسهل فنونه. ولنا في الأراجيز القديمة والموشحات الحديثة وسائر ما استحدث المولدون من الأنواع القائمة على موسيقى القافية دليل ناهض على ما نقول.

فإذا وقع شاعر اليوم في رهق من بناء القافية لقله محصوله من اللغة أو لمعالجته التمثيل أو القصص الطويل، كان له في تنويعها مندوحة عن هذا النوع الذي تذبذب بين النثر والنظم فوقف من الأذن موقف الغصة من الحلق! بذلك استطاع البستاني أن يترجم الإلياذة، وتسنى لشوقي أن يبدع في مسرحياته.

* * * * *

وبعد فإنني لماذا نيسر الكتابة ونسهل النحو، ولكني لا أفهم لماذا نيسر الشعر ونسهل الغناء، أليكون الناس كلهم مغنين وشعراء؟ لا، يا أخي ! المسألة في الفن استعداد واجتهاد وقريحة.

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

قوى الإسلام الثلاث

الإسلام دين القوة. وكيف يكون غير ذلك وشارعه هو الجبار ذو القوة المتين، ومبلغه هو محمد الصبار ذو العزيمة الأمين، وكتابه هو القرآن الذي تحدى كل إنسان وأعجز، ولسانه هو العربي الذي أخرج كل لسان وأبان، وقواده " الخالديون " هم الذين أخضعوا لسيوفهم رقاب كسرى وقيصر، وخلفاءه " العمريون " هم الذين رفعوا عروشهم على نواصي الشرق والغرب.

الإسلام قوة في الرأس، وقوة في اللسان، وقوة في اليد، وقوة في الروح. هو قوة في الرأس؛ لأنه يفرض على العقل توحيد الله بالحجة، وتصحيح الشرع بالدليل، وتوسيع النص بالرأي، وتعميق الإيمان بالتفكير. وهو قوة في اللسان، لأن البلاغة هي معجزة وأداته. والبلاغة قوة في الفكرة، وقوة في العاطفة، وقوة في العبارة.

وهو قوة في اليد، لأن موحيه وهو الحكيم الخبير، قد علم أن العقل بسلطانه، واللسان ببيانه، لا يغنيان عن الحق شيئاً إذا ما أظلم الحس، وتحكمت النفس، وعميت البصيرة؛ فجعل من القوة المادية دأباً عن كلمته، وداعياً إلى حقه، ومنفذاً لحكمه، ومؤيداً لشرعه. كَتَبَ على المسلمين القتال في سبيل دينهم ودينه، وفرض عليهم إعداد القوة والخييل إرهاباً لعدوهم وعدوه، وأمرهم أن يقابلوا اعتداء المعتدين بمثله.

والإسلام بعد ذلك قوة الروح؛ لأنه يمحس جوهراً بالصيام والقيام والاعتكاف والارتياض والتأمل.

وهذه القوة المتفرقة إنما تتضام وتتجمع في قوى ثلاث ذوات صيغ ثلاث:

قوة الفرد بالإيمان، وصيغتها: " الله أكبر ".

وقوة الجماعة بالوحدة، وصيغتها: " لا إله إلا الله ".

وقوة العالم بالألفة، وصيغتها: " السلام عليكم ".

فالتكبير والتهليل والتسليم هي هُتاف المسلم في أذانه وصلاته، وهي شعاره في أعماله ومعاملاته. ولا أجد للإسلام خلاصة تستوعب أسرارهِ ومعانيهِ ومغازيهِ خيرًا من هذه الصيغ الثلاث.

فالله أكبر جملة تضمنت سر الاعتقاد، وسر الجهاد، وسر الفداء، وسر النصر: ولاشتمالها على هذه الأسرار كانت ركنًا جوهريًا في الصلاة: يدخل بها المصلي إلى الله، ثم يرددها في ركوعه وسجوده، وفي قيامه وقعوده. ثم كانت هتافًا حماسيًا في الحرب، يصيح بها المجاهد عند الهجوم فيكبر في نفسه النصر، ويصغر في عينه الخطر، وكان غالبًا ما يكون هذا الهتاف: الله أكبر. فتح ونصر. فإذا جاء نصر الله والفتح انقلب هذا الهتاف القوي نشيدًا قوميًا ينشده المجاهدون في كل مسجد، ويردده المصلون في كل عيد، وهو: الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. وقوة هذه الكلمة آتية من اعتقاد المسلم بأن الله أكبر من كل كبير، وأقدر من كل قدير، وأعلى من كل عليّ، فهو في حمى هذا الاعتقاد يهاجم الجيش الكثيف ولا يخشى، ويقتحم الخطر الداهم ولا يبالي. وكيف يخشى ضررًا أو يبالي خطرًا، والله الذي تفرد بالسلطان الأعظم، واختص بالقدرة العليا، يحميه من وراءه ويكفيه من أمامه؟.

والتكبير في حقيقته إعلان عما يجيش في النفس من إجلال للمثل الأعلى، وإعجاب بالعمل الأرفع، فنحن نكبر الله حين يملأ قلوبنا جلاله، وحين يملك شعورنا صنعه. ونحن نكبره كل يوم في الأذان والإقامة والصلاة؛ لأن الإسلام قائم بأركانه الخمسة على القوة أو على ما تحصل به القوة. فالصلاة نظافة جسدية بالوضوء، وطهارة روحية بالذكر، ورياضة بدنية بالحركة. والزكاة تقوية للضعيف بالتصدق، وتنمية المال بالتطهير، وتمكين للمجتمع بالتعاون. والحج قوة اجتماعية بالتعارف والتآلف، وقوة سياسية بالتشاور والتحالف، وقوة اقتصادية بالبياعات والتسويق، فلولا قوته الروحية في الصلاة، وقوته الاقتصادية في الزكاة، وقوته الاجتماعية في الحج، وقوته المادية في الجهاد، لما استطاع المسلمون أن يفتحوا أكثر الدنيا القديمة فيملكوا معظم أفريقيا وأطراف أوروبا من الغرب، ومعظم آسيا وأطراف أوروبا من الشرق.

و " لا إله إلا الله " هي كلمة التوحيد. والتوحيد ركن من أركان الإسلام وعنوان بارز من عناوينه. يقصد به في الأصل توحيد الله، ثم قصد به من طريق اللزوم توحيد الكلمة، وتوحيد القبلة، وتوحيد الغاية، وتوحيد اللغة، وتوحيد الحكم، وتوحيد التشريع، وتوحيد الدين والدنيا. فهي من الكلم الجوامع التي وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل جماعة وأمة. ذلك لأن أشد ما تجتمع به القوة وتنسق عليه الحال، الوحدة والجماعة، وهما لباب الدعوة الإسلامية.

فالوحدة هي الأساس الذي حمل، والجماعة هي البناء الذي قام، ومن ثم قامت سياسة الإسلام على استدامة القوة بالمحافظة على الوحدة والحرص على الجماعة، فالفرد الذي يفكر بوحدة العقيدة والأمة يُقتل، والطائفة التي تبغى على جماعة المسلمين يقاتل؛ والحاكم الذي يُضل قومه السبيل يعزل، والصلاة إنما يعظم أمرها ويضاعف أجرها إذا أديت في جماعة. وهذه الجماعة تتكرر خمس مرات كل يوم، ثم تكبر في صلاة الجمعة كل أسبوع، ثم تعظم في صلاة العيدين كل عام، ثم تضخم في أداء الحج مرة على الأقل في كل عمر.

أما " السلام عليكم "، فهي الصيغة للمعنى الإسلامي الذي يقابل معنى الجاهلية قبل الرسالة، ومعنى الجهاد بعد الدعوة، ومعنى التكبير في أول الصلاة.

ومقابلة التكبير وهو رمز القوة بالتسليم وهو رمز الرحمة، دليل على أن القوة التي يأمر بها الإسلام هي قوة الحكمة والعدل، لا قوة السفه والجور، فهي قوة مزدوجة، أو قوة فيها قوتان: قوة تهاجم البغي والعدوان في الناس، وقوة تدافع الأثرة والطغيان في النفس. فالمصلي يدخل في الصلاة إلى الله بالتكبير وهو خشوع وعبادة، ويخرج منها الناس بالتسليم وهو أمان ورحمة

(والسلام عليكم) بعد أولئك كله تحية المسلم لبنية في الصلاة. وتحية المسلم لأخيه في كل وقت؛ يلقيها عليه حين يلقاه فيضمن له الأمان من نفسه، ويحمله على أن يطمئن إليه بأنسه.

فأنت ترى أن القوة الحكيمة التي تصدر عنها العزة والمروءة والحرية والعدالة هي طبيعة الإسلام ووصيلته. على ذلك كان إسلام محمد وأبو بكر وعمر، وعلى ذلك

كانت عروبة خالد وسعد وعمرو. كان العرب والمسلمون حينئذ يحملون المصحف للحق والسيف للباطل. وكان خلفاؤهم يجمعون بين إمامة الصلاة وقيادة المعركة، حتى بلغوا من القوة أن فعل كتاب الرشيد في (نيقفور) ما لا يفعل الجيش؛ وبلغوا من المروءة أن سَير المعتصم جيشاً إلى (عمورية) لإنقاذ امرأة!.

فمن لم يكن قوي البأس، قوي النفس، قوي الإرادة؛ يؤمن بالوحدة، ويحرص على الجماعة، ويخلص للقومية، كان مسلماً من غير إسلام، وعربياً من غير عروبة.

الإسلام سرّ الفدائية

قاوم عشرون جندياً مصرياً يقودهم العريف محمد أحمد عيسى في (أبو عجيله) جيش إسرائيل بدبابته ومصفحاته وطائراته ست عشرة ساعة هزموه ثلاث مرات، قتلوا فيها مائتين من جنده ودمروا اثنتي عشرة من مصفحاته⁽¹⁾ ثم لحقوا بجيشهم دون أن تمسهم جراح، أو يفقد من أحد منهم سلاح! فحققوا بذلك قول الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَادِقُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: 65] فما سر هذه القوة التي تجعل من القلة كثرة، ومن الضعف قوة، ومن الأنانية فدائية؟ سرها يعرفه الإسلام وحده، فقد كان العرب من قبله قوى مبعثرة على رمال الصحراء لا تجمعها وحدة ولا تربطها رابطة. فلما اصطفاها الله لإعلان كلمته أمدهم بروح من عنده وحدث الشئيت وألفت النافر وجمعت القوة. تلك الروح هي السر الإلهي الذي لا يزال كامناً في الجهاد والاستشهاد والإيثار من يوم شرع القتال إلى يوم هوجم القنال، ولم ينفك أبداً عن مسلم، ولم يخذله أبداً في حرب. كان يتمثل له في صور الملائكة تقاتل معه، ويتحقق عنده في الوعد الصادق من الله بالنصر أو بالجنة. ثم يقويه في نفسه على توالي الأعقاب والأحقاب الانقياد لله وللرسول وقد جمع الله له تدبير الحروب في آيتين من كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: 45]، ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: 46]؛ والإيمان بالقضاء والقدر، وقد قال الله لنبيه: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 50]. فالمؤمن بمقدور الله يرمي بنفسه في وجه الموت لا يبالي أن يقتل أو يُقتل، لأنه في إحدى الحالتين سيظفر بإحدى الحسينين: النصر أو الشهادة. وكان في أكثر هجماته يصيب وفي أقلها يصاب. ولذلك قالوا عن عقيدة وتجربة: اطلب الموت توهب لك الحياة. والحذر لا ينجي من القدر.

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جباناً
ولو أن الحياة تبقى لحي لوجدنا أضلنا الشجعاناً

(1) في معركة العدوان الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي على مصر سنة 1956.

وفي واقعة اليرموك قال عكرمة ابن أبي جهل لرفاقه من المجاهدين: " من يبايع على الموت؟ " فكان لهذه الكلمة في نفوسهم فعل السحر فتدفقوا على علوج الروم بالسيوف حتى دحروهم. وكان سيف الله خالد بن الوليد يود لو يظفر بالشهادة في سبيل الله فلم تُكتب له، فقال يتحسر وهو في سياق الموت: " لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح، وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي، فلا نامت أعين الجبناء ! " .

بهذا الروح المنبثق من روح الله في نفوس المجاهدين خرج البديون وهم زهاء الثلاثمائة إلى أئمة الكفر من أبطال قريش وهم زهاء الألف، فككببهم قتلى في وادي بدر، وعادت الفئة القليلة إلى يثرب بالنصر والأسرى، وعادت الفئة الكثيرة إلى مكة بالهزيمة والجرحى. وبهذا الروح المبعوث من روح الله في دماء المجاهدين خرج بدو الجزيرة من أجواف الأودية وأعماق الفقر ضئال الجسوم قلل العدد ضعاف القوة إلى لقاء الإمبراطوريتين اللتين تقسمتا يومئذ ملكوت الأرض فقوضوا الإيوان على مُلك كسرى، وحطموا العرش على سلطان قيصر. وبهذا الروح الإلهي الملتهب في أعصاب المجاهدين أذلت زوارق الطريد المصرية كبرياء الأسطولين الإنجليزي والفرنسي في مياه البحر الأبيض والبحر الأحمر، وبهذا الروح الخفي الذي يغمض كنهه ويستدق فهمه على عقل الإنسان صمدت بورسعيد في وجوه مائة وستين ألفاً من جنود العدو، ووقف عشرون جندياً في أبو عجيبة أمام جيش إسرائيل بأسره. ذلك لأن الشجاعة من مدد القلب لا من عدد الجيش.

الجهاد في سبيل الله أو في سبيل الوطن فرض عين على كل مسلم قادر إذا وقع المسلمون في خطر عام لا يقدر على دفعه قوم دون قوم كالاستعمار والصهيونية. والقيام به لا يتقيد بزمن ولا أرض ولا جنس. مثله في ذلك مثل الأركان الخمسة للإسلام، ولكنه يختلف عنها في أمر دقيق. ذلك أن المسلم قد تضعف في نفسه الدواعي إلى إقامة هذه الأركان كلها أو بعضها، فيترك الصلاة والصوم، ويهمل الزكاة والحج، وإذا ذكَّره بها واعظ أو حثه عليها خطيب جعل قوله دُبر أذنه. ولعل السبب في هذا الضعف أن العمل بهذه الأركان قائم بين المسلم وربه فلا وازع له إلا من ضميره.

أما عقيدة الجهاد فقائمة على الصلات بينه وبين ربه ووطنه وولده وماله وتراثه وذكرياته وأمانيه، فهي لا تزال حية في النفوس على طول الزمن وشدة الترك، كالنار في البركان الهادئ، تسكن ولا تنطفئ، وتكمن ولا تظهر، حتى إذا أثارتها الحمية لدين يهان أو لوطن يهاجم انفجرت في نفوس المؤمنين انفجار الحمم فلا تذر من شيء أتت عليه إلا أهلكته. بذلك نفسر هذه الصيحة العامة التي أخذت دول الاستعمار من جميع الأقطار المسلمة على انقطاع السبب وتباعد الشقة، تستنكر العدوان على مصر وتستعد لدفعه عنها بالمال والنفس. وليس عطف العرب على الجزائر ولا غضب المسلمين لمصر ناشئين عن عصبية الجنس أو عن حق الجوار، وإنما نشأ عن تلك الحفيظة الدينية التي أوحاها الله في الكتاب، وبينها الرسول في السنة، وفصلها الفقهاء في الفقه.

والجهاد كسائر الأركان يستند إلى نص القرآن الكريم. وإن من سوره ما موضوعه الحرب والسلم والغنائم والأسرى والعهود وجملة ما يتألف منه قانون الحرب في الإسلام. ومن تلك السور سورتا التوبة والأنفال.

ومن المغازي الدقيقة للقرآن الكريم أنه لم يعرض لأسرى المسلمين بنظام ولا معاملة كما عرض لأسرى العدو، لأنه يأمر بالثبات وينهى عن الهزيمة إلا لخدعة أو نجدة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ ۖ الْأَذْبَارُ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ ۚ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِّقْنَالٍ أَوْ مَتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ ۖ فَقَدْ بَكَءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۚ﴾ [الأنفال: 15-16].

عَادَ الشَّعْرُ فِي الْعَالَمِ كَمَا بَدَأَ

بدأ الشعر غنائياً في كل أمة تهيأت له بحكم الفطرة وفعل الإقليم. والمراد بالشعر الغنائي ما يقوله الشاعر تعبيراً عن خوالج نفسه وتصويراً لمدارك حسه وتسجيلاً لخواطر ذهنه، كالغزل والمدح والهجاء والرثاء والفخر والوصف والعتاب والشكوى مما لا يخرج عن شخص الشاعر ولا يدخل في شأن غيره.

أما نسبته إلى الغناء فلأنه كان في الدهر الأول ينشد على القيثارة في المعابد تسييحاً للآلهة وتأثيراً في الناس. وكان الكهان وهم الشعراء الأولون يتخيرون لأناشيدهم اللفظ المصون العذب، والأسلوب الجميل الفخم؛ ليكون الكلام الذي يرفع إلى السماء أسمى وأجل من الكلام الذي يُقال للأرض.

فلما انتقل الشعراء من المعابد إلى القصور، ومن مدح الآلهة إلى مدح الملوك، احتفظوا للشعر بلغته الخاصة وعباراته المختارة وإنشاده الموقع، فظلوا ينشدونه في المحافل والمجامع بلحون تختلف باختلاف البحور وتتفاوت بتفاوت الحناجر. وقد سموا الأعشى صناجة العرب لحلاوة صوته وحسن إنشاده. واستمر ذلك دأبهم بعد الجاهلية فكان الشاعر ينشد قصيدته قائماً بين يدي الخليفة أو الأمير، فإذا لم يكن حسن الإنشاد اقتنى غلاماً رخيماً الصوت ليقوم عنه به. وقد قالوا: إن الرشيد كان يطرب للإنشاد أكثر مما كان يطرب للغناء.

ونشأة الشعر في المعبد وصلته بالغناء يتفق فيهما كل شعر في كل أمة. ولا يزال الأوروبيون يقولون كما كان يقول الإغريق والرومان والعرب: أنشد الشاعر شعره أو غناه. ولا يقولون: ألقاه أو أداه.

* * * * *

ثم انتقل الشعر مرة أخرى من القصر إلى المدينة، وخرج الشاعر من دنياه إلى دنيا الناس؛ وكانت الآلهة قد صنعت الخوارق، والأبطال قد أتوا بالمعجزات، فُنُسِجَتْ حولهم الأساطير، واستفاضت عنهم الأحاديث، وتناقلتها الأفواه جيلاً بعد جيل، فجاء الشعراء فنظموا هذه الوقائع ملاحم وأنشدوها الشعب ليذكروه بأمجاد قومه ويثقفوه

بسير أبطاله. وهذا هو الشعر القصصي، ومنه في تاريخ الأدب العالمي الإلياذة لليونان، والإنياد للرومان، وماهابهاراته للهند، والشاهنامة للفرس، وسيرة بني هلال للعرب، والملهاة الإلهية للطلينان، والفردوس المفقود للإنجليز، وهنرياد للفرنسيين.

ثم انتقل الشعر مرة أخيرة من الخيال إلى الواقع، ومن الكلام إلى الحركة، ومن المدينة إلى المسرح، وكان الفكر الإنساني قد نضج، والأثر الفلسفي قد شاع، والنظام الاجتماعي قد تعقد، فاتخذ الشعراء القصص الشعري وسيلة للإصلاح بتمثيل أبطال القصة على المسرح وجعلهم يقولون بألسنتهم ويعملون بأيديهم ما رواه القصص عنهم، ابتغاء تقوية النفوس المريضة بالعواطف النبيلة والمثل العليا كما في المأساة، أو تقويم المعوج من الأخلاق والعادات باتخاذ أهلها مضحكة للناس كما في الملهاة، وهذا هو الشعر التمثيلي.

فأنت ترى أن الشعر قد تطور في تاريخ الإنسان أطوارًا ثلاثة يتطورها كل شاعر في ذاته وكل شعب في مجموعته: وهي الغناء المهدد في الطفولة، والقصص الحماسي في الشبيبة، والتمثيل الفلسفي في الكهولة.

ففي الأول يتغنّى الشاعر بما يلم به ويتخيله، وفي الثاني يقص ما يسمعه أو يعمل، وفي الثالث يصور ما يلحظه ويتمثله.

ومنبع الأغاني الوهم والخيال، ومنبع الحماسة العظيمة والجلال، ومنبع التمثيل الحقيقة والواقع. ومظاهرها في عمر الخليفة هي التوراة والإلياذة وشكسبير. ولم يمر الشعر بهذه الأطوار الثلاثة مدفوعًا بقوة السليقة جاريًا على سنة الطبيعة إلا عند الإغريق لأسباب فطرية وإقليمية، أما عند الرومان ومن خلفهم من الأمم اللاتينية فلم تتم للشعر هذه الأطوار إلا بتقليد الإغريق والأخذ عنهم.

أما الشعر القصصي وهو يقوم على الأعاجيب والأكاذيب والخوارق فقد كان له بلاغه في العقول ومساغه في الأذواق حين كان الناس لا يزالون يعيشون للحرب والحب، ويفتنون بالبطولة والقوة، ويصدّقون بالهواتف والرؤى، ويؤمنون بالكهانة والسحر، ويعتقدون في الأبطال والملوك. فلما قوى العقل واستبصر الفكر وكشف العلم للإنسان الحديث خبايا الكون وأسرار الطبيعة، فلم تعد التهاويل تروعه، ولا

الأباطيل تخدعه، مج ذوقه هذا الضرب من الشعر واكتفى منه بالمأثور عن الأقدمين يقرأه على اعتباره صوراً لعصور تقضت ومشاعر لأمم خلت. وأصبح من العسير على الشاعر القصصي أن يوفق بين الملحمة المبنية على الخوارق والوهم، وعقلية العصر القائمة على الوقائع والعلم.

وأما الشعر التمثيلي وهو شعر الأناقة والترف فقد كان له في أوروبا نفاق وإشراق أيام كان المسرح للخواص، لا يشهده إلا الملوك والنبلاء والقادة. وهؤلاء قد فرض عليهم نظام الفروسية في تلك العصور أن يجمعوا بين أدب السيف وأدب اللسان، فكانوا يتفاحسون في الحديث ويتفاخرون بالأدب ويتنافسون في الشعر، وأصبح ذلك بدع العصر وهوايته. وفي القرن السابع عشر اشتد التشدد بالفصاحة حتى أصاب جماعة من النساء سحر مولير من حذلقتهن في روايتين من رواياته.

واستمر إشراق الشعر المسرحي ونفاقه حتى أقبل القرن العشرون وكانت الديمقراطية قد غلبت على المسرح، والواقعية قد هيمنت على الأدب، وكان المسرحيون قد فطنوا أخيراً إلى أن شرط الإمكانية في الشعر المسرحي مفقود، وأن الناس الذين يمثلونهم أو يمثلون لهم لم يكونوا في الواقع يتحاورون بالشعر ولا يتجادلون بالمجاز، وأنهم يكلفون أوساط المثقفين أو أنصافهم شططاً يتتبع السياق القصصي بين أوزان الشعر وقوافيه، وفي غموض لغة الشاعر وتراكيبه، فاقصدوا في تغليب أدب الخاصة على أدب العامة، وقصدوا إلى تقريب لغة المسرح من لغة الحياة، فانكفأ الشعر التمثيلي عن المسارح وانزوى في المتحف الأدبي بجانب الشعر القصصي ينتظر من يخرج به إلى الأدب لا إلى المسرح، وينشره للقراءة لا للتمثيل.

ولقد جاء دور الأدب العربي في الشعر المسرحي بعد أن مضى زمنه واضمحل شأنه، فلم تجد مسرحيات شوقي ولا روايات عزيز أباظة شعب أسخيلوس وسوفكليس، ولا جمهور راسين وشكسبير، وإنما وجدت جمهوراً خاصته للواقعية وعامته للأمية، فلم يفهم مرامي للبيان في الفصحى، ولم يدرك أسرار الجمال في الشعر، فخرج من مشاهدتها غائب الرأي والوعي ولا يدري على وجه اليقين أي شيء رأى ولا أي كلام سمع!

إذن لم يبق في العالم تراث (أبولون) إلا الشعر الغنائي، وهو فيض الوجدان، وعبير الروح، وأحلام النفس، وأنغام القلب، وحُداء البشرية المرفه في طريق الحياة الوعر، صفا من شوائب البهيمية في العصور الطاغية كالمدح الكاذب والهجاء الفاحش والغزل الشاذ، ثم خلص للتأملات والوجدانيات والوطنيات والأغاني والأناشيد وهي علة وجوده وسر دوامه.

وهذا النوع من الشعر هو كما قلت أصل الأنواع الأخرى، فجذوره ضاربة في أعماق الأزل، وفروعه ممتدة في آفاق الأبد. فهو باق أبداً لأن البواعث التي تستدعيه لا تنقضي، وهو جديد أبداً لأن العواطف التي تغذيه لا تتقادم.

سيبقى مادام للشاعر قلب ووجدان، وسينشد مادام للمغني صوت وألحان، وسيسمع مادام في الإنسان نزوع إلى مثل وطموح إلى أمل!.

وللأُمم أيضاً من رجالها عناوين

(عاد الشعر في العالم كما بدأ) وهو عنوان المقال السابق سقط سهواً في جريدة (الشعب) التي نشرته. والمقال من غير عنوان كتاب عُقل ودينار مسيح وطريق دارس، وفي الأمثال: الكتاب يعرف من عنوانه. والظاهر عنوان الباطن. وفي الشعر:

كنت مثل الكتاب أخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان

واختيار العنوان نصف الموضوع، لأن الكاتب لا يسمي موضوعه إلا إذا تولد في ذهنه وتحقق في خياله وتشخص في نفسه. وأنا بالذات أدخل الموضوع من عنوانه، فهو بابه ولبابه. وربما لا يكون في الذهن وقت الكتابة إلا هذه الجرثومة التي قطرت من شق القلم على رأس الصفحة، ثم تتداعى المعاني وتتوالى الخواطر، ويتشقق بعضها عن بعض حتى تصير مقالة أو رسالة:

ولعناوين الكتب في تاريخ الأدب فصل طريف .. كان العلماء والأدباء في القرون الثلاثة الأولى من العصر العباسي يتوخون في عناوين كتبهم الوجازة والبساطة والوضوح، فيقولون مثلاً: الموطأ. البخلاء، الأغاني، الكامل.

فلما أقبل القرن الخامس كان العرب قد استبد بهم سرف العيش وترف الحضارة فتأنقوا في الزينة وتفننوا في الزخرف وسرى ذلك إلى الكتاب فبالغوا في توشية الأسلوب بالسجع والجناس، وتمويه المعاني بالزيف والبهرج، ورسموا بألوان البيان والبديع صوراً من النثر والنظم عجيبة، فيها المادة وليس فيها الروح، وفيها الصنعة وليس فيها الفن، ونفضوا من تلك الأصباغ على عناوين الكتب فقالوا: الشعور بالعمور. مشتهى العقول في منتهى النقول. نكت الهميان في نكت العميان. تبيض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة. الشماريخ في علم التاريخ. الجواهر المفتخرة من الكنايات المعتمدة. فتح المقال في وصف النعال.

وانتقلت عدوى هذا الداء من الأدب إلى العلم فقالوا: التفاحة في علم المساحة. نخبة الأذكاء في علم الكيمياء. الآيات النباتات في علم النباتات. المصباح الوضاح في صناعة الجراح. الاستكشاف العصري في الدملي المصري.

وجمع بعض المتأخرين من فقهاء الأزهر بين التكلف والسخف في عناوين كتبهم فقالوا: ألف سيخ في عين من حرم أكل الفسيخ. القول المحقق في تحريم البن المحرق. أكل الرز في حل اللغز!.

وكان صديقنا المغفور له محمود زناتي مولعًا بتتبع هذا الضرب من العناوين، يحكيه ويحاكيه على سبيل التفكه. كان يتهمك أو يهجو أو يهدد بعنوان يضعه على ذلك النمط لمشروع كتاب فيكون العنوان نفسه خلاصة رأيه ومنطوق حكمه. فمن عناوينه التي يجوز أن تنشر في صحيفة أن معاينة وقعت بيننا وبين صديقنا طه حسين في يوم من أيامنا بالأزهر، فقال له محمود مهددًا: سنؤلف نحن الاثنين رسالة في ذمك نجعل عنوانها: أرسلها في طه.

ولم تبرأ عناوين القصص المترجمة من علة السجع والجناس فقد عنون المرحوم عثمان جلال قصة (بول وفرجينى) بهاتين الفقرتين: تمر حنة في قبول وورد جنة. يريد بقبول (بول) وبورد جنة (فرجينى).

ورأى بعض الصحف في العهد الماضي أن من جمال الإخراج الصحفي أن تلتزم السجع في عناوين الأخبار. وأخذت جريدة (مصر) نفسها بهذا الالتزام أخذًا شديدًا، فكانت تبذل من الجهد في تسجيع العناوين، أكثر مما تبذله في تسقط الأخبار نفسها من الأقاليم والدواوين .. يحضرني منها على سبيل المثال قولها: مجلس الوزراء يجتمع في السادسة من المساء. بقايا حكم الكرياج، في مديرية سوهاج. دعاء إلى تناول الفطور، ثم انهال عليه بالساطور. زراع القصب، في منتهى الغضب. يسرقون البقر والأغنام، ولا يخافون عين الرب الذي لا ينام!.

ثم تخفف أسلوب العصر رويدًا رويدًا من أثقال الزخرف الكاذب حتى عاد أشبه بمنبعه الأول في صفاء لفظه وخلوص بيانه، فذهبت عن العناوين تلك الغثاثة وأصبحت في الكتب والصحف نوعًا من الكلم الجوامع تجمع بين الإيجاز والتشويق والبساطة.

وللأمم أيضًا من أسماء حكامها عناوين، منها العريض البارز المتألق الذي يشع من نوره على كل شخص في شعبه، وعلى كل شيء في وطنه، فيمحو كل ظلام ويستر كل عيب ويسد كل نقص، فلا يظهر للناس إلا كماله، ولا ينشر في الأرض إلا خيره.

ومنها الغليظ الصفيق المعتم الذي يغشى أمته غشيان السحاب الجون فيحجب فضلها إن كان لها فضل، ويسلب عقلها إن كان لها عقل، ثم يدعها شمسًا وراء ضباب، وذهبًا تحت تراب، ونفسًا خيرة يمثلها في الوجود وجه شيطان.

ومنها الغائر المطموس المشوه الذي يخفق على أرجاء دولته خفوق السراب الخادع يوهم ولا يحقق، ويشير ولا يدل، ويشك ولا يؤكد، فهو على رأس أمته عمامة على نعش، وشاهد على قبر، ولفظ غريب على معنى مغلق.

أمثل للنوع الأول من هذه العناوين بعبد الناصر ونهرو، وللنوع الثاني بإيدن أيام كان ونوري، وللنوع الثالث بمندريس ورجل آخر تختاره أنت !.

أخطر ببالك الهند، فهل تذكر حين تذكرها ما فيها متن اختلاف العقائد والألسن، وتختلف الحضارة والعلم، وغرابة العادات والتقاليد؟ إنك لا تذكرها إلا مضافة إلى نهرو أو ممثلة فيه. وإذن لا تجد إلا الدولة التي أشرفت في السياسة الدولية إشراق الهدى في الضلال والأمان في الخوف والوئام في الخصومة. تقول فتسمع، وتدعو فتجابه، وترى فيقام لرأيها وزن. فلو أن القدر أبدلها من نهرو عنوانًا آخر من نكرات القوم وأشعث السياسة لظلت كجارتها باكستان تابعة لا متبوعة ومنكورة لا معروفة. وتلك حال كل أمة تتخذ عناوينها من تيم التي يقول فيه الشاعر:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يُستأمرُون وهم شهود

ثم أخطر ببالك بعد ذلك انجلترا أو فرنسا، فهل تذكر حين تذكرها تلك الحضارة التي طبقت الأرض، أو تلك العلوم التي سخرت الطبيعة، أو تلك الآداب التي هذبت الإنسان، أو تلك الفنون التي رفعت النفس، أو الحرية التي أحيت الضمير، أو الأخلاق التي دعمت المجتمع؟.

إنك اليوم لا تذكر شيئًا من كل أولئك لأنه انطوى تحت عناوين سائرة من الحقم والسفه والإجرام والعدوان، كلماتها المظلمة إيدن أو جي موليه أو من شابههما من

أولئك الأوغاد الذين نجمت في رءوسهم قرون الشياطين، وسالت في أفواههم سموم الأفاعي. لن يرد على خاطرك من رجال هاتين الدولتين إلا مستعمر مجرم أو مستغل لص. أما العلماء والأدباء والفنانون والمفكرون والخيرون فقد غشيتهم ظلمات هذه العناوين فلا يظهر منهم عين ولا أثر.

وأكذب ما يكون العنوان إذا وضعه على الكتاب غير مؤلفه كما ترى في العراق، فقد ألف الله أمته بيده وجاء الإنجليز فجعلوا عنوانها نوري السعيد! فهو لا يدل عليها إلا كما يدل الاستعمار على الإصلاح، والتبعية على الاستقلال، والسكسونية على العروبة! فمتى يا بني العم يزول الطغيان ويصح العنوان ويتصل الحبل ويجتمع الشمل ويتحد الطريق؟.

العميل الأول للاستعمار

صديقي كامل الجادرجي:

علمت من أبناء العراق أنك اليوم نزيل السجن " النوري " المظلم، تضطرب نفسك الحرة بين جدرانها السود كما يضطرب الحميم المكظوم في الرجل الحامي. وكذلك كنت يا كامل طيلة ربع القرن الذي اغتصبه نوري السعيد من تاريخ العراق. كنت أنت ومازلت تمثل المعارضة الوطنية التي تتوخى الاستقلال للعراق والحرية للعروبة والوحدة للجامعة؛ وكان هو ومازال يمثل الحكومة الإنجليزية التي تبغي استعمار الوطن العربي باسم سورية الكبرى أو الهلال الخصيب أو حلف بغداد. وكان أكثر المعارضين يعارضون ابتغاء الحكم ويتخذون إليه الوطنية مطية؛ أما أنت فكنت تناصر الحزب ما دام معارضاً، فإذا قبل الحكم تركته إلى غيره حتى انفردت ذات يوم بالمعارضة، لذلك لم يجد نوري حيلة فيك، لا بالمصانعة ولا بالمخادعة ولا بالرشوة، فلم يكن له بد من محاربته إياك في ثروتك وفي حريتك وفي نفسك !.

لا أزال أذكر أحاديثك وأمانيك في مجلسنا الذي يجمعه تشابه الذوق وتجانس الهوى حول مائدتك أو أمام مدفأتك فأسمع منك ومن إخواننا الخمسة ما لا يتسنى لي الاطلاع عليه من خفايا الحكم وأسرار السياسة لا من ظواهر الأمور ولا من قراءة الصحف⁽¹⁾.

كان ذلك في سنة 1930 وقد تولى نوري السعيد الحكم ووقف ياسين الهاشمي في المعارضة.

وكنت أنت يده اليمنى في حزب الإخاء الوطني المعارض. كانت البلاد يومئذ تفور بالسخط على طغيان الإنجليز، لأنهم تصلبوا مع عبد المحسن السعدون حتى انتحروا، وتصعبوا مع ناجي السويدي حتى استقال، وكاد الشعب ينفجر بالثورة على (دار الاعتماد) ووكر الاستبداد لولا أن الإنجليز فزعوا إلى رجلهم المدخر ومهدهم المنتظر

(1) اقرأ مقال الحلقة في المجلد الأول من كتاب (وحي الرسالة).

فأجلسوا على كرسي القيادة، فقبض نوري بيده اليسرى على العنان وبيده اليمنى على السوط، ومضى يُكره الشعب الأبى على أن يسير في الطريق الذي خطه المستعمر لا يلتفت وراءه، ولا يتحسس أمامه، وكنت أنت وإخوانك الأحرار المخلصون تحاولون أن تقيموا العوائق في هذا الطريق لتقوا الأمة المقهورة سوء المصير، ولكن كيد الحكم كان شديداً ومكر الاحتلال كان أشد !.

كان الإنجليز قد رأوا في نوري السعيد الجريء الذي لا يعف، والمستهتر الذي لا يستحي، والصدى الذي لا يخون، منذ اليوم الذي وقف فيه بمجلس النواب وبيده المسدس يرغم نواب الأمة على أن يقرروا المعاهدة العراقية الإنجليزية الثانية، وكان الأحزاب قد أجمعوا الرأي على أن يرفضوها، وقام بينهم وبين أنصار الحكومة شجار بالألسن وصراع بالأيدي. فدعا نوري الجيش فحاصر البرلمان، وأمر البوليس فأغلق الأبواب، وشهر مسدسه في وجوه المعارضين وقال: لن تخرجوا حتى تقرروا المعاهدة ! فلم يجد المجلس مخرجاً من هذا الضيق إلا بالتصديق! لذلك جاءوا به حين تنمر الشعب وتأزم الأمر وأبرهم معهم المعاهدة القائمة سنة 1930 بعد أن حل مجلس النواب، وزور نتيجة الانتخاب، ولم يبال بإضراب الأحزاب ولا بإنكار الأمة.

والأساس الذي قامت عليه معاهدة نوري - همفريز، هو أن (حفظ المواصلات البريطانية من صالح الدولة العراقية) و (أن مصالح الدولتين مشترك وغير مختلفة) وكان رأيك يا كامل ورأي الزعيم ياسين: (أن هذه المعاهدة لم تضيف شيئاً إلى ما كسبه العراق وإنما زادت في أغلاله، فعزلته عن الأقطار العربية، وصاغت له الاستقلال من مواد الاحتلال..) ولكن هذا الكردي العنيد قد لجج في طغيانه وأصر على غيه واستمر جاثماً على صدر العراق ستاً وعشرين سنة لا يتحلل ولا يخف، وكنا نتساءل كما يتساءل الناس اليوم:

بماذا استطاع هذا الهزيل القليل أن يخضع العراق لسلطانه هذا الدهر الطويل وليس له قوة من أسرة أو عشيرة، ولا نصرة من حزب أو شعب، ولا بلاغة من لسان أو قلم، ولا ميزة من علم أو أدب، ولا خبرة في سياسة أو حكم! وكان الجواب دائماً هو أن الكلمة التي في فمه، والقوة التي في يده، إنما تأتيانه من خارج نفسه: تأتيانه من السفارة

لا من الوزارة، ومن إملاء لندل لا من إحياء بغداد، فهو وسيط المنوم المغنطيسي لا أقل ولا أكثر. ولكنه سمع النفعيين والمنافقين ينعتونه بالحنكة والحكمة والدهاء ففعل ما فعل المرحوم أشعب: كذب نفسه وصدق الصبيان !.

كان نوري السعيد في سياسته الداخلية والخارجية مصدقاً ومطبقاً للمبدأ الإنجليزي القائل: فرق تحكم. فرق في الداخل بين العناصر والعشائر والعقائد بالطمع والخوف، و فرق في الخارج بين دول العروبة والإسلام بالكيد والدس، وسخر في سبيل هذا التفريق أكبرية لا أصغرية، فידاه مشغولتان دائماً بالوسيلتين اللتين تغنيان عن عبقرية الذهن وبراعة الكياسة، فإذا كان في ديوان الحكم كان في يسراه العنان وفي يمينه الكرباج، وإذا كان في دار النيابة كان في يسراه الذهب وفي يمينه المسدس، وإذا كان في بيت (الأظروملي) كان في يسراه السبحة وفي يمينه الكأس! وهذه الوسائل لا تزال كما تعلم أشد الوسائل أثراً في سياسة الشعوب المتجانسة المتحدة، فكيف بها في الأمة الناشئة التي تتنوع فيها الدماء وتتعدد الألسن وتختلف النحل؟.

أما السر في أن نوري السعيد قد باع عقله وقلبه وضميره للاستعمار بالثمن الحرام الذي يستعبد أمته ويستعمر وطنه، فهو طموحه إلى السلطان دون أن يملك الوسيلة إليه في ذات نفسه. فمثله مثل الطامح إلى الثراء الفاحش دون أن يكون له رأس مال ضخمة، فهو يسعى إليه عن طريق السمسرة الخادعة أو التجارة المريبة. وشعوره بالعجز الطبيعي عن بلوغ الزعامة من طريق الشعب والكفاية ولد فيه مركب النقص وما يلازمه من الحقد على كل زعيم والحسد لكل نابغ.

فإذا أضفنا إلى ذلك جنسيته الكردية وتربيته التركية وكتاتهما تساعد على بغض العرب وازدراء العروبة سهل علينا أن نفهم لماذا يكره عبد الناصر ويأتمر بمصر، ويتحرش بسورية، ويعادي روسيا وهي صديق، ويوالي إسرائيل وهي عدو، ويؤلب الدول الإسلامية الثلاث على الدول العربية الخمس بالحلف الذي لا ينفع إلا إنجلترا ولا يضر إلا العراق:

وذلك كله يا كامل غثاء سيجرفه السيل، وباطل سيدمغه الحق، وخداع سيفضحه الوعي، وحلم سيعقبه الغضب. ولقد غضبت النجف، وإذا غضبت النجف غضبت

لغضبها عشائر الفرات جمعاء. وعشائر الفرات وكلها شيعية هي القوة الضاربة في شعب العراق. وأنت أعلم مني بما صنعت هذه القوة بالإنجليز حين ثارت عليهم في سنة 1921.

إن نوري السعيد قد حكم أكثر مما يجوز الحكم، ودله أولو الأمر أكثر مما يقبل التدليل، وصبر عليه الشعب أكثر مما يحسن الصبر. فهل آن يا كامل للعراق أن يرده إلى الطريق شبابه الحر الصريح، وأن تطيح هذه الجذوع النخرة مع الريح؟.

ناشئ يطرق أبواب الأدب

طرق الباب على كهنة الفن في رفق وحذر، ثم ألح في الطرق بعنف وجرأة؛ ثم أحس بساعده يكل وبصبره ينفذ فهم أن يرجع أدارجة.

كانت كل طريقة على باب المحراب قصيدة أو قصة يرسل بها إلى إدارات الصحف أو دور النشر، ثم يرهف سمعه إلى ما وراء الأبواب فلا يسمع جواباً منها، لا بنعم ولا بلا.

وأخيراً قرر في نفسه أن يحاول الوصول إلى مجد الحياة من طريق آخر وبوسيلة أخرى. ولكنه أراد أن يستشيرني قبل أن يمضي هذا القرار ليستنفذ كل عذر في هجره الأدب الذي أحبه والعمل الذي اختاره.

زارني منذ أيام ومعه أخوه الأكبر وهو ضابط من ضباط الشرطة يتبين من اهتمامه ومن عروض كلامه أنه يرأف به ويعطف عليه، وقد صحبه إليّ كما يصحب الصحيح العليل إلى عيادة الطبيب. والواقع أن الفتى كان على حال من الهم واليأس لا يطمئن عليها قلب يحبه. كان مشغوف الفؤاد بشيء اسمه الأدب، لا يفكر إلا فيه، ولا يعمل إلا له، ولا يحلم إلا به، وكانت غاية أمانيه أن يرى اسمه مطبوعاً على كتاب أو منشوراً في مجلة. وهو يعتقد أن مواهبه الفنية تحقق له هذا الأمل، وتدنيه من هذه الغاية، لولا العوائق التي تحجزه عن وجهه وتصده عن هواه. وليست هذه العوائق في رأيه إلا أقطاب الأدب الذين يترفعون من الكبرياء أن يقدموه، وزعماء الصحافة الذين يتمتعون من الأنانية أن يشجعوه. ودعني أقدمه إليك قبل أن أنسى:

هو طالب بمدرسة ثانوية في إحدى مدن القليوبية لا يتجاوز في رأي العين الخامسة عشرة من عمره. دقيق البدن في سهوم، طويل الوجه في رقة، حسن الملامح في عذوبة. ينظر وكأنه لا يرى، ويتكلم وكأنه لا يسمع. إنه شرود الشاعر وذهول الفنان! فإذا جاء حديث الأدب تيقظ وعيه واجتمع تفكيره وقال لك وسمع منك. حدثني عن قصته مع الأدب وكيف أصيب به من إدمان قراءته للقصص والمجلات، فكان على الدوام له في درج الفصل بالمدرسة قصة، وعلى مكتب المذاكرة في البيت مجلة. وكان

لا يعنيه من كتبه وكراساته إلا كتاب الأدب وكراسة الإنشاء حتى نوه معلم اللغة بتقديمه في الكتابة، وقرأ موضوعه على التلاميذ شاهداً على هذا التقدم. فلما ظفر من المعلم بالنهاية العظمى في موضوع من موضوعاته المدرسية أيقن أنه ارتفع إلى مقام الكتاب المعدودين، ورأى من حقه أن يرسل إلى مجلات بما ينظم من شعر وما يكتب من قصص؛ ولكن إعراض الصحافة عن نتاجه العزيز كان صدمة من خيبة الأمل لم تحتملها أعصابه. أياكون المعلم جاهلاً بمقاييس الفن إلى درجة أن يضع العشرة موضع الصفر؟ إنه متخرج من كلية اللغة العربية بالأزهر فلا يجوز عليه هذا الجهل.

أياكون المعلم قد غشه أو جامله فاستجاد ما كتب وهو رديء؟ إنه كان يقرأ موضوعاته على الفصل فيرضى عنها التلاميذ كل الرضا، ويغتبط هو بها كل الغبطة. لم يبق إذن إلا أن رؤساء التحرير لا يعجبهم العجب أو لا يعينهم الإنصاف.

ثم أخرج من محفظته كراستين وقدمهما إليّ وهو يقول في لهجة التأثير المتحدي:
هذا ديوان قصائدي، وهذه مجموعة قصصي أرجو أن تنظر فيهما بعين القاضي لتحكم بيني وبين الأستاذ فلان.

أخذت منه الكراستين، وأخذ هو وأخوه يشربان الشاي، وفتحت أنا ديوان الشعر وقرأت منه مقطوعة، ثم فتحت مجموعة القصص وقرأت منها أقصوصة. وكانت هاتان العيتتان كافيتين لأن أعلم منهما كل شيء. علمت أن هذا الفتى قد بذل في سبيل أدبه كل ما يملك من نفسه. بذل له الحب والجهد والوقت والعمل والأمل والمال، ولكنه بخل عليه بشيء واحد هو للأدب كل شيء لم يستعد له بآلته التي لا يكون إلا بها وهي اللغة والمنطق! تعبيره تلفيق من أساليب شتى، فيها الجيد والرديء، وفيها الصواب والخطأ، ومجموعها كالثوب المرقع بأصناف مختلفة من القماش لا تجمعها وحدة من شكل ولا لون ولا جنس. وتفكيره أضغاث من أحلام المراهقة فيها المبالغة والتجوز والشروء والتفكك، وليس في شعره الوحدة التي تربط أجزاء القصيدة، ولا في قصصه الحبكة التي تضم أطراف القصة.

ولكن الشيء الذي لا شك فيه أن طبعه استعداداً للأدب يكمن في ولوعه الشديد باستظهار كل ما يستحسن، ونزوعه القوي إلى التعبير عما يحس. ومن الممكن أن يصل إلى غاية الطريق إذا وجد المرشد.

وكان قد فرغ من الشاي حينما فرغت من القراءة، فرفع بصره إلى يسألني الرأي فيما قرأت. فقلت له في صراحة لا تخلو من مداورة:

إن هناك ولا شك بذرة حياة تنمو، وأرضاً زكية تنبت، ولا يعوزها إلا الغذاء والري. ولا أدري لماذا تتعجل الإنتاج وأنت لا تزال على مقاعد الدرس؟ إن لكل شيء أوانه ولكل عمل عدته، والبرعم لا يفتح عن عطره إلا إذا اكتمل ربيعته. والبلبل لا يطرب بشدوه إلا إذا استوت حنجرتة، وإن الذين اتهمتهم بأنهم أعرضوا عنك ولم يشجعوك، قد أحسنوا إليك ولم يخذعوك.

إنك بدأت كما بدأ أكثر الناشئين بالشعر والقصص، وعلة هذا البدء وهم قديم وخديعة فاشية. إنكم تجدون الشعر أسير الأعمال منلاً ما دتم تظنون أن مبلغ الأمر فيه تفعيلة توزن وقافية ترص. ترون القصص أسهل الأمور عملاً ما دتم تحسبون أن قصارى الجهد فيه حكاية تروى وحادثة تسرد. فإذا ما علمتم أن الشعر غير النظم وأن القصة غير (الحدوتة) أدرككم العجز وتولاكم اليأس وانكفأتم راجعين فلا يمضي منكم إلا القليل. تعال نقرأ معاً هذه الأقصوصة.

وأخذ الفتى يقرأ وأنا وأخوه نسمع. وكنت أريه في كل فقرة أو صورة خطأ اللفظ أو خطأ المعنى أو ضعف التأليف أو اضطراب السياق، أو سوء الاستطراد أو نفور الملائمة أو غموض العبارة، حتى إذا بلغ نهاية الحكاية كان قد اقتنع بأنه جهل حقيقة نفسه وأخطأ تقدير عمله، وعزم أن يبدأ من الأول لا من الآخر. ورغب إلى أن أرسم له الخطة وأبين الوسيلة وأن ألقاه الحين بعد الحين لأرى إن كان على الطريق. فقلت له. الآن يا بني بدأت. وستجدني عندما يرضيك، إما بالمقابلة وإما بالمراسلة، أما الخطة والوسيلة فأمرها أبين من أن يبين !.

ادرس لغتك حق الدرس، وأتقن بجانبها الإنجليزية أو الفرنسية، ثم اقرأ فيهما أدب الناس في القديم والحديث. ثم اختر لنفسك من كل أدب صفوة أقطابه فتعمق في

أدبهم، وسر في طريقك على ضوئهم، ثم اطلع، وابحث، وفكر، وتأمل، ولاحظ، وسجل، حتى إذا امتلأ ذهنك وبلغ حد الفيض فاكتب.

وستسمع الأدباء يخوضون في حديث المذاهب الأدبية الأوروبية فيذكرون الاتباعية والابتداعية والواقعية والطبيعية والرمزية والوجودية، والأدب الملتزم والمحيد، والفن للفن، والفن للحياة. فأصغ إليهم بسمعك وأعرض عنهم بقلبك. ليس هذا الذي يقولون من شأن الكاتب، إنما هو من شأن النقاد ومؤرخي الأدب وأئمة البيان: يصنفون أعمال الكتاب والشعراء، ويدرجون كل صنف تحت اسم من هذه الأسماء. لا تمد في طريقك الأدبي سكة من الحديد تسير على قضبانها كما يسير القطار فلا تخرج عنها إلا لتقلب. نزه قلمك عن الرمزية والوجودية والسريانية، ثم تقلب في المذاهب الأخرى كيف تشاء. خذ من كل مذهب خير ما فيه، ثم غص في أعماق نفسك فاعرفها تعرف الناس. وطر في آفاق الطبيعة فادرسها تدرس الحياة. والنفس والمجتمع والطبيعة هي المجالات الحيوية للأدب الحق. ومن العسير الفصل بينها فتجعل الأدب تارة موضوعاً كالاتباعيين (الكلاسيكيين)، وتارة ذاتياً كالابتداعيين (الرومانسيين) فإن الفن كما قال (زولا): هو الطبيعة يراها الفنان من خلال مزاجه.

وفي هذه الحالات الثلاثة، ومن القواعد المقررة للأدب في المذاهب المعتدلة، تستطيع أن تذهب بنفسك مذهباً شعاره: فكر بقلبك، واشعر بعقلك، وأدرك بخيالك. وهو مذهب تتساير فيه الفكرة والعاطفة والخيال، فتأمن عليه برود العقل وضلال القلب وجموح المخيلة.

هذه يا بني رءوس المسائل في موضوع الأدب، أو لافتات المرور في طريق الفن. وسأفصل لك ما أجملت منها في كل زيارة تؤديها إليّ، وفي كل رسالة أكتبها إليك. فقال الفتى وهو يعيد كراسته إلى محفظته: أعدك أنني سأخذ مما قلت مذهباً أقفو فيه أترك وأقصد قصدك.

فقلت له ويدي في يده: وأنا أعدك أن أصلح بينك وبين الأستاذ فلان إذا أنجزت وعدك.

العدوان الثلاثي على مصر

تحت حذاء هتلر:

لا أملك أن أحدثك في غير ما أحدث به نفسي وما تحدث به نفسك وما يتحدث به العالم من ائتمار دولتي الاستعمار على كل ما شرع الله ووضع الإنسان من مبادئ الخلق وقواعد السلوك وقوانين السياسة وأقيسة المنطق وأحكام العرف، وادعائهما مع ذلك أنهما دولتان من الدول (العظمى) تقيدهما القيود الإنسانية، وتربطهما المواثيق الديمقراطية.

والحق والواقع يجادلانها بلسان أربع وستين دولة من دول التمدن الحديث في الجمعية العامة للأمم المتحدة في هذه الادعاء الكاذب بأن الدولة التي تعتدي بالقوة على الحق، وتهاجم السلام بأوزار الحرب، وتفجع أمة بأسلة كريمة في أمنها وفي وطنها لأن لها استقلالاً تحميه، وحقاً لا تفرط فيه، ووطناً لا تنزل عن جزء منه، وتقف من الضمير العالمي موقف الكافر الفاجر لا تخضع لحكم القانون، ولا تسلم برأي الكثرة، ولا تعبأ بحقوق الإنسان، هذه الدولة التي لا تزال تعيش في الغاب، وتحتكم للظفر والناب، حرية بأن تسمى مُنْسَرّاً من مناسر اللصوص، أو عصابة من عصابات القتل!

كيف تسمي عصابتي بريطانيا وفرنسا دولتين عظيمتين وهما طفيليتان تعيشان على دماء الشعوب كما تعيش القمل والبق والبعوض، حتى إذا تأوه الملسوع من ألم اللسع، أو تضرر الممصوص من فقر الدوم، أجلبتا عليه بالنار والحديد ونسيتا أنهما ظلتا ست سنين تحت حذاء هتلر، تطلبان من الله أن يسعفهما بالرحمة، ومن القانون أن يؤيدهما بالعدل، ومن العالم أن يرفدهما بالإحسان.

ولو كانتا من نوع الحيوان العاقل لاستفادتتا من فعل القوة بهما، واتعظتا بجريرة الطغيان عليهما، وحرصتا على أن تكون هيئة الأمم المتحدة قوية لتأمن في ظلها عودة النازية ووسطوة الشيوعية، ولكنهما بعد أن نجتا من الموت المحقق لحكمة أرادها الله غلبت عليهما الغرائز الدنيا فاستطالتا على الله واستهانتا بالقانون وجلستا في مجلس

الأمن جلسة النخاسين في سوق الرقيق تساومان وتزايدان في حرية مصر وحقوق العرب، وهم الذين أمدوهما بالمؤونة والمعونة في سني المحنة حين انقطع رجاؤهما من النصر، وتوزعت حياتهما بين الخوف والفقر، فهل رأيت في تاريخ الإنسان كفراناً كهذا الكفران، وعدواناً شراً من هذا العدوان؟.

مصر في ساحة الجهاد:

مصر المحروسة بعون الله تجيش نفوسها الأبية بالحمية لنفسها وبالغضب على عدوها جيشان البركان الثائر، تنتظر أن يطأ عدوها الدنس ثرى وطنها الطاهر فتتفجر عليه بالحمم والقذائف. وليست مصر هي التي ترضى بالهوان وتصبر على الخسف ودينها دين الجهاد وتاريخها تاريخ الفتوح وخلالها خلال الفتوة وأدبها أدب القوة وقصصها قصص البطولة !.

ألست ترى قذائف النار والدمار تتساقط على عواصمها آناء الليل والنهار، وهي صابرة صبر المؤمنين بالله، مطمئنة اطمئنان الواثق بالنصر، تغدو إلى حركتها وكأنها لا ترى، وتروح إلى سكيتها وكأنها لا تسمع، حتى إذا جد الجد وصمم القراصنة على أن دوا حياض المنون على سواحلها التي امتلأت بطونها الصفر بأجساد الغزاة، انقلبت سعيّاً من الشر يتأجج على المغيرين في الميدان وفي المدن والقرى والطرق والحقول، فيصبحون والأرض من تحتهم مجزرة، ثم يمسون وهي من فوقهم مقبرة !.

ذلك لأن جهادها الميرير الطويل أورثها الصبر، والصبر أقوى الجيوش، ولأن دينها المتين القوي أكسبها الإيمان والإيمان أقوى الأسلحة. يصبر بنوها كما صبر أولو العزم من المجاهدين الأولين الذين حطموا القيصر في اليرموك وكسرى في القادسية ولم يبالوا بكثرة الروم ولا بقوة الفرس. ويؤمنون كما آمن أولو الدين من الفاتحين المتقين بأن الله زود المجاهد الصابر بقوة اثنين من عدوه ووعدته إحدى الحسينين: أما النصر الذي تعقبه العزة لله والحرية للوطن والكرامة للأمة، وإما الشهادة التي يعقبها البقاء في الدنيا بالذكر والخلود في الجنة بالروح.

ها هم أولاء ينقرون إلى القتال خفاً وثقلاً ليلاقوا على القناة الإنجليز أحفاد ريتشارد الأول والفرنسيين أحفاد لويس التاسع، ويذكروهم بصواعق المدافع وبروق

الأسنة أنهم أحفاد الأبطال الذين سحقوهم في حطين ومحقوهم في المنصورة، وأن مصيرهم الذي كان هو لا محالة مصيرهم الذي سيكون !.

وشتان بين الصليبيين بالأمي وأبنائهم اليوم! جاءنا الصليبيون باسم الله ليأخذوا منا مفاتيح الأماكن المقدسة ليقدموها إلى البابا خليفة المسيح. وجاءنا المستعمرون باسم الشيطان ليأخذوا منا هذه المفاتيح ليقدموها إلى إسرائيل خليفة يهوذا !.

أضعف الإيمان:

قال الرسول الكريم صلوات الله عليه: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وهذا أضعف الإيمان".

ودول العالم اليوم وأممه، وفيهم المؤمنون بصاحب هذا الحديث يقنعون أمام المنكر الإنجليزي الفرنسي بأضعف الإيمان، فيطوون صدورهم على السخط، وقد يحركون ألسنتهم بالإنكار! ومن هؤلاء من يستطيعون دفع المنكر بالقوة، ولكنهم يتلكأون ويترددون لغرض أو مرض. وكفاحك المنكر بالقلب أو باللسان وأنت قادر على كفاحه باليد نقيصة من نقائص النفس البهيمية لا تخرج عن الجبن أو الخبث. على أن ضمائر الشعوب أحياناً من ضمائر الدول. ومن المتوقع أن هذا الإنكار الشعبي باللسان سينتهي إلى إنكار دولي باليد. وحينئذ يطمئن محبو السلام والمدنية على أن الدنيا لا تزال بخير !.

أما العرب فهذه ساعتهم التي كانوا يرتقبونها ليثأروا لدماء شهدائهم من انجلترا الباغية وفرنسا البغي وإسرائيل الدعية، فإن العروبة لم يصبها من فظائع المغول والترك ما أصابها من هذه الأوبئة الثلاثة. ولعل من طلائع المعركة أنهم فجروا في أوروبا شرايين انجلترا وفرنسا يوم فجروا في الصحراء السورية أنابيب البترول !.

إن المعركة الناشئة اليوم بين الاستعمار ومصر معركة العرب جميعاً، إن كسبها كسبوا عز الأبد. وهي كذلك معركة الأمم المتحدة، إن قدرت على خذلان الباطل عاشت منيرة الجانب مسموعة الكلمة.

واحد لثلاثة:

من المسرحيات التي تعجبني للشاعر الفرنسي كورني مسرحيته (هوراس) ومغزاها إثارة محبة الوطن على محبة الأسرة، وموضوعها انتصار روما على (ألب) في موقعة شعواء نشبت بين بني هوراس وبني كرياس. وذلك أن الرومانيين والألبين رأوا حقنا للدماء أن يقصروا المعركة على ثلاثة أبطال من كلا الفريقين يكون فوز الثلاثة فوزاً لقومهم. واختار مجلس الشيوخ الروماني لهذه المعركة أبناء هوراس الثلاثة، كما اختارت مدينة ألب لها أبناء كرياس الثلاثة. وذهب الأبطال الستة إلى الميدان، وبرز الإخوة من الأسرتين بعضهم لبعض. ورأى من شهد بداية القتال أن اثنين من بني هوراس قد قتلا وأن ثالثهم قد فر. فتبادر القوم بإعلان هزيمة روما. واحتدم الشيخ هوراس غضباً من جبن ولده. فلما قال له قائل: وماذا يصنع واحد أمام ثلاثة؟ قال له بشدة وحدة: يموت !.

ولكن رجلاً آخر شاهد نهاية المعركة يعود ويقول: استغفروا ربكم فقد ظلمتم بطل روما! إنه لما بقي وحده أمام بني كرياس الثلاثة وهم مجروحون وهو سليم رأى أنه أضعف منهم مجتمعين وأقوى عليهم منفردين، فعمد إلى الخديعة وأوهمهم أنه يفر، فطلبوه، حتى إذا انفرد كل عن الآخر كر عليهم واحداً بعد واحد فقتلهم. وبذلك انكسرت ألب وانتصرت روما.

من الوطنية إلى الفدائية

من أنت يا مصر؟

أين الشاعر المصور؟ أين القصاص المحلل؟ أين المؤرخ المسجل؟ أين هؤلاء جميعًا ليصوروا ويحرروا ويحللوا ويسجلوا أحداث الأيام العشرة التي مرت بمصر فكشفت عن جوهرها الخالص وعنصرها الحر، وأثبتت للناس من طريق الحس والواقع أنها بفضل ما وهبها الله من نقاء الفطرة ووثاقة البنية وقوة الروح وصدق الإيمان أمنع من أن يمسها سوء من هجوم ثلاثة أوبئة عليها في حشد واحد ووقت واحد: طاعون انجلترا وكوليرا فرنسا وحمى إسرائيل. ووباء فرد من هذه الأوبئة أصاب جيش تشرشل وهو في عنفوان قوته، ومس شعب (دلاديه) وهو في أوج سلطانه، فخرًا صريعين لليدين وللفم أمام هتلر! وأخذ لسان القدر يعد على رأسي الصريعين أعداده العشرة التقليدية الرياضية، فنهض تشرشل مترنحًا عند العدد التاسع ليقاوم الموت مع الزمن والظروف والحظ، وظل دلاديه بعد العدد العاشر مجندلاً على الأرض ليضمد جروحه مع العار والمهانة والذل!

أمر عجيب! مائة وستون ألف جندي كما أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية، وأسطول من الطائرات والمدركات والمدمرات والحاملات والناقلات والكاسحات كما روى مستر هانسون بلدوين المراسل الحربي لصحيفة نيويورك تايمز، سيرتها انجلترا وفرنسا إلى غزو مصر، ثم لا يستطيع هذا الجيش الكثيف وهذا الأسطول المخيف أن يحتل بعد اللتيا والتي إلا جزءًا ساحليًا صغيرًا من بورسعيد؟!.

ذلك شيء كنا نقرأ مثله في كتب الأساطير وقصص الخوارق، وكنا نرى تمثيله على المسرح والشاشة، فنهتز له ونعجب به ونطمح إليه على اعتباره مثلاً يضربه الخيال الخصب لما يجب أن تكون عليه البطولة، ولكننا نراه اليوم رأي العين ونسمعه سمع الأذن في بورسعيد، فما الذي كسر هذا العدوان وفل هذه القوة؟.

عناصر النصر الأربعة:

لا مرأى في أن مصر تملك العناصر الجوهرية للنصر وهي حسن الاستعداد وقوة الاعتماد وشدة الكراهية للعدو، ولكنها تملك أيضًا عنصرًا رابعًا لا يتيسر امتلاكه لأي شعب إلا إذا ارتفعت الوطنية في نفوس أفرادها إلى مقام العقيدة الدينية الصوفية فيتحده وجود الفرد بوجود الشعب، ووجود الشعب بوجود الوطن. وذلك العنصر هو الفداية الشاملة التي تنتظم الفرد والأسرة والأمة والحكومة والدولة فيكون كل واحد من هؤلاء فداء ضروريًا للآخر. والفداية في سبيل الوطن أو الدين أدل على خلوص القلب وصراحة الإيمان من الاستشهاد في سبيلها بالجهاد، لأن الفدائي يبذل ولا يطمع في العوض، ويضحى ولا يفكر في الثواب. كل سعادته أن يشعر وهو يسبل عينيه على آخر شعاع من نور الدنيا أن نفسه مغتبطة لأداء واجبه مطمئنة إلى لقاء ربه. أما المجاهد فهو يبيع ماله ونفسه ليشتري من الله الجنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: 111]. فالتضحية في ذهنه بيع وشراء وعمل وأجر. على أن الفدائي الذي يقتل في سبيل شعبه، تكتب له شهادة المجاهد في سبيل ربه.

بلغت مصر إذن درجة الفداية العاملة وهي درجة ليس بعدها إلا النصر المؤزر والسلطان الدائم. هذا هو الشعب على اختلاف طبقاته وحالاته قد أخلى باله من كل هم إلا هم العدو، فهو يسارع إلى معسكرات التدريب ليستعد، ويبادر إلى ساحات القتال ليجاهد. فإذا غصت المعسكرات واقتضت الحال أن تقدم القيادة بعضًا وتؤخر بعضًا ثار المؤخرون ورابطوا حول الساحات قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم يلحون أن يسيروا إلى ملاقة العدو!.

لقد رأينا طلاب الجامعات والمدارس يشتررون لباس الميدان بأموالهم ويتركون بيوتهم المترفة لبيتوا في العراء على جوانب الطرق وانتظارًا للساعة الرهيبة الحبيبة التي يقدمون فيها دماءهم قربانًا للوطن المقدس.

وهذا هو الجيش على اختلاف أسلحته وفرقه ينقلب جيشًا من الفدائيين فيقاتل جيوش ثلاث دول ولا يبالي، ويستقبل طوائر ثلاث دول ولا يفزع، ويصادم أساطيل

ثلاث دول ولا ينكل! وكيف يبالي أو يفزع أو ينكل وهو يطلب النصر أو الموت؟ لقد أصاب العدو في البر والبحر والجو إصابات قاتلة أوهنت قوته وأحبطت خطته وأذلت كبرياه.

بورسعيد:

وفي بورسعيد تجلت فدائية الجيش والشعب في أروع صورة من البطولة لم يقع في سماع التاريخ مثلها إلا في ستالينجراد وسيبستبول.

كان من الجائز أن يلوذ البورسعيديون بالداخل ليأمنوا هجوم الكومندوس وجنود المظلات وقذائف الأسطول، ولكنهم استحبوا الموت على الحياة والمجد على النجاة فثبتوا في مساكنهم وأماكنهم ثبات الأسود الذائدة عن عرائنها، ووقفوا سدًا من البسالة والصبر والصدق والإيمان والتضحية بين الغزاة ومصر، يردونهم بالنار، ويدفعونهم بالحقد، ولا يبالون بأربعمائة واثنين وسبعين غارة جوية في يوم واحد، تتخللها موجات المظلات من قبرص، وهجمات المدافع من السفن، حتى هلك أكثر من نزل، وانحصر طوال الأعمار منهم في رقعة من ساحل المدينة الباسلة لا يملكون أن يتقدموا منهما، ولا يستطيعون أن يثبتوا فيها.

إن التضحية التي بذلتها بورسعيد نساء ورجالاً وشيوخاً وأطفالاً قد أنقذت مصر كما قال عبد الناصر، وخدمت السلام كما قال نهرو، وأفسدت الغزو كما قال كتلى. أما الدماء الغالية التي أُرِيت، والديار العزيزة التي أُصِيت، فإنها ضريبة المجد ووثيقة النصر وفدية الحرية. وما ضاعت خسارة حررت وطنًا، ولا أهدر دم أحمى أمة.

مصر والعالم:

إن خمسا وتسعين في المائة من اسم العالم تظاهر مصر وتعطف عليها بالقلب الخالص، وتحدث عنها باللسان الصادق، وتجادل عن حقها بالمنطق الدامغ، ولا تكاد إذاعتها ولا صحافتها تفتقر ساعة عن الإنكار والاحتجاج على الدولتين اللتين أخزتا جنس الإنسان بعدوان لا سبب له من القانون ولا موجب له من الواقع. ثم تؤيدها بما يشبه الإجماع في الأمم المتحدة وتعلن استعدادها لدفع الشر عنها بالسلاح والرجال إذا لجَّ المعتدي في عدوانه وأصر على غيه.

فماذا بلغت مصر هذه المنزلة في نفوس الأمم جمعاء؟ أبالاعتداء الباطل على وطنها المستقل الحر، أم بالعدوان الضخم على شعبها المسالم الآمن، أم باستماتتها، وبسالتها وتضحيتها في قتال دولتين خاضتا حربين عالميتين فاستفادتا من هزائهما المنكرة خبرة ودربة، أم بالتزامها في نضالها جوانب الحق والصدق والقانون والشرف أمام دول ثلاث تجردت من كل خلق كريم وتبرأت من كل عمل صالح؟ بكل أولئك أصبحت مصر قبلة الأنظار ومثار الإعجاب ومهوى الأفئدة. بكل أولئك ظفرت مصر بثقة الدول وتأييد الأمم وعطف العالم. والحق الذي يؤيده الواقع أن مصر ترتفع كل يوم في درجات العزة بسياستها الحكيمة وقيادتها الحازمة وكفائتها العظيمة، فبلاغاتها وثائق، وإذاعتها صدق، وصحافتها تاريخ، ووعودها شرف، وأن انجلترا - ودعنا من فرنسا وإسرائيل - تنخفض كل يوم إلى دركات الخسة بسياستها الخرقاء وقيادتها العاجزة ووغادتها الأصيلية، فبلاغاتها كذب وتضليل، وإذاعتها تلفيق وتهويل، ووعودها مزاعم وأباطيل، وبيع بعض هذه الرذائل تسقط عروش وتداول دول وتنقرض شعوب! زادها الله مما هي فيه، وألح عليها إيدن بالفتن والحروب، ليسلم العالم كله من أربعين مليون مكروب!.

الجهاد فريضة في الدين وفضيلة في العرب

تسألني متى يؤدي المسلم فريضة الجهاد إذا لم يؤدها اليوم؟ دينه يتقحم عليه الكفر محاربيه مع الشيوعية، ووطنه تتفجر على جوانبه الدواهي من الاستعمار، وإخوانه في فلسطين أخرجتهم دول النصرانية من ديارهم وأموالهم ليدخلوا فيها من صنعوا الصليب للمسيح من سلاسل يهوذا. وقومه في الجزائر تتخطفهم المنايا السود والحرمر على متون الجبال وفي بطون الأودية وهم يجاهدون على قلة عددهم ونقص عددهم ثلاثة أرباع المليون من جنود مستكبلين زودهم الطبع الفرنسي بالرعونة والقسوة، وسلحهم الميثاق الأطلسي بالصواعق والبراكين، فهم يدكدكون بها القرى الجزائرية على من فيها من يتامى وأيامى وعجزة. وشعبه في أقطار العروبة وديار الإسلام لا يزال في معترك الخطوب ومشتبك المطامع يجأ بالشكوى، ويصرخ من الظلم، ويغضب للكرامة، ويثور للحق، فلا ينال من الضمير الدولي إلا ما تنال هبة الريح من الصخر الأصم.

هذه روسيا أن تتدفق في سهول الشرق لتنسخ بمذاهبها دياناته وفلسفاته، وهذه أمريكا تقيم من دونها السدود لتظل مستأثرة بخيراته.

وهذه انجلترا تحاول بالقتل والختل والاستبداد والاضطهاد أن تخلي الجنوب العربي من أهله لتستبدل بهم عبداناً من الأفاقين يضمنون لها بقاء الاحتلال ودوام الدولة.

وهذه فرنسا تطمح بكثرة العديد وقوة الحديد وسطوة النار أن تفرنس الشعب الجزائري ليستظل بغير علمه، ويتكلم بغير لغته، ويؤمن بغير دينه.

وهذه الأرض كلها أمامك تستطيع أن تنفضها قطعة قطعة فهل تجد العيون تتشوف، والأفواه تتحلب، والأطماع تتصارع، إلا على هذا الجزء الذي انبثق منه النور وعرف به الله وكرم فيه الإنسان؟.

* * * * *

وجوابي أن المسلم المؤمن لا يزال على ذكر من أن دينه قرآن وسيف، وتاريخه فتح وحضارة، وشرعه دين ودنيا، وحربه جهاد وشهادة، وحكومته خلافة وقيادة، فهو

مجاهد أبداً، لا ينفك عنه الجهاد أصغره وأكبره. فإذا لم يجاهد عدوه جاهد نفسه، وإذا لم يراقب ثغوره راقب ضميره، والمسلمون منذ استيقظ وعيهم على رجفات الحرب العالمية الأولى أدركوا أن علة ما أصابهم من الاستعباد والاستعمار إنما هي اعتمادهم على الحق دون القوة، وعلى القول دون العمل. وأصل ذلك الضعف، والضعف يجافي طبيعة العربي، وينافي حقيقة المسلم. فتنادوا من وراء الحدود المصطنعة والستور المضروبة بلسان الأدب وإلهام الروح ووحى العقيدة إلى العمل سراً وعلناً للاستقلال الذي يحرر، ثم إلى الألفة التي تجمع، ثم إلى الوحدة التي تقوي، ثم إلى القوة التي تدافع، وهذه المراحل الوعرة المهلكة التي تؤدي إلى الحرية والعزة لا يقطعها إلا الجهاد الفدائي الذي فرضته شريعة الله واقتضته طبيعة العرب.

ذلك الجهاد الفدائي هو بذل المال والنفس في سبيل فكرة سامية، كإعلاء كلمة الله، أو تكريم ذات الإنسان، أو تحقيق حرية الوطن. وهو فرض عين على كل مسلم قادر إذا وقع المسلمون في خطر عام لا يقدر على دفعه قوم دون قوم، كالاستعمار والصهيونية. والقيام به لا يتقيد بزمن ولا أرض ولا جنس. مثله في ذلك مثل الأركان الخمسة للإسلام، ولكنه يختلف عنها في أمر دقيق، ذلك أن المسلم قد تضعف في نفسه الدواعي إلى إقامة هذه الأركان كلها أو بعضها، فيترك الصلاة والصوم، ويهمل الزكاة والحج. وإذا ذكره بها واعظ، أو حثه عليها خطيب، جعل قوله دُبرَ أذنه. ولعل السبب في هذا الضعف أن العمل بهذه الأركان قائم بين المسلم وربه فلا وازع لها إلا من ضميره.

أما عقيدة الجهاد فقائمة على الصلات بينه وبين ربه ووطنه وولده وماله وراثته وذكرياته وأمانيه، فهي لا تزال حية في نفسه على تراخي الزمن وشدة الترك، كالنار في البركان الهادئ، تسكن ولا تنطفئ، وتكمن ولا تظهر؛ حتى إذا أثارتها الحمية لدين يهان، أو لوطن يهاجم، انفجرت في نفوس المسلمين انفجار الحمم فما تذر من شيء أتت عليه إلا دمرته. بذلك نفسر تلك الصيحة الإسلامية العامة التي أخذت دول الاستعمار من جميع الأقطار المسلمة على انقطاع السبب وتباعد الشقة، تستنكر العدوان الثلاثي الذي وقع على مصر وتستعد لدفعه عنها بالأموال والأنفس. وبذلك

يفسر هذه الغضبة العربية الشاملة لما يصيب الجزائر اليوم من بغي الاستعمار الفاجر وطغيان المحتل الواعل وعدوان الطامع المغير، وما تبع هذه الغضبة من تعاون العرب على إمدادها بالمال والعتاد في ميادين الحرب، وتأييدها بالرأي والصوت في مجالس الحكم. ولم يكن عطف المسلمين على مصر ولا غضب العرب للجزائر لعصبية الجنس أو لحق الجوار، وإنما كان لتلك الحفيظة الدينية التي أوحاها الله في الكتاب، وبينها الرسول في السنة، وفصلها الفقهاء في الفقه.

والجهاد كسائر الأركان يستند إلى نص القرآن الكريم. وإن من سوره ما موضوعه الحرب والسلم والغنائم والأسرى والعهود وجملة ما يتألف منه قانون الحرب في الإسلام كسورتي التوبة والأنفال.

ومن المغازي الدقيقة للقرآن الكريم أنه لم يعرض لأسرى المسلمين بنظام ولا معاملة كما عرض لأسرى العدو؛ لأنه يأمر بالثبات وينهى عن الهزيمة إلا لخدعة أو نجدة. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ ۝١٥﴾ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴿[الأنفال: 15 - 16].

أما سر القوة في المجاهدين فعلمه عند الإسلام وحده. كان العرب من قبله قوى مبعثرة على رمال الصحراء لا تجمعها وحدة ولا تربطها رابطة؛ فلما اصطفاهم الله لأداء رسالته أمدهم بروح من عنده وحدت الشتي وألفت النافر وجمعت الكلمة ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: 63]؛ ثم قوى هذه الروح فيهم بعقيدة القضاء والقدر فقال لنبه صلوات الله عليه: ﴿قُلْ لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 51].

ثم ضمن للمجاهد الفوز بإحدى الحسينين: النصر الذي تعقبه العزة لله والحرية للوطن والكرامة للإنسان، أو الشهادة التي يعقبها البقاء في الدنيا بالذكر، والخلود في الجنة بالروح.

بهذه الروح الإلهية خرج البديرون وهم زهاء الثلاثمائة إلى أئمة الكفر من أبطال قريش وهم زهاء الألف فككببوهم قتلى في وادي بدر، وعادت الفئة القليلة إلى يثرب بالنصر والأسرى، وعادت الفئة الكثيرة إلى مكة بالهزيمة والجرحى.

وبهذه الروح المنبثقة من روح الله خرج بدو الجزيرة من أجواف الأودية وأعماق القفر ضئال الجسوم قلال العدد ضعاف العدة إلى الإمبراطوريتين اللتين تقسمتا يومئذ ملكوت الأرض فقوضوا الإيوان على ملك كسرى، وحطموا العرش على سلطان قيصر. وبهذه الروح الملتهبة في دماء المجاهدين ثبتت بورسعيد بالأمس لمائة وستين ألفاً من أعقاب الصليبيين، وثبتت اليوم الجزائر لسبعمائة وخمسين ألفاً من أحفاد نابليون.

وبهذه الروح القدسية التي تشع في قلوب المجاهدين الصبر والصدق والثبات والإقدام والإيثار والتفدية كانت قوة المجاهد ضعف قوة عدوه. ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿[الأنفال:66].

والجهاد بعد أولئك كله سعادة لا يؤتاها إلا من اجتباهم الله لإكرام خلقه وإعزاز حقه وإصلاح أرضه، وقد سماهم الله الشهداء، وجعل مقامهم في الجنة مع الصديقين والأنبياء. هؤلاء هم الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. وهم الذين فتحوا الفتوح للإسلام، ومهدوا المهود للمدينة، وسقوا الأراضي المفتوحة بدمائهم الزكية فأثبتت تلك الحضارة التي طهرت النفوس وعمرت الدنيا وثقفت العالم. فما أسعد أولئك الذين أخرجهم الله ليعز بجهادهم وطناً، ويحيي باستشهادهم أمة!

الأثافي⁽¹⁾ الثلاث في مطبخ الاستعمار

التقوى، وهي استشعار الخوف من الله طبيعة في الشعب الكادح غرسها فيه افتقاره الدائم إليه، واعتماده المطلق عليه، ورجاؤه المتصل فيه؛ أما الملوك والسراة فهم خليقون باستغنائهم عنه بطغيان الملك وسلطان المال ألا يخشوه وألا يرجوه إلا إذا حملوا على تقواه حملاً منذ النشأة بالتربية الدينية والثقافة الروحية والقدوة الحسنة. فإذا ولد السري أو الغني في مهد غير نظيف، ونشأ في بيت غير شريف، لا يجد أباً يصلي ولا أمّاً تستغفر ولا مربيّاً يرشد، شب على غرائز البهيم: هوى من غير عقل، وشهوة من غير كبح، وسطوة من غير ضمير، وإذا مكن له بحكم الوراثة أو بفعل الظروف أن ينحط على عرش أمة، ستره عن عيون الشعب ثم استعان بغفلة الوعي القومي على أن يجعل العرش فرشاً والقصر ماخوراً والحكومة مطية والوطن ضيعة. ثم يتدفق في الفجور ويستتهر في الفساد لا يتقي الله لأن الشيطان يعدّه ويمنّيه، ولا يخشى الشعب لأن الجيش يحرسه ويحميه. حتى إذا انكشفت الأغشية عن البصائر فتنه الغافل وأحس البليد وأدرك القطيع السائم المستغل أن قرونة الملايين أقوى من عصا الراعي الفرد، وأنه هو صاحب اللبن والصوف، ومالك المرعى والحظيرة، انتفض الشعب المظلوم المكظوم انتفاضة الأبي المريد فنفض عن جسده العلق الماص والدود السام، وضرب ضربته القاضية فتدكدك العرش، وتدحرج التاج، وتقوض القصر، وعاد الطاغية الفاجر أصغر من أن يُنظر، وأحقّر من أن يُذكر، وشيئاً من القدر الملعون، يجر على الأرض، أو يوطأ بالقدم، أو يقذف إلى الخارج، والمزية الوحيدة لهذا الضرب من الملوك أنهم يظهرون حين يريد الله أن يبدل نظاماً بنظام، ويدل دولة من دولة، لأنهم بفضل ما يجتمع لهم من ضروب الفساد، وما يصدر عنهم من فحش الاستبداد، يضغطون على مشاعر الشعب فينتبه، ويلحون على أعصابه فيثور.

من هؤلاء الغواة الضالين ثلاثة من الشبان الرقعاء وضعهم المستعمر المحتل على عروش أممهم بالكره منها، ثم ظل يسندهم ببأس الحديد. ويرفدهم بفيض الذهب.

(1) قلت: الأثافي هي الأحجار الثلاثة يوضع عليها القدر للطبخ.

ويسلطهم على الأخلاق يفسدونها بما لا يليق، وعلى الأرزاق يبددونها فيما لا يحل، حتى قضى عبد الناصر على الاستعمار في أكثر الشرق الأوسط، فلم يبق إلا في بعضه يتسلل إليه في ثياب الخونة والعملاء، كما تتسلل الجراثيم إلى الأجساد على أرجل الذباب وأفواه الكلاب وقروح الفأرة، فوهى السند وانقطع المدد. وقضى الله على هؤلاء الصغار بما أفسدوا وبددوا وعربدوا أن يكون كل منهم آخر فرع يدوي ويسقط من شجرته الملعونة.

* * * * *

أول الثلاثة وأكبرهم كان ملكاً على مصر قبل يوم 26 يوليو سنة 1952، وكان آية من آيات إبليس في الجرأة على دين الله وعلى حرم الناس، بلغ من جرأته على الله أنه كان كما حدثني أحد بطانته المقرين إليه إذا اضطرتة رسوم الملك أن يشهد صلاة الجمعة خرج إليها من المضجع الحرام، فصلاها من غير غسل ولا وضوء، وأداها من غير فاتحة ولا تشهد. وكان يقول: إن أخوف ما أخافه أن يغلبني الضحك وأنا أتابع الإمام في هذه الحركات العجيبة. وبلغ من جرأته على الحرمات أنه كان يغتصب الزوجة، ويقتل الزوج، ويسرق الدولة، ويسفد الحق، ويأخذ الرشا. ثم أملى له الغرور فتبجح وتوقح وطغى، حتى إذا استيأس الشعب وظن أن الليل سرمد، وأن الذل خلود، أظهر الله المصلح المنتظر من بين رجال الجيش؛ لأن العسكريين بحكم نشأتهم أصحاب فداء ومضاء، وألاف نظام وعمل، وأحلاف شرف ومجد، يطلبون الحياة بالموت، ويغسلون الرجس بالدم، ويقرونون الرأي بالعزيمة، فرأى هو ورفاقه من خلال الظلام الكثيف المخيف عرش مصر يرتطم في الوحل، وجيش مصر يضطرب في الفساد، وشعب مصر يتمرغ في الذل، فشبوا شبوب النار الهادئة تقتل المكروب ولا تحرق المريض؛ وهبوا هبوب الريح اللينة تدفع الشراع ولا تفرق المركب، وأخذوا ذلك الملك الماجن من قفاه الغليظ وألقوه في البحر، ثم عالجوا أمر هذه الأمة بعلاج الرسول الكريم، فحطموا الأوثان كما حطم، وكرموا الإنسان كما كرم، وأزالوا الفروق بين الناس كما أزال، وأدالوا الفقير من الغني كما أدال، وقيدوا الحق بالواجب كما قيد،

وأيدوا الحجة بالسيف كما أيد، ثم أذاقوا الناس لأول مرة في تاريخ مصر نعمة الحرية والكرامة والمساواة.

* * * * *

وثاني الثلاثة وأمكرهم خليفة مزدك أوشاه إيران. نشأ نشأة فاروق، فلم يسر لرقابة دين ولا رعاية خلق، ولم يهياً لولاية عهد ولا وراثة ملك، وإنما أعجله كما أعجل حماه القديم الحكم الباكر عن تثقيف نفسه بالعلم وتهذيب غرائزه بالأدب، فلم يتعلق من الحياة إلا بأسبابها المادية الوضيعة، وجرى في حكمه لإيران على سياسة الخليع الوارث، لا يعرف من أمور ضيعته إلا الخزانة يفرغ ما فيها من يوم إلى يوم في جيبه، أما كيف يستعمرها ويستثمرها فذلك لا يعنيه، لذلك لا تسمع في إذاعة إيران ولا تقرأ في صحف العالم أن الشاه أنشأ مدرسة أو بني مستشفى أو عبّد طريقاً أو أقام جسراً أو أصلح فاسداً أو عمّر خراباً، وإنما تسمع كل مساء وتقرأ كل صباح خبراً جديداً عن زواج الشاه وطلاق الشاه وخطبة الشاه وعشق الشاه، وعن رحلته المباركة إلى هوليود، وجولته الموفقة إلى الريفييرا، وسفرته المربحة إلى لندن، وزورته المريبة إلى الأردن، أما الأمة الإيرانية والأمة العربية فلا تدخلان في دنياه، لأن التخلف العاجز في أمته يخزيه، ولأن التقدم المعجز في أمتنا يؤذيه، وهو يحرص على أن تعيش طهران في الظلام لتعمى، ويخشى أن تسطع في أفقها أضواء القاهرة فتبصر، ولكن هيهات أن تحجب الشمس بالأكف، أو يدفع السيل الآتي بالحواجز. إن ساعة الشاه آتية لا ريب فيها، لقد تعدى حدود الله وتحدى إرادة شعبه. نصر الاستعمار وخذل الحرية وناوأ العروبة ومالاً الصهيونية، وخرج على قرارات باندونج وإجماع المسلمين، فاعترف لإسرائيل الأفاقه باغتصابها فلسطين العربية المسلمة؛ وبطردها مليوناً من أهلها إلى العراء القفر ليعيشوا في المضارب والملاجئ عيش الحرمان والذل، وهم ينظرون إلى ديارهم وأموالهم يعبث فيها الواغل الدخيل ولا يملكون لأنفسهم ولا لها إلا الرجاء في العرب والأمل في أمثال هذه الفهاوي الذي يسمونه الشاه، وهو أهون على الله من كراع شاه.

والذي بعثه على كل هذه المخازي بعده عن الإسلام، وحققه على العرب، وكيدته للوحدة، وحرصه على بقاء الاستعمار ليأمن ثورة الأحرار وعودة مصدق، ويضمن وفرة الدولار ومنتعة العيش.

* * * * *

وثالث الثلاثة وأحقهم (عاهل) الأردن وحده. وجاهل العالم كله! أصغر تاج على أصغر عرش، وألأم ملك على أكرم شعب، وأنجس إنسان على أطهر أرض! ولكن الاستعمار نفخ فيه فدوى كالبطل وصوت كالبوق، وتوهم أنه بهذه النفخة الكذابة والطنطنة الفارغة يطاول الجمهورية العربية المتحدة، ويصاول زعيم العروبة العملاق فطن طنين البعوضة، ثم اشتد واحتد فنق نقيق الضفدع، ولكنه لم يستطع أبدًا أن يخور خوار الثور، ولا أن يزار زئير الأسد.

من أين ينفق (عاهل) الأردن على لياليه الحمر، وعلى عشيقاته الشقر والسمر؟ ومن أين يأتيه المال الذي يصبه صبا في خزائن البنوك المأمونة، ويشترى به الحرس الخاص من البدو الجياع؟ من ثمن ما باع من استقلال الأردن، وما خان من أمانة فلسطين، وما أوهن من وحدة العرب، وما نبج (في الهواء) على عبد الناصر، ولكن الليالي الحمر لن تعصمه من الأيام السود حين تقبل، والحرس البدوي الحافي لن ينقذه من براثن الشعب ساعة يغضب، والأموال المهربة إلى أوروبا لن تفديه من المنون يوم تغول.

* * * * *

هؤلاء الفجار الثلاثة هم الأثافي الثلاث في مطبخ الاستعمار. ركب عليهم قدوره الضخم وجعل في بعضها الدسم وفي بعضها السم، فتدسم قوم وتسمم آخرون، ويات الأبرار الأحرار على الطوى حتى نالوا بصبرهم وجهادهم كريم المأكّل.

فأما ثالثة الأثافي فقد إطححتها ريح ثورتنا المباركة، وأما الأثفتان الأخريان فلا تزالان تحاولان حمل القدور وإشعال التنور وتوزيع الطعوم والأطعمة، ولكنهما ظلتا باردتين على الرغم من الوقود الجزل بالجنية والدولار، وعما قريب تسحقهما أقدام الثوار فتدروهما الرياح مع الاستعمار.

من ذكريات بغداد

(نورا)

- 1 -

في سنة 1932 زهي السنة الأخيرة من سنّي الثلاث في بغداد كنت أعيش في أسرة مسيحية تؤث في دارها الوسيعة غرفتين أو ثلاثاً لينزل فيها من تصطفيهم من نزلاء العاصمة.

كانت هذه الدار كسائر دور بغداد تتألف من طابقين يدوران على فناء سماوي رحب. يشتمل الأسفل على ردهة يسميها العراقيون طارمة، وسرداب عميق أصم تلوذ به الأسرة في الصيف من وقدة الحر، ومرافق الدار من حمام وسقاية ومطبخ.

ويشتمل الأعلى على بهو فسيح الأركان فخم الأثاث تغطي أرضه مجموعة متخيرة من سجاجيد إيران، وتزين جدرانه ونوافذه طنافس الحرير وستائر المخمل. ويتصدره بيان عريض نضدوا عليه تحفاً من تماثيل المرمر وبراويز الأبنوس، ونشروا على الكراسي القريبة منه آلات الموسيقى من عود وكمنجة ودف وناي، ويتوسطه منصدة دقيقة الصنع أنيقة المنظر قد وضعوا عليها ما يحتاجه لاعبو البردج والبوكر. ثم يشتمل بعد على ثماني غرف لنوم الأسرة والنزلاء تتلاصق وتتناسق في صف واحد على ممشى دائري يطل على الفناء وقد صفوا على حواشيه مقاعد طويلة أو قصيرة لمن يريد أن يتصل بالسماء أو يتمتع بالهواء، على نحو ما تجد على ظهور البواخر.

أما الأسرة فكانت تتألف من زوجين كهلين ومن ثلاث بنات وثلاثة بنين. وكان سر الوراثة الذي يجعل من الزوجين الأسودين من الكلاب الطليقة ستة جراء فيها الأسود والأبيض والأبقع والأصهب والأعبر والأشقر، قد جعل من هؤلاء الأولاد الستة تشكيلة عجيبة من الصور والألوان والطباع لا يشترك في شيء منها أخ وأخ ولا أخت وأخت. ولكنهم ينفقون جميعاً في الولوع بالموسيقى والنبوغ في العزف على آلاتها المختلفة.

فإلياس الأخ الأكبر يهدف للرابعة والعشرين من عمره. أزهو اللون أشقر الشعر مشوق القامة قسيم الوجه، ينظر فيكسر من عينيه. ويتسم فيضم من شفتيه، ويتكلم

فيغض من صوته. فلولا أن الشعر قد أخذ ينبت على عارضيه وشاربه لقلت إنه فتاة في رونق الشباب وميعة الأنوثة. يعلم الموسيقى في المدارس والبيوت، ويعزف الألحان في السوامر والأندية.

وميشيل طريده في العمر قمحي اللون تشوبه صفرة الخمر، مليح القسمات تشيع فيها جاذبية قوية، أسود الشعر تجتمع منه خصلة على جبينه المصقول فرقها عند فوده الأيسر. في قده طول، وفي صوته غُنة، وفي حركاته مرح، وفي هندامه أناقة. وهو لا يزال طالبًا في إحدى المدارس الثانوية الفرنسية.

ورفائيل أصغر الأخوة وضيء الطلعة شاحب اللون رقيق البدن يسيل شعره الأصفر المغدودن من وراء أذنيه على قذالة. وهو هادئ الطبع خفيف الظل شاعري العواطف يقعد على الرغم من صغر سنه مع أخيه الأوسط في فصل دراسي واحد.

أما البنات فكن عند نزولي على الأسرة اثنتين: مرجريت، وهي فتاة في ربيعها السابع عشر، مسنونة الوجه مرسلّة الشعر طويلة العنق مسحاء الثدي، تميل إلى الطول وتقف بين النحيفة والبدينة. ولعل محياها المظموس لا يوحى إليك شيئًا من ذكاء أو أثرًا من عذوبة؟ ولكنك إذا جالستها أو لابستها لا تعدم أن تسمع منها حديثًا يمتع، وأن ترى فيها خلة تعجب.

وجورجيت صغرى الأخوات صبية لا تزال في عمر البدر، مطهمة الوجه، بضة البشرة، ممتلئة البدن، في جفניה انتفاخ، وفي شفثيها غلظ، ولكنها على قلة حظها من الجمال لطيفة الروح، فكهة الحديث، مرحة الطبع، تتكلم ولا تستحي، وتمزح ولا تعف؛ وهي مع أختها الوسطى بمدرسة أمريكية للبنات في حي (باب الشيخ).

تلك هي الصفات البارزة المميزة في أولاد هذه الأسرة رسمتها خطوطاً مجردة من غير تظليل ولا تلوين، لتبين على التقريب الفروق الخلقية بين بعضهم وبعض. وإذا كان شكل الجسم من الحسن والقبح ومن اللطف والغلظ، ينم على طبيعة الروح من الخير والشر، ومن الطيب والخبث، فإن هؤلاء الأولاد من بنين وبنات يختلفون اختلافاً بيناً في الخلق والطبع والسلوك والنزعة. فمتهم المخادع الحصيف الذي يسعى للمال من

أي طريق، والماجن الظريف الذي يطلب اللذة من أي نوع، والفنان الرقيق الذي يعشق الجمال في أي صورة.

ومنهن الساذجة السهلة التي تصدق كل خبر، وتفشي كل سر، وتلي كل طلب، ولا يهمنها أن تخرج مع سيد أو خادم. والطائشة الوقحة التي جعلت همها اللعب والحلوى، ودأبها العبث والضحك، ولا يختلف عندها أن تنال ما تريد بحق أو بباطل.

لا يمكن أن تنشأ في هؤلاء الأولاد هذه الفروق الظاهرة والباطنة من فعل الوراثة القريبة المباشرة، فإن الوالدين يعقوب وماري لم يجمعاً في أخلاقهما الشيء ونقيضه ولا المعنى وضده.

فالزوج من رجال الأعمال المجددين، يتصرف لعياله في التجارة فيقلب من صنف إلى صنف، ويضطرب من أرض إلى أرض، لا يدخر جهداً ولا يضع فرصة. يصدر الجلود والتمور، ويستورد الآلات والسلع، لا يتقيد بصنف واحد ولا ببلد معين، وإنما يتخير بحاسته التجارية التي تهديه إلى سلعة اليوم وحاجة المستهلك. له مخزن للحفظ وليس له متجر للعرض. وسبيله في البيع أن يستعين بالوصولية والميكافلية على إقناع ذوي النفوذ في الوزارات والشركات أن يشتروا بضاعته جملة.

وهو من مخلفات العهد التركي في العراق: يتكلم التركية ويلبس الطربوش، ويحسن إحناء الظهر عند السلام، ويتقن إذابة الملق في الكلام، ويعرف كيف يدخل إلى هواك ورضاك من الباب الذي يؤدي.

والزوجة من ربات البيوت الصالحات يظهر عليها السنين الخمسين وعناء الحياة العاملة. وهبت نفسها لخدمة زوجها وبنيتها فلا تكاد تخرج من البيت ولا من المطبخ. على أن كثرة عملها وطول همها لم يحميا جسمها من الشحم فتراكب لحمها واسترخى. ثم اعترها على الكبر صمم خفيف فزهدت في الاجتماع بالناس واكتفت من نعيم دنياها برؤية أولادها وزوارها يمثلون على عينيها الجانب البهيج المرح من الحياة. كانت لا تشارك في الحديث لأنها لا تسمع أكثر ما يقال، ولا تدخل في اللهو لأنها لا تعرف أكثر ما يلعب. إنما كان دورها في حفلات الدار أن تعد الحلوى وتهيي

المزة وتقدم الشراب وتُعنى براحة السامرين والسامرات فلا يشوب صفوهم كدر، ولا يدرك لهوهم نقص.

كانت ماري طيبة فلا تكره حتى العدو، وكانت سمحة القياد فلا تعارض حتى في الضرر، وكانت ضيقة الثقافة فلا تنظر حتى في الصحيفة. كان مصدرها الوحيد الذي تستقي منه العلم والخبر والرأي هو زوجها يعقوب حين يخلو أحدهما إلى الآخر في غرفة الطعام بعد انصراف الأولاد كل إلى شأنه.

- 2 -

كانت الدار بعد ضجة الصباح وخروج الوالد وأولاده إلى العمل أو إلى العلم تسكن سكون الدير وتوحش وحشة الطلل فلا تكاد تسمع صوتاً ولا حركة.

كانت السيدة والطاهي يعملان في صمت. وكانت الخادمة والخادم ينظفان في سكون. وكنت أنا في الغرفة أو في الممشى أقرأ أو أكتب أو أنام. ثم تعود الحياة فتنتعش وقت الغداء ولا تلبث أن تهمد. فإذا أقبل الليل أمست الدار ردهتها أو سرادبها أو بهوها على حسب الفصول مقصفاً لا يشيع من القصف، ومرقصاً لا يفتر عن العزف، ونادياً لا يكف عن اللعب. إلياس يدق بأنامله العشر على معزف البيان، وميشيل يغمز بريشته المرهفة على مضرب العود، ورفائيل يمر بقوسه المشدودة على أوتار الكمنجة، ومرجريت وصواحبها من حسان الجيران والأقارب يراقصن الزائرين والمدعويين فلا تخرج إحداهن من ذراع شاب إلا لتدخل في ذراع كهل: وفي الأركان المختلفة من الصالون يجلس هنا بعض أصحاب النفوذ في الوزارات أو الشركات يقارعهم يعقوب الكأس ويفاوضهم في صفقة ذات وجهين من صفقاته العظيمة: وجه لهم ووجه له. ويجتمع هناك بعض أرباب اللهو من الشباب يعابثون الفتيات ويتسابقون إلى قلوبهم بالنظرات المعبرة والكلمات المغرية. وبين هنا وهناك يجلس مع الأم ماري امرأتان ممن ودعن أيام الصبا والغزل يثرثرن في أخبار النساء وأسرار البيوت، ويقبل على رجلان أو ثلاثة ممن قعد بهم الحياء على هامش الحفلة يخوضون في حديث الأدب والسياسة.

فإذا انقضى الهزيع الثاني من الليل وقضت النفوس حاجتها من اللهو العازف والراقص انصرفت طائفة وتحلقت أخرى حول موائد الحظ يلعبون البوكر ويتبادلون السعد والنحس، ويتقارضون الرضا والسخط، والمتفرجون من الرجال والنساء ينظرون الفيشات تتجمع وتنفرك أمام اللاعبين كأنها كثران الرمل في يوم عاصف تنقلها رياح الصحراء من هنا لتكومها هناك، فيستهج قوم ويكتتب آخرون إلا الزوجين يعقوب وماري فقد كان ابتهاجهما لا ينقطع لا في الريح ولا في الخسارة، لأن (الجنيوتا) أو حصاة المائدة من القمار كانت تضاف إلى حصيلتهما في كل دور على أي حال.

وهكذا كان صاحب الدار بفضل بنيه وبناته يستفيد من طائفة الزائرين جملة من الوعود يروج بها سوقه، ومن طائفة المقامرين حفنة من النقود يصلح بها أمره.

ثم كان في الجهة الجنوبية من الطابق الأعلى غرفة منعزلة تحمُر في أكثر الليالي، ولكنها لا تبلغ في الاحمرار مبلغ الصالون لا في الكم ولا في الكيف. تلك كانت الغرفة التي يسكنها قنصل دولة من الدول الإسلامية غير العربية. كان هذا القنصل يمر بغرفتي في ذهابه وإيابه، فيلقي عليَّ التحية بفضول، وأردھا عليه بقتور، ولم أجد من نفسي دافعاً إلى أن أصل ما بيني وبينه بسبب من المودة. كنت كلما رأيته أتصوره خنزيراً على رجلين! وليس وجه الشبه قاصراً على أنه ضخم الجثة قصير القامة جهم الوجه، وإنما كانت فيه مشابهة أخرى من هذا الحيوان أخصها قدارة معنوية طالما حدثتني عنها الأنسة مرجريت.

كان هذا الرجل مصاباً بالشذوذ، وكانت خلقته الجافية لا تبلغه ما في نفسه، فكان يستعين بالهدايا والحلوى على اجتذاب الولدان إليه واستئناسهم به. ثم ادعى الغرام بالموسيقى فاشترى عوداً وطلب من إلياس وأخويه أن يعلموه العزف عليه بالأجر، وبهذه الحيلة استطاع أن يجعل من غرفته ماخوراً صغيراً يغص في أكثر الأحيان بألوان من الندامى وأفنان من اللذة.

حسبك ما ذكرت من التعريف بالدار والأسرة. لعلك قد تهيأت الآن إلى أن تسمع

القصة:

- 3 -

عدت ذات يوم من أيام إبريل من عملي إلى الدار في فترة القيلولة. وهي فترة يخشع فيها الصوت والحركة عادة في جميع البيوت. ولكني لم أكد اجتاز الدهليز الطويل المظلم حتى رأيت الردهة المهجورة قد أخذت زخرفها من الوجوه الحسان من الجنسين، والضحكات الرقاق والغلاظ يتجاوبن فيطردن الوحشة عن صحن الدار، والأم وأولادها يخطرون في زينتهم بين المقاعد يؤهلون ويرحبون بالزوار. فألقيت على الحضور نظرة عابرة، ثم أومأت بالتحية الخاطفة إلى من وقع بصري عليهم ممن أعرف، وأخذت طريق السلم إلى غرفتي الخاصة. وبعد قليل أقبلت الخادمة على عادتها تحمل إليّ دورقاً من الماء المثلوج، فسألته عن سبب هذا الحفل في هذه الساعة. فقالت: إن الأنسة (نورا) قد عادت من دمشق منذ ساعتين، وقد قدمت معها عمتهاب وبنايتها. وهؤلاء هم مستقبلوهم من الأقربين والمحبين والمعجبين وعددهم يزداد من لحظة إلى لحظة. نورا؟! آه! لشد ما لهجت ألسن بهذا الاسم! ولطالما تحدث الزوجان بإسهاب وإعجاب عن صاحبة هذا الاسم!.

لقد عرفت عن نورا بالسماع مثل ما أعرف عن مرجريت وجورجيت بالعيان. عرفت أنها البنت الثالثة الكبرى، وأنها تطلب العلم منذ أربع سنوات في مدرسة ثانوية للراهبات في دمشق، وأنها تقيم مع عمتهاب بباب توما ولم تعد إلى بغداد زائرة منذ عامين، وأنها على حظ عظيم من الجمال والذكاء والعقل والحساسية والأنوثة قلما تؤتاها فتاة في سن العشرين، وأنها مخطوبة بالوعد لشاب من موظفي البنك العثماني عرفته فيمن يكثررون التردد على مجلس هذه الدار.

ولم أجد في نفسي الرغبة الملحة في أن أنزل لأهنئ الأسرة بقدموها، وأشارك القوم في الاحتفال بها، فقرأت قليلاً ثم نمت.

وفي المساء عاد الحفل فانتظم في البهو الواسع فدخلته فيمن دخل، وقدم إليّ الأب يعقوب ابنته نورا ومن قدم معها من قريباته. فسلمت الفتاة في استحياء، وغضت من بصرها وهي تتم بالعبارات المألوفة عند السلام والتعارف.

لم تبدأ هذه الليلة كسائر الليالي بالرقص والخمر، لتنتهي كالعادة بالوجوم والقمر، وإنما بدأت وانتهت بالأنس الخالص واللهو البريء، تشاجن فيها الحديث عن موضوعات شتى في العادات واللهجات بين سورية والعراق ومصر.

وكان عبء الحديث واقعا على السيدة اللبقة التي تدير فندقا كبيرا في سرّة دمشق، وعلى تاجر كهل فكه يكثر التصرف والتقلب في أقطار العروبة. وكانت نورا كالعروس على المنصة تسمع في صمت وتتنظر في خفر وتتكلم في وقار. وكنت أنا مثبت العينين مفتوحهما في وجه نورا لا أكاد أطرف، مُصَيِّخ الأذنين مرهفهما إلى حديث المتحدثين ولا أكاد أعي... كان وجه نورا جملة من القسمات الحلوة والملامح المعبرة في صورة من الفن الإلهي المبدع لا يقع مثلها في الإمكان لأزمل مثال أو ريشة مصور أو قلم شاعر. ولا تظن فيما قلت مبالغة من زخرف الحديث، فإن كل من رآها يعترف بأنه لم يجد لها مثيلاً فيمن رأى من الأوانس. وليس لإقبال الشباب والكهول على الاحتفال بها والارتياح لها من سر إلا جمالها الفاتن وجاذبيتها الطاغية.

ربما لا يجد المتحدثون من خبراء الجمال جسمها منطبقاً على مقاييس الفن إذا أخذوه عضواً عضواً، ولكن الروح التي تنبث فيه، والفتنة التي تنبعث منه، والعدوبة التي تهيمن عليه، شيء يسمو على المقاييس ويخرج عن دائرة الفن.

لم أكن أنا وحدي الذي انعقد نظره بوجه نورا واشتغل قلبه بحسن نورا، وإنما كان أكثر الجالسين ينقلون أبصارهم عند الضرورة من شخص إلى شخص ومن شيء إلى شيء ثم يعودون فيقفونها على محيا نورا. أما الأم فقد كان يظهر من نظراتها وبسماتها أنها تتيه على النساء بأنها ولدت هذا الحسن. وأما الأب فقد كان يبدو من هيئته ولهجته أنه يفخر على الرجال بأنه أوجد هذه الفتنة، وأما الخطيب فقد كان يلوح من حركاته وكلماته أنه يُزهى على الشباب بأنه استأثر بهذه التحفة! ولندع بعد ذلك الحوادث تتوارد وتتوالى في الأيام التي ستتعاقب على هذه الليلة.

- 4 -

أصبحت نورا مركز الجاذبية في الدار. فحيثما تكن يتهافت عليها الناس من العشيرة والجيرة. وكان لهذا التهافت في الأيام الأولى أسباب تختلف باختلاف السن والطبع

والحالة. فالأختان وأترابهما كن يتطلعن إلى أن يعرفن منها ما استُحدث من ضروب الزى والزينة في سورية ولبنان، والإخوة ورفاقهم كانوا يتوقون إلى أن يسمعوا شيئاً من صبوات الشباب وخلوات الهوى في دمشق وبيروت، والوالدان وأقرباؤهما كانوا يحاولون أن يكشفوا سر هذا التغير الذي طرأ على نفس نورا، فهي لا تنشط لحديث، ولا تهش لزائر، ولا تنبسط للهو... وكان عهدهم بها أن لسانها الحلو لا يكف عن الدعابة، وأن وجهها الطلق لا يفتر عن الضحك، وأن روحها اللطيف لا ينقبض عن الأنس.

وكنت لاحظت وأنا بعيد أن الصلات الواهنة بين أعضاء هذه الأسرة قد عادت إلى طبيعتها من الأحكام والوثوق منذ عادت هذه الفتاة. كان أفراد هذه العائلة أشبه بنزلاء الفندق، يضمهم بناء واحد، وتجمعهم مائدة واحدة، ولكن لكل منهم عمله ونيته وخطته ووجهته وغرضه. فلما عادت نورا كانت كالخييط الذي ينظم العقد المنثور، والروح الذي يمسك الجسد المنحل.

ولعل السبب في ذلك أن المرء بطبعه يحب في غيره ما ليس فيه؛ فالجبان يحب الشجاع، والهيوب يحب الجريء، والعبي يحب الفصيح، والقيح يحب الحسن... ولهذا كان الناس يحبون الأبطال والآلهة. والله قد كمل نورا بما نقص أهلها من جمال الجسم والروح، فهم يحبونها جميعاً ويرون فيها الجزء المتمم لكل منهم. والحب سر التجاذب والتضام في الكون كله. هو الذي يجعل من حبات الرمل جبلاً، ومن قطرات الماء بحرًا، ومن أفراد الناس أمة.

ولم أر نورا قبل اليوم حتى أدرك ما أدركوا من الفروق بين ما كانت عليه وما صارت إليه. إلا أن ما رأيت منها، كان يختلف كلا الاختلاف عما سمعت عنها. كانوا يقولون إنها بهجة الدار وزينة البهو وروح الحديث ولحن البيان ومرح الرقص، ولكني أراها منذ قدمت ساهمة الوجه تطيل السكوت، مضطربة البال تطلب الهدوء، ضيقة الصدر تؤثر العزلة. وعبثًا حاول أهلها أن يوقظوا فيها رواقد اللهو، وأن يشعروها أن بجانبها خطيبًا برّح به الشوق وثقل عليه الانتظار فمن حقه أن يجلس إليها وأن يخرج معها.

وأقام أبوها حفلة ساهرة في الطابق الأسفل من الدار، وكانوا قد أنزلوا إليه الفرش والأثاث من الطابق الأعلى في أواخر مارس حين يبدأ الصيف في بغداد، وينقلب البيت فوراً من غير وقود، والهواء لهباً من غير دخان فغصت الردهة والفناء والسرداب بالمدعوين من رجال المال والأعمال واللهو تصحبهم نساؤهم وبناتهم في بزتهم الجميلة وزيتتهن الرائعة. وكان الخواجة يعقوب قد أراد بإقامة هذه السهرة الراقصة أن يحتفل بأخته السيدة صوفي، ويرجو من وراء ذلك أن يدخل الأنس على قلب نورا، وأن يخرج إلى النور بعض السلع التي طال عليها الرقاد في ظلام المخزن. وكانت منية النفس لكل حاضر أن يظفر من نورا بكلمة أو جلسة أو عزفة أو رقصة، ولكنها لأمر ما أعرضت عن الأركان الصاخبة في الحفلة وأقبلت على عجائز أمها فجلست إليهن قليلاً ثم انتقلت إلى الركن الهادئ الذي أجلس فيه مع الأستاذ رفائيل بطي عميد الصحافة العراقية وبعض المتأدبين من الشباب وأخذت مجلسها بجانيبي.

وكان الأستاذ رفائيل (عليه رحمة الله، فقد توفي منذ عامين) واسع العلم بأحوال البلاد العربية ورجالها فلا يغيب عن ذهنه خبر ولا أثر عن أي كاتب أو شاعر أو أديب في مصر ولبنان وسورية. فكان الحديث بيننا شجوناً من النوادر والطرف أخرجنا عن جو الحفلة. فلما انضمت إلينا نورا اتجهت نحونا الأنظار ف شعرنا ثانية بأننا أفراد من هذا الجمع المضطرب في اللهو والأنس، فلا بد أن نرجع إليه ونشارك فيه. ولكت نورا آثرت أن نخوض فيما كنا فيه من الحديث عن مصر، فإن أحب الأحاديث إلى قلبها كما تقول ما اتصل بها وبأهلها، وأنها لتعرف عن أخبارها وأسرارها أكثر مما تعرفه عن أي بلد آخر. وأخذت هذه الفتاة المنقبضة الصموت تبسط أسارير وجهها بالضحك، وتحل عقدة لسانها بالكلام، وتروي الخبر بعد الخبر، وتورد النكتة بعد النكتة، بلهجة مصرية لا يشوبها إلا نبرات يسيرة من لهجة دمشق. فقلت لها وأنا لا أملك نفسي من الدهشة: هل زرت مصر كثيراً وعشت في القاهرة طويلاً؟ فقالت في لهجة تنم على الأسى والأسف: لم يكتب لي الله هذه السعادة بعد! فقلت لها: إذن كيف تهياً لك أن تعلمي هذا العلم، وأن تتكلمي هذه اللغة؟ فتشاغلت عن سؤالي بابتسامة خافتة ولم ترد أن تجيب.

وكان كلامها وضحكها قد ظهر أثرهما على بعض الوجوه فعجبوا أن تستوحش في مكان فيه الخطيب والقريب، وتستأنس في مكان فيه البعيد والغريب!.

وكانت الأم ماري وصواحبها قد أقبلن على السيدة صوفي أخت يعقوب يسألنها عن سر هذا الاكتئاب الذي أصاب نورا فأمات فيها الشعور بمتاع الحياة، فقالت السيدة وهي تخافت من صوتها: أما السر فلا يعلمه إلا الله. ولقد اعترتها هذه الحال منذ أكتوبر الماضي فعرضتها على الطبيب فقال: إنها مريضة بالقلق النفسي من الإرهاق أو الحزن أو الهم، وتفيدها الراحة والتسلية والنقلة. ووصف لها أنواعاً من العقاقير ساءت عل تعاطيها الحال واشتدت العلة، فكانت تنفر من المخالطة، وتطمئن إلى الخلوة، وتكثر من الصلاة، وتواظب على القداس، ونضارتها في خلال ذلك تذوي وبشاشتها تزول، فرأيت أن أجرب النقلة فرحلت بها إلى بيروت في عطلة عيد الميلاد فتسلت بعض التسلي وتحسنّت بعض التحسن، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى حالها الأولى بعد أن عدنا إلى دمشق. وكان معلماتها من الراهبات قد لاحظن عليها أعراض هذا المرض النفسي فعالجها مرة بالدعاء ومرة بالدواء فما نفع الدين ولا أفاد الطب. وأخيراً جاءت عطلة عيد الفصح فرأت أن أعود بها إلى بغداد عسى أن تجد في الوطن الذي نشأت به وفي العش الذي درجت فيه ما يدفع عن جسمها هذا الذبول ويذهب عن نفسها هذا القلق.

وكان في الحفل أربع أعين لا يدخلهن شعاع السرور ولا يقرهن متاع الغبطة: عينان في وجه الخطيب وعينان في وجه أمه. كانت عينا جاك تخضلان بالدمع كلما رأتا خطيبته لا تحفل به ولا تنظر إليه. وكانت عينا أمه تشعان بالسخط كلما رأتا نورا تقبل علينا ولا تقبل عليه. وعلى فجأة من لهو اللاهين ولعب اللاعبين، سقط جاك من فوق كرسيه فاقد الوعي متخشب الجسد مختلج الأطراف مصطك الأسنان مزبد الفم، فصرخت أمه وفزع الحضور وخفوا إليه بالمسعفات حتى أفاق. وكانت نورا ممن أسرعوا إلى المصروع بالمنبهات فخفضها بالشكر. واضطجع على الكنبه ريثما استراح ثم تحامل على بعض أصدقائه وخرج.

وغام على أثر ذلك الحادث جو الحفلة فتكدر الصفو وانقطع اللهو وانصرف المدعوون.

- 5 -

وفي بكرة اليوم التالي وكان يوم أحد دخلت عليّ السيدة ماري وفي يدها صينية صغيرة عليها قدحان، فحيتني تحية طيبة ثم قالت وهي تضع الصينية على المائدة: عدت من الكنيسة قبل الأولاد لأصطحب معك بقدر من الشاي وأبوح لك بأن نورا منذ رأتك تظهر الاهتمام بك وتكثر السؤال عنك، وقد رأيتها في الحفلة تقبل عليك وترتاح بأنسها إليك. ومن الممكن إذا توثقت صلتها بك أن تكشف لك عما يكن صدرها من لوازع الحزن والهم، فقد عجزت عمتها وعجزنا عن كشفه. ثم روت لي ما قالتها السيدة صوفي عن مرضها وكيف تطور حتى خيف أن ينتهي إلى انهيار عصبي لا يرجى برؤه. وعقبت عليه بأنها شديد القلق على مستقبل لبنت فقد رفضت أن تعود إلى الدراسة بدمشق، وكرهت أن تظل مخطوبة إلى جاك. وقد رأيت ما حدث ليلة البارحة من جزاء صدودها عنه وهو من أكثر الشبان مالا ومن أرفعهم وظيفة. إن نورا كما ترى معبودة الأسرة. وأنا لنبذل في سبيل سعادتها أنفس ما نملك. وليس جمالها وحده هو الذي أحلها من قلوبنا هذا المحل. إن لها غير الجمال البارع والذكاء اللامع مزايا أخر أخصها صفاء النفس ونقاء الضمير وخلوص الدين، وللدين عل أقوالها وأفعالها السلطان القاهر منذ الطفولة؛ فهي لا تقول لنفسها ما تخشى أن تقوله للناس، ولا تفعل في سرها ما تكره أن تفعله في العلن، ولا تجري في أمورها إلا عن سنن القديسين والرسل. فإذا أصابها مكروه في صحتها أو في سعادتها أصاب الأسرة في صميم حياتها فلا تنتفع بعدها بالعيش. فالرجاء في الله وفيك أن تعالج مشكلتها بالعلاج الذي تختاره، وسأرسلها إليك متى عادت من القداس.

* * * * *

من النفاق المحض أن أقول إن شعوري بهذا التكليف كان شعور الخلي المحايد. الحق أنه كان شعور الحالم الذي صور له عقله الباطن ما كبت من الرغائب والشهوات، في صور زاهية من الواقع واللذات، ثم تيقظ، فإذا به يرى الحلم حقيقة واقعة يبصرها

بعينه ويلمسها بيده. كنت في خلال الأسبوع الذي مضى على هذا الانقلاب في الدار أتابع هذا الحسن الرائع بحواسي الخمس وهو يجيء في الممشى أو يذهب، ويدخل الغرف أو يخرج، ويتكلم في البهو أو يصمت، فيمنعني الحياء أن أدور في فلكه وأن أدخل في شعاعه، ثم أصبح، فإذا بي أسمع أنه يسأل عني ويفكر فيّ، وإذا بي أرى أن القائمة عليه تنبئه بي وتكلمه إلى!! فهل تصدق القط الذي أعطاه أهل الدار مفتاح الكرار إذا زعم أنه تسلم هذا المفتاح وقلبه فارغ ورأسه بارد ونفسه عزوفة؟ قد يكون هذا القط صوامًا قوامًا يجعل من هذا الكرار صومعة لنسكه ومحرابًا لصلاته، ولكن إخفاءه حقيقة شعوره وطبيعة سروره رياء صريح.

سمعت نقرتين على باب غرفتي ففتحته فإذا نورا في ثياب الأحد وطلعة الملاك تبسم وتقول: أخبرني أُمي أن للسيد حاجة إلي. فقلت وأنا أهَيُّ لها الكرسي لتتعد: إن حاجتي إليك حاجة الغريب إلى الأُنس والضيْف إلى الإِكرام. فقالت: لست غريبًا وأنت في دارك، ولا ضيفًا وأنت بين أهلك، وإن العائلة كلها كما سمعت ولاحظت تحبك وتحترمك.

فقلت لها: إن غربة الروح أشد من غربة الجسد. وربما ظل الرجل طول عمره غريبًا بين أهله إذا لم يوافقوه في هوى ولم يشاركوه في شعور. ولهذا شعرت من إشعاع نفسك علي من بعيد أن بيني وبينك ألفة من الروح لو كان لها تجاوب في شعورك لوجد القلب بجانبه قلبًا يتفتح له ويتصل به ويسكن إليه. ولعلي أدركت أن سر انقباضك عن الناس أنهم لا يشبهونك في خلق ولا طبع، ولا يفهمونك في إحساس ولا فكر. فهل أدركت الصواب أو على الأقل واجهت الحقيقة؟

وكانت الفتاة قد حدقت ببصرها إليّ وأقبلت بسمعها عليّ، وقالت: إن ما قلته عن نفسك وعني لم يجاوز الحق. وإن ما أدركته أنت من سر انقباضني هو ما أدركته أنا من سر انقباضك. وقد كنت على وشك الاتصال بك لو لم تأمرني بلقائك أُمي. وما كان جلوسي إليك البارحة في الصالون إلا تمهيدًا لذلك. أما لماذا اخترتك من غير معرفة، وألفتك من غير صلة، فعلم ذلك من مكنونات النفس فلا أعرف له باعثًا ولا علة. وكل ما أعرفه من ظواهر الأسباب أنك مصري وقلبي معمور بحب مصر، وإني مريضة

ومرضي محتاج بطبيعته إلى مؤاس من نوع خاص. ولم يكذبني قلبي فقد علمت من بوادر كلامك هذا أنك تنطق عن نفسي وتكشف عن ضميري.

لم أر في الجلسة الأولى أن أدخل في صميم الموضوع ولا أن أسألها عن سر حبها لمصر الذي تكنه، ولا عن كنه مرضها الذي تعانيه، وإنما اكتفيت بأن قلت لها: أراك تفتقدين الأنيس المؤاسي وأنا أعلم أنك مخطوبة إلى السيد جاك. والخطيب صفي القلب ونجي النفس وشريك المستقبل. وهو كما ينم عليه حاله يهواك أشد الهوى، ويرعاك أصدق الرعاية. فلو أنك بادلته الحب وشغلت به دنياك لما أحسست معه بفراغ. ولكن أمك تقول على أثر ما أصابه الليلة أنك لا تبالين به إذا حضر، ولا تسألين عنه إذا غاب، ولا تردين عليه إذا كتب، فهل هذا عرض من أعراض ذلك المرض؟.

فسكتت نورا قليلاً ثم قالت في شيء من البطء كأنما تعد كلماتها عدداً: يجوز أن يكون للأزمة النفسية التي أكابدها منذ ستة أشهر بعض الأثر في فساد الحال بيني وبين جاك، وإنما جاء أكثر الأثر من الاختلاف بين مزاج ومزاج، والتباين بين خلق وخلق:

أنا خيالية وهو واقعي، وأنا روحانية وهو مادي، وأنا مؤمنة وهو طبيعي، وأنا أفهم الحياة على أنها آلة موسيقية وأنغام، وهو يفهمها على أنها آلة كاتبة وأرقام.

فأنا لا أصلح له وهو لا يصلح لي. وما كانت خطبتنا إلا عدة وعددها أبي إياه لنباهته في دنيا المال والعمل.

وكان باب الغرفة قد ظل مفتوحاً فدخلت مرجريت وجورجيت فعاد الحديث إلى مجراه العام. ونزلنا بعد قليل إلى السرداب لنجد العمدة ومن حولها سائر الأسرة يتحدثون في اهتمام وجد.

فلما رأونا ندخل وعلى وجوهنا دلائل البشر تهللوا جميعاً ولقونا لقاءهم للعائدين من مفاوضة ناجحة، أو للعاقدين صفقة رابحة. ثم انصر بعضهم إلى البيان وبعضهم إلى الكونكان، وجلست أنا ونورا مع المتحدثين. ولاحظ الثلاثة الكبار يعقوب وزوجته وأخته أن ابنتهم مشروحة الصدر للجلسة، مفتوحة النفس للحديث، فقال الأب موجهًا كلامه إليَّ وإلى نورا:

كنا نتحدث هنا فيما كنا نتحدثان فيه هناك. ومن الخير أن نتابع الحديث لنبصر وجه الرأي في خطبة جاك ودراسة نورا من قبل أن تعود صوفي إلى دمشق. وكانوا يعلمون فيما بينهم أن الجواب عن هاتين المسألتين عندنا لا عندهم. فقلت: إن من رأيي أن تتركوا عقدة هذه الخطبة للزمن يحلها على مهل، فإن قطع العقدة وإن كان أيسر من حلها يؤذي النفس ويجرح الكرامة. وسيروض السيد جاك نفسه بالصبر والسلوان على احتمال الواقع.

وقالت نورا: وأنا من رأيي أن أبقى معكم إلى الخريف، فإن البعد عن منشأ الدار وإن كان سيحرمني أداء الامتحان سيساعد فيما أرجو على استئناف النشاط واسترداد الصحة.

- 6 -

أصبحت غرفتي منذ ذلك اليوم قطعة من الروض وقاعة من المتحف. نقلت إليها نورا أجمل ما في الدار من زهريات ولوحات وتماثيل وتحف. ثم كانت تتعهد كل صباح بنفسها فتسقى الزهر وتنظم الأثاث وترتب الكتب.

وانقسمت الأسرة بحكم الطباع والغرائز إلى فريقين بيني وبين القنصل: فريق الخير وفريق الشر، أو فريق النور وفريق النار، أو فريق المعنى وفريق الحس. فالبنات وأمهن فريق، والبنون وأبوهن فريق. ففي غرفتي تجتمع نورا وأختها ومعهن الكتاب والبراءة، وفي غرفة السيد (بكير) يجتمع إلياس وأخواه ومعهم الشراب والريبة !.

وتمكنت الألفة بيني وبين نورا فلم تعد تصطحب أختيها في المجيء إلي. فإذا أقبلتا تريدان لهو الحديث صرفتهما إلى المذاكرة، وبقيت هي جالسة على كرسي طويل ظهرها مسند إلى صدره، وسائر جسمها ممدد على طوله، وفي يدها مجلة تنظر فيها، ولكنها لا تلبث أن تذهل عنها وتستغرق وهي يقظى في حلم عميق. فإذا كنت أكتب تركتها حتى أفرغ؛ وإن كنت أقرأ أطبقت الكتاب واستغرقت أنا أيضاً في وجه كله معنى وجسم كله فتنة ووضع كله سر !.

وكانت عطلة عيد الفصح قد انقضت فعادت العمة إلى دمشق وعاد الأولاد إلى المدرسة، وخلت الدار إلا من الممرض والمريضة أو من المصور والمثال. فوجدت

الفرصة مواتية لأستبطن دخيلة أمرها، واستخرج دفينة صدرها، فقلت لها ذات يوم: أريد أن أعالجك بالتحليل كما يفعل الطبيب المحلل، أو بالاعتراف كما يفعل القسيس المعرّف. فبوحى لي بكل ما في نفسك عسى أن أجد لك فرجاً من هذا الهم. وأعدك أن يظل الأمر فيما بيني وبينك سر مهنة أو سر اعتراف.

فقلت: وأنا أريد هذا أيضاً، فإني منذ فارقت (الأب إلياس) أشعر بالكرب يخنق صدري وبالقلق يروع ضميري. وقد كنت أستريح إليه بالاعتراف كل أسبوع كما يستريح المحزون بالبكاء أو المهموم بالشكوى. وأنت أقرب إلى قلبي منه، لأنك تعيش في موجود الدنيا وهو يعيش في موعود الآخرة، وأنت تشعر بانسباط الربيع وهو يشعر بانقباض الخريف. ولا أريد أن أمضي في المقارنة بينك وبينه..

فقلت لها وأنا أنثر البركة عليها من يدي: إذن ضمنت لك الشفاء بهذه الثقة. ثم جلست على كرسي الاعتراف وأخذت نورا تعترف لي تقول:

- 7 -

أخذت نورا تعترف باللغة الفرنسية لأنها تستسهلها لا لأنها تفضلها، قالت ما ترجمته:

" كان ذلك في تموز من عام 1931، وكان من عادتي في العطلة الصيفية إذا لم أعد إلى بغداد أن أضم يدي إلى يد عمتي في إدارة الفندق، فأدعها تصرّف أموره العامة فتمون المطبخ وتهيئ الموائد وتجهز الغرف وتتعهد الأثاث وتراقب الخدم، وأجلس أنا إلى المكتب في المدخل أستقبل النازلين وأرصد مالهم، وأودع الراحلين وأقبض ما عليهم، وأجيب عن كل سؤال، وأستمع إلى كل شكوى.

ولم أكن أدري أي شيء فيّ بجذب النزلاء إلّى، ويرميهم بأثقاليهم عليّ؛ فكل داخل وكل خارج كان يتلمس الدواعي أو يختلقها ليقف أمام المكتب يسأل من غير موجب، ويتكلم في غير موضع، ويشفع الكلام الذي لا معنى له بالنظرة التي تقول والبسمة التي تدل، فأجيب عن السؤال بالنفي أو الإيجاب، وأرد على الكلام بالصمت أو الإيجاز، وأغمض عيني عن النظرات والبسمات فلا تجد طريقها إلى نفسي، ولكنني بعد أيام ضقت ذرعاً بهذا الفضول فتخلّيت عن صدر المكتب للكاتب وانتحيت ناحية منه،

وأخذت أراقب الأمور من بعيد فلا أتدخل إلا فيما يتصل بالإدارة العليا للفندق. وكنت مع ذلك أنظر خلصة إلى من يدخل أو يخرج أو يجلس أو يقف، فأرى صوراً من الناس وأنماطاً من اللباس وأخلاقاً من اللُغى تجعل نهاري وبعض ليلي حفلة مستمرة في سينما. وكان لا يستوقف نظري من هذا الخليط المتغير المتجدد إلا الجميل والأنيق والمهذب، وهؤلاء يغلب عليهم التصوُّن والتعالي فلا يتبدلون بالفضول ولا يتلهون بالعبث. وكان من بينهم شاب رشيق القامة حسن الهندام حلو التقاطيع لم أستطع أن أتبين منه خلال النظرات الحذرة العجلى إلا هذه الصفات البادية. كان السهوم والوجوم ظاهرين على وجهه في دخوله وخروجه، وكان متزايلا لا يدور في فلك الفندق ولا يشعر بجاذبية أهله. إنما كان يدور كما علمت من بعدُ حول شمس غير منظورة لم يبق منها في دنياه إلا شعاعة تضيء عينه بقدر ما يعيش، وحرارة تحيي قلبه بقدر ما يعيش. كان يجلس وحده في البهو، ويأكل وحده على المائدة، فإذا كتب لا يكتب إلا رسالة، وإذا قرأ لا يقرأ إلا صحيفة. والصحف التي كان يقرأها كانت مصرية يأتيه بها الخادم كل صباح. فهل هو مصري؟ لو سمعته لعرفته من لهجته، ولو عرفت اسمه لكشفت عنه من بطاقته. ولكنه لم يكن يعوج بالمكتب إلا لiodع الكاتب مفتاح غرفته أو ليسترده منه. وكنت وأنا في ركني المنعزل ألح عليه بالنظر المتتابع كلما وقف على المكتب أو جلس في الردهة لعله يلقي عليّ نظرة أو يوجه إليّ كلمة فما كان وجهه يتعدى وجه الكاتب، ولا عينه تفارق صفحة الكتاب. إلى أن اضطر الكاتب يوماً أن يغيب واضطرت أنا إلى أن أجلس على كرسيه، وأقبل هو في الضحى الأكبر يودع مفتاحه ليخرج؛ فحيتاً في احتشام وأدب. وألقى بمفتاحه في رقة ولطف. ولما رأى بين يدي كومة من بريد الفندق كنت أفرزها لأوزعها على الغرف، وجه إلي من تحت أهدايه الوطف نظرة حية وقال: هل لي في هذا البريد بريد؟ فسألته عن اسمه فقال: نبيل طاهر. فعدت أقرأ العناوين في شيء من البطء لا أدري لماذا، حتى استخرجت له من بينها خمس رسائل صادرة عن القاهرة فأخذها شاكراً وخرج.

عرفت في هذه اللحظة العابرة المباشرة اسمه وجنسه وقليلاً من خلقه وكثيراً من صفاته. وانصبَّ في شعوري عن طريق نظراته وكلمته وبسمته دفق من جاذبيته الروحية

شغل بالي به وصرف هم إليه. كان مثال ما ارتسم في ذهني من صورة المصري الصميم: وجه ناعم أسمر مشرب بالحمرة كأنما ورّدت نشوة الخمر، وشعر فاحم متموج أثيث قد أشرفت منه جمّة على ناصيته، وعينان كحلاوان تشع منهما الطيبة وتشيع فيهما البراءة، وفم رقيق حلو يفتر افترار الطفل عن ثغر صدفى نضيد، وهذه هي الصفات الطاغية التي تبرز لعينيك أول ما تراه فتشغلك عن صفاته الأخرى. كنت أتمنى كلما دخل أو خرج أن يمر بي فيسألني شيئاً أو يكلفني أمراً، ولكنه كان كما قلت محصوراً في حياته الخاصة لا يخرج منها أبداً ولا يستقبل فيها أحداً، فملكنتني رغبة قوية في أن أطرق عليه باب دنياء طريقة خفيفة فلعلي أكشف ما وراء هذا الباب من سر يسبب هذا الانقباض ويوجب هذه العزلة، ففرزت يوماً بريده بنفسى وحجزته. ولما علمت أنه جالس في البهو يقرأ صحفه ذهبت إليه في شيء من الحرج وقلت له: هذه رسائلك من بريد اليوم جعلت من حملها إليك فرصة أسألك فيها عن مقامك في الفندق. فنهض الشاب واقفاً وتسلم الرسائل. ثم تطفد فدعاني إلى الجلوس فجلست. وخيل إليّ أن علامة من علائم الرضا قد تراءت على وجهه، فقلت له: أراض أنت عن غرفتك ومائدتك وخدمتك؟ أعندك ما تشكوه أم لك ما ترجوه؟ فقال وهو يخفي ربكة بدت عليه: شكرا يا أنسة! كل شيء مريح وكل أمر ميسر. فقلت له: دع هذا التحفظ واجعلني هنا بمثابة أختك واسترح إلي بما عسى أن يكرّب صدرك من هموم الغربة، فإنني غريبة مثلك أشعر بما يعتري الغريب من الوحشة ويعتاده من الشوق. فقال لي في لهجة مصرية وصوت خفيض: يسعدني ويزهوني أن ترفعيني في نظرك إلى منزلة الأخ. ولقد قلت إنك غريبة وكان بعض الشك يخالجني في أنك سورية لاختلاف اللهجة والحلية والملايح، فهل أنت عراقية؟ فقلت: نعم أنا بغدادية أطلب العلم في دمشق، وصاحبة هذا الفندق عمّتي، فأنا أساعدها في إدارته شهري العطلة. وجاء عامل التليفون يدعوني إلى مكالمة فاستأذنت منه وانصرفت.

أنس إليّ منذ يومئذ نبيل، فكان يجلس في الردهة لا في البهو، ويوجه كلامه إليّ لا إلى الكاتب، ويفضل أن يبقى في الفندق على أن يخرج، ولكن الحياء منه والإباء مني كانا يقفان بنا عند هذا الحد من النظر المرّدّد والكلام العابر، ففكرت في حيلة تدني

المجلس وتطيل الحديث: فأخذت أقرأ الصحف المصرية كل صباح لأتلمس فيها المناسبات التي يصح أن تكون موضعاً لسؤال أو موضوعاً لحديث. ثم أدنو منه في الوقت الذي ينصرف فيه النزلاء فيخشع الصوت وتسكن الحركة فألقي إليه الخبر أو أورد عليه السؤال، فيتطلق وجهه بالبشر، ويفتح ذهنه بالكلام، فأقول ويقول، وأجول في كل معنى ويجول، يروي لي عن مصر وأوري له عن العراق، ويحدثني عن سعد وأحدثه عن السعدون⁽¹⁾ ثم تجدد بعد ذلك المجلس وتكرر الحديث حتى توثقت بيننا الألفة وكادت أن تزول الكلفة.

- 8 -

سألته ذات يوم عما زار من آثار دمشق وعما رأى من مفاتن الطبيعة في الغوطتين وبلودان والزبداني. فقال بلهجة الأسف: إنه قضى في دمشق نصف شهر دون أن يجد في نفسه رغبة في نزهة أو حاجة إلى رحلة. وكل ما كان يصنعه في هذه الأيام أن يتجول مع أفكاره في شارع، أو ينفرد مع همومه في قهوة. فقلت له وقد وجدت الفرصة لاكشف عن سره وأمره: يؤلمني أن أسمع منك كلمة الهم وأنت في السن التي لا تبالي التبعة ولا يهتمها من الدنيا إلا جوانبها اللاهية المرحية، فهل تشكو علة أو تكابد أزمة؟ وهل تتيح لأختك الحانية عليك المتعلقة بك أن تحمل شيئاً من عبثك الذي حرمك من لهو العيش وشغلك عن بهجة الحياة؟ فقال: لشد ما يسعدني ذلك! فإن كتم الألم في الصدر ككتم البخار في القدر، لا يزال يفور ويضطرب حتى يجد متنفساً من الضيق فيهدأ ويستقر. وإن الآهة ينفثها المريض أو الشكاية يبعثها الحزين إلى الراحة من ألمه أو الفرجة من كربه. ولقد وجدت فيك منذ رأيتك وسمعتك علاجاً من دائي الذي أشكوه وتسلية عن همي الذي أقاسيه. وغداً الأحد وهو يوم عطلتك فتعالى إذا سمحت نخرج إلى ظاهر المدينة فأشركك في أمري، وأفضي إليك بذات صدري، وأتملى في الوقت نفسه بعض منازه الشام في صحبتك.

(1) عبد المحسن السعدون كان يومئذ رئيس الوزراء العراقية ثم انتحر لأسباب سياسية فكان انتحاره الأليم حديث الناس في كل مكان.

لم أجد في الاستجابة إلى دعوته مشقة كبيرة، لأنني مسيحية لا تقيدني تقاليد البيئة، ولأنني مراهقة تستهويني تجربة الخروج الأول مع شاب، ولأنني مشوقة منذ أيام إلى حديث طويل مع نبيل.

تواعدنا على اللقاء في مكان قريب من الفندق وقلت لعمتي بعد أن شهدنا قداس الأحد: إن إحدى صديقاتي من الطالبات دعني إلى الغداء والسينما فلا تقلقي عليّ إذا تأخرت.

وانطلقت بي ونبيل السيارة إلى (دمر)، وكانت الغوطة الغربية قد تأنقت في زينتها الطبيعية فجعلت من أدواحها الباسقة جنة للقلب الشاعر، ومن أمواها الدافقة بهجة للمزاج المكتئب، ومن مروجها الخضر سكينه للحس المضطرب. وكان مقهى دمر قد امتدت موائده على ضفتي الجدول الهادر وقد أخذت زخرفها بمن جلس إليها من بنات يوم الأحد وأبنائه، فاخترنا مائدتنا في ركن منعزل من طرف المكان وجلسنا إليها متقابلين وجهًا لوجه وعينًا في عين وفمًا إلى أذن. وكان نبيل لا يزال مأخوذًا بروعة الغوطة وما يكتنف مدخل دمشق الساحر من الروابي الحالية في صدر الجبل، والأنهر الشادية في حضن الوادي، والمنازل الغارقة في زهور الروض، فقال: ما رأيت أبدع من هذا المنظر ولا أنفذ من هذا السحر، ولولا أن أتاحك لي الله لظلت محرومًا من هذا الجمال مشغولاً عن هذه المتعة. فقلت له: إن بالشام أماكن غير هذا المكان تجلو رؤيتها صدى القلوب، وتبسط زورتها انقباض المشاعر، وسنزورها معًا بعد أن أصفى نفسك من أكدار الهم وأخلي بالك من شواغل الحزن، فافتح لي صدرك واسترح إليّ بما تكن فيه. فقالت: لا يا نورا. ليس الأمر سرًا أكتمه ولا ألمًا أكنه، إنما هو صدمة عاطفية زلزلت حياتي وحطمت وجودي وكان لها في الناس من أقرباء وأصدقاء أثر شديد وصدى بعيد.

أحببت ابنة عمي حبًا غلب على عقلي وشعوري. وكان الذي حبيبها إليّ جمالها الفاتن وخلقها العذب وروحها اللطيف، وعشرة طويلة متصلة تأصل فيها حبنا ونما نمو البنت الغضة في الثرى الخصب والجو الملائم، فاستوت على ساقها، وتفرعت عن أصلها، ثم أورقت، ثم أزهرت، ثم أثمرت؛ ثم رفت علينا بالندى والظل، ونفحتنا

بالنعيم والعطر. ثم آن لنا أن نتخذ منها العش الذي نسكن إليه ونطمئن فيه. فأخذ أبي وعمي يمهدان للبناء ويستعدان للعرس. وعلى فجأة نعب على عشنا العتيد غراب، وانقضت على شجرتنا الوريقة صاعقة! قالت امرأة عمي لأمي، وبوادر دمعها تقطر على خدها الشاحب: إن نبيلًا واحسرتاه أخو عقيلة في الرضاع؟!

لقد ذكرتني وداد حاضنة ابنتي فتذكرت أنني أرضعت نبيلًا مرارًا وأنت مريضة. فماذا نصنع يا אחتي لنخفف وقع هذه الصدمة على نبيل وعقيلة؟.

شكت أُمي أول الأمر في سلفتها وأساءت بها الظن، فلعلها وجدت لابنتها عريسًا خيرًا مني فزعمت ما زعمت، ولكن الحزن الشديد الذي بدا عليها، والألم الممض الذي نال منها، والحب المحض الذي تكنه لي منذ الطفولة، والسرور الطاغى الذي كانت تبديه منذ أعلنت الخطوبة، كل أولئك كان يبدد كل شك وينفي كل ريبة.

شاع الخبر المشؤوم في بيتنا شيوع النار فشوى أكبادًا وكوى أفئدة. وكان الخبر بالنسبة إليّ يأسًا لا نور للأمل فيه ولا سبيل إلى الصبر عليه، فضاقت بي الأرض وثقلت عليّ الحياة، فذاب جسمي ووهن عظمي، ولزمت السرير أيامًا لا يأخذني نوم ولا يهنأني طعام، حتى خاف عليّ أهلي فقلبوا على جسمي ونفسي صنوفًا من العلاج فلم ينجح فيهما شيء، وأخذ أبواي يسيران عني بالأمل في أن يجدوا شهادة تكذب الرضاع أو فتوى تجيز الزواج. ومنعوا عقيلة من لقائي لعل بعدها عني يساعدني على سكوت الألم واندمال الجرح. ثم رأوا أن أبعد عن وهيج النار ومثار الشجن فقرروا أن أرحل إلى لبنان وسورية. وهأنذا بعد شهرين قضيتهما في ضهور الشوير ودمشق لا أزال كما ترين مطبق الجفنين على صورتها، مطوي الجوانح على حبها. أرسل إليها كل مساء رسالة، وأتلقى منها كل صباح رسالة. ولم يمل قلبي إليك إلا لأن فيك مشابه كثيرة منها، فإنما أراها في وجهك، وأسمعها من فمك، وأتمثلها في روحك العذب وطبعك المهذب.

ثم أقبل الخادم بألوان الطعام فسكت هو واستمرت أنا أصغى إلى أصداء هذا الحديث تتوارد على خيالي وتتردد في نفسي فتعتريني الشفقة عليه وتساورني الغيرة

منها. الغيرة؟ نعم يا سيدي شعرت بالغيرة ولا أدري مبعثاً لهذا الشعور ولا معنى لهذه الكلمة.

- 9 -

أصبح من همي منذ ذلك اليوم أن أطيل الجلوس إليه في الفندق، وأكثر الخروج معه إلى الحدائق. ولم تعوزني الوسائل التي كنت أتدفع بها إلى عملي لتعليل الجلوس الطويل أو الخروج الكثير. وكانت أحاديثنا سقاطاً من أفانين شتى، منها النجوى والشكوى، ومنها الطبيعة والناس، فإذا أفضى بنا الحديث إلى ذكر عقيلة عطفته برفق إلى موضوع آخر حتى لا يتذكرها فتعاوده لوعة البين وحرقة الذكرى. ولا أكذبك فقد كان في نفسي باعث آخر يحملني على طي الحديث عنها، ذلك هو الغيرة الحاقدة من أي فتاة تستولي على قلبه وتستأثر بحبه.

لقد أحببته منذ رأيته. ثم أخذ هذا الحب منذ عرفته ينمو على مرور الساعات والدقائق بانسكاب روحه الروي في روعي الظمان عن طريق النظر والحديث والخلوة. وكان من أقوى العوامل التي أوقدت صدري بهذا الحب أنه مشغول عني وأنا يائسة منه. هو مشغول القلب منذ صباه بابتة عمه. ومن الصعب خلو القلب من هوى دخيل شغله على فراغ وتمكن به عن أصالة. وأنا مقطوعة الرجاء من ثمرة هذا الحب؛ لأن الهوى بيني وبينه غير متكافئ ولا متبادل. هو يحب في عقيلة لأنني صورتها في عينه؛ وأنا أحب فيه وجودي لأنه حقيقته في نفسي. وهو مع ذلك قاهري وأنا بغدادية، ومسلم وأنا مسيحية، فاقتراني به موقوف على موادة الظروف وموافقة الأهل. ولو كانت إقامته في دمشق ستطول لكان من الممكن أن يحمله اليأس من عقيلة على التفكير في غيرها، ولكان من الجائز أن تكون هذه الغير أنا. وإذا وقع في حبي كما وقعت في حبه سهل الحب كل صعب وأدنى كل بعيد؛ ولكن بقاءه بيننا موقوف مهمما يطل، وخروج عقيلة من حياته بطيء مهمما يكن. وليس للعقل على الهوى سلطان حتى أحكم في حاضر أمري ومستقبله إلى المنطق، فلم يبق إلا أن أفوض أمري إلى الله وأترك زمامي في يد القدر.

أخذت أعبُّ هوى نبيل عبًا متتابعًا لا أتنفس خلاله ولا أكتفي منه. كنت أحبه بأذني وعيني وقلبي في كل كلمة وفي كل نظرة وفي كل خفقة، في جلوات (الزبداني) وخلوات بلودان ومسارب الحميدية ومسارح الغوطة؛ لأنني كلما فكرت في أن يوم الرحيل آت لا ريب فيه، عشت هذه الأيام الباقية بالعرض لا بالطول، فكلما خطوت إلى الأمام خطوة، قطعت عن اليمين غلوة وعن الشمال غلوة، حتى امتلأ وجودي كله بهواه، فلا أفكر إلا فيه، ولا أحلم إلا به، ولا أعيش إلا معه. غبنا معًا ثلاثة أسابيع في نشوة متصلة من رحيق الحب لم نفق منها إلا على برقية هبطت من القاهرة تدعو نبيلًا إلى العودة، كان وقعها عليه وقعًا مبهمًا لا هو سار ولا هو محزن. كان مشوبًا بالأسى على فراقي وبالفرح للقاء أهله. أما وقعها عليّ بالرغم من توقعي لها فقد كان أشد من وقع خبر الرضاع على عقيلة. ذلك لأن عقيلة ستراه بحكم الجوار والقربة. أما نورا فلن ترى نبيلًا حتى يرى الأعمى النور والميت النشور والحالم الحقيقة.

قضينا ليلة الفراق ساهرين في الفندق، يتحدث هو عما سيلاقيه من الكرب إذا لم يجد في القاهرة من يواسيه ويسليه، أو أتحدث أنا عما سأعانيه من الفراغ الذي سيشركه في حياتي بعد تنائيه وتناسيه. ثم تمنى وتمنيت أن تتاح لي الوسيلة لأزور مصر فمضي معًا في طريق هذا الهوى العذري إلى الغاية التي كتبها علينا القضاء فيه.

وفي الصباح صحبته إلى ميناء بيروت. وهناك على سلم الباخرة جمعنا ما تفرق من عواطفنا وذكرياتنا وأمانينا وضغظناه في قبلة قوية كانت هي الأولى والأخيرة! ثم عدت إلى دمشق من غير نور ولا أنس ولا أمل. عدت كالثكلى شيعت وحيدها إلى المقبرة ورجعت لترى أثره في كل غرفة، وتجد ريحه في كل لعبة، فهي تفر من البيت الذي يذكرها به، إلى البيت الذي ترجو أن يسليها عنه.

وكذلك فعلت. فررت من الفندق إلى المنزل، ومن المكتب إلى السرير. ثم اعتراني من الهم والسقم والانقباض ما قصت بعضه عليكم عمتي.

وبعدُ فقد سمعت الصدى ولم تسمع الصوت، وأحست الوهيج ولم تمس النار، وعرفت الجملة ولم تعرف التفصيل، والحال كما ترى تشد ولا تخف، وتستحكم ولا تنفج، فهل عندك لغصتي مساغ ولأزمتي فرح؟

فقلت لها وقد نفست باعترافها عن صدرها المكروب فاستراحت إلى أن تتقبل الخلاص من الكاهن: إن أمرك يا نورا مع نبيل وذاك لهو الأمر الذي وصفه الشاعر بقوله:

جُننا بليلي وهي جُنت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها
وسأحاول أن أعالجك بما عالجت به نبيلاً، فلعلي أصيب من النجاح فيك أكثر مما
أصبت أنت من النجاح فيه.

- 10 -

لا علاج للعاشق اليائس إلا السلوان. والسلوان شراب كان الأعراب في البادية يتخذونه من صب ماء المطر على خرزة تسمى السلوانة ثم يسقونه لعاشق ليسلو ... ولم يعد في الإمكان اليوم العثور على هذه الخرزة السحرية، وأسفاه فخلي محلها النسيان. والنسيان بمعونة الزمان والصبر والشغل يمحو الصورة من الذاكرة ويطمس الماضي في الذهن. لذلك كان همي الأول ألا أدع لها وقتاً فارغاً تجتر فيه ما اخترنته في صدرها من رقيق العواطف وجميل المواقف نبيل، فحاولت أن أنسخ عاطفة بعاطفة، وأستبدل موقفاً بموقف. وكانت هي قد وجدت في قربي جزءاً من عيشها الذهاب وأملها الخائب لذلك التماثل الذي بيني وبين حبيبها في الجنس والسحنة واللهجة، فجعلت وقتها كله لي، وأردت أن يكون فراغي كله لها. فنحن في البيت نقرأ ونتحدث ونلعب الورق. وفي الخارج نجلس على رأس جسر (مود) في قهوة ضحيانة ترقد على صدر دجلة النابض وتستغرق في الضوء والسكون، فنجعل ظهرينا إلى أحلاس القهوة ووجهينا إلى صفحة النهر وأعيننا إلى ضفة الكرخ، فنجتلي هذا المشهد الرائع قليلاً ثم نرتد إلى أنفسنا فتذاكر كل حديث إلا حديث دمشق. وكثيراً ما كان يلهمنا الحديث المشقق عن مائدة البيت فنأكل (الأبيض والبيض والعنبا)⁽¹⁾ من البائع لجوال، ثم نواصل النجوى والحديث إلى المساء. وفي بعض الأصائل من أيام القيظ كنا نفر من وقدة البيت إلى (جزرة) دجلة، فنجلس حيث يتنفس علينا الماء بالطراوة، ثم نأكل السمك المسجوف

(1) الأبيض: الخبز والعنبا: المنجو. تخلل وهي فجة، وهذا يشبه السميظ والبيض عندنا .

ونفكه بالبطيخ المبزّد، ثم نقضي العشية في زورق يهدهدنا ساعة أو ساعتين على ظهر النهر الخالد الذي طالما رقص عليه (العقاب) و (الدلفين) بالخلفية الأمين وحسانه وقيانه ونداماه. وفي أيام الجمع والآحاد كنا نخرج من بغداد منفردين إلى منازة العراق ومغانيه وآثاره. فيومًا في مجالي (الرستمية) على نهر ديالي نستمتع بالخلوة والسكون، ونستغرق في الهوى والشجون. ويومًا في بساتين (لعقوبة) ذات الظلال والثمر، نتخذ تحت أشجار التفاح والبرتقال مضاجع على العشب أو مقاعد على الجداول أو مماشى تحت الكروم، ثم نتبادل الحديث والنظر، فتارة تقول وأنظر، وتارة تنظر وأقول. والقول كان أفانين من شعر العاطفة، والنظر كان أشعة من نور القلب. ويومًا بالكاظمية أو كربلاء أو النجف نزور أضرحتها المقدسة ذوات القباب المذهبة، ونروح بعبيرها المبارك على النفس العانية والكبد المقروحة. ويومًا بياوان كسرى أو أطلال بابل أو آثار نينوى، نجعل منها دروسًا في تاريخ الجبارين من بني الإنسان، نستخدم فيها لغة العقل لا لغة القلب، ونستخرج منها ملحمة الماضي لا مأساة الحاضر.

كانت كل هذه الخلوات والرحلات وما تخللها من فتون وفنون أحجار اللحد لحب أخذ يموت، وأعواد المهد لحب أخذ يولد! كان قلبها لا يزال مذبذبًا بين جاذبية الحب الذي غزاه على برّدي، وجاذبية الحب الذي اعتراه على دجلة. وكان قلبي لا يزال مخدوعًا بأنه يمثل عواطف هذا الحب ومواقفه وأعراضه لينقذ الفتاة من بلاء وقعت فيه، ولكن الذبذبة لم تلبث أن اطمأنت إلى قرار، والخداع لم يلبث أن تكشف عن حقيقة! واستعجل هذه النهاية أن الفتاة المراهقة أو أي فتاة لا تستطيع أن تعيش طويلاً على ذكرى حب. تعيش عليها لأنها تكره الخلو. فإذا شغل قلبها حب جديد تركت الأثر وتعلقت بالعين، وخرجت من الخيال لتعيش في الواقع. وهكذا أصبحنا محبين محبوبين لا نتحدث عن ثالث ولا نفكر في غائب. وكان من أمري معها ما كان من أمرها مع نبيل: حاولت أن تسليه عن عقيلة فوَقعت في حبه، وحاولت أنا أن أسليها عن نبيل فوَقعت في حبه: ولم يكن الحب الذي بدأ بينها وبين نبيل ثم عاد بينها وبينني إلا حبًا صوفيًا يصيب ذوي المشاعر المرفهة ولا يكون له عرض ولا غرض إلا حديث القلب للقلب وأنس الروح بالروح في الخلوة العفة والنزهة الزهية. ليس لهذا الحب مدى من

الطبيعة والحس حتى يفتر إذا بلغه، إنما هو كالعشق الإلهي في عمقه واتساعه وشموله وذهوله وسكرته، لأنه اتحاد وجود في وجود وفناء ذات في ذات.

مرت الأيام على هذه الحال مرور الحلم اللذيذ في النوم الهادئ لا يزعجنا كابوس من هم ولا نبؤ من قلق. وكانت نورا في تلك المدة قد عاد إليها صفاء نفسها ونضارة صباها فتفتح جسمها الغض في حرارة الحب كما يتفتح الورد الدمشقي في دفء الربيع. فهي تمرح وتلهو وتقابل وتشارك، فاغتبطت الأسرة بهذا التغير وتوسعت في اللهو وتبسطت في الأنس، وعاد اللهو الرحيب سيرته الأولى من اللعب والرقص والموسيقى. وقضينا في هذه النشوة الصوفية أحد عشر شهراً لا نسأل القدر المقدور متى نفيق منها ولا كيف ننصرف عنها. ولماذا نسأل؟ أنا أعلم أنها موقوتة ببقائي في بغداد. وبقائي في بغداد لن يتجاوز أول هذا الصيف. وهي قد عودت نفسها ألا تفكر في الغد ما دامت مشغولة الفكر باليوم. ولكن الزمن ينقضي، والعمل ينتهي، واليوم الذي سأغادر فيه بغداد يتحدد. ولا بد أن أبلغها الخبر. وسأبلغها إياه في أسلوب الكذب. والكذب الأبيض الذي ينفع ربما كان خيراً من الصدق الأسود الذي يضر. قلت لها ذات يوم ونحن نتقي بالنوافذ المغلقة والستائر المسدلة عاصفة التراب التي تثور على العراق من حين إلى حين فترد نهاره ليلاً وسماءه أرضاً وصفاءه كدورة: إن العطلة الصيفية ستبدأ عما قريب، وسأقضيها في القاهرة بين أهلي، وسأعود إن يشأ الله مع الخريف.

وجمت أول الأمر للخبر المنتظر ثم تماكنت نفسها وقالت في لهجة المستسلم وهيئة المحزون: لقد شفيتني من داء بداء. وسأفتقدك في أشهر العطلة الثلاثة. وأخشى أن يهاجمني الهم وأنا وحدي فأنتكس. وأرى أن أقترح على أبوي أن أصحبك إلى دمشق فأقضي الصيف مع عمتي، حتى إذا حانت عودتك إلى بغداد مررت بي فأعود معك.

* * * * *

وفي صباح الغد خرجت فاشتريت لي ديوان الشرقيات للامرتين ، وألبوماً فاخراً ضمته على بعض صورها في أسنان وأوضاع مختلفة، ثم خاتماً ذهيباً من صنع (الضبة) نقش عليه اسمي بالميناء ولا يزال بعد تسع وعشرين سنة في إصبعي. واتخذنا الأهبة

للسفر، وقطعنا بادية الشام على سيارة من سيارات شركة (نيرن) في ليلة من ليالي الصحراء تطلّق دجاها بالنجوم الزهر حتى باتت كيوم الدجن.

وكانت نورا قد قضت الهزيع الأول من الليل في الحديث عن وجوه السماء وأساطير النجوم وحياة الأعراب وقصص الحب حتى قرصها البرد فاستدفأت ببطانياتها ومالت على كتفي ونامت.

وفي تباشير الصباح المشرق المطلول بلغنا فندق العمّة صوفي، فتركت نورا تستنشي نسائم الذكرى وتتعلق بأسباب الأمل، وواصلت السفر إلى بيروت.

ومن الفضول الذي لا يزيد في علمك أن أصف لك موقف الوداع فإنه موقف عرفته الخليقة كما عرفت غشية الموت، وذاقته كما ذاقت حرقة الحريق. والذي يهملك أن تعرفه أنني لم أكد أستجم من عناء السفر الطويل في السيارة والباخرة والقطار حتى زرت نبيلاً في داره بالمعادي - وكنت قد عرفت عنوانه منها - فقدمت نفسي إليه، وقصصت خبرها عليه، فروى لي من عفة نفسها ورقة قلبها وحسن حديثها أكثر مما رويت، وشكا إليّ من لوعة البين عنها وحرقة اليأس منها وحرارة الشوق إليها أكثر مما شكوت. واجتمع هواي وهواه فاتحدا في صداقة وثيقة ومودة خالصة. وعشنا معاً ولا نزال نعيش في ذكرى هذه النفس الطيبة التي ظهرت في حياته وحياتي ظهور الأمل الباسم في قطوب اليأس، والروح المؤنسة في وحشة الغربة، ثم غابت في الأفق البعيد كما تغيب الرؤيا السماوية في حجاب الغيب، ثم لا يبقى منها في القلب إلا جلالتها، ولا في العين إلا سناها.

كيف كان الأزهر حصناً للغة العربية؟

إن المعنى الذي ييدر إلى الذهن من لفظ الأزهر أنه جامعة إسلامية تُدرّس فيها علوم الدين واللغة، ولكن المؤمن المتأمل الواعي إذا ذكره أو دخله وكان مهياً بطبعه للاتصال الروحي بماضيه المشرق وتاريخه الحافل ائثالت على خاطره منه دلالات وذكريات وطيوف تملأ النفس خشوعاً وجلالاً وروعة. فالأزهر كلمة من الكلم النوابع الجوامع، في لفظها استيعاب ووعي، ولمعناها إشعاع ووحى. فهي زمان ومكان ودين ودنيا وتاريخ.

يعني الأزهر فيما يعني المنار الذي ارتفع في طريق الدعوة العظمى ثم ثبت بنيانه على رجف الزلازل وانتشر ضوؤه على عصف الرياح، وقاد الشعوب الإسلامية في ظلمات الخطوب والحروب إلى ملتقى السلامة والكرامة والوحدة.

ويعني الأزهر فيما يعني المعقل الذي حفظ الثقافة العربية ألف سنة ونيقاً، يسهر عليها ويزيد فيها وينفق منها على طلاب المعرفة في الشرق والغرب، على حين دمر الجهل والكفر حصونها في بغداد والأندلس.

ويعني الأزهر فيما يعني الحصن الذي اعتصمت به اللغة العربية من عدوان الشعوبية والعامية والتركية حين استعجم اللسان واستترك السلطان وفشت الجهالة وضعفت الخلافة وعز الناصر وذلل الأهل.

ويعني الأزهر فيما يعني القبلة الثانية التي يوجه المسلمون في جميع أقطار الأرض قلوبهم إليها يتلمسون على هداها الطريق إلى الحق والسييل إلى الله.

ويعني الأزهر فيما يعني الملاذ للشعب المظلوم كلما عسفه الطغيان وبغى عليه الحكم فيأوى منه إلى ركن شديد وحام قادر.

يعني الأزهر فيما يعني الجامعة العالمية التي يؤمها الطلاب من كل أرض ومن كل جنس ومن كل لون ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، لا يبغون من وراء ذلك مالاً ولا جاهاً ولا شهرة.

ويعني الأزهر فيما يعني الخانقاة التي آوت العُباد والزهاد والوعاظ وحفظة القرآن وحملة البركة.

ويعني الأزهر فيما يعني القاعدة الروحية التي كان يخشاها المستعمرون فحاولوا سرًا وعلنًا أن يدمروها ليتقوها، فلما استيأسوا من تدميرها أو إضعاف تأثيرها سالموها وناققوها، ثم جاهدوا أن يستغلوها.

ويعني الأزهر فيما يعني الصرح الوطني الذي أوجع الثورات على الفساد، وخرج القيادات للجهاد! وقام من نهضة العرب الحديثة مقام الرأس واليد، يمدّها بالروح ويرفدها بالقوة. ثار على الغزو الفرنسي بقيادة ستة من علمائه. وثار على الطغيان التركي بقيادة شيخه عبد الله الشرقاوي. وثار على الظلم الخديوي بقيادة ابنه أحمد عرابي. وثار على الاحتلال البريطاني بقيادة ابنه سعد زغلول.

كل أولئك يعنيه لفظ الأزهر، وأكثر من أولئك يلزم معنى الأزهر، ولكنني بسبيل الحديث عن نصيب اللغة العربية من فضل الأزهر فلا أخوض في حديث غيره.

* * * * *

إن فضل الأزهر على اللغة العربية مستمد من فضل القرآن الكريم عليها؛ وبعض فضله أنه كسبها عذوبة في اللفظ ورقة في التركيب ودقة في الأداء وقوة في المنطق وثروة في المعاني. وكان سببًا في استحداث العلوم الشرعية والأدبية التي حفظت مادتها بالقواعد وفي المعجمات، ووسعت دائرتها بالألفاظ والمصطلحات، كالنحو والصرف والاشتقاق لدفع اللحن عنه، والمعاني والبيان والبدیع لتقرير الإعجاز فيه، وعلمي اللغة والأدب لتفسير غريبه وتوضيح مشكله، والحديث والأصول والفقه والتفسير لاستنباط أحكام الشرع منه. وهو الذي وحدها على كل لسان، ونشرها معه في كل مكان، وحفظها أربعة عشر قرنًا إلا قليلاً لا تفسد ولا تجمد ولا تتغير مصداقًا لقول الله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9] وحفظ القرآن يستلزم حفظ لغته. والناظر في تاريخ الأديان السماوية والأرضية لا يجد دينًا حملته لغته التي أنزل بها أو كتب فيها إلى أقصى الشرق وأقصى الغرب في مدى 1382 سنة ثم بقيت محافظة على

قوتها وجدتها ووحدتها وطبيعتها إلا دين الإسلام ولغة العرب، أما سائر الأديان فلا نقرأ كتبها الأصلية إلا في لغة البلد الذي ظهرت فيه، فإذا نقلت إلى بلد آخر عن طريق الدعوة قرئت مترجمة إلى لغته، واختص بمعرفة الأصل طائفة قليلة من رجال ذلك الدين، فمدونة الأسفار البوذية المسماة بالسلالات الثلاث لا يقرأها أتباع هذه الملة في الصين واليابان إلا منقولة إلى الصينية واليابانية. والتوراة والإنجيل - وهما كتابان منزلمان - لا يقرآن في العالم المسيحي إلا في لغة كل قطر من أقطاره. لذلك ظل تأثيرهما في الآداب الأخرى ضئيلاً حتى ترجمتا إلى اللاتينية والقوقونية القديمة فظهر أثرهما قوياً في الآداب الأوروبية.

وليس كذلك الحال في القرآن، فإن المسلمين اعتقدوا بحق أن لغته جزء من حقيقة الإسلام، لأنها كانت ترجماناً لوحي الله ولغة لكتابه ومعجزة لرسوله ولساناً لدعوته، ثم هذبها النبي الكريم بحديثه ونشرها بانتشاره وخلدها القرآن بخلوده. فالقرآن لا يسمى قرآنًا إلا فيها، والصلاة لا تكون صلاة إلا بها، لذلك سارعوا إلى تعلمها والتكلم بها والتأليف فيها والتعصب لها والدفاع عنها والدعوة إليها حتى حلت محل الفارسية في العراق والرومية في الشام والقبطية في مصر والبربرية في المغرب، وأصبحت في عصر بني العباس وهو عصرها الذهبي لغة الدين والأدب والعلم والسياسة والإدارة والحضارة في أكثر الدنيا القديمة، وأصبح المسلم على اختلاف جنسه ينتقل من قطر إلى قطر في عالمه الإسلامي كما ينتقل من بلد إلى بلد في وطنه الأصلي، لا يجد مشقة في التفاهم، ولا صعوبة في التعامل، ولا شدة في المعيشة. ثم شغل المسلمون عربهم وعجمهم بالقرآن وفرغوا له، فكان دعاءهم في المسجد، ونظامهم في البيت، ومنهاجهم في العمل، ودستورهم في الحكومة، فسرى هديه منهم مسرى الروح، وجرى وحيه فيهم مجرى الطبع، وأثر في ألسنتهم وأفئدتهم وأنظمتهم تأثيراً لم يؤثره كتاب سماوي آخر في أهله.

ومن هنا كانت ثقافة الإسلام قائمة على ركنين أساسيين هما:

الدين بعلومه المختلفة.

واللغة بفنونها المعروفة.

وهذان الركبان يشد أحدهما الآخر ويمسكه، فالإسلام بغير العربية ينهم ويضمحل، والعربية من غير الإسلام تنكمش وتزول. واللغات السامية مدينة ببقائها للدين، فلولا اليهودية ما بقيت العبرية، ولولا المسيحية ما بقيت السريانية، ولولا الإسلامية ما بقيت العربية. ولكن الفرق بين بقاء العربية وبقاء العبرية والسريانية هو الفرق بين الروح والدماء، أو بين العين والأثر: والأزهر وهو وارث النبوة وحامي العقيدة وناشر الدعوة لا يمكن أن تقوم رسالته إلا على هذين الركبين وقد أداها بتأييد الله وتوفيقه تأدية أحلته من العالم الإسلامي كله محل الزعامة.

على أن فضله على علوم القرآن وعلوم اللسان قد يشاركه فيه بالكثير أو بالقليل طائفة من المدارس والجوامع أنشأها السلاطين في القاهرة ودمشق وحلب وبغداد والنجف وقرطبة والقيروان والزيتونة، كالناصرية والقمحية والصلاحية والمؤيدية والمنصورية والشيخونية والظاهرية والكاملية والنظامية؛ ولكن هذه المدارس التي عفى على أكثرها الزمن لم تستطع في حياتها منفردة أو مجتمعة أن تطاول الأزهر فضله الخالد على اللغة العربية في بقاءها لساناً للعلم ورباطاً للمسلمين إلى اليوم.

* * * * *

تحيفت الخطوب السود لغة القرآن في محنتين أشفت فيهما على الموت لولا أن تداركها الله بفضله: محنة الغزو المغولي في منتصف القرن السابع حين انتكث قتل العباسيين في العراق بتنافس الفرس والترك، وتحارب الشيعة والسنة، وذهاب جلال الخلافة من النفوس، فقوض هولاء عرشها سنة 656هـ. وتضعض أمر الأمويين في الأندلس بتغلب البربر والموالي على ملكهم وتقسيمه بينهم إلى دويلات سهل على الفرنج ازديادها قطعة قطعة حتى ابتلعوها لقمة سائغة سنة 898هـ. ودالت دولة الفاطميين في مصر والشام فوقعتا في أيدي الأيوبيين، ثم صارتا إلى المماليك وظلتا تحت سلطانهم حتى دخلتا في حكم الأتراك العثمانيين سنة 913هـ، فأتى على العرب ستون وخمسمائة عام لم يكن لهم فيها سلطان ولا ملك، فأصبحت ديارهم وآثارهم نهباً مقسماً بين المغول والترك والفرس والجركس ثم الأسبان بعد قليل. وكان أكثر هؤلاء الأعاجم وحشيين أُميين فخرّبوا الدور وهتكوا الخدور وفجعوا اللغة وآدابها

وعلموها بتحريق المكاتب وتعطيل المدارس وتقويض المراصد وتقتيل العلماء. ناهيك بما فعله التتار في بخارى وبغداد، والصليبيون بالشام، والفرنج بالأندلس. فلو أن الزمان عفى على اللغة العربية وألحقها بأخواتها السامية لما كان ذلك خارقاً لطبيعة الأشياء ولا بدءاً في منطق التاريخ. ولكنها بقيت على الرغم من هذه الخطوب لساناً للدين والعلم، ولغة للحكومة والأمة، في المغرب ومصر والشام وبلاد العرب والجزيرة. ولولا نعمة الترك وعصية الفرس لكانت لغة المسلمين كافة. والفضل في بقائها بعد إدبار الزمان والسلطان عن أبنائها، إنما كان لهذا الأزهر الجليل الذي اختصه الله بمزايا تميز بها على غيره: منها صبغته العربية الخالصة بحكم نشأته وبيئته، وموقعه الوسط بين الشرقيين الأدنى والأوسط فكان ملتقى المسلمين من هنا ومن هناك. ومنها قربها من الحجاز فكان طريق الحجاج والرحالين من علماء أفريقية والأندلس. ومنها تخريجه طائفة كبيرة من أعلام الفقه وأعيان الأدب جمعوا شتات اللغة والعلوم والآداب في أسفار أشبه بدوائر المعارف. ومنها مكانته التي بلغت من قلوب المسلمين والحاكمين مبلغ القداسة وكان لها أثر بالغ في حل بعض المشكلات السياسية والاجتماعية. ومنها كفايته الأساتذة والطلاب مؤونة العيش بأن كفل لهم الغذاء والكساء والمأوى والكتاب. ومنها إيواؤه الناجين بحياتهم ودينهم وعلمهم وأدبهم وكتبهم من غارة المغول حين اكتسحوا خراسان وإيران والعراق، فكان لمهاجرة هؤلاء العلماء من الشرق والغرب إلى القاهرة من البحث والابتكار، ما كان لمهاجرة علماء المسيحية من القسطنطينية إلى روما من البعث والازدهار. ومنها مناصرة الأيوبيين له بالمال والتعصيد، لأنهم وإن كانوا أكراداً قد تكلموا بلغة العرب وتأدبوا بأدب العرب ونبع من بينهم الشاعر والعالم والمؤرخ، كالملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء، والملك الأفضل علي ابن صلاح الدين، وكان هذا الملك ضعيف الرأي كثير الغفلة فغلبه عمه العادل أبو بكر وأخوه العزيز عثمان على ملك الشام ومصر، فكتب إلى الخليفة الناصر العباسي كتاباً يشكو إليه فيه ذلك بدءاً بيتين من الشعر أجاد في نظمهما كل الإجابة وهما:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد أخذ بالسيف حق علي
فانظر إلى حرف هذا الاسم كيف لقي من الأواخر ما لاقى من الأول

يريد بأبي بكر عمه، وبعثمان أخاه، وبعلي نفسه. فأجابه الخليفة الناصر بقوله:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا علياً حقه إذ لم يكن بعد النبي له يثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم وابشر فناصرك الإمام الناصر

والجزالة ظاهرة في شعر الملك الكردي ظهور الركافة في شعر الخليفة العربي !.

كذلك أقول في المماليك فقد أيدوه وأمدوه؛ لأنهم اتخذوا مصر وطناً، والإسلام ديناً، والعربية لغة، وكان من بينهم شعراء عالجوا القريض وأجادوه كالسلطان الغوري. هؤلاء المماليك قد عضدوا العلماء وقربوا الأدباء، وشدوا أزر المعلمين والمؤلفين، حتى خرج الأزهر في ظلهم أولئك الأئمة الذين استودع الله صدورهم ذخائر العلم والحكمة فأودعوها الكتب وأخرجوها للناس: كجمال الدين ابن منظور، وجمال الدين ابن هشام، وشمس الدين النويري، وابن فضل الله العمري، وشمس الدين الذهبي، والحافظ ابن حجر العسقلاني، وأبي العباس القلقشندي، وتقي الدين المقريزي، وبدر الدين العيني، وسراج الدين البقليني، وبدر الدين الدماميني، وشمس الدين السخاوي، وكمال الدين الدميري، وجلال الدين السيوطي، وتقي الدين القشيري المعروف بابن دقيق العيد.

لهذه المزايا انتهت إلى الأزهر في القرون الثلاثة السابع والثامن والتاسع زعامة الثقافة في جميع البلاد العربية والإسلامية، فحفظ وجود اللغة، ورفع سقوط الأدب، وجمع شمل العلم، ولولاه لانقطع ما بين الأدبين القديم والحديث.

* * * * *

أما المحنة الأخرى التي امتحنت بها العربية وكان للأزهر الفضل في وقايتها وسلامتها فهي محنة الغزو التركي في أوائل القرن العاشر حين استولى السلطان سليم على مصر والشام سنة 933هـ فأصبحت الخلافة عثمانية لا عباسية، وعاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة، واللغة الرسمية التركية لا العربية، ومكث الغازي سليم في مصر بعد الغزو ثمانية أشهر سلبها فيها أنفس أعلامها من الكتب والتحف والآثار لنواغ

الفنانين والمؤلفين الذين تخرجوا في الأزهر وأنتجوا في مصر مدى القرون الثلاثة التي سبقت الغزو العثماني. وأخذ الغزاة يغلبون لغتهم على اللغة العربية في الدواوين، ويطاردونها في المدارس، حتى كانوا يعلمون قواعد اللغة العربية بالتركية في الشام والعراق؛ ففشا في اللغة العامي والدخيل وذهبت أساليبها من النظم والنثر، وخيم الظلام على النفوس فخدمت القرائح، وضعفت رغبة الحكام في العلم وانقطعت أسباب الطلب به، واستطاع الترك أن يتركوا كل شيء في مصر من سياسة وإدارة وتعليم وجيش إلا الأزهر، فقد راعهم ما أحسوا من جلاله وما سمعوا عن مجده، فوقفوا على أبوابه خاشعين يلتمسون منه العون على ما ينجم من الأحداث، والرأي فيما يشكل من الأمور. والسلطان سليم نفسه قد زاره مراراً فصلى فيه وتبرك به. ومن قبل ذلك قد غزا الأزهر بلاد الأتراك بعلمه وأدبه وكتبه فعرّب طائفة منهم تعلموا العربية وتكلموا بها وألفوا فيها كالفيروزابادي وأبي السعود والفناري وملا خسرو والجامي والخيالي وخوجه زاده وملا مسكين وملا لطفي وحاجي خليفة وطاشكيري زاده وابن كمال باشا. وكان سلاطين العثمانيين أنفسهم يدرسون العربية وآدابها، ومنهم من قرض الشعر العربي ورواه كالسلطان أحمد الأول فقد رووا له قصيدة غزلية مطلعها:

ظبي يصول ولا وصول إليه جرح الفؤاد بصارمي لحظيه

ولم تضعف عناية علماء الترك بالعربية إلا في عهد السلطان محمود الثاني وابنه السلطان عبد المجيد الأول حين أحيا اللغة التركية وقربا مواردها وبسطا قواعدها وسمياها اللغة العثمانية. فأنتم ترون أن اللغة العربية قد أتى عليها ستة قرون قضتها بين الاحتضار والموت، ثلاثة منها في العصر المغولي، وثلاثة أخرى في العصر العثماني، أمحت فيها من الهند وخراسان العراق وبلاد الروم والأندلس، وبقيت في الأقطار العربية بقاء المريض أشرف على الموت ولم يبق منه إلا رmq. ذلك الرmq هو الذي كفله الأزهر وتعهده فغذاه وقواه ورعاه، حتى إذا انجاب عن مصر قتام الحكم العثماني وأراد الله لشمس الحضارة أن تشرق على وادي النيل زایل اللغة الوهن وسرت فيها الحياة. ففي الأزهر كان ... وغيائها، وفي الأزهر كان بقاؤها وانبعاثها.

كان الأزهر بعد انتهاء تلك الغمرة باحتلال نابليون، وابتداء هذه النهضة باستقلال محمد علي، قائد الشعب في الكفاح، ورائد الحكومة في الإصلاح. تمثلت قيادته في شيوخه الأجلاء خليل البكري، وعبد الله الشرقاوي، ومحمد المهدي، وسليمان الفيومي، وحسن العطار. وتجلت ريادته في طلابه النجباء الذين أرسلوا إلى أوروبا ليستفيدوا ويستزيدوا، كإبراهيم النبروي، وأحمد حسن الرشدي، ومحمد علي البقلي، ورفاعة الطهطاوي، وعلي مبارك. وتلك يد أخرى لهذا المعهد الجليل على اللغة العربية، ساعدها على النهوض، كما حماها من قبل دون السقوط.

* * * * *

هاتان هما المحنتان اللتان عانتهما العربية في عهدين متواليين، ثم جعل الله نجاتها منهما بفضل الأزهر حفظاً لكتابه وصونا لدينه.

وهناك محنة ثالثة تجتازها اللغة اليوم وتوشك أن تبلبل اللسان وتعطل القرآن وتقطع الدين عن أصله، وتفصل العربي عن أهله، وتهبط بالأدب من جبل الوحي حيث الترفع والسمو والنبل، إلى حضيض المادية حيث التسفل والتبذل والفحش.

تلك هي محنة الإباحية اللغوية التي تُغَلِّبُ العامية على الفصحى، وتؤثر أدب العامة على أدب الخاصة، وتفضل الموضوع المثير على الموضوع المنير، وتريد أن يكتب الكاتب وينظم الشاعر كما يشاء، لا يتقيد بقاعدة من نحو ولا قياس من صرف ولا نظام من بلاغة ولا وزن من عروض ولا مثال من خلق.

ولهذه المحنة أو المشكلة أصلان: الاستعمار والجهل.

أما الاستعمار فلأنه رأى أن الرابطة بين المسلمين على اختلاف أقطارهم وتباعد ديارهم هي الدين واللغة. وما دامت أمة محمد روحاً واحداً بالإسلام؛ ولساناً واحداً بالعربية، فإن استغلالها موقوف وإن طال، وإن استقلالها آت وإن تأخر، لذلك سعت فرنسا سعيها الدائب في الجزائر لفتنة البربر عن دينهم بإصدار الظهير المعروف، وقطع العرب عن لغتهم بطردها من المدارس والدواوين. ولكن دين الله كان أقوى من ظهير فرنسا، ولغة المصحف كانت أمضى من لغة السيف. واكتفت انجلترا على عاداتها من الدهاء والكياسة بمحاربة الفصحى فدعت إلى العامية بلسان موظفيها ومبشريها

ومستشرقوها؛ لأن اللغات العامية تختلف في البلاد العربية اختلافاً شديداً يكاد يجعل من كل لهجة منه لغة مستقلة. وإذا انهزمت أمامها اللغة المشتركة وهي الفصحى استحال التفاهم وضعفت العقيدة وانقطعت الصلة وتفرقت الوحدة وتبددت القوة واستطاع المستعمر أن يلتقمها لقمة لقمة فلا يغص ولا يشجى. ولكن هذه الدعوة فشلت بضعف الاستعمار في الشرق، وقوة الوعي في العرب.

وأما الجهل وهو الأصل الآخر لمحنة اللغة العربية فقد خلف الاستعمار في هذه الدعوة المجرمة، والمراد بالجهل جهل أبناء العربية بها، وعزوفهم عن علومها وأدبها، وهو جنائية المدرسة المدنية الحديثة، فقد فشلت بعد طول الزمن وكثرة التجارب في تخريج القارئ الذي يقرأ بفهم، والكاتب الذي يكتب عن علم، والمفكر الذي يفكر عن أصالة، وليس أدل على هذا الفشل من أن الطالب يتعلم النحو عشر سنين دأباً ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يعبر عن فكرة تعبيراً صحيحاً لا بلسانه ولا بقلمه. فإذا دفعه استعداده الأدبي إلى الكتابة أثر العامية على الفصحى، ودعا التحلل من القواعد والقيود ليجعل الفوضى نظاماً والخطأ مذهباً والعجز شركة.

كانت علوم العربية تدرس في الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي وفيما يجرى على منهجه من معاهد لبنان وسورية والعراق والمغرب دراسة عميقة تمكن الطالب المجتهد المستعد من فهم ما يقرأ وفقه ما يعلم وتعليل ما ينقد وتحليل ما يذوق. فإذا اتصل العلم بالعمل واقتران الحكم بالتطبيق وصادف ذلك استعداداً في المتعلم ظهر الكاتب الذي يكتب فيجيد، والشاعر الذي ينظم فيبدع، والناقد الذي يحكم فيصيب، أما إذا فتر الاجتهاد وضعف الاستعداد ظهر الأديب العالم الذي يهين الوسائل ويقرب المناهل ويوجه المواهب ويسدد الخطى. ومن هاتين الفئتين تستمد الحركة الأدبية عناصرها الحيوية فتقوى لتزدهر وتنمو لتنتشر وتسمو لتخلد، وكان من خريجي هذا المنهج القديم أولئك الأدباء الأصلاء الذين حفظوا تراث اللغة وجددوا شباب الأدب وأسسوا هذه النهضة الأدبية الحديثة. ولا يزال من هذه الطبقة الكريمة فئة قليلة في أقطار العروبة تستبطن لغتها وتتعمق أدبها وتعرف لماذا تكتب الجملة على وضع

دون آخر، فإذا خلا المجتمع منهم بعد أجل طويل أو قصير فهل يخلف من بعدهم خلف يحملون أمانة اللغة ويبلغون رسالة الأدب؟.

الجواب عن هذا السؤال عند الأزهر وحده؛ فهو بحكم طبيعته وعلة وجوده معتصم اللغة ومنجهاها في الماضي والمستقبل، أما المعاهد الأخرى فكل شيء فيها يبعث على التشاؤم: منهج تطبيقي يكاد يخلو من القواعد، وتعليم سطحي مقتضب لا هدف له إلا اجتياز الامتحان العام بأية وسيلة، فالمطولات تختصر، والمختصرات تختزل، فلا يبقى بعد ذلك في ذاكرة الطالب إلا رموز على معان عائمة غائمة لا هي مستقرة ولا هي واضحة. ذلكم إلى زهادة في الجدي النافع من ثقافة اللسان والقلم تقعد النشء عن تعمق الأصول وتقصي الفروع، وتقنعهم بالقدر الذي ينقلهم من سنة إلى سنة أو من شهادة إلى شهادة. فإذا ما تخرج الناشئ بهذا الحظ المنكود من اللغة وكان في نفسه ميل إلى الأدب، وفي طبعه استعداد للكتابة، انصرف عن كنوز الأدب العربي؛ لأن مفاتيحها ليست عنده، وأقبل على روائع الأدب الغربي يحاكيها ويستوحىها، حتى إذا امتلأ ذهنه وفاض شعوره وأراد أن ينتج شيئاً يفيد الناس وجد في نفسه الملكة التي تخلق وفي حسه الصورة التي تمتع، ولكنه لا يجد في لسانه اللغة التي تعبر، ولا في قلمه الأسلوب الذي يؤثر، فيضيق ويسخط ويثور، ويزعم أن قواعد اللغة غصة لا تساغ، وأن إعراب الكلمة عقبة لا تذلل، ثم يتطرف فيدعو إلى إطلاق الحرية للكاتب فيكتب كما يشاء.

تلك حال المتخرج الأديب بطبعه؛ أما المتخرج العادي فإنه يعود أمياً كما بدأ، لا يقرأ إذا قرأ إلا السهل، ولا يطلب هذا السهل إلا في قصة عامية تخدر الشعور، أو في مجلة فكاهية تنبه الشهوة؛ حتى نشأ من إفراط القراء في هذا الطلب، إفراط الكتاب الخفاف في عرض الأدب اللذيذ الذي لا ينفع، أو الأدب الماجن الذي لا يرفع. ذلكم إلى طغيان الأدب الأوروبي بمذاهبه ونزعاته وترهاته على عقول الناشئين الذين ثقفوا هذه الثقافة الأدبية الهشة ففتتهم عن أدبهم وصرفتهم عن تاريخهم.

فالمتفرنسون منهم يعرفون هوجو ولا يعرفون المتنبي، ويدرسون فولتير ولا يدرسون الجاحظ، ويقرءون لمرتين ولا يقرءون البديع. ومن هنا نشأت هذه التبعية

التي فرضها الشباب على أدبنا لأدب الغرب، فأساليهم الكتابية اليوم هي أساليب الكتابة في الغرب، ومذاهبهم الأدبية هي مذاهب الأدب في الغرب، ومقاييسهم النقدية هي مقاييس النقد في الغرب، حتى الرمزية وهي بنت الأفق الغائم والنفس المعقدة واللسان المغمغم يريدون أن تتبناها العربية بنت الصحراء المكشوفة والشمس المشرقة والطبع الصريح، وحتى الوجودية وهي بنت الخلق المنحل والذوق المنحرف والغريزة الحرة، يحاولون أن تتقبلها العربية لغة الرسالة الإلهية التي كرمت الإنسان وفضلته من سائر الحيوان بحدود من الدين والخلق لا يتعداها ... ولا يتحداها وهو مؤمن.

ليس الأمر في الأدب كالأمر في العلم. الأدب للنفس والعلم للجسد، والأدب مواطن والعلم لا وطن له. الأدب روح في الجسد ودم في العروق يكوّن شخصية الفرد فيحيا مستقلاً بنفسه، وبرز شخصية الشعب فيحيا متميزاً بأفراده. الأدب جنس ولغة وذوق وبيئة وعقلية وعقيدة وتاريخ وتقاليد. والعلم شيء غير أولئك كله، فإذا جاز طبعاً أن نأخذ من غيرنا ما يكمل نقصنا من العلم، فلا يجوز قطعاً أن نأخذ من هذا الغير ما يمثل أنفسنا من الأدب.

إن دراسة العربية على النهج الصحيح المنتج بعد المدرسة لا يكلف المتأدبين من الجهد والزمن أكثر مما تكلفهم دراسة الفرنسية أو الإنجليزية: ولكنهم في عصر السرعة يطلبون القريب ويتوخون السهل ويتخطفون العلم ويتعجلون الإنتاج، ثم يحقدون على من يلزمونهم التآني ويجشمونهم الدرس ويقولون لهم إن أحداً لا يعرف في تاريخ الآداب القديمة والحديثة من يعد في لغته كاتباً أو شاعراً أو قصاصاً أو مؤلفاً، وهو لا يعرف من قواعد الأساسية ما يقيم لسانه وقلمه. وإذا كان الناس يقرءون الصحيفة أو الكتاب ولا يقعون فيها على الخطأ الذي يفضح المستور ويكشف الغش، فالفضل لأولئك الجنود المجهولين من الأزهريين الذين يرابطون ليل نهار في دور الصحافة والنشر ويسمونهم المصححين؛ فإنهم يمرون بأقلامهم الحمر على المعوج فيستقيم، وعلى المعجم فيعرب، وعلى الركيك فيقوى.

لا بأس أن ييسر النحو والصرف والبلاغة على الطلاب: ولكن البأس كله في المدى الذي بلغة هذا التيسير. لا بأس أن نخفف على غير المتخصصين من عبء

التقديرات والتعليقات التي فلسف بها النحاة النحو، ومن حفظ وجوه الإعراب التي بقيت في اللغة أثرًا لاختلاف اللهجات في الجاهلية فهو شت القواعد وجعلت كل خطأ صوابًا وكل صواب خطأ، ولكن البأس كله في أن تجرد علوم العربية من خصائص القوة والخصوبة والبراعة لتصبح أشبه بالهيكل العظمي، فيه الخفة والبساطة والشكل، وليس فيه العضل والعصب والروح.

إن ما يبقى من هذه العلوم بعد النقصان، وما يبقى من هذا المنقوص بعد النسيان، لا تحيا به لغة ولا يبقى عليه أدب. فإذا استطاع يومًا أن يجيز امتحانًا أو ينيل شهادة فلن يستطيع أبدًا أن يخرج أمثال من خرجهم الأزهر بشيوخه وكتبه، كمحمد عبده، وسعد زغلول، والمنفلوطي، والبشري، وطه حسين، ولا أمثال من خرجتهم دار العلوم كشاويش، والمهدي، والخضري، والسكندري، والجارم، ولا أمثال من خرجتهم مدرسة القضاء الشرعي، كأحمد أمين وعزام والخولي؛ ولا أمثال من خرجتهم دار المعلمين العليا، كالمازني وشكري وأبو حديد. ولا أمثال من خرجتهم كتب الأزهر كالعقاد، والرافعي، وشوقي، وحافظ في مصر. وكالبستاني واليازجيين والشدياق ومطران والخوري في لبنان. وكالمغربي، والشهابي، وجبري، والأفغاني، في سورية. وكالرصافي، والزهاوي وكاشف الغطاء، والشيبلي، والأثري، في العراق، وكالنشاشيبي والسكاكيني والحسيني في فلسطين.

إنني أدعو إلى التوفيق بين الفصحى والعامية. ومذهبي في مجمع اللغة العربية إمداد الفصحى بما تزخر به العامية من ألفاظ الحضارة وتراكيبها التي دخلت الحياة العامة حتى تضيق مسافة الخلف بين اللهجتين وينتهي بهما الأمر بفضل الصحافة والإذاعة والتعليم إلى لغة واحدة عامة، فيها من الفصحى السلامة والجزالة والبلاغة والسمو، وفيها من العامية الدقة والطبيعية والحيوية والتجدد والوضوح.

أما أن تكون لغتنا كلغة الهمج لا تقوم على قواعد، ولا تجري على أنظمة، ولا تشعرنا بجمال، ولا تحفزنا لكمال، ولا تربطنا بماض، ولا تصلنا بمستقبل، ولا تجمعنا في وحدة، فذلك مذهب لا يقول به رجل وهو جاد، ودعوة لا يستجيب لها إنسان وهو عاقل.

فإذا تركنا الأمور تجري كما تجري انتهت بنا إلى تغلب العامة، لأن أساليبها غالبية على السمع، وقواعدها جارية مع الطبع، فلا يحتاج تحصيلها إلى كتاب ومعلم ومدرسة، وإنما يحتاج إلى بواب وخادم وشارع. وتغلب الأساليب العامة معناه كما قلت فصل الأدب عن الدين وقطع الحاضر عن الماضي وتوهين الصلات بين العرب. وفي يقيني أن أمر العربية يصلح آخره إلا بما صلح به أوله: فقه أسرارها كل الفقه، وفهم قواعدها أدق الفهم، وحفظ أدبها أشد الحفظ، وذلك يستلزم الجهد والجد في إعداد المعلم، والعلم والخبرة في وضع المنهج، والمنطق والذوق في تأليف الكتاب، والكتاب الأزهري الذي تخرجنا عليه ومازلنا نرجع إليه كنز من المعارف لا يعوزه إلا سهولة مأخذه وحسن تنسيقه وجمال عرضه، فالفرق بينه وبين الكتاب الحديث في العرض كالفرق بين حانوت من حوانيت العطارة في الغورية، وبيت من بيوت التجارة في قصر النيل. قد يكون في الحانوت القديم ما ليس في المتجر الحديث من السلع التواجر والطرف النوادر؛ ولكن اختفاءها في ركن غير ظاهر، وعرضها في معرض غير لائق، يضعف الإقبال عليها ويقلل الاستفادة منها. فإذا عرضت الكنوز الأزهرية عرضاً جميلاً مشوقاً في الدروس والمحاضرات والمذكرات والكتب كان ذلك عسياً أن يدنى قطفها من الطلاب على غير مؤونة ولا كد ذهن.

* * * * *

إن رسالة الأزهر قائمة كما قلت على ركنين من دين ولغة، ولكن الأمر في تأديته إياها جد مختلف. الدين كامل لأنه من عمل الله، واللغة ناقصة لأنها من عمل الإنسان، والكامل الإلهي لا يتأثر بالمكان ولا يتغير بالزمان ولا يضيق بالحضارة ولا يبرم بالعلم، فهو جديد أبداً، صالح أبداً، ثابت أبداً. أما الناقص فهو عرضة للفساد والجمود والتخلف، وموضع للزيادة والتجديد والتطور؛ لذلك كان الاجتهاد في اللغة وعلومها أمراً تحتمة الضرورة وتقتضيه الطبيعة؛ لأن اللغة لا يمكن أن تثبت ثبوت الدين، ولا أن تستقل استقلال الحي، فهي ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والأغراض لا تنتهي، والمعاني لا تنفد، والناس لا يستطيعون أن يظلوا خرساً، وهم يرون الأغراض تتجدد والمعاني تتولد، والحضارة ترميهم كل يوم بمخترع، والعلوم تطالبهم كل حين

بمصطلح، ولا علة لهذا الخرس إلا أن البدو المحصورين في حدود الزمان والمكان لم يتنبأوا بحدوث هذه الأشياء، ولم يضعوا لها ما يناسبها من الأسماء.

نشأ من إنكار حق الوضع اللغوي على المولدين وحصره فيمن يعتد بعريتهم من عرب الأمصار حتى آخر المائة الثانية، أو أعراب البوادي حتى آخر المائة الرابعة، أن طغت العامية طغياناً جارفاً حصر اللغة الفصحى في طبقات العلماء والأدباء والشعراء والكتاب، يكتبون بها المملوك، ويؤلفون فيها للخاصة، وسيطرت على حياة الأمة في شئونها العامة وأغراضها المختلفة؛ لأن العامية حرة تنبو على القيد، وطبيعية تنفر من الصنعة، فهي تقبل من كل إنسان، وتستمد من كل لغة، وتصوغ على كل قياس. والناس في سبيل التفاهم يؤثرون السهل، ويستعملون الشائع، ويتناولون القريب. وتخلف اللغة عن مسطرة الزمن وملائمة الحياة معناه الجمود. والنهاية المحتومة لجمود اللغة اندراسها، بتغلب لهجاتها العامية عليها وحلولها محلها. وقد تنبه مجمع اللغة العربية لهذا الخطر فقرر فيما قرر استجابة لاقتراح عرضته، فتح باب الوضع اللغوي للمحدثين بوسائله المعروفة من الاشتقاق والتجوز والارتجال، وإطلاق القياس ليشمل ما قيس من قبل وما لم يقس. وتحرير السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما يسمع اليوم من طوائف المجتمع كالبنائين والنجارين وغيرهم من أرباب الحرف والصناعات، واعتماد الألفاظ المولدة وتسويتها بالألفاظ القديمة، وعلى هذه المبادئ وغيرها وضع معجمه الوسيط.

أما الاجتهاد في الدين فقد فتحت أبوابه أول الأمر لمن تجهز بجهازه واعتد له بعدته، حتى إذا زخر الفقه الإسلامي على اختلاف مذاهبه ومدى عصوره بالآراء المحكمة والوجوه المحيطة، وجد فيه المسلمون جواباً شافياً عن كل سؤال يخطر على الذهن، وحلاً حاسماً لكل إشكال يعرض في المجتمع، وحكماً عادلاً في كل قضية ترفع إلى القضاء، فاستغنوا بغزارته وإحاطته عن الاجتهاد فيه، وانصرفوا إلى اجتهاد من نوع آخر هو الاجتهاد في اختيار الرأي المناسب، وترجيح الحكم الموفق.

جاء في كتاب "الولاية والقضاة" للكندي: أن قاضياً شافعي المذهب كان بمصر في عصر الإمام الطحاوي وكان يتخير لأحكامه ما يرى أنه يحقق العدل من آراء الأئمة ولا

يتقيد بمذهب من المذاهب، وكان مرضي الأحكام، لم يستطع أحد أن يطعن عليه في دينه ولا في خلقه ولا في حكمه. سأل هذا القاضي الإمام الطحاوي عن رأيه في واقعة من الوقائع، فقال الطحاوي: أتسألني عن رأيي أو عن رأي أبي حنيفة؟ قال القاضي: ولم هذا السؤال؟ قال الطحاوي: ظننتك تحسبني مقلداً. فقال القاضي: لا يقلد إلا عصبي أو غبي.

هذه الثروة الفقهية الضخمة لم يحجبها عن الناس إلا أسلوب التأليف القديم واليوم وقد تطورت المدينة وتغيرت العقلية ينبغي أن يطابق التعليم والكتاب مقتضيات العصر.

هذه هي المحنة الثالثة التي تعانيها اللغة العربية اليوم. وهي لا تختلف عن سابقتها إلا في أن موقف الأزهر منها يجب أن يكون إيجابياً: يقابل العمل بالعمل، ويرد الكيد بالكيد، ويقاوم الدعاية بالدعاية، ويقف بالمرصاد لكل من يسول له جهله أو هواه أن يعبث بلغة الإسلام، ويوهن رابطة العرب.

والأزهريون الذين حملوا أمانة الله، وبلغوا رسالة نبيه أكثر من عشرة قرون يستطيعون أن يدرأوا خطر هذه الإباحية عن اللغة والدين متى صدقوا الجهاد وذكروا أنهم جند الله يرمي بهم العدو في كل وقت وفي كل أرض وعلى أي صورة، فيعيشون للموت كالجنود، ويعملون للحياة كالقادة، ويعزفون عن الدنيا كالرسل.

والله سبحانه وتعالى قد ضمن للعربية بقاء البيان ببقاء القرآن. وعلى أيدي أبناء الأزهر المؤمنين برسالته سيصدق الله وعده، وإن الله لهو خير الصادقين.

محمد حافظ إبراهيم⁽¹⁾

(بمناسبة المهرجان الذي أقامه لذكراه)

المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية)

(1)

تُرى لو أن حافظاً -رحمة الله عليه- تأخر به الزمن سبعين عاماً فظهر في أواسط هذا القرن لا في أواخر القرن الماضي، أكان ذكره يرتفع هذا الارتفاع، وذكره يحتفل بها هذا الاحتفال؟!

أغلب الظن أن حافظاً لو نشأ في هذا الجيل لكان له أمر غير هذا الأمر وتاريخ غير هذا التاريخ. ذلك أن العبقرى ابن إقليمه وبيئته وزمنه وظروفه وأحواله، فهي التي تعدّه وتكيفه وتوجهه، وتتيح له الفرص لينجح، وتهيئ له الأسباب ليمتاز، وتركز عليه الضوء ليظهر. وعلى حسب عواملها المختلفة الأثر في النوابع تكون طبيعة النبوغ ونوعه ودرجته. فالنابغ في شيء معين في زمن معين قد لا تنهياً له وسائل النبوغ فيه إذا تغير الزمن أو اختلفت البيئة. فالمتنبى مثلاً لو لم يظهر في القرن الهجرى الرابع إذ كان الملوك شعراء والوزراء وأدباء والشعب مرهف الحس لروائع الأدب لما ملأ الدنيا ولا شغل الناس.

وابن عربى لو عاش في غير عصره الذي كان يؤمن بالروح والإلهام والولاية، والفناء المطلق في الله، والتعبير الرمزي عن الحقيقة، لعد في المجانين لا في العباقرة،

(1) قلت: هو شاعر مصري من الرواد الأعلام، ومن أبرز الشعراء العرب في العصر الحديث، نال لقب شاعر النيل بعد أن عبر عن مشاكل الشعب، فهو الشاعر الإنسان الذي أحب الأدب والشعر، وعكف على مطالعة الكتب، كان يعشق المزاح والمداعبة، غيور على الأمة وشخصيتها ولغتها وهويتها، كريم معطاء؛ ولا سيما على الفقراء، تميز بعاطفة قوية ونفس فنية سمت به على أقرانه من أهل عصره، تناول شعره أشكالاً مختلفة وبرع في الأشعار الوطنية والثراء، وينتمي إلى طائفة الشعراء المتميزين الذين عرفوا بشعراء عصر الإحياء، مثل محمود سامي البارودى، وأحمد شوقى وغيرهم.

ونابليون لو انبعث في عصر الجواد والسيف إلى عصر الطائرة والدبابة لما أغنت عبقريته الحربية عن قومه شيئاً في بورسعيد.

وحافظ لو تأخر إلى هذا الجيل لاختلف عما كان عليه في نمط حياته ونوع ثقافته ولون تفكيره وطبيعة عمله ومدى نبوغه. كان لا يشتهر مثلاً بابتكار النكت وجمع الأحاديث وحفظ الأشعار لأن النزوع إلى هذا النوع من التأدب كان بمقتضى لحال اجتماعية زالت اليوم، فلا مجالس للسمر في قصور الملوك، ولا محافل للأدب في دور السادة.

وكان لا يقتصر في ثقافته على علم الشاعر القديم؛ لأن التكسب بالشعر أو بالمنادمة أصبح في رأي هذا الجيل بطالة لا تغني من جوع أو كدية لا تليق برجل. ولعله كان ينصرف عن الشعر إلى القانون أو الطلب أو الحرب فلا يقوله إلا تزجية لفراغ أو تسلية لهم، لأن مجتمع الجيل الجديد كان لجهله باللغة الفصحى وزهده في الأدب الرفيع لا يجد جمالاً في شعر هو لا يلقى بالاً إلى إنشاده. أما مجتمع الجيل القديم فقد كان إذا طلعت عليه المؤيد أو الأهرام حالية الصدر بدرة من درر شوقي أو بقلادة من قلائد حافظ أقبل عليها يقرؤها بشغف ويتذوقها بلذة وينقدها بعلم؛ ثم تضطرب بها الألسنة وتحدث عنها الأندية فتفعل في نفوسه ما تفعله اليوم في نفوسنا غنية كأغنية: (يمم الأمر ع الباب) والجيلان الماضي والحاضر يتصلان ويتداخلان ويتعايشان، ولكنهما على الرغم من المدة القريبة والصلة الوثيقة يختلفان أشد الاختلاف في أحوال الاجتماع وألوان الثقافة:

كان جيل حافظ لا يزال يعيش على بقايا تخلفت من تقاليدنا الجميلة في الجامعات والأسر. فالناس يجرون على أثر من خلال الفتوة العربية، يرتاحون للندى، ويتنافسون في المعروف، ويهتزون للبطولة، ويطربون للبيان، ويجيزون على الشعر، ومناظر الدور وأبهاء القصور تأخذ في كل مساء زخرفها من أهل الأدب ورجال السياسة وأصحاب الجاه وأرباب الحكم. وكان مدار الحديث فيها على النكتة البارعة والخبر الطريف والمسألة الدقيقة والبلاغة المأثورة يتساقطها السامرون على محض المودة ووثوق الألفة فتفتق الذهن وتصل الذوق وتوجه الميل وتتل الحظوة. وكانت المواهب

والمملكات تنفتح في جوانب هذه الأندية فتدل على نفسها أهل النفوذ فيقبلون عليها حتى تزهر وتثمر. وكانت النهضة الأدبية والحركة الفكرية يومئذ في طور الانتعاش تتحركان للنمو والسمو على نعمات المصرفي والبارودي والأفغاني ومحمد عبده وسلمان وحزمة والشنقيطي واليازجي والمويلحي ونديم وسعد وفتحي وقاسم ومصطفى. فالمجالس تُشيع حر الكلام، والصحف تذيب بارع النقد، والخديويون يتخذون من الأدباء ندامى ومن الشعراء بطانة، حتى قرَّ في نفس حافظ وأنداده أن الأدب كان سبيل الثراء للشيء، وسبب المجد للبارودي، ووسيلة الزلفى لشوقي، فتجهزوا لهذه الغاية بجهاز هذه البيئة فرووا رقائق الشعر، وجمعوا مقطعات الأحاديث، وراضوا أنفسهم على معاناة القريض. وكان قادة الفكر والبيان في ذلك الجيل من شيوخ الأزهر ودار العلوم ومن تخرج على أيديهم في مدرسة الحقوق ومدرسة القضاء ومدرسة المعلمين العليا، وكانت ثقافتهم تقوم في الأغلب على الدين واللغة والأدب فهم يتعمقون القواعد ويؤثرون الفصحى.

وكان قراؤهم في المدن والقرى من طلاب الأزهر وحفاظ القرآن، فهم يؤمنون بلغة الكتاب ويطربون للأسلوب العربي الخالص.

أما الجيل الحاضر فخلاصة القول فيه أنه جيل اللغة العامية ولثقافة الأجنبية والتحرر من قيود البلاغة في النثر، والخروج عن حدود العروض في الشعر، والاتجاه إلى أدب واقعي متطرف يكلم الشعب بلغته وبصوره في مبادئه ويفتنه عن حبه الغريزي لحسن العرض وجمال الأسلوب. فماذا كنتم تظنون أيها السادة أن يكون مصير حافظ لو أنه عاش في هذا الجيل ومزيتة الكبرى هي الصياغة، وطريقته المثلى هي البلاغة؟.

(2)

ولد محمد حافظ في السنة السبعين من القرن التاسع عشر بذهبية كانت راسية على ساحل ديروط بالصعيد الأعلى يقيم فيها أبوه المصري الصميم إبراهيم فهمي مهندس الري المشرف على القناطر، وأمه التركية الأصل السيدة هانم البورصلية، فكان أول ما فتح عليه عينيه من صور الدنيا نهرنا الخالد. فتلقينه بعد ذلك بشاعر النيل تلقيب صادق يستمد صدقة من النفحات الشعورية الأولى في هذه العوامة، ثم من التجارب الشعرية

التي استجابت لها قريحته في القاهرة. وظل مهده القائم بين الماء والشجر محفوظاً بمظاهر الحنان والنعيم أربع سنوات ثم فجعه الموت في أبيه فانتقلت به أمه إلى القاهرة ونزلت في حي المغربلين على أخيها محمد أفندي نيازي المهندس بمصلحة التنظيم وليس في يدها مال موروث عن الزوج ولا في أملها معاش مقرر من الحكومة.

ومنذ يومئذ عرف الطفل الغرير معنى البؤس فاغبر لون الوجود في عينه، وتنه طعم العيش في ذوقه، وبانت علائم اليتيم على ملبسه ومطلبه ومكتبه، فكان في مرحلة التعليم الأولى بالمدرسة الخيرية بالقلعة، وفي مرحلة التعليم الابتدائي بمدرسة القرية بتحت الرّبع، وفي مرحلة التعليم الثانوي بالمدرسة الخديوية بدرب الجماميز، يكابد ذل الحرمان كلما وجد أكثر رفاقه يطلبون فيجدون ويشتهون فينالون، وهو إذا انتهى طلب من أمه التي لا تملك أو من خاله الذي لا وجود.

ثم تدخل القدر في حياة حافظ ليحول مجراها إلى الوجه الذي قدره، فحوله من القاهرة والمدرسة الخديوية والوظيفة الحكومية إلى طنطا والجامع الأحمدى والبطالة الأدبية. ولو أن خاله استمر في القاهرة لنال حافظ شهادة الدراسة الثانوية وابتغى بها العيش في ضمان الحكومة وانتهى أمره إلى أن يصير عبداً للرسوم الديوانية والصيغ التقليدية لا أمير للشعر ولا زعيماً للكتابة. ولكنه انتقل إلى مثل وظيفته في عاصمة الغربية فلم يجد حافظ في طنطا مدرسة ثانوية، ولم يجد في مرتب خاله فضلاً يعيش عليه في القاهرة ليتمم دراسته في الخديوية، فانقطع عن الدراسة وأخلد إلى البطالة وأخذ يرود المجالس ويغشى الأندية حتى اتصلت بينه وبين شدة الأدب من طلاب المعهد الأحمدى أسباب المودة فأجروه على منهاجهم في الدرس، وأعدوه من ولوعهم بالأدب، فاختلف معهم كل يوم إلى حلقات الجامع الأحمدى يشاركهم في درس النحو والصرف، ثم ينفرد عنهم بالنظر في دواوين الشعراء يقرأ منها الجيد ويحفظ الأجود وينظم على مثال ما حفظ في البحر والقافية والموضوع. فإذا لقي إخوانه بمجتمعهم في المدينة أو بمتنزههم في الضاحية، أمتعهم بالمعجب المطرب من حفظه. وأسمعهم الجديد المختار من نظمه.

وكان من هؤلاء الإخوان المؤرخ الأديب المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فوصف لقاءه الأول لحافظ بقوله: " عندما عدت من القرشية إلى المعهد بطنطا في شعبان من سنة 1305 هـ أو في إبريل من سنة 1888م رأيت إخواني وأصدقائي يلودون بفتى غض الإهاب جديد الشباب وقد أسرعوا بتقديمي إليه وتقديمه إليّ باسم الأديب محمد حافظ إبراهيم. ولم تمر إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسي ميلاً إليه بجاذب من الأدب الذي كان نهمة نفسي حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه وما اشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة ومطوعة بديهة وحضور نادرة. وقد قضينا رمضان هذه السنة نصلي المغرب والعشاء والتراويح معاً، ثم نلبث في سمر ممتع ومطارحة للشعر ومذاكرة في نوادر الأدب وما كان يطرفني به مما يقف عليه من جيد القريض إلى أن يأتي وقت السحور. ثم نعود بعد السحور إلى ما كنا فيه إلى انبثاق الفجر فنؤديه ثم نخرج بغلس إلى خارج المدينة ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع فيذهب كل منا إلى بيته "

وظل حافظ على تلك الحال سنة أو تزيد، يقرأ ويحفظ ويحاكي لا يبتغي بذلك بناء مستقبله ولا ضمان رزقه، وإنما يبتغي به تلك اللذة المجردة التي يجدها عشاق الأدب في مطلق الهيام به والفناء فيه. وهذه الحال الباهلة لازمت الشاعر طول عمره فلم يزاوِل عملاً عن رغبة، ولم يتحمل مسئولية عن إرادة. ونفوره من العمل كان أثراً لنفوره من الحياة، ونفوره من الحياة كان أثراً لعشه الذي تقوض وهو طفل، ولعيشه الذي نبا وهو رجل. والمظنون أن خاله وهو ولي أمره ومسدد خطاه قد حاول أن يعالج فيه هذه الحال ليضمن لأخته الأمان في كنف وحيدها لو أنه نجح في صنعة أو وظيفة، ولكن روح الاستهتار التي استمدها حافظ من أرواح الشعراء البوهيميين الذين اضطربوا في حضارة العصر العباسي من غير نظام ولا قيد ولا غاية أصمت أذنيه عن النصيح وشلت يديه عن العمل. وكان من الطبيعي أن يضيق به خاله ويزوي عنه وجهه. ورأى من خاله هذا الإعراض فتنازعت خوالج الهم من يتم وعدم وهوان نفس وسوء حال فكتب إلى نيازي أفندي هذين البيتين:

ثقلت عليك مؤونتي وأنا أراها واهية

فأفرح فلإني ذاهب متوجه في داهية
والبيتان من ريك الشع ولكن في قوله (متوجه في داهية) أثرًا من خفة ظله
وعذوبة روحه. وكانت الداهية التي توجه فيها حافظ غرفة أحد إخوانه المجاورين في
الجامع الأحمدى فأقام معه زمناً، وكان شعره الساذج في هذه الفترة يترجم عما يكابد
في صدره من لوعة الأسى وبغض الحياة. من ذلك ما رواه رفيقه الشيخ النجار وهو
قوله:

عجبت لعمرى كيف مُدَّ فطالا وما أثرت فيه الهموم زوالا
وللموت مالى قد أراه مباعداً وجل مرادى أن أوسد حالا
فللموت خير من حياة أرى بها ذليلاً وكنت السيد المفضالا

ثم ترضاه خاله فعاد إلى داره. وكان رجاء أمه فيه وزرابة خاله عليه قد حركا في
نفسه الخامدة عزم الشباب وطموح الرجولة، فعزم على أن يسعى للعيش المستقل الحر.
ونظر فيما يملك لهذا السعي من وسائل فلم يجد خيراً من وسيلة البلاغة فاختر
المحاماة. وكانت المحاماة يومئذ مفتحة الأبواب لكل داخل مادام طلق اللسان حاضر
البديهة واسع الحيلة فدخلها من باب سعد والهلباوي وأبو شادي وحسن عبد القادر.
وكان أول مكتب اختاره للتمرين مكتب الشيخ محمد الشيمي بطنطا فبدأ بداية حسنة،
ثم اختلف مع الأستاذ على الأجر بعد قليل فتركه بعد أن ترك له هذين البيتين:

جراب حظي قد أفرغته طمعاً بباب أستاذنا الشيمي ولا عجباً
فعاد لي وهو مملوء فقلت له ممأ؛ فقال من الحسرات واحرباً

ثم انتقل إلى مكتب المحامى النابه محمد أبو شادي فأجل قدره ورفع أجره، ولكنه
لم يلبث أن تحول عنه إلى مكتب عبد الكريم فهيم فعمل فيه مدة، ثم أدركه الملل
وعضه القيد فهجر المحاماة وعاد يزجى وقته بالتشاؤب والتمطي ويقضي يومه في التلهي
بالشعر والتجني على القدر، وكانت المحاماة هي سبيله القصد إلى الثروة والشهرة لولا
ما ركب في طبعه من ضعف الاحتمال ولزوم القلق.

(3)

وتحدثت الصحف والناس عن المدرسة الحربية في نظامها الجديد فوقع في نفس حافظ أن يدخلها ليخفف النفقة عن خاله ويضمن الرزق له ولأمه، ثم تخرج فيها سنة 1891م وقضى في الجيش ثلاث سنين وبعض السنة. ثم نقل إلى العمل في البوليس ببني سويف، إذ كان المتبع قبل إنشاء مدرسة البوليس والإدارة أن يؤخذ من الحربية الداخلية، ولم يلبث ملاحظ البوليس أن برم كعادته بالعمل وضاق ذرعاً بالنظام فأخطأ ولج به الخطأ، واستلام واشتد عليه اللوم. فلم يجد البوليس بداً من إعادته إلى الجيش بعد حادثة رواها هو عن نفسه قال:

" كنت نائماً في بيتي وإذا برسالة من شيخ البلد في قرية من قرى الشرقية لعلها الإبراهيمية تقول: وقع حائط وزهقت أرواح. فانتقلت بغلس من الليل راكباً جوادي حتى وصلت إلى القرية، وراعني أن وجدت جداراً قد انقض حتماً وقُتلت تحته ثلاث دجاجات. قلت لشيخ البلد: أين الأرواح التي زُهِقَت؟ فقال متلعثماً: والله يا سيدي؛ أنا تشاحنت مع نسايبى فحلفت بالطلاق لأحضر البوليس هنا. وأخذت ألتمس الوسيلة إلى ذلك حتى علمت أن حائطاً سقط ومات تحته ثلاثة أفراخ فأرسلت هذه الرسالة ليسرع إلينا البوليس وأبر بالقسم العظيم. فقلت له وأنا أكاد أتميز من الغيظ: والله لتكونن روحك إحدى الأرواح التي زُهِقَت كما زعمت، وانهلت عليه ضرباً حتى كاد ينفق "

وعاد حافظ إلى الجيش ليُحال إلى الاستبداد خمسة أشهر. ثم عاد إليه ثانية لينقل إلى السودان فيقضي به أربع سنين تحت قيادة عدوه الإنجليزي كتشتر. وهناك وجد الفرصة ليستغل في نفسه براعة المحامي وبلاغة الخطيب، فكان يدافع عمن يقدم من الضابط إلى المجالس العسكرية الإنجليزية. وفي خلال ذلك كان يؤرث نار الفتنة في الجيش حتى ثار الضباط المصريون على رؤسائهم من الإنجليز سنة 1899م فاتهم بهذه الثورة هو وثمانية عشر ضابطاً أُحيلوا على الاستبداد وظل الضابط الثائر مستودعاً ثلاثة أعوام ونصف عام، ثم خرج على المعاش في سنة 1903م.

(4)

عاد حافظ كما كان يضطرب في الحياة النابية المبهمة لا يستريض لعمل، ولا يستقر على أمر، ولا يتشوف إلى غاية، وظن أن الشعر وحده يشغل الحياة ويبسط الرزق ويكسب الحقوق، فعاش عيش مسلم بن الوليد وأبي نواس وأضرابهما ممن قضوا أعمارهم صنائع للملوك ووسائل للهو وحمائل على الجوائز، فأبى الوظيفة وآثر أن يحيا في ظلال الإمام محمد عبده ينتفع بجاهه ويفي إلى رفته، ويفشى مع ذلك أبهاء النعمة يسامر أهلها بعذب حديثه وينادهمم برقيق شعره. ثم يتطلع الحين بعد الحين إلى صلات القصر فيحجبه عنها شوقي شاعر الأمير محوله وطوله.

ومن دأب الشعراء الكاسيين بالشعر أن يذروا إلى حد السفه إذا عاشوا للحاضر، كصريع الغواني وابن هاني، وأن يقتروا إلى حد الكزازة إذا عاشوا للمستقبل، كأبي العتاهية والبحثري. ومن الأولين كان حافظ. تمتلئ يده بالمال اليوم فتعتريه حال من الضجر والقلق لا تنفك عنه حتى يتلفه كله قبل الغد على إخوانه الكثيرين من طرائد البؤس وصرعى الأدب كإمام العبد و خليل نظير، وأحمد فؤاد، ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكي في لؤم الزمان وظلم الإنسان وشقاء الأديب.

كان حافظ يطلب الثروة على قدر طموحه، والحظوة على قدر نبوغه، ولكنه طلبهما من طريق الحق الذي يوجبه كل شاعر على الناس، لا من طريق الواجب الذي يؤديه كل إنسان إلى المجتمع. فلما أخفق بالطبع لم يرد أن يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور، وإنما ارتد ارتداد الأنوف المحتج إلى الفلاكة الشاعرة الصابرة يحمل بؤسه على حرفة الأدب كما يحمل المؤمن رزقه على حكمة القدر. ثم عاش عيش الطائر الغرد، عمره ساعته، وديناه روضته، وشريعته طبيعته، ودأبه أن يطير في الغيم والصحو، ويشدو في الطرب والشجو، ثم يسقط على الحب أينما انثر.

فلما عطف عليه الوزير الأديب أحمد حشمت فأكرمه سنة 1911م بالعمل في دار الكتب رئيسًا للقسم الأدبي وأجزل له المراتب طمعًا في مواهبه وثوابًا على فضله حمل الوظيفة على محمل المكافأة الواجبة وظل أكثر النهار قاعدًا في قهوة الكتبخانة، فإذا

طلب إلى الدار لعمل تقتضيه الرئاسة قال للجرسون: إذا سألت عني واحد قل له راح
الكتبخانة شويه وجاي".

ولقد كان من جريرة هذه الحياة التي حييها حافظ أن شغلته عن الدرس والقراءة
فلم يتكمل بثقافة ولم يتعمق في فلسفة. كان يترجم رواية مكبث لشكسبير فدعي مرة
ليحاضر في نادي المدارس العليا وهو يومئذ مجمع الشباب الصالح المثقف فقام
فأنشدهم بعض ما ترجم نظمًا عن شكسبير ومثله تمثيلاً أفرغ فيه جهده فأطرب
وأعجب، ثم سأله المحاضرة فأخذ يلقي عليهم من نواته حتى مضى الوقت ولم يقل
شيئاً.

من تلك النوات قوله: إن الرشيد أهديت إليه جارية حسناء فسألها: أبكر أنت أم
أيش؟ قالت له: أنا يا أمير المؤمنين أيش. وسأل المعتصم هذا السؤال جارية اشترت له
فأجابت: لقد كثرت الفتوح في عهدك يا أمير المؤمنين.

كذلك كان من جرائر هذه الحياة عليه أن انبهم في نفسه معنى المنزل، وخمد في
حسه شعور الأسرة. وذوى في قلبه حب المرأة، فلما ألحت عليه أمه أن يتزوج بعد
عودته من السودان سنة 1906م بنى بامرأة من حي عابدين وحاول أن يصبر نفسه على
حياة الزوجية فلم يستطع الصبر إلا أربعة أشهر ثم طلقها.

وسئل مرة: هل أحب؟ فقال: النساء اثنتان: جميلة تنفر من قبحي، ودميمة أنفر من
قبحها. ولذلك جف في شعره ينبوع هذه العاطفة فلم يقل في الغزل شيئاً يذكر.

(5)

كان حافظ منذ أدرك مطبوعاً على اليتيم لا يعرف إلا أنه ابن القدر، ومع ذلك كان
خلطاًؤه يرون على وجهه لوناً من الرضا لا يتغير في نعيم ولا بؤس. ومن عجيب الأمر
في هذا اليتيم الحزين أنه كان قوي الملكة في فن الضحك. كأن الله عوّضه من نضوب
معانيه في قلبه فيضان ألفاظه على لسانه. والمعروف أن نبوغ المصري في ابتكار النكتة
وابتعاث الضحك إنما كان تفريجاً له من الكروب التي كابدها في عهود الطغيان
والموتان والذل. كان حافظ يتقصد النوات والفكاهات من مظانها في الكتب ورجال
الأدب وأهل المجون، فإذا قصها على من يجالسه زاد في أسلوبها هو وجعل يقلبها

ويتصرف فيها ويبين عنها بمنطقه ووجهه ونبرات من لسانه وحركات من يده. وهو في غزارة محفوظة من الطرف والأشعار والأسمار أوحد الناس بالإجماع.

حدثني المرحوم الرافعي أنه اجتمع في سنة 1912م بحافظ على مائدة مدير الغربية محمد محب، فلما مدت الأيدي إلى الطعام قال له المدير: لي عليك شرط يا حافظ. قال: ما هو؟ قال: كل لقمة بنادرة. فتهلل وجهه وقال: لك علي ذلك. ثم أخذ يقص ويأكل والعشاء حافل وحافظ كان نهماً فما انقطع ولا أدخل حتى وفى بالشرط.

وتذكرنا يوماً كثرة ما كان يحفظ من الشعر فقال الرافعي: نشرت مصباح الشرق في سنة 1900م قصيدة من مطولات ابن الرومي. وكنا يوم صدورها في مجلس يضم حافظاً وبعض الأدباء، فتعجب الشيخ محمد المهدي أستاذ الأدب في دار العلوم من بسطة ابن الرومي في قوافيه. فقال له حافظ: هلم نتساجل في هذا الوزن حتى ينقطع أحدنا، وكانت القافية من وزن قدرها، أحمرها، أكبرها. وجعلت أنا أحصي عليهما، فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدي يفكر طويلاً ثم ينطق باللفظ ولا يكاد يفعل حتى يرميه حافظ على البديهة، فيعود الرجل إلى الإطراق والتفكير حتى انقطع أخيراً وبقي حافظ يسرد له ما يحفظ من هذا الوزن على هذه القافية.

(6)

عاش حافظ زهاء اثنتين وستين سنة كانت نوماً مضطرباً من غير حلم، أو كما قال هو: كانت حلماً مزعجاً من غير نوم. فلما أوى في الثلث الأخير من حياته إلى كنف الأمان من منصبه في دار الكتب استراح للخفض واستنام للدعة وأعفى قريحته من قول الشعر فلم ينظمه إلا مدفوعاً إليه حيناً بعد حين. كان همه كله في الحديث يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس، وأينما يكن يكن الأُنس الشامل والظرف الناصع والأدب الغض والحديث الذي يمتزج بالروح ويغمر بالشوة جوانب النفس.

كان يعيش بعد خروجه من الجيش مستقلاً مع أمه. فلما توفيت سنة 1908م عاد إلى العيش في بيت خاله. ولما توفي خاله ظل يعيش مع زوجته السيدة عائشة، يقوم على رعايتها بإخلاص الابن البار، وتقوم هي على خدمته بحنان الأم الرؤوم، حتى

شارفت حياتها الأجل الموقوت فتوفاها الله سنة 1929م وتوفاه بعدها بثلاث سنين. وكانت هذه السنوات الثلاث عكارة العمر وصبابة الكأس، تجمعت فيها وحشة العيش بعد أن خلت داره من أمه وخاله وزوجة خاله، وهم الثلاثة الذين لازموه طول العمر، وشاركوه في الحلو والمر. وانضوى فيها إلى حزب الوفد وانقطع إلى الزعيم سعد، فأطلق لسانه بالسوء في رئيس الحكومة إذ ذاك إسماعيل صدقي فأخرجه من وكالة دار الكتب سنة 1932م. وترادفت عليها بعدها الأمراض فأصبح لا يشتهي الطعام ولا يستلذ الشراب ولا يجد الراحة إلا في منزله الصغير بضاحية الزيتون.

وفي الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر يوليو من تلك السنة بعد خروجه على المعاش بأربعة أشهر ونصف شهر انتقلت روحه إلى الخلد وبقيت ذكراه للخلود⁽¹⁾.

(1) اقرأ فصلاً من شعره في كتابي وحي الرسالة المجلد الأول.

شخصية البحري⁽¹⁾

(بمناسبة الاحتفال بذكره في سبتمبر سنة 1961م)

الاحتفال بشاعر الشام الكبير، ونابغة العروبة الخالد، تكريم لذكره، وتحية لفنه، والتكريم والتحية يقتضيان الاقتصار على ما يجعل ذكره من أخلاق الشاعر وصفاته. وذلك إنما يتسنى لمن يتحدث مختاراً عن جانب من جوانب سلوكه، أو مزية من مزايا فنه. أما من اقترح عليه أن يتحدث عن شخصيته فالأمر معه جد مختلف. ذلك لأن شخصية الرجل هي صورته المعنوية تركبت من آثار الفطرة والوراثة والبيئة والطبيعة ونمط العيش ونوع الثقافة ولون الحضارة. ولأولئك كله خطوط وألوان وظلال، منها المستقيم والمعوج، والسوي والشاذ، والبارز والمستتر، وبدونها كلها لا تكمل الصورة ولا تتم المعرفة. فإذا صورت البحري على الطريقة الواقعية التي تعتمد على اعترافاته وشهادة مواطنيه، لا على الطريقة الخيالية التي صور بها هو ممدوحه، كنت أقرب إلى إرضاء الحق وإنصاف التاريخ. وعذر البحري في انطباع شخصيته على هذه الصورة حال المجتمع في عصره. فقد كان العصر الثاني من عصور الدولة العباسية الأربعة عصر نزاع على الخلافة وصراع بين الأجناس وصدام بين المذاهب وخصام بين الأسر وتنافس في الثروة والجاه، وتداق في الترف واللهو، وتورط في الشهوة واللذة. والشاعر الذي يعيش على صلات الخلفاء والرؤساء مقضي عليه أن يساير ويشارك ويهاوي ويحتال، فيخرج من الرأي إلى نقيضه، وينقلب من الرجل إلى عدوه.

(1) قلت: إنَّ البحري (821-898) هو أشهر الشعراء العرب في العصر العباسي، ولد في قرية منبج إلى الشمال الشرقي من حلب وظهرت موهبته الشعرية منذ طفولته. انتقل إلى حمص ليعرض شعره على أبي تمام، الذي وجهه وأرشده إلى ما يجب أن يتبعه في شعره. ثم انتقل إلى بغداد عاصمة الدولة فكان شاعراً في بلاط الخلفاء: المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز بن المتوكل، كما كانت له صلات وثيقة مع وزراء في الدولة العباسية وغيرهم من الولاة والأمراء وقادة الجيوش. بقي على صلة وثيقة بمنبج وظل يزورها حتى وفاته. خلف ديواناً ضخماً، أكثر ما فيه في المديح وأقله في الرثاء والهجاء. وله أيضاً قصائد في الفخر والعتاب والاعتذار والحكمة والوصف والغزل. كان مصوراً بارعاً، ومن أشهر قصائده تلك التي يصف فيها إيوان كسرى والربيع.

شخصية الوليد أبي عبادة البحري شخصية الإنسان المطبوع والفنان الموهوب، كانت إنسانيته لا يختلف معناها عن معنى الحيوانية في اكتساب القوت لتحيا، واجتناب الأذى لتنجو، وكانت فنيته لا يبعد مداها عن أن تكون وسيلة لهذه الحياة تهيئ لها عدة القوة، وتمد لها أسباب العزة، كما يقول:

لي من الشعر نجوة واعتزاز وهجوم على الأمور الشداد

كان الشعر في عصر البحري للشاعر بمثابة الناب والظفر للسبع، يبتغي الرزق بالمدح، ويتقي الأذى بالهجاء. والذي جعل للشعر هذه الوظيفة تلك الحساسية المرضية التي توارثها العرب للمدح استجابة لدواعي العصبية وطمعاً في خلود الذكر، وكان البحري وهو صبي يرتع بين أشجار التوت في منبج، أو ينتقل وهو يافع بين مضارب طيئ على الفرات، يرد على سمعه ما تتناقله الأفواه في القرية والبادية عما ينال الشعراء في قصور الخلفاء والأغنياء من الجاه والثراء، وبخاصة مواطنه أبو تمام، فيطمح إلى ذلك، وينظر في نفسه فيجد خاطره يسحُّ بالشعر سحاً على البديهة دون علم بالعروض إلا ما اكتسب بالسليقة، ولا بصر باللغة إلا ما أخذ عن الأعراب، فيعلم أنه أوتي الملكة وأُعطي الوسيلة فيقرض الشعر في كل شيء، وينشده في كل مكان.

قال صالح بن الأصبع التنوخي المنبجي:

" رأيت البحري هنا قبل أن يخرج إلى العراق يمدح أصحاب البصل والبادنجان وينشد الشعر في مجيئه وذهابه " ومعنى ذل أن البحري بدأ يتكسب بالشعر في قريته على هذه الصورة المبتذلة، لأنه قرر في نفسه أن يتصيد رزقه في بحور الشعر تارة من السمك وتارة من اللؤلؤ. وما كان لفتى منبج الطامع الطامح أن يقنع بالبصل والبادنجان، دون اللؤلؤ والمرجان، وهو الذي تمرر منذ صباه على الفقر وقضى العمر كله في جهاده. جاهده بسلاح الشعر وحده لا بالعلم ولا بالعمل. وسلاح الشعر يدركه الفلول في بعض الأوقات لإعراض خليفة أو صدود وزير فلا يعمل، فيضطر إلى التنقل من قصر إلى قصر. أو التحول من بلد إلى بلد، فكانت حياته حياة الطائر الغريد قوام عيشه حنجرة رخيمة وجناح خفاق ومنقار لاقط، يغني حيث يكون الروض، ويقع حيث ينثر

الحب. فإذا حل الشتاء وطمر الثلج روضه، وحطم السيل عشه، قطع أجواز الفضاء وأنباج الماء إلى جو آخر يتوفر فيه الحب والأمن والدفع؟

* * * * *

شخصية البحري ككل شخصية إنسانية لها قوامان: قواما مادي مفتاحه حب المال، وقوام معنوي مفتاحه حب الجمال. وبهذين المفتاحين نستطيع أن نفتح ما استغلق من طباعه، ونفسر ما استبهم من سلوكه.

كان حديث أحلامه ومنتجع أمانيه أن يقتني ضيعة في منبج، فمدح من مدح من السادة والقادة حتى بلغ في عهد المتوكل فوق ما تمنى. ثم صار همه بعد ذلك أن يمدح الولاة والعمال ليعفوا ضياعه من الخراج. قال أحمد بن إسماعيل: كان البحري يلزم إبراهيم بن المدبر في كل سنة أن يسقط أكثر خراجه أو يؤديه عنه، فأراد يوماً أن يشتري ضيعة جديدة واستماح إبراهيم أن يؤدي عنه بعض ثمنها، فلامه على طمعه وقال له: يكفيك ما تملك من الضياع فقد كثرت وعظمت! فأنشده قصيدة كان قد أعدها بقول في مطلعها: سفاهاً تمارى لومها ولجاجها، حتى بلغ قول فيها:

وما زالت العيس المراسيل تنبري فيقضي لدى آل المدبر حاجها
فأمر له بإتمام ماله.

كان البحري في سبيل حب المال يبخل به ويحرص عليه. وهل للبخل معنى غير حب المال؟ فما رواه أبو الغوث ابنه، وحكم ابن يحيى، وأبو مسلم محمد ابن الأصفهاني، من حديث شحه على نفسه وتقتيره على خادمه وأخيه ليس بدعاً من أخلاق الشعراء في ذلك العصر، فقد كان البخل طبعاً مكتسباً فيهم لم يخل منه إلا أفراد قلائل غيبتهم نشوة الخمر عن الفكر في المستقبل فعاشوا في الحاضر يوماً بيوم، كمسلم ابن الوليد وأبي نواس، والشعراء البخلاء منطقيون مع الحياة. يصنعون ما تصنع النحل والنمل، يدخرون بعض ما يجدون ليوم لا يجدون. لأن موارد أرزاقهم لم تكن مضمونة ولا مأمونة. كانوا يعيشون على صلات الخلفاء وأولي النعمة، ينادمونهم على الشراب، ويفاكهونهم في السمر، ويمالقونهم بالمدح، ويدورون من وراء رضاهم في السياسة والحكم، فهم في خير ما دامت أسبابهم موصولة بالقصر، فإذا انقطعت انقطع رجاؤهم

في العيش. ولم يكن للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والأدب والعلوم جد أعلى في عصر البحري يُسني لهم طرق العيش الكريم بالتأليف والترجمة والنشر والمعونة، فكانوا بين مجدود كالجاحظ، أو مكدود كالأخفش.

أما الجاحظ فقد سُئل يومًا عن ثروته فتبسم ضاحكًا وأجاب: إنما أنا وجارية، وجارية تخدمها، وخادم، وحمار. وقد أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت إلى البصرة ومعني ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد.

وأما علي بن سليمان الأخفش النحوي الأديب فقد ضاقت به الحال في أواخر أيامه فسأل أبا علي بن مقلة أن يكلم له الوزير علي بن عيسى عسى أن يجري عليه رزقًا في جملة الفقراء. فلما كلمه انتهره الوزير انتهارًا شديدًا، وأجابه جوابًا غليظًا، وكان ذلك في مجلس حافل، فبلغ ذلك الأخفش فاغتم. وانتهت به الحال إلى أن عاش على السلجم النئى⁽¹⁾. ويقال إنه قبض على قلبه من اليأس فمات فجأة.

* * * * *

وفي سبيل المال كان البحري يحتال ويتدنى وينقل شعره من مقام إلى مقام، ومن ممدوح إلى ممدوح، بعد تغيير تقتضيه الحال، قال يتحدث عن نفسه: " دخلت على المتوكل يومًا وفي يديه درتان لم أر أنقى منهما بياضًا ولا أكبر حجمًا. فأدمت النظر إليهما، ولم أصرف طرفي عنهما. ورآني المتوكل على هذا الحال فرمى إليّ بالتي كانت في يمينه، فقبلت الأرض وجعلت أفكر فيما يضحكه طمعًا في الأخرى فعن لي أن قلت:

بُسْرَ مَنْ رَأَى لَنَا إِمَامًا تَعْرِفُ مِنْ بَحْرِهِ الْبَحَارُ
خَلِيفَةً يُزْتَجَى وَيُخْشَى كَأَنَّهُ جَنَّةٌ وَنَارُ

(1) السلجم: الفت.

المُلْكُ فِيهِ، وَفِي بَيْنِهِ ما اختلف اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
يداه في الجود ضررتان هذى على هذه تَعَارُ
وَلَيْسَ تَأْتِي الْيَمِينُ شَيْئًا إِلَّا أَتَتْ مِثْلَهَا الْيَسَارُ

فرمى إليَّ بالدرة التي كانت في يساره وقال: خذها يا عيار!، والعيار المحتال.

وقال أيضًا يتحدث عن نفسه: كنا في مجلس المتوكل ومعنا الفتح بن خاقان، فاعترت المتوكل للفتح هزة من السرور والرضا فقام يقبله، ووثب الفتح فقام فقبل رجله. والتفت الخليفة إليَّ وقال: قل في الفتح وفيَّ شعراً. فإني أحب أن يحيا معي ولا أفقده فيذهب عيشي، ولا يفقدني فيذل بعدي، فقل في هذا المعنى، فقلت قصيدة منها:

لا أرtnي الأيام فقدك يا فتح ولا عرّفتك ما عشت فقدي
أعظم الرزء أن تقدم قبلي ومن الرزء أن تؤخر بعدي
حسدًا أن تكون إلّا لغيري إذا تفردت بالهوى فيك وحدي

فقال المتوكل: أحسنت والله يا أبا عبادة، وجئت بما في نفسي، وأمر لي بألف دينار، وكنت قد عملت هذه الأبيات في غلام كنت أكلف به، فلما أمرني المتوكل بما أمر، اتنحيت وقلت الأبيات وأريته أنني عملتها في وقتي، وما غيرت فيها إلا لفظة واحدة، فإتني كنت قلت: ما أرtnي الأيام فقدك ما عشت، فجعلته يا فتح. وقد قتلا معًا وكنت حاضرًا فربحت هذه الضربة. (وأوماً إلى ضربة في ظهره).

وقد قال الصولي: إنه نقل نحوًا من عشرين قصيدة من مدائحه ممن قيلت فيهم إلى غيرهم بعد أن غير أسماءهم مع سعة ذرعه في قول الشعراء! وجدوى هذا أن تجاز القصيدة مرتين من غير جهد ولا كلفة.

ويدخل في هذا الباب أمره مع غلامه نسيم، فقد قال أحمد بن جعفر جحظة: "كان نسيم غلام البحرري روميًا ليس بحسن الوجه، فجعله بابًا من أبواب الحيل على الناس، فكان يبيعه ممن ينفق عنده الأدب. فإذا صار في ملكه مدحه وتشوق الغلام وشبب به وتحسر عليه بمثل قوله:

دعا عبرتي تجري على الجور والقصد أظن نسيمًا قارف الهم من بعدي

خلا ناظري من طيفه بعد شخصه فيا عجبًا للدهر ! فقد على فقد
فلا يسع من اشتراه إلا أن يهبه له: ولم تزل تلك حاله حتى مات نسيم فكفى الناس
أمره.

* * * * *

وفي سبيل المال تخلق البحتري بأخلاق التجار فسالم الناس ودعا إلى السلم،
وعايش الأضداد وبرئ من التحيز، ولا بس العقائد والمذاهب والطوائف والعشائر وخلا
من التعصب.

ولد في خلافة المأمون ثم تنفس به العمر حتى جاوز الثمانين، فاستغرقت حياته
حياة عشرة من الخلفاء تداولوا العرش العباسي وهو يمد من الفتن والخطوب من
تفارس الخصوم وتنافس العناصر وتنازع الرؤساء، وهو مضطر إلى مصانعة هؤلاء
وهؤلاء ليسلم منهم جميعًا ويغنم منهم جميعًا. فمدح العلوي والعباسي والعربي
والتركي والسني والشيوعي دون أن يجد غضاضة في نفسه ولا مشقة على ضميره، لأنه
يمثل المادح ولا يكونه، ويتخيل الممدوح ولا يعينه، ويقول في المدح ما يقول ولا
يعتقده، ومن هنا لم يجد صعوبة ولا حرجًا في أن ينقل القصيدة من ممدوح إلى آخر،
ولعله لم يقل الصدق إلا في المتوكل لحبه إياه وإخلاصه له وبلوغه الحظوة والثروة في
أيامه حتى قال فيها:

أو ما ترى حسن الزمان وما بدا وأعاد في أيامه المتوكل
أشرقن حتى كاد يُقتبس الدجى ورطبن حتى كاد يجري الجندل

ومن معاني مسairته ومهاواته أنه لم يتبع سياسة معينة، ولم يعتقد نحلة خاصة،
وإنما كان يستن سنة الدولة ويذهب مذهب الحاكم. حدث إبراهيم بن عبد الله الكجي
قال: قلت للبحتري ويحك! تقول في قصيدتك التي رثيت بها أبا سعيد: أأفاق صَبُّ منْ
هوَى، فأفريقًا:

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرفون كلامه المخلوقا

أصرت قدرياً معتزلياً؟ فقال لي: كان هذا ديني في أيام الواصل، يعني (أيام كانوا يقولون بخلق القرآن) ثم نزعت عنه في أيام المتوكل (أي حين نزعوا عن هذا القول).

فقلت له: يا أبا عبادة؛ هذا دين سوء يدور مع الدول.

وقد اتهمته العامة بالثنوية في أيام المعتمد لقوله:

ولم أر كال الدنيا حليلة صاحب محب متى تحسن لعينه تطلق

تراها عياناً وهي صنعة واحد فنحسبها صنعى لطيف وأحرق

(والثنوية يقولون بالهين: إله للخير وإله للشر كما تعلمون) فخاف على نفسه وقال لابنه أبي الغوث وكان مقيماً معه: قم يا بني نطفئ هذه النائرة بخرجة نلم بها شعنا ثم نعود، وهي الخرجة التي زار فيها إيوان كسرى وقال فيه قصدته المعروفة.

والحق أن البحتري كان لنشأته القروية البدوية بعيداً عن مذاهب الحضريين في الدين والفلسفة، فلا يستمد شعره إلا من إلهام الخاطر ووحى الطبيعة. ومن قوله يخاطب المناطق:

كلفتمونا حدود مسطّكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببه

وفي سبيل المال ركب البحتري الأسفار وهو في طور الحداثة يشهد على ذلك قوله:

وقائلة والدمع يصبغ خدها رويدك يا ابن الست عشرة كم تسري

فقلت أحق الناس بالعزم والسرى طلاب المعالي صاحب الست والعشر

وقوله:

تقاذفني بلاد عن بلاد كأنني بينها خبر شرود

فطوّف بالشام، وجوّل في العراق، وأوغل في الجزيرة، وبين جنبه الأمل الحافز، وفي يديه كتب الوصايا التي زوده بها أستاذه أبو تمام إلى الممدّحين من ذوي المروءات والرياسات في تلك البلاد. ولكنه كان دائب الحنين إلى الشام يستوقد شوقه إليها وافد النسيم من الغرب فيقول لنفسه:

حبذا العيش في دمشق إذا ليلها —————
حيث يُستقبل الزمان ويُستحسن البلى —————
أو يقول للمعتز:

هل أطلعن على الشام مبجلاً في ظل دولتك الجديد المونق
شهران إن يسرت إذني فيهما كفلاً بألفة شملي المتفرق
قد زاد في شوقي الغمام وهاجني زجل الرواعد تحت ليل مطبق
أو يقول لأبي الصقر:

تراك مخلفي في غير أرضي وإنهاضي إلى بلدي يسير
وأعتقت الزمان فمر بعثقي إلى بلدي، وأنت به جدير

* * * * *

ذلك بعض ما يفتحه علينا حب المال من شخصية البحتري. أما ما يفتحه حب الجمال منها وهو مفتاحها الآخر فكل ما ينبثق عن روحه ونفسه وقلبه وذوقه من الأعمال والخلال، ولكن هذا المفتاح المعنوي لا يمكن أن يفضي بنا الباب الذي يفتحه إلى جانب مستقل من حياة الشاعر له مميزاته وخصائصه، فإن العناصر المادية والمعنوية تتقارب وتتضارب وتتفاعل فيؤثر بعضها في بعض، ويتأثر بعضها ببعض، فلا يكون هناك حس محض ولا معنى خالص، فالأنافة التي اشتهر بها البحتري في تنزيه ألفاظه وتنسيق جملته، وهي أثر من آثار حب الجمال، تفارقه في اختيار هندامه وتأثيث بيته، فقد كان كما رووا من أوسخ خلق الله ثوباً وأداة، ووساخة الثوب وقذارة الأداة أثر من آثار حب المال، وحب الجمال مقتض، وحب المال مانع، والمانع أقوى من المقتضى وأولى. على أن صفة القذارة في الملبس والأثاث تعلل في أيام الفقر والبداوة والتجوال ولكنها لا تكاد تصدق أيام النعمة السابغة والحياة المترفة أيام المتوكل والفتح، إلا إذا كانا احتمالاً منه ما كان الوزير المهلبى وزير معز الدولة ابن بويه يحتمل من أبي الفرج الأصبهاني، فد كان المهلبى مترفاً متنطساً يأنف من أن يأكل بالملعقة لقمتين فكان له عن يمينه خادم يناوله في كل لقمة ملعقة، وعن يساره خادم يأخذها. وكان صاحب

الأغاني يجالسه ويؤاكله، وكان قذر الهيئة رث الثوب لا يغسله ولا يبدله، فيحتمل الوزير ذلك منه لعلمه وحسن حديثه. وحدث يوماً أن المهلب كان يأكل معه لوناً من ألوان الحلوى صنّع له ونُسب إليه وهو المهلبية، فسعل أبو الفرج سعلة شديدة خرجت نخامة غليظة وقعت في الصفحة، فلم يزد الوزير على أن أمر برفع الصفحة وضع أخرى واستأنف الأكل.

* * * * *

ومن أثر حب البحري الجمال حبه للطبيعة، فقد فتن بها منذ الحداثة في الغيم والصحو، والجبال والأمواه، والحقول والرياض، كما فتن بروائع الصنعة في القصور الفخمة والأبنية العجيبة كإيوان كسرى وبركة المتوكل وقصر المعتر بالله، وقصائده في وصف هذه البنى أمثلة فريدة في الشعر العالمي. وهل تجدون أبدع وأرق من قوله في وصف ليلة صافية ساجية تلاًلأت نجومها وتطلق دجاها:

كاد دجى الليل من طلاقته يقر، والأفق ساقط قمره

ومن أثر حبه للجمال كلفه بالجواري والغلمان، فقد أحب وهو يافع علوة الجليلة وهي من قيان الشام، وكان حبه إياها صبوة من صبوات المراهقة فأنتهى بالجفاء منها وبالهجاء منه. ثم رحل إلى العراق فشارك شعراء في حياة اللهو والمتاع، وتتبع الجمال في مظهره المؤنث والمذكر: ووصف الحب في حاله الخيالي والواقع. ولكن حب البحري كان حب الشهوان العاثر لا حب الولهان المتيم. أحب المرأة بحسه لا بنفسه، وتغزل فيها بلسانه لا بقلبه. فمذهبه في الغزل كمذهبه في المدح: يصور أحوال المحبوب، كما يحلل أخلاق الممدوح، ومن ذاكرته وخياله، لا من وجدانه وواقعه، والفضل في إخفاء هذا الزيف عن القارئ إنما هو لبراءة ذهنه، وعبقريته فنه، وواقعية خياله، وقدرته على تصوير النفس الإنسانية تصويراً مجرداً يصدق جوهره على كل نفس. اسمعوا مثلاً قوله يتغزل:

أصبا الأصائل إن لبرقة تهمد	تشكر اختلافك بالهبوب السرمد
لا تتعبي عرصانها، إن الهوى	ملقى على تلك الرسوم الهمد
دمن موائل كالنجوم فإن عفت	فبأي نجم في الصبابة يهتدي

فهل تجدون فيما قرأتم أبدع من هذا التصوير وأرق من هذا الوصف وأصدق من هذا الشعور؟ ولكن الذي يكشفه هو أن نسأله: مالك ولبرقة تهمد وليس لك فيها خولة؟!⁽¹⁾

إن زيف الغزل البحري جاء من زيف حبه، وبعيد أن يحب المرأة الحب الصادق من لا يحترم جنسها ولا يثق به، أليس هو القائل في النساء:

وعلى غيرهن أحزن يعقوب وقد جاءه بنوه عشاء
وشعيب من أجلهن رأى الوحدة ضعفاً فاستأجر الأنبياء
واستزل الشيطان آدم في الجنة لما أغرى به حواء
وتلفت إلى القبائل ونظر أمهات ينسين أم آباء
ولعمري ما العجز عندي إلا أن تبيت الرجال تبكي النساء

ومن أثر حبه للجمال النفسي حبه للصداقة والصديق. فقد كان لطبيعته المسالمة ونفسيته الشاعرة وحاجته إلى المعونة يطلب الصديق ويحرص عليه ويتعهده وكثرة أشعاره في العتاب والإعتاب تدل على استبقاء الأصدقاء ومعاودتهم. وقصائده في رثاء من ذهب منهم تنبئ عن الحزن عليهم والوفاء لهم. ولقد صادق أبا تمام ودعبلاً والفتح ابن خاقان وأبا العيناء والمبرد ومحمد بن بسام وإبراهيم الصولي والفضل اليزيدي وغيرهم من نوابغ العصر فما ذموا عهده ولا أنكروا وده على الرغم مما يكون بين الأنداد من التنافس والتحاسد. ولكنه كان يقول أحياناً لمثل المبرد: أحبك ولكن الفن أحب إليّ منك !.

حدث البحري نفسه قال: خرجت من منزل أبي الصقر (أحد وزراء المعتمد) نصف النهار في تموز، فقلت ليس بقربي منزل أقرب من منزل المبرد، وكان منزلي بعيداً بباب الشام؛ فجئته، فأدخلني إلى حويشة له، وجاء بمائدة فأكلت معه لونين طيبين وسقاني ماء بارداً، وقال لي: أحدثك إلى أن تنام، فجعل يحدثني أحسن حديث،

(1) إشارة إلى قول طرفة ابن العبد في مطلع معلقته:

لخولة أطلال برقة تهمه تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

فحضرني لشؤمي وقلة شكري بيتان، فسألته أن أنشدهما، فقال ذلك إليك، وهو يطن أنني مدحته بهما، فقلت:

ويوم كحر الشوق في صدر عاشق على أنه منه أحر وأومد
ظلمت به عند المبرد قافلا (1) فما زلت في ألفاظه أتبرد

فقال لي: قد كان يسعك إذا لم تحمد ألا تدم: ومالك عندي جزاء إلا أن أخرجك. والغكثة التي اصطادها من الحر ومن معنى المبرد هي التي ورطته هذه الورطة. كذلك كان من أثر حبه للجمال النفسي حبه العباقرة من كل جنس، يشهد بذلك قوله في سينيته التي وصف بها إيوان كسرى:

وأراني من بعد أكلف بالأشراف طراً من كل أس وجنس
وكذلك اعتراف بالجميل لأهله، وذلك واضح في قوله من هذه القصيدة نفسها:
عمرت للسرور دهرًا فصارت للتعزي رباعهم والتأسي
فلها أن أعينها بدموع مواقف على الصبابة حُبس
ذلك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي
غير نعمى لأهلها عند أهلي غرسوا من زكائها خير غرس
أيدوا ملكنا وشدوا قواه بكمأة تحت السنور حُمس

وأمره مع أبي تمام شاهد آخر على أصالة هذا الخلق فيه. فقد روى أن بعض الناس سمع شعره فقال له: أنت والله أشعر من أبي تمام، فقال والله ما ينفعني هذا القول ولا يضر أبا تمام. والله ما أكلت الخبز إلا به. ولوددت أن الأمر كما قلت، ولكني والله تابع له آخذ منه لأند به. نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه. والاعتراف بالجميل والحق دليل على الاعتداد بالنفس والثقة بالقدرة.

* * * * *

(1) قافلا من القيلولة لا من القول .

أما ما نُسب إليه مما ينافي حي الجمال ويجافي سلامة الذوق ففيه نظر وله تأويل، قالوا: إنه كان بغيض الإنشاد، يتشادق ويتزاور في مشيته جانباً أو القهقري، ويهز رأسه مرة ومنكبه أخرى، ويشير بكمه، ويقف عند كل بيت ويقول: أحسنت والله! ثم يقبل على المستمعين قائلاً: ما لكم لا تقولون أحسنت؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله.

وهذه الحادثة إن صحت لم تقع إلا مرة واحدة كانت في مجلس المتوكل، ولم يروها إلا رجل واحد كان أبا العنبر الصيرمي، وهو رجل ماجن مزاح كان ينادم رضاء الكأس فيخترع لهم الأضاحيك ويروي الأفاكية، قال يروي هذا الخبر لجحظة: " كنت عند المتوكل والبحري ينشده:

عن أي ثغر تبتسم وبأي طرف تحسك
فكان يتشادق ويتزاور إلى آخر ما وصف. فضجر المتوكل من ذلك وقال لي محياتي أهجه على هذا الذي أنشدنيه. فقلت:

من أي سَلح تلتقم وبأي كَف تلتطم
إلى آخر ما أنشد من ركة وقحة، فالحادثة إذا قبلنا في إثباتها خبر الواحد وهو مجروح بمجونه، مهزلة في مجلس شراب زالت فيه الكلفة وذابت التفرقة وانطلق المكبوت من الوعي الباطن، فما كان من البحري كان سور كأس ونشوة طرب، وما كان من الصيرمي كان فرصة تهريج ونهزة دعابة، وما كان من المتوكل كان عبثاً بالشاعر ولهوا بالنديم، " والملوك كما قال له الفتح تمزح بأكثر من هذا " على أن المرة الواحدة وإن وقعت في الصحو لا تكسب خَلْقاً ولا تنشئ عادة ولا تثبت نقيصة.

* * * * *

هذه أيها السادة صورة تقريبية لشخصية الشاعر الأكبر رسمتها في إطار الزمن المقدر لعرضها عليكم، فإذا أضفت إليها بعض الصفات الخَلقية التي تجمعت كل صفة منها عن طريق، كقول أبي الفرج: إن لحيته كانت سمراء طويلة، وقول ابن الرومي: إن وجهه كان منسوباً ذنوباً⁽¹⁾، وقول أبي العلاء: إن قدميه كانتا كقدمي ديك⁽¹⁾، وقول

(1) قال ابن الرومي يهجو:

الصولي: إن جسمه كان قصداً بين الطول والقصر وبين السمن والهزال، وإن بدنه كان معافى طول عمره لاعتداله، فلم يشك علة في جسمه، ولا عقدة في نفسه، استطعن أن نتبين من خلالها على اختلاطها وإجمالها، معارف هذا الفنان العظيم الذي حمل قيثاره الشعر بعد أبي تمام فزاد في أوتارها وتر الوصف الدقيق المصور، وفي ألحانها لحن الغزل الرقيق المعبر، فكان خليقاً بقول صاحب المثل السائر فيه: "أما البحري فأراد أن يشعر فغنى"، والفضل في فضله إنما كان لأمه الشام مثابة الأدب الخالص والعروبة النقية والإسلام الصحيح، فإنها بفضل ما حباها به الله من زكاوة التربة وأصاله الفطرة وفنون الطبيعة قدمت إلى هيكल الشعر في حبيب والوليد وأحمد (عُزَّاه ولاته ومَناته) كما قال ابن الأثير، وأعادت إلى العرب الخلف سبق الشعر ممن غلبهم عليه من الشعراء الموالى بإنجابها العباقرة الخمسة: أبا تمام، وأبا عباد، وأبا الطيب، وأبا فراس، وأبا العلاء. فالاحتفال بالبحري احتفال بها، وتكريم البحري تكريم لها، والله سبحانه يخلد في رحمته وجنته روح الابن، ويكلاً بعينه وعونه حياة الأم.

=

ولن يكون زنوب الوجه ذا أدب

البحري زنوب الوجه نعرفه

(1) مفرطة منفرجة الأصابع.

محمد رسول الله أول من أعلن حقوق الإنسان

(يناير سنة 1960م)

في اليوم التاسع من شهر ديسمبر من عام 1949م وفي فورة من فورات النفاق الدولي، أعلن الساسة في هيئة الأمم المتحدة حقوق الإنسان، ثم احتفلوا واحتفل معهم الناس بالذكرى الحادية عشر لهذا الإعلان منذ اثنين وعشرين يومًا، فبشروا بالنعيم المقيم والخير العميم والسلام الدائم، ومن قبل هؤلاء الساسة (الإنسانيين) أعلن قادة الثورة الفرنسية هذه الحقوق عام 1789م وصاغوها في سبع عشرة مادة جعلوها ديباجة لدستور سنة 1791م.

ومن السهل على الذهن الاجتماعي أن يعلل صيحة الثوار الفرنسيين بحقوق الإنسان بعد أن كابدوا ما كابدوا من استعباد النبلاء واستبداد الكهنة، وأن يفسر احتضان هيئة الأمم المتحدة لهذه الحقوق بعد أن رأت حوت الشيوعية معترضًا في خضم الحياة وقد فغر فاه الهائل المروع ليلتقم الديمقراطية الرأسمالية وما تسيطر عليه من أرزاق الناس وأسواق العالم بالاستعمار أو بالنفوذ؛ ولكن من الصعب على الذهن المنطقي أن يدرك ما يريده الأوروبيون والأمريكيون من لفظ (الإنسان) الذي أعلنوا له هذه الحقوق، وظاهروا عليه هذا العطف! أغلب الظن أنهم يريدون بإنسان هذه الحقوق ذلك الإنسان الأبيض المترف الذي تحدر من أصلاب اللاتين أو السكسون أو التوتون! أما الإنسان الأحمر في أمريكا فهو في رأي أبناء العم سام ضرب مهين من الخلق، عليه كل واجب وليس له أي حق. وهذا الوجود المعدوم في بلاد الديمقراطيين الأحرار لا يزال في رأي المسلمين أغلظ كذبة في دستور الديمقراطية بواشنطن، وأكبر لعنة على تمثال الحرية في (نيويورك)، وأما الإنسان الأسمر والأسود في أفريقيا، أو الأخضر والأصفر في آسيا، فهو في نظر الفرنسيين والإنجليز نوع من بهيمة الأنعام، وجنس من المواد الخام، يولد ليسخر، ويروض ليستثمر، ويتجج ليستهلك، وهو موضوع الخصومة في السلم، ومادة الغنيمة في الحرب. وهذا الحق المهضوم بين أمم العلم والدستور لا يزال في نظر المسلمين اتهامًا لصحة الثقافة في جماعات فرنسا، وإنكارًا لحقيقة العدل في برلمان إنجلترا! ومن هذا التفسير المزور لمعنى الإنسان في القديم والحديث اضطراب

الأساس وفسد القياس واختلاف التقدير، فلكل جنس وزنه ولكل لون قيمته، ولكل دين حسابه. ومدار الوزن والتقويم والحساب هو على قدرة الإنسان وعجزه، لا على إنسانيته وفضله، فالعلم والغنى والقوة سبيل السيادة؛ والجهل والفقر والضعف سبيل العبودية. والسيادة حق ليس بإزائه واجب، والعبودية واجب ليس بإزائه حق.

المسلمون وحدهم هم الذين يفهمون الإنسان بمعناه الصحيح لأنهم أتباع محمد، ومحمد وحده هو الذي أعلن حقوق الإنسان بهذا المعنى لأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. والله وحده هو الذي ألهم رسوله هذه الحقوق لأنه أرسله رحمة للعالمين كافة. أرسله رحمة للذين استضعفوا في الأرض لقلة المال كالمساكين، أو لفقد العشير كالموالي، أو لضعف النصير كالأرقاء، أو لطبيعة الخلقة كالنساء، فكفل الرزق للفقير بالزكاة، وضمن العز للذليل بالعدل، ويسر الحرية للرقيق بالعتق، وأعطى الحق للمرأة بالمساواة.

والمستضعفون الذين رحمهم الله برسالة محمد لم يكونوا من جنس مبيّن، ولا من وطن معين: إنما كانوا أمة من أشتات الخلق وأنحاء الأرض اجتمع فيها العربي والفارسي والرومي والتركي والهندي والصيني والبربري والحبشي على شرع واحد هو شرع الإسلام، وتحت تاج واحد هو تاج الخلافة! والإسلام الذي يقول شارعه العظيم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70] لم يخص بالتكريم لوناً دون لون، ولا طبقة دون طبقة، إنما ربأ بني آدم جميعاً أن يسجدوا لحجر أو شجر أو حيوان، وأن يخضعوا مكرهين لجبروت كاهن أو سلطان.

كان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وسائر الناس سواء والعدم. وكان الرومان يدعون أنهم حكام الأرض ومن سواهم خدم، وكان العرب يقولون إنهم أهل البيان ومن عداهم عجم.

وكان الهنود يعتقدون أن الله خلق البراهمة من فمه والرجبوت⁽¹⁾ من عضده والمنبوذين من رجله ولا يستوي الأمر بين رأس وكتف وقدم!.

وكان النظام الاجتماعي العالمي قائماً كله على الامتياز بالجنس أو بالدين، وعلى السيادة بالنسب أو بالمال، حتى جاء محمد بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فأعلن المساواة بقول الله عز اسمه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 9]، ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: 13] وأكدها بقوله صلوات الله عليه: "الناس سواسية كأسنان المشط"، "لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى". "كلكم لآدم وآدم من تراب".

ثم كان الرقيق والمرأة شيئين من الأشياء يملكان ولا يتصرفان، فضيق الإسلام حدود الرق، وجعل كفارة الذنوب بالصدقة والعتق، وسوى بين الرجال والنساء في الحق والواجب.

ثم أعلن حرية العقيدة بقول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99] واحترم عقائد أهل الكتاب وضمن لهم حرية العبادة وأمان العيش وعدل القضاء، وأمر الولاة أن يرفعوهم ويعطفوا عليهم، وأوصى المسلمين أن يبروهم ويقسطوا إليهم.

ثم أعلن الإسلام حرية الفكر والرأي فلم يقبل إيمان المقلد ولا حكم المستبد، وأمر بالنظر في ملكوت السماوات والأرض. ووسع صدره لأهل السياسة حتى تعددت الأحزاب، ولأهل الجدل حتى كثرت الفرق، ولرجال الفقه حتى تنوعت المذاهب.

(1) قلت: راجبوت (وأصلها "راج بوترا" بالسسكريتية، وتعني "ابن الملك") هو مصطلح يطلق على أبناء قبائل تقطن غرب ووسط وشمال الهند وشرق باكستان. علا شأن هذه القبائل منذ أواخر القرن السادس الميلادي وحكمت القسم الأكبر من الولايات الأميرية في راجستان وسوراشترا إبان حكم الراج البريطاني.

وسمح لأهل الذمة وأصحاب النحل أن يدعوا إلى أديانهم ويدفعوا عنها في المدارس والمجالس والبيع، ونهانا ألا نجادلهم إلا بالتي هي أحسن.

ثم احترم الملكية وثبت لها الأصول، ونظم الموارث ورتب عليها التعامل وهذه هي جماع الحقوق الطبيعية التي كفلها الإسلام للإنسان على اختلاف ألوانه وأديانه وألستته. أعلنها محمد ابن عبد الله منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن والأمر يومئذ للجهالة، والرأي للضلالة، والحكم للطغيان، فأنقذ الإنسانية من إفسار المادية والعصبية والأثرة؛ ثم أكرمها ونعمها وهداها الطريق المستقيم إلى نظام أكمل وعالم أفضل وحياة أسعد. ولكن الإنسانية وأسفاه ضلت هذا السبيل، أضلها أولئك المنافقون الذين يعلنون لها اليوم هذه الحقوق، وهم يسرون في أنفسهم تأكيد الامتيازات وتأييد الفروق.

من اليهود المظلمة أشرق نور الله

ولد الكليم موسى بن عمران في مهد قلق يساوره الخوف والترقب، ثم أخفته أمه عن عيون فرعون في تنور، ثم ألقته في الماء وتركته للأقدار في صندوق، ثم نجاه الله من الحرق والغرق والته ليلقى الألواح منه على جبل الطور.

وولد المسيح عيسى ابن مريم في العراء تحت جذع النخلة على الثرى المرمّل، ثم وضعت أمه الهاربة في مهد خشن من مذود بهيم، ثم آتاه الله الكتاب والنبوة والبركة فنشرها في المشرقين من فوق جبل الزيتون !.

وولد المصطفى محمد بن عبد الله في مهد اليتيم والعُدم لا يجد الدفء كمن له أم، ولا العطف كمن له أب، ولا اللبن كمن له مال، ثم رعى على بعض أهله، وسعى بمال زوجته، ودعا إلى سبيل ربه، ثم نزل عليه الروح الأمين بالرسالة الخالدة في غار حراء من جبل النور !.

* * * * *

تبارك الله ما أجل شأنه وأعز حكمه! شاء لنوره وبرهانه أن يشرقا من هذه اليهود المتواضعة، ولمجده وسلطانه أن يظهرها في هذه النفوس الوداعة؛ لتكون آيته أبهر للعيون، ودعوته أبرع في العقول، وكلمته أعلق بالأفئدة. ولو اتخذ رسله من الملوك العواهل لاتهمت المعجزة، والتبس على الناس فعل القدرة.

من اليهود الفقيرة النابية اختار الله - وهو ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124] - أنبياءه ورسله، ثم أيدهم بالمعجزات إيجاباً للحق، وأمدهم بالآيات إرهاباً للباطل، فجاهدوا الشرك، وحاربوا الفساد، وهياؤا الأرض لغراس الخير، ووجهوا الإنسان إلى طريق الكمال، وأعدوا الأذهان لتقبل الرسالة الأخيرة والدعوة العامة: رسالة الحقائق والبراهين، لا رسالة الخوارق والقرايين. ودعوة العالم المعمور والزمان المؤبد، لا دعوة المكان المحصور والزمان المحدد.

والمعجزات إنما كانت الدليل على الحق والسبيل إلى الله أيام كان الحس أقوى من العقل، والسذاجة أغلب على الفكر، فلما انجابت عن البصائر أغشية الجهل من طول ما

وعظ الأنبياء وعلم الحكماء ومحضت العبر، أصبح الوحي علماً والإلهام حكماً والبيانات فهماً والدعوة منطقاً والرسالة شريعة، وأصبح محمد اليتيم العديم الأمي مثلاً للإنسانية الصاعدة في طورها المفكر المعبر، يدعو إلى سبيل الحق بالحكمة البالغة والموعظة الحسنة والمجادلة اللينة، ولا برهان إلا كتاب به، ولا سلطان إلا إيمان قلبه:

﴿ وَقَالُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجَرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ تَحِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرِيقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤهٗ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝٩٣﴾ [الإسراء: 90 - 93].

والواقع المأثور أنك تقرأ سير الأنبياء وتواريخ الرسل فلا يروعك فيها إلا سلسلة من المعجزات والآيات تؤيد النبي أو تصدق الرسول في مواقف إقناعه أو دفاعه أو شدته؛ إلا محمداً صلوات الله عليه فقد آتاه الله مواهب الكمال الإنساني فميزه بالخلق العظيم والرجولة الكاملة والشخصية المهيمنة، فكان في ذاته معجزة وفي صفاته آية. تألبت عليه عناصر الشرك فأصيب في بدنه، وأتهم في عقله، وأوذى في أهله، وغذّب في صحبه، وحورب في دعوته، فما قابل ذلك العدوان الباغي إلا بعزيمة الإنسان الأعلى، فجاهد بالصدق، وجالد بالصبر، وجادل بالمنطق، وصاول بالرأي، وأثر باللسان، وقهر باليد؛ وكل هذه الأمور إنما تصدر عن براعة الذهن وإعجاز البطولة. وتلك مزيته الظاهرة على أصحاب الرسالات. إذ كان كل نبي وكل رسول إنما يبين شأوه على قومه في بعض المزايا إلا الرسول العربي فقد تم فيه ما نقص في غيره من كمال العبقريّة. فكان رسولاً في الدين، وعلماً في البلاغة، ودستوراً في السياسة، وإماماً في التشريع، وقائداً في الحرب.

ثم كان في غار حراء، وفي دار الأرقم، وفي جبل ثور، وفي دار أبي أيوب، وفي المسجد الجامع، مظهرًا صحيحًا لروح الله، وإعلانًا صريحًا لسر الدين، ومثالاً عاليًا لصدق الجهاد، واحتمالاً ساميًا لمكاره الدعوة، وأسوة حسنى لجميع الناس.

إن حياة الرسول قانون إلهي خالد لصاحب الدين وصاحب الدنيا، وإن وسائل الجهاد التي جدد عليها أسلوب العيش، وأقام بها ميزان المجتمع، لا تزال عناوين ضخمة في صفحات العلم والسياسة والخلق.

كانت حياته صلوات الله عليه قائمة على الزهد والجهد، وزعامته دائرة على التضامن والتعاون. ملك الحجاز ونجدا واليمن، وجبى الجزيرة كلها وما داناها من العراق والشام، وظل ينام على فراش من آدم حشوه ليف، ويبست هو وأهله الليالي طاوين لا يجدون العشاء، ويمكثون الشهر لا يستوقدون نارًا، إن هو إلا التمر والماء، ويلبس الكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم في الناس أقبية الديباج المخوص بالذهب، وإذا أقبل على أصحابه فقاموا له إجلالاً قال لهم: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً؛ إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العيد، وأجلس كما يجلس العبد. وكان ذات مرة في سفر، فأمر أصحابه بإصلاح شاة. فقال رجل: عليّ ذبحها. وقال ثان: عليّ سلخها. وقال ثالث: عليّ طبخها، فقال الرسول عليه صلاة ربه وسلامه: وعليّ جمع الحطب. فقالوا: يا رسول الله، إنا نكفيك العمل. فقال: علمت أنكم تكفونني إياه، ولكني أكره أن أتميز عليكم. ولما استعز الله بقاسم الفيء وزعيم الجزيرة وسيد الملوك كانت درعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله.

ثم كانت سياسته كنور الله لا تعرف الحدود ولا الخصوص ولا الزمن، إنما هي شر الخالق العظيم استعلن في سكون الصحراء على لسان الرسول العظيم، ثم دوى في غياهب الآفاق ومجاهل الأبد؛ ليكون الشعاع الهادي لكل ضال، والنداء الموقظ لكل غافل.

أما شخصيته فكانت أبلغ ما في رجولته. خضعت لها الرؤوس الطاغية والنفوس العاتية والقلوب الغلاظ من صناديد العرب، فكانوا يسمتون ستمته في الخلال، وينهجون نهجه في العيش. ويأخذون أخذه في المعاملة، ويجمعون على حبه وطاعته وتفديته إجماعاً لا يخرقه إلا الكفر بالله. فأقواله سنن تتبع، وأعماله عهود تحفظ، وآراؤه أوامر تطاع، وأحكامه أفضية تنفذ.

لذلك نذكره في كل أذان وفي كل صلاة من كل يوم، نذكر اسمه مع اسم الله لا تعبدًا به؛ فإن الشرك معاذ الله لا يكون غير هذا، إنما نذكر الله ونذكر بعده محمدًا كما تذكر القاعدة ومعها المثل، أو النظرية وبعدها العمل؛ لأن الله يوحى والرسول يبلغ، ويأمر وهو ينفذ، ويشرع وهو يطبق. فذكر الله استحضار لأوامره ونواهيه وتلك هي القدرة، وذكر الرسول استحضار لأقواله وأفعاله وتلك هي القدوة.

* * * * *

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان الجهالة. فما أجدر القلوب الواعية الحرة على اختلاف منازعها ومشارعها أن تخشع إجلالاً لذكرى رسول التوحيد والوحدة ونبي الحرية والديمقراطية، ودعاية السلام والوئام والمحبة.

شهر ربيع الأول في حياة الرسول

من الموافقات العجيبة في حياة الرسول صلوات الله عليه أن شهر ربيع الأول كان شهره من بين الأشهر، وأن يوم الاثنين كان يومه من بين الأيام. فيوم الاثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول كان يوم استهلاله في مكة؛ ويوم الاثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول كان يوم هجرته إلى المدينة؛ ويوم الاثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول كان يوم انتقاله إلى الرفيق الأعلى. ولهذه الموافقات سر يعلمه من اصطفاه على خلقه واصطنعه لحقه، واختصه برسالته. ومن همسات هذا السر أن شهر ربيع الأول هو شهر اليمن والخصب والجمال في العام، وأن يوم الاثنين هو يوم القمر عند القدامى وللقمر شأن مذكور في الإسلام. فهو ميقات للناس والصوم والحج؛ وشعار للأمة والملة والدولة. وعلاقة الأقدار والحظوظ بالفصول والبروج والأيام لا تزال من الأسرار المغيبة في قطرة الإنسان. فلو أن شهر ربيع الأول جعل بدءاً للسنة الهجرية، وأن يوم الاثنين جعل يوماً للراحة الأسبوعية، لكان ذلك متفقاً مع تاريخ الهجرة، وجلالة الذكرى، ومكانة الرسول، وقداسة الشهر.

- 1 -

ففي يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول للسنة الثالثة والخمسين قبل الهجرة كان الفضاء الرب الصافي بين بيت إبراهيم بالمسجد الحرام، ودار السيدة آمنة بشعب بني هاشم بمكة، مسبّحاً الأجنحة الملائكة ومسبّحاً لأرواح الأنبياء، يحمدون الله ويشكرونه على أن تدارك الخليفة من جديد، باستهلال هذا العربي الوليد. وكان العالم قبل مولد محمد بن عبد الله يضطرب في الباطل ويتخبط في الضلال، ويتبسط في المنكر.

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الأعوج

كان يسوق هذه البهيمة من الشرق الفرس على ما هم فيه من انحلال وفساد، ويقودها إلى الغرب الروم على ما هم عليه من إباحية وفسوق. وكان إيوان كسرى

وبلاط القيصر يتنازعان الولاية على الأرض بالكفران والطغيان والقهر. فلما قام بينهما في مكة مهد العربي اليتيم هزته يد الله فتصدع لهزته الإيوان، وتطامن لهيبته القصر، وهتف بالعاقلين العظميين من جانب الغيب هاتف يقول: اليوم ينتهي تاريخ وابتدئ تاريخ. ليس بعد اليوم ملك ولا كاهن ولا سيد إنما العبادة لله، والقيادة للرسول، والسيادة للدين، والحكومة للعرب، والدنيا للجميع! ثم درج يقيم الأبوين في دروب مكة وشعابها وأوديتها يتمرس بالحياة على أسلوب قريش، فرعى على بعض أهله، وسعى لبعض قومه، ثم أنجر بمال زوجه. وكانت عناية الله ترعاه في كل طور وفي كل مرحلة عاله وهو يقيم فقير وكفله وهو راع صغير، ووفقه وهو تاجر أجير. ثم شاء الله لأمر يريده أن يصنعه على عينه. فأدبه بأدبه، وعلمه من علمه، وعصمه من أرجاس الوثنية وأوزار الجاهلية، فلم يشرب الخمر، ولم يأكل الربا، ولم يلعب الميسر. ولم يشهد اللهو، ولم يغش وجهه لصنم، حتى صار اليتيم العديم سيداً للجزيرة، والراعي الصغير راعياً للعالم، والتاجر المتجول فاتحاً للأرض، والطاهر النزيه مهياً لتلقي الوحي وتبليغ الرسالة.

وحينئذ انفتح باب من السماء على غار حراء تنزلت منه الملائكة والروح على أهل الأرض، وانبثقت فيه الشعاعة الأولى من وحي الله على قلب محمد. فهبط الصادق الأمين من فوق جبل النور يحمل المصباح بالهدى، ويحمل على الشوك بالتوحيد، ويحتمل في سبيل الدعوة إلى الله أذى أئمة الكفر من قريش.

- 2 -

وفي يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول للسنة الأولى من حادثة الفيل كان أذى قريش لرسول الله قد بلغ حد الائتمار به ليقتلوه. وكان صلوات الله عليه قد رأى قفار مكة المشركة قد نبث على غرس الدعوة فلم يخرج نباته لا نكداً توشك السموم أن تأتي عليه، فهاجر به تحت عين الله إلى البلد الطيب الذي اختاره الله ليكون قاعدة لصرحه وحقلاً لغرسه ومجمعاً لقوته ومناراً لهداه، وهنالك بالصبر والصدق والإيمان والثبات والجهاد والخلق والرجولة، أثمر الغرس وتم النور واتحدت الكلمة واتسعت الرقعة، فصارت المدينة دنيا، والقلعة ملة، والقرى الثلاث وهي مكة والطائف ويشرب قارات ثلاثاً

هي آسيا وأفريقيا وأوروبا. وأصبح الإسلام الذي بدأ بخديجة وعلي وأبي بكر وزيد دين الناس ودنيا العالم، يقف به في آخر المغرب عقبة بن نافع على شاطئ المحيط الأطلسي ويقول وقد خوض جواده في الماء: " اللهم رب محمد! لولا هذا البحر لفتحت الدنيا في سبيل إعلاء كلمتك. اللهم أشهد! " ويتجه به إلى آخر المشرق قتيبة الباهلي ويأبى إلا أن يوغل في بلاد الصين فيقول له أحد أصحابه محذراً: " لقد أوغلت في بلاد الترك يا قتيبة، والحوادث بين أجنحة الدهر تقبل وتدبر " فيجيبه قتيبة: " بثقتي بنصر الله أوغلت. وإذا انقضت المدة، لم تنفع العدة ؟ " فرد عليه المشفق المحذر قائلاً: " اسلك سبيلك حيث شئت، فهذا عزم لا يقله إلا الله ".

* * * * *

كانت الهجرة المباركة حذاء فاصلاً من نور الله بين الإسلام والجاهلية، وبين الوحداية والوثنية، وبين القومية والعصبية، وبين الإنسانية والحيوانية، وبين ليل مظلم طال في الهول والويل والضلال، وصباح مسفر ضاء بالأمن والسلام والهداية.

تسنى بعدها للرسول بفضل الله أن يفظم المشركين عن الشر بالحكمة والقوة، وأن يربي المسلمين على الخير بالموعظة والقدوة. فجادل المنكرين بمنطق القرآن، وجاهد المكابرين بمنطق السيف، حتى جاء نصر الله والفتح ورأى الناس يدخلون في الله أفواجا فسبح بحمد ربه، واطمأن على مصير دعوته وشعبه، وأخذ يسن السنن ويوضح المعالم ويبين للناس ما لو اتبعوه من بعده لما ضلوا ولا ذلوا. فلم تمض عشر سنين على الهجرة حتى كان الدين قد كمل، والنعمة قد تمت، والقرآن قد ختم، والعرب قد تهياوا لولاية الأرض وحكم الدنيا. فحج صلوات الله عليه حجة التمام، وخطب في عرفة خطبة الوداع، أشهد فيها الله على أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة وخرج من العهدة.

وفي ذلك اليوم نزل عليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] فعلم أن الله قد نعى إليه نفسه واصطفاه لجواره.

- 3 -

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول للسنة الحادية عشر من الهجرة لحق بالرفيق الأعلى. وكان قد حم صلوات الله عليه منذ أسبوعين قضاهما في بُرحاء الحمى بين وهجها وغشيتها لا يفتر عن ذكر الله ولا يغفل عن أمر دينه. وكان أشد عليه من وجعه أن ينقطع عن المسجد وأن يؤذنه بلال بالصلاة فلا ينهض لها. وفي آخر يوم من أيام المرض وجد الرسول خفة في جسده فعصب رأسه وخرج من بيت عائشة متثاقلاً تخط قدماه الأرض وهو معتمد على علي والفضل ابني عميه، حتى أتى المسجد والناس يقيمون الصلاة، فلم يكادوا يرونه مقبلاً حتى أخذتهم هزة الفرح وفرجوا صفوفهم له فخطا بينها حتى جلس إلى يسار أبي بكر وصلى قاعداً وراءه. فلما قضيت الصلاة صعد المنبر، وكان قد علم أن مرضه الشديد قد جراً بعض المنافقين على الانتفاض والردة، فوثب الأسود باليمن، ومسيلمة باليمامة، وطلحة في بني أسد، فقال بعد أن حمد الله واستغفر لأهل أحد: "أيها الناس؛ سعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها! ألا وإنكم لا تملكون عليّ شيئاً، إني والله لم أحل لكم إلا ما أحل القرآن، ولم أحرم عليكم إلا ما حرم الله، وإن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله، ثم أمسك. فأدرك الصديق أن الرسول يريد نفسه فأجهش بالبكاء وفداه بالأنفس والبنين. ثم خرج من المسجد فدعا لأسامة بن زيد بالخير وأمره أن يسير بجيشه إلى غزو الروم. وارتد إلى بيته فنكس النكسة التي انخزل عنها العلاج، وانطفأ منها السراج، وغام بعدها الأفق، ونجمت في أرض السقيفة بذور الفرقة. فلم يبق بين أيدي الناس إلا كتاب الله يهتدي عليه الضال، ويرجع إليه الشارد، ويستقيم به الطريق.

هذا هو شهر ربيع الأول، وهذه هي أثنائته الثلاثة، لخصت حوادثها تاريخ الرسول، وسجلت مواقيتها أطوار الرسالة. فكانت إطاراً للصورة القدسية التي صاغتها يد الباري المصور لتكون جمالاً للتاريخ ومثالاً للإكبار. أو مشكاة للمصباح الإلهي السرمدي الذي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد يضيء ولو لم تمسه نار. من أجل ذلك وجب الاحتفال بذكرى هذا الشهر وهذا اليوم، ومن أجل ذلك استحب في أيام الاثنين الصدقة والصوم.

من ذكريات الحرم:

هجرة في سبيل الله وشهادة في سبيل الحق

- 1 -

بعث الله النبي الكريم على فترة من الرسل في عصر غير ذي دين، وجيل غير ذي خلق، وبلد غير ذي زرع: فلقى صلوات الله عليه من سفه الجاهلية وكلب المادية وكيد العصبية وحرمان الفقر وخذلان القلة ما لا يسعه طوق بشر إلا بروح من الله وسند من الإيمان وعون من الخلق.

حمل محمد رسالة الله وهو فقير ضعيف، وحمل أبو جهل رسالة الشيطان وهو غني مسلط، فحول مكة المشركة جبلاً من السعير سد على الرسول طريق الدعوة، فكان يخطو في طرقها وشعابها على أرض تمور بالفتون وتفور بالعذاب، وتفجر عليه في كل خطوة سفاهة أبي لهب بالأذى والهون والمعاياة والمعارضة - وكل قرشي كان يومئذ أبا جهل أو أبا لهب إلا من حفظ الله. وافتن كفار مكة ومشركو الطائف في أذى الرسول فعذبوه في نفسه وفي أهله وفي صحبه ليحملوه على ترك الدعوة فما لان ولا استكان ولا خضع. وحيثئذ تدخل الشيطان بنفسه في (دار الندوة) فقرر القتل، وتدخل الله بروحه في (غار ثور) فقدر النجاة !.

كانت ليالي الغار أحلك الهم في تاريخ الدعوة: سيوف الغدر مصلته في أكف الفتية المختارين من قبائل قريش يرقبون مشى الرسول بعيون لا تغفل، وعلى نائم في فراش ابن عمه متسجياً ببردة يوهم القوم أن طلبتهم بين أيديهم حتى لا يطلبوها في مكان آخر. والمهاجر الفار بدينه من صولة الكفر لائذ بالغار في أسفل مكة يحصن نفسه بذكر الله، ويطمئن قلبه بسكينة الصبر، ويقول لصاحبه وهو لا يتقارُّ من الخوف ولا يتماسك من الأسى: " لا تحزن إن الله معنا ". والمؤتمرون حين كشف لهم الصباح عن وجه الخديعة يطلبونه في كل مكان ويرصدونه بكل سبيل، حتى إذا لم يبق بينه وبين الرسول والصديق إلا نظرة وخطوة، أراد الله أن تدرك قدرته كلمته فطمس عين الباطل فلم ير، وزلزل قدم الشرك فلم يلحق، وانطلق محمد هو وصاحبه ودليله وخادمه على عيون

المشركين في الطريق الموحش الوعر حتى بلغوا طيبة. وهنالك بالصبر والصدق والإيمان والرجولة أثمر غرس الدعوة وتم نور الله. جمع الرسول شتات الجماعة، وثق عقدة الدين، وأعد أهبة الجهاد، فألف بين الأوس والخزرج، وأخى بين المهاجرين والأنصار، وعاهد بين المسلمين واليهود، حتى تكتب في يثرب جيش الله الذي فتح الدنيا بفتح مكة.

لم تكن هجرة الرسول هرباً من وجه الموت كما يسميها كُتاب الفرنج. فإن الأمر لو كان أمر الحياة لترك الرسول الدعوة وظل عزيزاً في قومه آمناً في سربه، ولكنه أمر الله الذي قال فيه لعمه أبي طالب: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهر الله أو أهلك دونه ما تركته. إنما كانت الهجرة خروجاً من أرض نبت على الغراس الإلهي فلم تدعه ينبت، وتحولاً عن قوم صدوا عن سبيل الله فلم يدعوها تؤدى. وما كانت دعوة الحق في مكة إلا غيثاً أنزله الله في يباب⁽¹⁾

القفر فغاض بعضه في سباح الأرض واحتبس بعضه في أصلاد الصخر، ثم نفس الله عنه من شدة الضيق والحصر فانبثقت عنه الحواجز الصم فجرى سيولاً في السهول والأودية، وتشعب ينابيع في القرى والمدائن، يحمل الخصب والنماء، ويوزع الري والغذاء، فأحيا موات الأرض، وروى غلة الناس، وكان منه العمارة والحضارة والخير.

كانت هجرة الرسول إلى المدينة هي هذا الانبثاق الذي انساح به الإسلام في أقطار الأرض يحمل الهدى للأرواح الحائرة، والسلام للنفوس المحروبة، والألفة للقلوب المختلفة، ويحقق لهذا الإنسان طريد العدوان وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهواجس أمانيه، من الأخوة التي يعم بها النعيم، والمساواة التي يقوم عليها العدل، والحرية التي تخصب بها المدارك.

كان حادث الهجرة الذي جعل عمر الحكيم العظيم عامه تاريخاً للمسلمين عامة يحسبون منه أيامهم ويؤرخون به أحداثهم، ملحمة من ملاحم البطولة استمدت إلهامها

(1) قلت: اليباب : الحراب. و اليباب الخالي لا شيء فيه . يقال : أرض يباب ، ودارهم خراب يباب . وحوض يباب : لا ماء فيه .

من وحي الله، وروحها من خلق محمد، وعملها من صدق العرب، واستقرت في مسامع الأجيال والقرون مثلاً مضروباً لقواد الإنسانية يعلمهم الصبر على مكاره الرأي، والاستمسك في مزالق الفتنة، والاستبسال في مواقف المحنة، والاستشهاد في سبيل المبدأ.

ثم كانت الهجرة أساساً لصرح الوحدة العربية أرساه الرسول في المدينة، ثم قواه بفتح مكة، ثم أعلاه خلفاؤه الراشدون بجمعهم العرب باديهم وحاضرهم على نظام ديمقراطي حر، وفي حكم ديمقراطي منزّه. فأصبحت السيادة للدين لا للنسب، وللإخاء في الله لا في العصب.

- 2 -

ثم انصدع هذا الصرح بالفتنة الكبرى واشتداد النزاع على الإمامة بين علي ومعاوية، أو بين هاشم وأمية، وما اقتضته سياسة الأموي الأول من تغليب العصبية القبلية على القومية لعربية، وإيثار السياسة الدنيوية على السياسة الدينية؛ وجعله ولاية العهد لابنه المستهتر بطريق لا سليم ولا قويم، واستبداد الهوى المريض بقلب خليفته يزيد. وكان بنو علي قد ورثوا عنه ما ورثه هو بحكم مولده ومرباه من مناقب النبوة ومواهب الرسالة، فتولوا المعارضة بصراحة المؤمن، وقادوا حركة الإصلاح ببسالة المجاهد، وساسوا الناس بسياسة أبيهم، فما فارقوا الأثرة، ولا حاولوا الفرقة، ولا راقبوا الفرصة، ولا أثاروا العصبية، ولا استخدموا المال؛ ولكن دنيا الفتوح كانت يومئذ قد أخذت تتجاهل دنيا البساطة والزهد، فلم تعد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بسرف القصر في الشام وترف العيش في العراق، فقد أمر بني علي بين طغيان الحكومة وخذلان الشعب. وشق على الحسين أن يرى دعوة جده تصير دعاية، وخلافة أبيه تنقلب ملكاً، ووحدته قومه تصبح شتى، فنهض بنفسه للأمر وأخذ يستنفر القبائل ويستنصر الأحزاب فما رجع من سعيه لديهم بطائل. ورأى له القدر المقدور أن يلتمس النصرة عند شيعة أبيه في العراق، وكانوا قد وعدوه بالرسول، ومنوه بالرسائل، أن يرضوا له الأمر ويجمعوا عليه البيعة. فشخص إليهم بقومه، وكانوا لا يزيدون على الثمانين، فيهم نساؤه وأولاده، وهو يردد في نفسه ما قاله لأخيه محمد في وصيته: "إني

لم أخرج أشراً ولا بطراً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فمن قبلني لقول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد على هذا صبرت حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين".

ولكن جيش يزيد وكله من أهل العراق اعترض سبيله إلى الكوفة وفي قلب قائده العدوان وعلى لسانه التحدي، فقابل ابن زياد الحلم بالسفه، والمنطق بالعناد، والإباء بالتحرش، وحمل الحسين حملاً على قتال يائس، ثم منعه ورد الفرات وأورده ظمآن حوض المنون، فقتل سبط الرسول ومن معه قتلة لا يزال يرعد من هولها الدهر!

هاتان ذكريان يخطرهما على البال حلول شهر المحرم من كل عام: ذكرى هجرة الرسول، وهي عيد انطلاق المحمدية من حصار مكة، وانبثاق الرسالة الإلهية في أفق المدينة، وانعتاق الإنسانية كلها من رق الجهالة. وذكرى مصرع الحسين، وهي مأتم الحق المقتول والمحق المخذول والوحدة التي انصدعت فلم تلتئم يومئذ حتى اليوم. لذلك يستقبل المسلمون عامهم الهجري بوجهين مختلفين ومظهرين متباينين: بعضهم يذكر به انتصار المهاجر العظيم فيلقاه بوجه منبسط وقلب مغتبط، وبعضهم يذكر به استشهاد المجاهد الكريم فيلقاه بصدر ملتاع ووجه مكتئب. ولو أن وحدتنا ظلت جامعة لاستقبلناه بوجه واحد ورأي جميع، وتركنا في ذمة التاريخ تلك المأساة التي شعبت الطريق وفرقت الإخوة وأوهنت العقيدة، وفوضنا إلى مالك الدين الفصل بين خصوم ذهبوا في سبيل الغابرين منذ ثلاثة عشر قرناً وربع القرن، فسامحهم الله بفضله، أو يجازيهم بعدله. وذلك هو الأخرى بأمة التوحيد، وزعماءها الذين ادخرهم الله لتجديد دعوته وتوحيد كلمته هم اليوم بسبيل التآليف بين القلوب، والتوحيد بين المذاهب، والتوفيق بين المصالح، لينقطع الخلاف ويجتمع الشمل، وليس من الحكمة أن يختلف صحابيان في صدر الإسلام ثم يظل الناس على اختلافهما يختلفون، ولا من العدالة أن يأكل الآباء الحصرم الأبناء يضرسون.

يومان من أيام رمضان:

يوم القرآن ويوم الفرقان

يستقبل المؤمنون في شهر رمضان ربيع القلوب ونعيم الأنفس وصيام الجوارح عن الأذى، وفطام المشاعر عن الهوى، بعد أحد عشر شهراً قضوها في صراع المادة وجهاد العيش، تكدر فيها القلب وتبلد الحس وتلوث الضمير، فيجلو صدورهم بالذكر، ويظهر نفوسهم بالعبادة، ويزود قلوبهم من مذخور الخير بما يقويها على احتمال الفتن والمحن في دنيا الآمال والآلام بقية العام كله.

رمضان هو التمرين الرياضي السنوي للنفس، يشترك فيه المسلمون في جميع أقطار الأرض، يصومون في وقت واحد، ويفطرون في وقت واحد، وينصرفون عن اللذات الحسية والنفسية ليتجهوا بالتأمل والتعبد والخشوع إلى الله، فيغضوا أبصارهم عن المنكر، ويكفوا ألسنتهم عن الفحش، ويصموا آذانهم عن اللغو، ويغسلوا أيديهم عن السوء، وتلك هي العناصر الجوهرية لعقيدة الصوم، وهذه القيود والحدود التي تضمنها معنى الصوم هي المجاهدة التي تعود الإنسان ضبط النفس وقوة الإرادة. وضعف الإرادة إنما يقوي برياضة النفس على الحرمان المؤلم، كما يقوي الجسم برياضة البدن على الجهد العنيف، وكما يقوي العقل برياضة الذهن على التفكير العميق. والرياضة الروحية هي حكمة الصيام في الأديان كلها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ

تَنَفُّونَ﴾ [البقرة: 183] فتقوى الله ومجاهدة هما الغاية من هذه الحكمة. وقد اجتمعتا

في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿٤١﴾

[النازعات: 40-41] فالخوف من الله هو التقوى، ونهي النفس عن الهوى هو

المجاهدة.

أما قول من قال: إن حكمة الصوم هي أن يذوق الغني عذاب الجوع ليشفق على الجائع ويرأف بالفقير فقول سطحي توحى به النظرة العابرة والفكرة السريعة، فإن إجابة

الأغنياء ليشعروا بآلام الفقراء قد تكون معنى من معاني الصوم، ولكن حكمة الله من صوم رمضان أسمى وأجل وأبعد.

خص الله شهر رمضان من بين الشهور بقيام الركن الرابع من أركان الإسلام فيه وهو الصوم، ليومين من أيامه كان لهما في تاريخ العالم أرفع الشأن، وفي مصير الإنسان أبلغ الأثر: يومه السابع عشر من السنة الحادية والأربعين من مولد الرسول وهو يوم القرآن، ويومه السابع عشر من السنة الثانية لهجرته وهو يوم الفرقان.

فأما يوم القرآن ففي ليلته المباركة تجلى الله لجبل النور كما تجلى من قبل لجبل الطور فأنزل الروح الأمين بالإشراقة الأولى من كتابه الكريم على قلب نبيه العظيم، فاستعلت منذ تلك الليلة معاني الحق، واستبان سبل السلام، واستقامت موازين العدل، وخرج الناس من ظلام حالك كانوا يعمهون فيه، إلى نور ساطع أصبحوا يهتدون به. ولقد كان لصباح هذا اليوم المسفر تابشير كانت تلوح في حياة محمد صلوات الله عليه في هذا الشهر من كل عام، كان كلما أقبل شهر رمضان هجر المهاد اللين، وفارق الزوجة الحنون، وتزود الزاد اليسير، ثم صعد جبل حراء على ألف وخمسمائة متر من شمال مكة؛ ليستعين بالصوم والاعتكاف والتأمل على استجلاء الحقيقة الإلهية التي خفيت بين جاهلية العرب ووثنية قريش، وهناك على قمة الجبل المخروطي الشاهق، وفي صمته الملهم الرائع، وفي غيابة الفضاء الرهيب، كان يفكر في الملكوت الدائم، ويسبح للجلال القائم، ويفنى في الوجود المطلق. فإذا جنه الليل أرسل نظره وفكره في أشعة القمر أو في أضواء النجوم، يستطلع المجهول ويستجلي الغامض، ويرقب انبثاق النور عن الخالق، وانكشاف الستور عن الحق؛ حتى إذا أجهده التفكير وأرهقته الحيرة، أوى إلى الغار الموحش النابي فيستلقى على صخرة سويغات ثم يستيقظ قبل أن تغور النجوم فيتعبد ويتجه بروحه اللطيف الصافي إلى الملاء الأعلى حتى تهيأ بطول الرياضة والعبادة والخلوة لتبليغ الرسالة.

ففي الليلة المباركة وهي ليلة القدر أي وهو نائم في الغار أن رجلاً جاء بنمط من ديباج فيه كتاب وقال له اقرأ. وكيف يقرأ محمد الأمي ولم يتل من قبل كتاباً ولا خطه يمينه؟ قال للرجل بعد أن راعه ما سمع منه وآذاه ما صنع به: ماذا أقرأ؟ قال له: ﴿اقرأ﴾

بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ [العلق: 1-5] فقرأها وانصرف الرجل عنه وقد انتقشت في لوح قلبه. ⁽¹⁾

(1) قلت:

1- معنى الوحي لغة وشرعا:

لغة: يقال وحيث إليه وأوحيت: إذا كلمته بما تخفيه عن غيره. والوحي: الإشارة السريعة، ويكون ذلك على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد وبإشارة ببعض الجوارح. فمادة الكلمة إذا تدل على معنيين أصليين هما الخفاء والسرعة، ولذا قيل في معناه: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره. وهذا المعنى اللغوي للوحي يشمل:

1- الإلهام الغريزي: كالوحي إلى النحل؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: 68].

2- الإلهام الفطري: ﴿كَالْوَحْيِ إِلَى أُمِّ مُوسَى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: 7].

3- وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: 121].

4- الإشارة السريعة على سبيل الرمز، كإيحاء زكريا عليه السلام لقومه: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 11].

5- وما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّثُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: 126].

ووحي الله إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لكلمة الوحي وهما: الخفاء والسرعة، وهذا معنى المصدر. ويطلق الوحي على متعلّقه وهو ما وقع به الوحي، أي اسم المفعول: وهو ما أنزله الله تعالى على أنبيائه وما عرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم، ومنهم من أعطاه كتابا، أي تشريعا، ومنهم من لم يعطه.

شرعا: أما التعريف الشرعي للوحي إلى الأنبياء فقد عرفوه بأنه: إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه. أو: هو كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه. وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول، أي: للموحي به.

وعرفه الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد، فقال: (عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت. ويفرق بينه وبين

الإلهام، بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس فتتناسق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والسرور).

وهو تعريف للوحي بمعنى المصدر، وبدايته تشمل ما يستمونه بحديث النفس أو الكشف، ولكن التفريق بين الوحي وبين الإلهام في عجز التعريف ينفي هذا ويفسر معنى الوحي الشرعي: على ما يتلقاه النبي من خارج نفسه نازلاً عليها من السماء، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: 6].

2- أنواع الوحي:

للوحي أنواع ثلاثة، ذكرها الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: 51]. فالوحي أولاً: إلقاء المعنى في القلب، وقد يعبر عنه بالنفث في الروح قال صلى الله عليه وسلم: «إن روح القدس نفث في روعي: إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» وهو - بالضم - القلب والخلد والخطر.

وثانياً: الكلام من وراء حجاب، وهو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه، كما سمع موسى عليه السلام نداء ربه من وراء الشجرة قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنَاها نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: 30].

وثالثاً: هو ما يلقيه ملك الوحي المرسل من الله تعالى إلى رسول الله، فيراه متمثلاً بصورة رجل أو غير متمثل، ويسمعه منه أو يعيه بقلبه. وهذا النوع الثالث أشهر الأنواع وأكثرها وقوعاً، ووحي القرآن كله من هذا القبيل، وهو المسمى:

(الوحي الجلي) قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: 193 - 195].

3- حالات الوحي:

كان جبريل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وسلم على حالات متنوعة:

1- فتارة يظهر للرسول في صورته الحقيقية الملكية، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: 18] قال: رأى جبريل في صورته، له ستمائة جناح.

2- وتارة يظهر في صورة إنسان يراه الصحابة ويستمعون إليه، كما في حديث عمر رضي الله عنه الذي رواه البخاري: «بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر...».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث: «إنه جبريل جاء يعلمكم دينكم». وكان كثيرا ما يأتي في صورة (دحية الكلبي) الصحابي الجليل، وكان دحية من أجمل الصحابة.

3- وتارة يهبط الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم خفية فلا يرى، ولكن يظهر أثر التغير والانفعال على النبي صلى الله عليه وسلم فيغط غطيظ النائم، ويثقل ثقلًا شديدا حتى قد يتصبّب جبينه عرقا في اليوم الشديد البرد.

وقد يكون وقع الوحي على رسول الله كوقع الجرس إذا صلصل في أذن سامعه، وذلك أشدّ أنواعه، وربما سمع الحاضرون صوتا عند وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه دويّ النحل، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: كان إذا نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع عند وجهه دويّ كدويّ النحل. لكنهم لا يفهمون كلاما، أما هو فإنه يسمع ويعي ما يوحى إليه، ويعلم علما ضروريا أن هذا هو وحي الله دون لبس ولا خفاء، فإذا انجلّى عنه الوحي وجد ما أوحى إليه حاضرا في ذاكرته، منقوشا في حافظته كأنما كتب في قلبه الشريف كتابة.

روى البخاري في صحيحه: عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: أنّ الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علي - فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليتفصد عرقا.

4- شبه الجاحدين والمنكرين للوحي:

وقد حرص هؤلاء الجاحدون قديما وحديثا أن يفسّروا حادثة الوحي بنظريات غامضة ومنحرفة، وتهدف في النهاية إلى إنكار رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، فنجدهم يفسّرون ظاهرة الوحي بالإلهام النفسي تارة، وبالإشراق الروحي تارة أخرى، ويعميهم الحقد فيتجرّءون على القول بأنه ضرب من الضرع والجنون كان يفتابه، وواضح أنها شبه واهية لا تثبت أمام الوقائع التّيرة والمنطق السليم والحكم العادل النزيه، والذي يهمنا أن نرد عليه هنا ونكشف زيفه هو ما يسمّيه الملحدون في هذا العصر بـ: (الوحي النفسي):

1- إن حالة الإلهام النفسي، أو الإشراق الروحي، لا تستدعي الخوف والرعب وتغيّر اللون، لأن الصفاء النفسي والتدرّج في التفكير والتأمل لا ينسجم مع حالة الخوف والاضطراب، بل هما حالتان متناقضتان تماما، وخوف النبي صلى الله عليه وسلم ثابت في حديث بدء الوحي فيه: «فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله

عنها، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الزرع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي».

وقد ذكرنا في حالات الوحي ما كان يعترى رسول الله صلى الله عليه وسلم من تغير واضطراب وتصبب العرق من جبينه وهو على مرأى من أهله وأصحابه.

2- واقتضت حكمة الله تعالى أن يحتجب الملك عن رسول الله مدة بعد رؤيته له في غار حراء، فاستبد به القلق، وخاف أن يكون الله تعالى قد قلاه لسوء صدر منه، وراحت نفسه تحدّثه كلما وصل إلى ذروة جبل أن يلقي بنفسه منها...

إلى أن رأى جبريل وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض يناديه، ويقول: يا محمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل.

وهذا الانقطاع الذي حصل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم يجعل القول بأن الوحي إلهام نفسيّ كلاماً باطلاً وضرباً من الجنون.

3- إن جانباً عظيماً من القرآن الكريم احتوى على أنباء من سبق من الأمم والجماعات، وقصص الأنبياء، وذكر الأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة.

وهذه الأخبار لا يمكن أن يقول عاقل بأنها إلهام نفسي أو إشراق روحي، لأنها لا تعتمد إلا على التلقي والتعليم؛ قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: 3] وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَفْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44].

4- واحتوى القرآن كذلك على حقائق علمية، ونظريات طبيعية وفلكية تثبت الأيام بعد تقدّم العلم صحتها وأسبقيتها، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53]. وتضمّن القرآن في بيان العقائد أموراً تفصيلية عن بدء الخلق ونهايته وعن الحياة الآخرة وما فيها من الموقف والحساب والجنة والنار، ويضاف إلى ذلك كله ما تضمّنه القرآن من أحكام قاطعة عن أخبار المستقبل، وما يجري من أحداث تقع وفق سنن الله الاجتماعية في القوة والضعف والعزة والذلة. والذي ينطق بهذا رجل أمّي لم يعرف الكتابة ولم يقرأ في كتاب، ومع ذلك يتحدّى بما جاء به جميع الناس في كل أرض وفي كل زمان. إن التفسير المنصف لما جاء به هو الإيمان بهذا الاتصال الذي حدث بين الأرض والسماء عن طريق الوحي لتبليغ هداية الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم].

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (النبا العظيم):

وأما يوم الفرقان فهو يوم التقى الجمعان: جمع المدينة وجمع مكة في بدر، وكان المسلمون على فقرهم وضرهم ثلث المشركين، وكان المشركون على كثرتهم وعدتهم صفوة قريش، فكان موقف الإسلام من الشرك يومئذ موقف محنة. كان بين العدوتين الدنيا والقصوى في بدر مفرق الطريق: فإما أن يقود محمد زمام البرية في سبيل الله فتنجو، وأما أن يردها أبو جهل إلى مجاهل التيه والضلال فتهلك. وقفت مدينة الإنسان بأديانها وعلومها وراء محمد على القلب، ووقفت همجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبي جهل على الكتيب. فكان طريق وعقبة، ونور وظلمة. وإله وشيطان؛ فإما أن يتمزق تراث الإنسانية على هذا الصخر، ويتبدد نور الله في هذا القفر. وإما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذه البئر، ويتصل الماضي بالمستقبل من هذا الطريق، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه الموقعة. وما هي إلا خفقة من خفقات الوحي حتى نزل الوعد بالنصر وجاءت البشرية بالجنة، فغاب البديرون في إشراق عجيب من

=

هذا الرأي هو الذي يروّجه الملحدون اليوم باسم (الوحي النفسي) زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأي علمي جديد، وما هو بجديد، وإنما هو الرأي الجاهلي القديم، لا يختلف عنه في جملته ولا في تفصيله، فقد صوّروا النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً ذا خيال واسع وإحساس عميق فهو إذا شاعر، ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغى كثيراً على حواسه حتى يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصاً يكلمه، وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجداناته فهو إذا الجنون أو أضغاث الأحلام، على أنهم لم يطبقوا الثبات طويلاً على هذه التعليقات، فقد اضطروا أن يهجروا كلمة (الوحي النفسي) حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلية، فقالوا: لعله تلقفها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة، فهو إذا قد علّمه بشر. فأَيُّ جديد ترى في هذا كله؟ أليس كله حديثاً معاداً يضاهون به قول جهّال قريش؟ وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الجديد صورة مَسْخُوعَة، بل ممسوخة منه في أقدم أثوابه، وكان غداء هذه القلوب المتحضرة في العصر الحديث مستمداً من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: 118].

وبعد هذه العجالة في بيان معنى الوحي، وردّ شبه الجاحدين له، نعود إلى شرح عناصر التعريف للقرآن الكريم. [انظر: الواضح في علوم القرآن تأليف: مصطفى ديب البغا، محي الدين ديب مستو

الإيمان لا يرسم في أخيلتهم إلا الحور، ولا يصور في أعينهم إلا الملائكة، وقذف الله في قلوب المشركين الرعب فانهار السد الغليظ أمام النبع النابض من صخور بدر، وإنجاب القُثم الكثيف عن النور الوامض من ربوع يثرب، وانكشفت المعجزة الإلهية عن انتصار ثلاثمائة على قرابة ألف !.

موقعة بدر الكبرى لا تذكر بخطتها وعدتها ونفقتها في تاريخ الحرب، وإنما تذكر بنتائجها وآثارها في تاريخ السلم؛ لأنها كانت حكمًا قاطعًا من أحكام القدر غيّر مجرى التاريخ وعدّل وجهة الدنيا ومكن للعرب في دورهم أن يبلّغوا رسالة الله ويؤدوا أمانة الحضارة ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم.

لم يكن النصر فيها ثمرة من ثمار السلاح ولكنه كان ثمرة من ثمار الإيمان والصدق. والإيمان الصادق قوة من الله فيها الملائكة والروح، وفيها الحب والإيثار، فلا تبالي العدد ولا ترهب السلاح ولا تعرف الخطر.

بهذا الإيمان خلق الله من الضعف قوة في بدر والقادسية واليرموك، وبهذا الإيمان الصادق جعل الله من البادية الجدبية والعروبة الشتية، عمرانًا طبق الأرض بالخير، وملكًا نظم الدنيا بالعدل، ودينًا ألف القلوب بالرحمة.

مَكَّنُوا لِلأَزْهَرِ فِي أَفْرِيقَا الْجَدِيدَةِ

أفريقيا التي غاب معظمها عن الوجود الإنساني في ظلام الجاهلية والوثنية والاستعمار والرق منذ دحا الله الأرض أخذت تنبعث وتنتعش وتتحرك. وكان هذا الانبعاث وما تلاه استجابة لنفخة الصور التي صدرت عن الثورة الناصرية في مصر فدوى صداها في أرجاء الشرق كله فأيقظ الراقذ ونبه الغفلان.

وكان الإسلام من قبل ذلك قد أرسل بصيصاً من نوره من خلال هذه الظلمة الغاشية على أيدي المتاجرين من العرب والمهاجرين من المسلمين، فرأى من هواهم به الله من الأفريقيين أن فوق الأرض التي يخيم عليها الظلام سماء ينبثق منها النور، وأن للإنسان الذي استضعف واستُغل إلهاً قاهراً فوق عباده يجعلهم إخوة بالإيمان وسواسية بالعدل، فربأوا بإنسانيتهم عن الذل، وضنوا بكرامتهم على الهون. إلا أن هذا البصيص ظل خائباً في قلوبهم لا يشع ولا يشيع لانقطاعه عن مشرق الوحي، فلم يصله به سبب من لغة الكتاب، ولا ... من حديث الرسول، فهم يحفظون بعض الآيات عن تلقين لا عن فهم، ويؤدون كل الشعائر عن تقليد لا عن فقه، ومع ذلك نفذت أشعة الإسلام من بين أطباق هذا الغمام إلى قلوب الوثنيين الآخرين في سرعة الدعوة المستجابة، لأنه دين الفطرة فلا تعقيد فيه ولا عسر، ولأنه مظهر الوحدة فلا وساطة فيه ولا سر، فدان به في الحبشة ثلاثة ملايين ومائتان وخمسة وأربعون ألفاً وثلاثمائة وتسعون؛ وفي أوغندا ثلاثمائة وستون ألفاً؛ وفي الصومال الشمالي والشرقي والأوسط مليون وسبعمائة وستة وأربعون ألفاً وثلاثمائة وواحد وأربعون، وفي زنجبار ثلاثمائة ألف؛ وفي كينيا مائتا ألف. وفي تنجانيقا مليون ونصف؛ وفي روديسيا ونياسالاند مائة وثمانية وثلاثون ألفاً؛ وفي موزمبيق ستمائة وخمسون ألفاً. وفي جنوب أفريقيا ثمانية وثمانون ألفاً. وفي أفريقيا الغربية الفرنسية سبعة ملايين ونصف. وفي نيجيريا ثلاثة وعشرون مليوناً؛ وفي توجولند ثلاثون ألفاً؛ وفي غانا مائة وخمسون ألفاً؛ وفي غمبيا مائة وعشرون ألفاً. وفي ليبيريا نصف مليون؛ وفي الكامرون نصف مليون؛ وفي الكونغو أربعمائة ألف، وذلك إحصاء أتت عليه عشر سنين، فمن الطبيعي أن يكون قد ازداد بالدخول في الإسلام وبالولادة من المسلمين.

ولقد دهش لهذه الجاذبية في الإسلام دعاة المسيحية ورواد الاستعمار من مبشري الإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين واليطاليين والأمريكان وتساءلوا فيما بينهم: كيف عجزوا عن تنصير الوثنيين بالطرق المؤدية والوسائل المغرية من تعليم وتطبيب وتمدين وإغراء بالمال وإيحاء بالقوة، حيث استطاع الإسلام الصامت الأعزل أن يتسلل ويتغلغل وينتشر من غير حكومات تسنده ولا جمعيات ترفده ولا مغريات تجذب إليه. ثم حاول المتخصصون منهم والمتفلسفون فيهم أن يجيبوا عن هذا السؤال وأن يكشفوا عن هذه الحال بالدرس والتحليل فلم يستطيعوا. فسلموا بالأمر الواقع وقالوا لا حيلة إلا أن نستغل هذه القوة الكامنة في الإسلام في إخراج الوثنيين البدائيين من الظلام إلى النور، حتى إذا فتحوا أعينهم على أضواء مدينتنا تهافتوا عليها تهافت الفراش. قال أحد مؤرخي الكنيسة وقد صار كرديناً ما ترجمته: "إن الإسلام قنطرة للشعوب الأفريقية يعبرون عليها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية؛ فمن حقه أن نعامله بالمياصرة والحسنى، ومن واجبنا أن نساعد على اتساع نطاقه وامتداد أفقه، بإجراء الأرزاق على المساجد، وتوفير الأموال للمعاهد، ليكون رائداً لمدينة فرنسا فتفتح على يديه البلاد".

هذه هي قوة الإسلام في رأي المبشر، وذلك هو أثره في رأي المستعمر، فكيف نعوق هذه القوة ونضعف ذلك الأثر بتركهما إلى الطبيعة ينفذان من الحواجز والسدود كما ينفذ الماء اللين السلس بين جلاميد الصخر! سيخرق الماء الحجر على طول الزمن ولا شك فيتدفق الشلال ويفيض النهر وتخصب الحياة. ولكننا لو نسفنا الحجارة من طريقه، وكشفنا الركam عن منبعه، اختصرنا الزمن وقربنا المسافة. والأداة التي تنسف وتكشف وتخط وترود هي الأزهر. والأزهر في القاهرة والكعبة في مكة هما الكلمتان اللتان تجمعان معنى الإسلام في ذهن الأفريقي المسلم، يتجه إلى المسجد الحرام في معنى عقيدته، كما يتجه إلى الأزهر الشريف في معنى شريعته. ولم يقصر الأزهر في مد القارة المظلمة بالنور على قدر طاقته وفي حدود إمكانه. فأرسل نفراً من فقهاء ووعاظه إلى الصومال والحبشة وبعض جهات أخرى. ثم رأى أن يكون هؤلاء الدعاة والهداة من أهل تلك الشعوب استرشاداً بقول الله عزت حكمته: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4] فأنشأ مدينة البعوث وآوى إليها طلاب العلم من

شباب أفريقيا وآسيا وكفل لهم الغذاء والكساء والمسكن وأخذ يعرب ألسنتهم ويفقه أفئدتهم، ويزودهم بوسائل الدعوة ليجلوا كلمة الله في أذهان قوم لبستها عليهم العجمة والجهالة. وإن عدد هؤلاء الطلاب الأغراب ليربى اليوم على ثلاثة آلاف.

ولكنه عدد لا يزال أقل مما يطلبه الجهاد الروحي في أفريقيا الجديدة: فإن تراجع الاستعمار عن أكثرها يفتح الأبواب ويهيئ الأسباب للمجاهدين في سبيل الدين واللغة فلا بد إذن من تمكين الدولة للأزهر في هذه الأرض البكر بأن تمدّه بالمال وتسندّه بالقوة ليحقق لها عن طريق الخير والحق ما كانت ترجوه فرنسا منه عن طريق الشر والباطل.

إن بذل المال والجهد في معونة الأزهر يحلر أفريقيا الوثنية من عبودية الروح والعقل والجسد. وهو كسب سياسي ضخم حاول المستعمرون طويلاً أن ينالوه بالدهاء والإغراء والدماء والزمن فما استطاعوا. ثم كانت عاقبتهم أن اجتثوا من فوق الأرض الطيبة كم يجتث النبات الطفيلي السام من حقول الحنطة! ذلك بأنهم استعلوا على أصحاب الأرض. فتميزوا عليهم بالقوة، واستأثروا دونهم بالثروة، وتركوهم للعري والجوع والمرض والجهل والمشقة.

أما الإسلام فسيدخل فيهم دخول النور في العين والسرور في القلب والبرء في السقم والصلاح في الفساد والنظام في الفوضى، فلا يجدون في مجتمعه سيئاً لأنه أبيض، إلا مسوداً لأنه أسود، وإنما يجدون الناس فيه أحراراً كما ولدوا، وفارق على واجد، ولا يتسلط متساوين أينما وجدوا، يتقاسمون بينهم طيبات الرزق وفرص العيش، لا بتسخط قوي على ضعيف.

فإذا استبطنوه بالفهم الصحيح، واستيقنوه بالإيمان الخالص، رفعهم إلى أفق الإنسانية الحرة والإسلامية الكريمة، حيث لا يتميز لون على لون، ولا يستطر عنصر على عنصر، وإنما يكون فيه أبو بكر وعمر وعثمان، بجانب بلال وصهيب وسلمان!.

إن الأزهر هو الثكنة المحمدية لجند الله، أسلحتها المصاحف لا القذائف، ووسيلتها الحياة لا الموت، وغايتها التعمير لا التدمير، وغنيمتها الخير للناس والسلام على الأرض. فإذا كان أولياء الأمر منا وأصحاب الرأي فينا حراساً على أن يكونوا كما

جعلهم الله قوادًا لحرية الشعوب، وروادًا لسكينة العالم، فليضموا إلى ثكنات القوى العسكرية، ثكنة القوة الأزهرية، ليجمعوا بين أسلحة المادة وسلاح الروح، ويوائموا بين مادية العلم وروحية الدين، ويقيموا فوق أسواق الرقيق التي أقامها الاستعمار في أفريقيا المكروبة المنكوبة مآذن للحق ومناثر للهدى وملاجئ للحرية.

إن الفرصة متاحة للعمل، وإن الأرض مهيأة للزراع، وإن الأزهر مستعد للبذر، فما على الدولة إلا أن تسوق السحاب إلى النفوس الظمأى فتروى، وإلى البلاد الميتة فتحيا. ويومئذ تلد أفريقيا الرجال، وتستغل الاستقلال، وتبرهن لأوروبا البيضاء أن المرء بجوهره لا بمظهره، وأن جوهر الإنسان واحد لا يختلف باختلاف لونه في الناس، ولا يتغير بتغير موقعه من الأرض.

الشعب الذي تحدى حلف الأطلسي

﴿كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 249]

دُلّني إن استطعت بالبيان أو بالخبر، فيمن بقى أو فيمن غبر، على شعب غير الشعب الجزائري الباسل الحر ألح عليه الاستعمار الفرنسي الكافر الفاجر الأهوج بالقهر والفقر، والعذاب والخراب، وسلب الاستقلال، وسوء الاستغلال، وفساد التعليم، ونسخ اللغة، ومسح العقيدة، طوال ثلاثين ومائة عام، ثم لا تزال في رأسه نخوة العروبة، وفي نفسه حمية الإسلام، وفي يده سيف الفتوح يذكر ولا ينسى أن له وطنا يحتله الغريب ويستغله المستعمر، على ظهره الولد والبلد والرزق والأمل، وفي بطنه الآباء والأجداد والأمجاد والذكرى، فجاهد بالسيف، وصابر بالعزم، ورابط بالقوة، ثم ابتلاه العدو في ماله وفي نفسه بالتقتيل والتنكيل والأذى فما وهن لما أصابه في سبيل وطنه ودينه وما ضاع وما استكان !.

فما أراد الله لمأساة الجزائر أن تبلغ فصلها الأخير سول الحمق والطيش لرئيس الحكومة الفرنسية (جي موليه) أن يختطف من الجو زعماء الثورة الجزائرية أحمد ابن بيلا ورفاقه وهم في طريقهم إلى تونس، فهب الجزائريون هبة الإعصار العاتي فزلزلوا الأرض الطيبة تحت أقدام الغزاة والغوازي فطاشوا طيش الفراش والقوا بأنفسهم في نار الثورة. فلما أكلتهم أمدهم (جي موليه) ومن بعده (ديجول) بثلاثة أرباع المليون من جنود فرنسا، يشد أزهرهم حلف شمال الأطلسي بالسلاح والعتاد والمال، ويقوي أمرهم خمسمائة مليون من الناس بالتعصب والهوى والرأي. كل هذا العدد وتلك العدد لقتال عشرة ملايين من الجزائريين لم يلق (لاكوست) منهم غير عشرة آلاف من الثوار العزل. فماذا كان مصير الجيش الجرار، المسلح بالحديد والنار؟ تخطفته المنيا من كل جانب، وأدركتها الهزائم في كل مكان، حتى قال قائلوهم: لا يمكن أن يكون هؤلاء الشياطين هم الآدميين الذين عرفناهم هنا منذ قرن وثلث، فربينا هم على الاستكانة، ودربناهم على الطاعة، وقتلنا في نفوسهم الإسلام، وأمتنا على ألسنتهم العربية، وجهدنا بالظهير البربري أن نجنسهم بالبربرية، وأن نبشرهم بالمسيحية، وأن نفصل بينهم وبين العرب في

الأقطار الأخرى، فمنعنا دخول الكتب والصحف والمجلات، وقطعنا أسباب المواصلات والمعاملات، وأردنا أن نجعلهم قلة مستضعفة في البلاد، فسهلنا الهجرة للفرنسيين، وأسكناهم أطيب البلاد، وأقطعناهم أخصب الأرض، وملكناهم مقاليد الأمور، حتى أصبح الجزائريون في رأينا مسوخا من غير جنس ولا لغة ولا دين ولا تاريخ ولا تقاليد ! لا بد أن يكون هؤلاء المردة من جنس غير الجنس ومن بلد غير البلد، واتجهت وسأوسهم نحو جمال عبد الناصر، ثم أرادوا عيونهم الزائغة في البحر وفي الجو فرأوا سفينة تحمل السلاح إلى الجزائر فصادروها، وأبصروا طائرة نقل الأبطال فاقتنصوها، ثم فركوا أكفهم من السرور وصاحوا: لقد كسبنا المعركة ! عرفنا من أين يأتي السلاح، وقبضنا على من يضربون به ! لا سلاح ولا ضرب بعد اليوم ! ثم بالغوا في الحيلة وغالوا في الحذر، فنقلوا ابن بيلا وإخوانه الأربعة إلى فرنسا في حراسة خمسة آلاف من الجنود الشداد كل رجل يحرسه ألف. وحملت فرنسا في وجوه المخطوفين المخوفين الذين أصلوها النار والعار وهي تحسبهم من أرض غير الأرض فإذا هم حفدة الأبطال الذين قهروا جيوشها سبعة عشر عاما بقيادة الأمير عبد القادر، وأربعة عشر عاما أخرى بقيادة من خلفوه، لا يزالون يحرون على أعراقهم من البطولة والصبر والتضحية لم تستطع أن تقتل فيهم الروح العربية بالتعليم المسموم والإبادة المنظمة والفتنة الشديدة والعزلة التامة والاحتلال الطويل. ولم تستطع أن تفصلهم عن قوميتهم العامة بالحواجز المادية والمعنوية، ولا أن تخفت في دمائهم أصوات للقرون الأربعة عشر من التاريخ المشرق بأضواء النبوة الهادية والخلافة العادلة والفتوح المحررة والحضارة المعمرة. فما هو إلا أن فعلت فعلتها الحمقاء باختطافها الزعماء حتى ثارت في نفوسهم حمية الجنس وطغت في رءوسهم حفيظة الدم فغضبوا وغضب لهم خمسة وثمانون مليوناً من بني عموميتهم من مراكش إلى الكويت. وكان مظهر هذه الغضبة إضراباً عاماً شل الحركة في جميع البلاد العربية يوماً من الأيام ! ولم نعلم فيما وعاه التاريخ انتفاضة إجماعية كهذه الانتفاضة من أمة زعم الاستعمار انه مزقها دولا وأوطاناً لكل دولة رسوم ولكل وطن تخوم.

إن ثورة الجزائر التي ظلت ست سنين مستعرة الأوار تأكل الأرض وما عليها من إنسان وحيوان وعمران وزرع، هي كما ذكرت الفصل الختامي لمأساة ظلت تمثلها فرنسا على مشهد من العالم أربعة أجيال كوامل. وعما قريب سينسدل الستار على أشلاء الاستعمار وأطلاله وأوزاره في أرض الفاتح العربي عقبة ابن نافع، وسيرى الجزائريون أن وطنهم بفضل ما بذلوا في سبيله من أنفس وأموال قد تطهر من المحتلين المتطفلين الذين رتعوا في مرعاه الخصب ثلاثين ومائة عام يخضمون أرزاقهم خضم الخنازير، ويحتلون بلادهم احتلال الصراصير، ويفسدون أخلاقهم إفساد الجرائم. على أن النفوس التي قتلت ستعوضها الولادة، والديار التي هدمت ستجدها العمارة، والزرع التي أهلكت سيعيدها الغراس؛ ولكن قتيلين من قتلى هذه الحرب الطحون لن يعوضا بالولادة ولا بالعمارة ولا بالغرس، هما شرف فرنسا وضمير العالم ! أما شرف فرنسا فإنه لو كان باقياً لما استجاز بنوها الذين يزعمون أن آباءهم كانوا أول من ثار على الطغيان وأعلن حقوق الإنسان أن يُغيروا بسبعمئة وخمسين ألفاً منهم مسلحين بأفتك الأسلحة وأحدث العتاد على عشرة آلاف منا لا يملكون سلاحاً غير الإيمان، ولا عتاداً غير الصبر، ولا زاداً غير لقيمات لا تكاد تمسك الرmq. فلما أعياهم النصر على هذه الفئة الصابرة المتفرقة على شعاف الجبال ومخارم الأودية ومكامن العراق، عادوا إلى الشيوخ والنساء والأطفال فسحقوهم بالقنابل ومزقوهم بالرصاص، ولا ذنب لهؤلاء وأولئك إلا أن لهم كيانا متميزا يحافظون عليه، ووطناً خاصا يدافعون عنه.

وأما ضمير العالم فإنه لو كان حيا لما سكن سكون الجماد وقر قرار الحجر في رجفة من الصراع الحيوي الدموي دام ست سنين بين دولة كبيرة تريد أن تسمن وتطيش، وأمة صغيرة تريد أن تأمن وتعيش !.

لقد قتل الفرنسيون فيها مليوناً من شباب العرب الأبرار على حين ظل العالم الغربي يتفرج بمشاهد الدماء والأشلاء في ساحة الجزائر، كما يتفرج الأطفال بصراع الدمى على مسرح العرائس !.

ولكن قل لي بربك: هل كان الضمير العالمي حيا يوم رضي أن يخرج الاستعمار. مليون عربي من ديارهم وأموالهم ليمنحها عدوة الله وعدوة الناس إسرائيل؟

إن ضمير العالم احتُضر في فلسطين ثم قبر في الجزائر، فلم يبق للمجاهدين الجاهدين إلا روح الله وعون الأحرار ونخوة العرب !.

ثوراتنا الثلاث تعوزهن رابعة

تعيش الجمهورية العربية المتحدة اليوم في ثورات ثلاث كما قال بحق وفعل بصدق مثيرها العظيم جمال عبد الناصر: ثورة سياسية تحقق الحرية وتثبت الاستقلال على الوحدة والحيادة. وثورة اجتماعية تحقق الديمقراطية وتبني المجتمع على المساواة والتآخي. وثورة اقتصادية تحقق الاشتراكية وتقيم الثروة على العدل والتعاون.

وهذه الثورات الثلاث هي جماع القوى لعاقلة العاملة للشعب أخرجتها من السكون والكمون والتعطيل يد مصرفة حازمة، تحكم لتصلح، وتهدم لتبني، وتحرق لتزرع.

فالبلاد كلها من أسوان إلى القامشلي⁽¹⁾ عزمة لا تني، وحركة لا تفتر، وزحف لا يقف. ولكن هذه القوى الثائرة المعمرة لا تستطيع وحدها مهما تنشئ وتنتج أن تكفل لابن آدم المجتمع الذي يجدر به إلا إذا اعتبرناه حيواناً له معدة وليس له قلب، وله شهوة وليس له عقل، لا إنساناً ينزل بين خلق الله في المنزللة الوسط بين البهيم والملك، يكون بماديته مرتبطاً بالأرض، وبروحيته متصلاً بالمساء.

نعم، تستطيع الثورات بقواها المادية والفكرية أن تلين الحديد، وتزرع الصخر، وتقهر النيل، وتنتشر المعرفة، وتبسط الرخاء، وتيسر الأداة والحياة للعامل والفلاح، وتوفر القوة والعدة للجيش والشرطة؛ ولكنها لا تستطيع أن تضع التقوى في القلب الأغلف، ولا أن تبعث الحياة في الضمير الميت. أننا أصبحنا في مدى ثماني سنوات أمة على وجه الدنيا وفي جبهة الركب، نقول فنسمع، ونطلب فنجاب، ونعمل فنجد، ونزرع فنحصد، في ظل حكم ديمقراطي عادل، ونظام اشتراكي معتدل، يضمنان للفرد مساعدة الكل، ويكفلان للكل مساندة الفرد، ثم لا يزال فينا المرتشي والمختلس واللص والمزور والمستهتر والهدام والمنافق والخائن، ومن يستحب العمى على الهدى، ويؤثر منفعة نفسه على منفعة الناس. لابد إذن لهذه الثورات الثلاثة من ثورة رابعة تقوم لهن مقام الروح الملهم والشعاع الهادي: هي الثورة الدينية ! ولعل الذوق

(1) القامشلي أقصى بلد في شمال سورية .

التقي لا يستسيغ ذكر الثورة بجانب الدين، لأن مفهومها الذي استقر طويلاً في الأذهان يتضمن التمرد والتهور والاستبداد والاضطهاد والقتل؛ ولكن هذا المفهوم قد غيرته الثورة الناصرية - وهي الثورة الأولى في بابها من تاريخ الإنسان - فلم يبق منه إلا التحرير والتطهير والتعمير والتطوير والإصلاح. لذلك لم تخضب صحائفها البيض بالبقع الحمر، ولم تسبل على منكرات العهد الذاهب غير ستار المعروف. وعلى هذا المفهوم الجديد للثورة زيد ثورة الدين. والدين بطبيعته وحقيقته ثورة مستمرة: ثورة على الفساد والشر، وحرب على البغي والعدوان. وما دامت هذه الكبائر في الأرض فالثورة دائمة والحرب قائمة؛ إنما زيد إذكاء شعلتها وإعلاء سناها لتجد فيها ثورتنا العامة القبس الذي يحيها بحرارته ويهديها بنوره. والمصلح الذي أرسله الله على فترة من المصلحين ليجدد ما أندرس ويبين ما انطمس ويقيم ما انهار، هو الذي يستطيع أن يرفع الإعجام عن كلمة الله، ويدفع الإبهام عن رسالة محمد. وهو يدرك فيما أدرك من فساد الحكم وعقب السياسة وبغى الإقطاع أن الوازع الديني قد ضعف في نفس المسلم، لأن نور الإسلام قد انكفأ في قلبه أو انطفأ في ضميره، فلم يعد إسلامه إسلام الصدر الأول الذي فتح الدنيا في عهده وأضوى العالم إلى كنفه؛ وإنما أصبح خلطاً عجيباً من العقيدة السالفة والصوفية الزائفة والأساطير الموروثة والتقاليد الدخيلة. يوهم معتقديه أن الإسلام ليس من شأنه الدنيا، وأن المسلم ليس من همه المادة، وأن ما هم عليه من رتق العقيدة وظلام الفكر وخطر الشعوب إنما هو روح الدين ورضا الله وطريق الجنة. ثم لا يعدمون أن يجدوا مصدقاً لما يتوهمون في بعض ما يسمعون أو يقرءون من الأحاديث الموضوعة والأخبار المصنوعة والآراء الملققة؛ فإن من محن الإسلام حين ضعف أهله وزال سلطانه أن امتزجت به كل نحلة، وسرت إليه كل علة، وتراءت فيه كل حالة. فكل امرئ واجد فيه ما يلاءم استعداداته ويناسب فهمه. فالثورة الدينية بالمعنى الذي ذكرته هي تحرير العقل من الاقتداء العاجز والمتابعة المسلمة، وتطهير السنة من الأحاديث المكذوبة والأقوال المشوبة، وتطور الفقه في حدود ما أنزل الله وبلغ الرسول، ليطابق مقضيات العصر، ويجابه مشكلات الحضارة، ثم عرض هذا الإسلام الصادق الصافي على الناس في معرض واضح ومظهر جاذب ومنهج قويم.

ذلك ما يجب أن يدخل في تخطيط الجمهورية للسنين العشر القادمة؛ فإن النص في الدستور على أن الإسلام دين الدولة لا يحقق معناه إلا إذا كان للدين الأثر الفعال في التربية والتعليم والتشريع والسلوك. والأزهر بفضل ما مكن الله له في التاريخ، وهياً له من الموضع، وأتاح له من الكفاية، أقدر ورّاث النبوة على تبليغ الرسالة العظمى وتوجيه الأمة الكبرى إذا تسنى له أن يؤدي رسالته على المرسوم الذي رسمته الثورة، وبالمفهوم الذي أعلنه المؤتمر العام للاتحاد القومي إذ قال: " يعلن المؤتمر - إيماناً بالدور الخطير الذي يؤديه الأزهر الشريف في معركتنا المقدسة دفاعاً عن عروبتنا وقيمنا الروحية - تمسكه بضرورة العمل على دعم هذا المعهد الإسلامي الجليل حتى يستمر منارة ترسل أشعتها العلمية والروحية إلى رجاء العالم، - وتمكيناً له من مساهمة وتطورنا الحاضر - يوصي المؤتمر بضرورة العمل على أن تؤمن للأزهر الوسائل ليكون أداة صالحة لخدمة أهدافنا الروحية والقومية من تحرير الوطن العربي، وتحقيق وحدته الشاملة في إطار مفهومات القومية الحقيقية ".

* * * * *

أما رسالة الأزهر فجماعتها حفظ التراث الإسلامي وتنقيته من العقائد الواعظة والمذاهب الباطلة والبدع الضارة، ثم نشره على العالم عن طريق التعليم والتأليف والترجمة والدعوة.

وسبيله إلى ذلك - فيما أرى - أن يمكن من جمع هذا التراث المتفرق المشوش في ثلاثة أسفار: سفر في التفسير تشرح فيه الآيات الكريمة على ضوء الصحيحة والعلم الثابت، ويجمع بين ما صح من أقوال السلف وما صلح من آراء الخلف. وسفر في الحديث يدون به ما لا ريب فيه من الكتب الصحاح ويستعان على شرحه بعلوم التاريخ والاجتماع والأخلاق والفلسفة. وسفر في الفقه يشمل ما تواتر من الأحكام وصح من المذاهب وسلم من الآراء؛ ثم يوضع متنه مواد كالقانون ويشرح شرحاً فنياً يستوعب أصوله ويستقضي فروعه في غير حشو ولا استطراد ولا تعمية.

هذه الأسفار الثلاثة ستكون مادة الدراسة ومرجع القضاء ومصدر الفتوى، ثم يجرّد منها مختصرات تدرس في المدارس وتنشر في الجمهور وترجم مع المطولات إلى

أكثر لغات الشرق وأشهر لغات الغرب، ثم ترسل إلى كل بلد يعرف الإسلام أو يريد أن يعرفه.

أما ما عدا ذلك فما كان صحيحا بي في المكتبات ليرجع إليه المتخصص والمؤرخ، وما كان زائفا صنع به ما صنع عثمان في كل مصحف غير مصحفه، فإن الإبقاء على الزيف من الأحاديث والآراء لبس للحق بالباطل، وطمس للنور بالظلام، وتعمية للطريق على السالك.

أذكر أن أحد الأساتذة الكبار عليه رحمة الله قدن رسالة بالفرنسية إلى (السربون) عن (حال المرأة في الإسلام) نال فيها من خلق الرسول وشرعه وسلوكه. فلما أنكر عليه من أنكر استدل على كل ما ادعى بأحاديث مروية في طبقات ابن سعد وفي الشفاء للقاضي عياض. ولما ردوا حجته بأن هذه الأحاديث موضوعة قال: وما يدريني أنها موضوعة والكتب التي نقلت عنها معتمدة متداولة؟ وأشباه هذا الأستاذ ممن ضالتهم النقول وخدعتهم الكتب يخرجون على الناس كل حين بالرأي المجازف أو الكتاب المخالف ثم لا ينبههم نقاد الحديث إلى أن ما نقلوه منحول أو مدخول إلا بعد أن يكون الرأي قد سار والكتاب قد انتشر! فلو أن هذه الأحاديث المفتراة لم تكن منشورة على العيون يقرأها من لا يميز بين ما اتصل منها وما انقطع لما طارت الشبه والظنون حول العقيدة. فالثورة الرابعة غرض من أغراض الثورة، وضرورة من ضرورات الإصلاح، ووجهة من وجانب الأزهر. فإذا شبت مع الثورات الأخرى فكسحت الغطاء ونفت الخبث وطهرت شريعة الله من سموم البدع، ونقتها من شوائب الفرق والشيع، فوردها الناس صافية كقطرة المزن خالصة كفطرة الله، كانت جديرة بأن تبني للعرب المجتمع المثالي الذي يسير على صراط الله بقيادة الحق ورعاية العلم ورقابة الضمير، فلا تجد فيه متى يكتمل بناؤه المخازي التي تقترب في الدواوين، ولا المآسي التي تمثل في البيوت، ولا المهازل التي تشاهد في الطرق، ولا المساوئ التي تحدث في التعامل. ويومئذ يغتبط المصلحون بفتح الثورة، ويعتز المواطنون بعز الوطن، وبفرح المؤمنون بنصر الله.

الثورة الرابعة تحقق

كنا على هذا النحو العلمي المأمول نفكر، وكان الرئيس جمال على نحوه العملي الواقعي يدبر، فرأى كما رأى المصلحون من قبل، أن العالم لا يصلح إلا بالدين، وأن الدين لا يتجدد إلا بالأزهر، وأن الأزهر متى استكمل أداة التعليم وسائر حاجة العصر، نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة، تنشأ من قواه وتقوم على مزايا وتتغلغل في أصوله. ذلك لأن ثقافته المشتقة من مصدر الوحي وقانون الطبيعة متى اتصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هي وهو، فيكون من هذا التفاعل ما يريد به الله تجديد دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره.

ثم رأى كما رأى المصلحون من قبل أن خمسة وأربعين ألفاً من شباب الأمة في الأزهر، فيهم مواهب وعليهم تكاليف ولهم مستقبل، فمن حقهم أن يتعلموا ليعيشوا ما دام الإسلام لا يتبنى الرهبان ولا يتبنى الأديرة. ولن يستطيعوا أن يعيشوا إلا إذا نزعوا بأنفسهم عن معرفة التخلف، وشاركوا في علوم الحضارة وسايروا عقلية العصر وأرادوا الدين للدنيا وطلبوا العلم للحياة، ثم وضع على أساس ما رأى وعلم قانون الأزهر الجديد فجعل به الجامع جامعة، والدين سبيلاً، والعلم دليلاً، والعلماء قادة. ثم مكن له بإنشاء المجمع العلمي للبحوث الإسلامية أن يحرر العقل من التقليد الأعمى والتسليم العاجز، وأن يطهر السنة من الأحاديث المكذوبة والأقوال المشوبة؛ وأن يطور الشريعة في حدود ما أنزل الله وبلغ الرسول؛ وأن ينقي العقيدة من المذاهب الباطلة والبدع الضارة، وأن ينشر الإسلام الصادق الصافي على الناس في معرض واضح ومظهر جاذب ومنهج قويم.

ثم أتاح له بما أضاف إلى كلياته الإسلامية والعربية كليات أخرى للمعاملات والإدارة والهندسة والصناعات والزراعات والطب أن يسند بيد الله أيدي العاملين في بناء المجتمع الصالح، ويشارك بتقوى الله في تفريج أزمة الضمير؛ فيخرج العالم المجتهد الذي يجعل من فقه رسالة ومن بيانه دعوة، والطبيب الذي يجعل من عيادته ومن مرضاه إخوة، والمهندس التقي الذي يجعل من عمله جهاداً ومن خلقه قدوة، والموظف المتدين الذي يؤثر رضا ربه على رضا نفسه في كل نزعة أو نزوة. وهذا هو

الإصلاح الجوهري الشامل الذي تمنى بعضه أئمة الأزهر الأربعة المصلحون من الإمام محمد عبده، إلى الإمام محمود شلتوت، فلم يجدوا من الحكم والسلطان سبيلا إليه ولا معينا عليه، وكأن الله رب الأزهر قد ادخر نعمة تحقيقه لرئيس الدولة جمال، ونعمة تطبيقه لشيخ الأزهر شلتوت. ذاك لإخلاصه وصدقه وجهاده، وهذا لعلمه وورعه واجتهاده، وهما نعمتان سيكون لهما في تاريخ الإسلام شأن أي شأن، وفي مستقبل العروبة أثر أي أثر. وستكون مشيخة شلتوت للأزهر عنوانا بارزا في تاريخه، يفصل بين ماض كان محدود الأفق محصور المجال لا يجد أهله ميسور الرزق ولا موفور الكرامة، وحاضر سيكون رحب الجوانب واسع المضطرب يتمتع فيه أبنائه بالمساواة في الحق والواجب، ويتكرم به علماؤه بالمشاركة في الخدمة والإنتاج. يندمجون في الشعب ولا يعيشون على هامشه، ويتغلغلون في البيت ولا يقفون ببابه، ويتقدمون الركب ولا يسرون في ساقته.

لم يعد المصلحين ما يرجونه، ولا للأزهريين ما يشكونه. لقد ظفروا لجامعتهم لخالدة في يوم وليلة بما طالما استرسلوا بآمالهم إليه وحاموا بنفوسهم عليه: ظفروا بالأصل الذي يرسوا في أعماق الغابر، وبالفرع الذي يتشعب في آفاق الحاضر؛ بالقديم الذي يحفظ التراث فلا يتبدد، وبالجديد الذي ينمي الموروث فلا يتضاءل.

لم يبق إلا أن يثبت الأزهريون - وسيثبتون على ما أعتقد - أنهم أجدر بهذا النظام وأذكر لهذه النعمة وأشكر على هذا الفضل. وخير الذكر والشكر ما صدر عن يقين ووردا على فعل. والقول المؤمن إذا صحبه العمل الصالح لا يدع محالا إلا أمكن؛ ولا بعيدا إلا دنا، ولا ناقصا إلا استكمل.

فنجاح هذا النظام أوله وآخره في أيديهم. هم الذين سيضعون المنهج ويؤلفون الكتاب؛ وهم الذين سينفذون القانون ويطبقون اللائحة. فإذا ساروا بالإصلاح الجديد على الخطة القديمة؛ فلم يغيروا إلا في الصور، ولم يبدلوا إلا في العناوين، كان قانون الأزهر بين أيديهم أشبه بدستور ما قبل الثورة بين الأحزاب: جمع أحدث الآراء من دساتير الأمم ثم كان بين حقيقة وضعه وباطل تطبيقه كالمصحف في بيت الزنديق، أو كالمصباح في غرفة الأعمى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

إن قصارى ما أقوله اليوم في هذا التطوير الشامل الكامل للأزهر أنه يحقق ما تمنيناه وتمناه معنا المخلصون لدين الله ولغة كتابه وسنة نبيه وفقه شريعته: به يحتفظ الأزهر بقديمه ويشارك في جديد الناس. وبه تمحى الفوارق المعنوية والمادية بين طلابه وسائر الطلاب. وبه تتحقق وحدة الثقافة وتنقطع أسباب الفرقة ويسهم الأزهر في شركة المدنية وقيادة العالم.

وطننا يصنع المعجزات

نعم يا دكتورة نعمات! وطننا يصنع المعجزات، ولكن متى؟ لم يصنعها إلا وهو حر لنفسه خالص لبنيه..

صنعها قبل احتلال قمبيز؛ وهو يصنعها اليوم بعد جلاء الإنجليز. صنعها قبل الاحتلال الفارسي سنة 525 قبل الميلاد فثقف العلم من غير تلقين، وابتكر الفن من غير مثال، وشرع الدين من غير وحي، وأنشأ الحضارة من غير سابقة، واشتق الكتابة من غير أصل، ثم اعتقد الخلود فصنع المعجزات لتحقيقه: خلد الجسد بالحنوط والتماثيل والأهرام، خلد النفس بالصور والمحاريب والمعابد، وخلد الذكر بالمسلات والقصور والخط. ثم جعل نفسه رسولاً للشمس يرسل أشعتها في كل أفق، ويبعث حرارتها في كل حي. فكان وطننا هو المنارة الأولى التي سرى على هديها ركب الخليقة، والمنبع الأول الذي نبتت على كثره حضارة العالم.

وهو اليوم يصنع المعجزات بعد الجلاء البريطاني سنة 1956، يصنعها بإقامة السدين العالين في وقت واحد: يقيم السد العالي الاقتصادي في جنوب أسوان ليحول بيننا وبين الفقر، فيزيد رقعة الأرض الزراعية مليوني فدان، ويرفع الدخل القومي السنوي 355 مليون جنية، ويقيم السد العالي السياسي في شمال بور سعيد ليحول بيننا وبين الاستعمار، فلا يدنس سرى الوادي دخیل، ولا يكدر ماء النيل واغل.

وكان وطننا الذي تغنيت بمجده يا دكتورة نعمات في مقالك الشعري الجميل بين حلول قمبيز ورحيل الإنجليز نهبا للغزاة والمغيرين من كل جنس ومن كل أرض، تعاقبوا عليه بالقهر والفقر فأحمدوا في رأسه النبوغ، وأماتوا في نفسه العزة، وربطوا يديه ورجليه وعينيه بالأرض فلم يعرف سماء فيها الروح والرفعة، ولا أن وراءها حدودا فيها الطموح والأمل.

وظل شعبنا الكريم العنصر 3483 سنة على هذا الحال الأليمة، يعمل بعضه كالعبد، ولا يتصرف بعقله كالسيد، حتى تعطلت قواه الروحية والذهنية فلم يستطع في خلالها أن يخلق بطلا ولا أن يصنع معجزة!.

إن أشرق الصفحات في تاريخنا القديم صفحات الراقد في (الرمسيوم) المائل في ميدان محطة القاهرة رمسيس الثاني، ومنذ انقضى عهده تضيفت شمسنا للغروب فذب إلينا في الظلام اللوبيون من الغرب، ثم الأحباش من الجنوب، ثم الأشوريون من الشمال، ثم الفرس من الشرق، فثلوا عرش فرعون وسلبوه ملك مصر. ثم دجا الليل وطال حتى نسينا النور وضللنا طريق الحياة.

وإن أشرق الصفحات في تاريخنا الحديث صفحات الجالس على كرسي الجمهورية، المائل في كل قلب من القلوب المصرية، ووصل ما قطعه المغير من تاريخنا الحر، تنفس الصبح، واستفاض الضوء، واستبان الطريق، فملأنا الوجود، وحللنا الصدر، وشغلنا الناس، وتهيأت للوطن أسباب القوة فخلق البطل وصنع المعجزة !.

من حديث الفدائيين

نشأ إبراهيم (وليس هذا اسمه فقد نسيته) نشأ في بيت من البيوت الضيقة الخانقة بزقاق من أزقة طنطا المهملة، وكان أبوه قد نزح من قريننا إلى عاصمة الغربية ابتغاء للرزق، فعمل حاجباً في إحدى المحاكم الشرعية ردحاً من الزمن ثم انتقل أخيراً إلى القاهرة. وكان قد تزوج منذ تيسر له العيش امرأة فقيرة من أسرة كريمة فولدت له على الفراش الخشن ثلاثة بنين وثلاث بنات أكبرهم جميعاً إبراهيم.

من نكد الدنيا على هذه العائلة الكبيرة الفقيرة أن غلبت على عائلها الوحيد نزوات النفس وشهوات البطن فكان ينفق أكثر مرتبه على هواه وعجز بالطبع عن تعليم أولاده فوقف بهم وبهن عند المرحلة الإلزامية، ثم نفص يديه من أمورهم وألقى أزمتهن إلى أيدي المقادير ! وفتر عليهم في النقد فذاقوا مرارة الجوع وشكوا رثالة اللباس.

وجاشت الهموم في صدر الأم وساورها القلق على حاضر بيتها ومستقبل بنيتها. وكان إبراهيم قد جاوز حد الصغر فأجرتة صبيا في مطعم قريب فكان يعود إليها أول الليل ببعض القروش وبعض الطعام فينفرج عن العائلة بعض الضيق.

وتدفق الأب في لهوه واستهتر في غيه حتى كان يبيت أكثر الليالي في غير بيته ! ووجد إبراهيم نفسه رب البيت وعائل الأسرة فأرهف ذلك من نشاطه وضاعف من سعيه، فزاول أشق الأعمال وتوخي أقرب المكاسب حتى أسبل الستر على فقر إخوته، وأدخل الطمأنينة على قلب أمه.

وكان إبراهيم منذ ترعرع يتبع المظاهرات الوطنية في طنطا فيهتف للوطن، ويشتبك مع الشرطة؛ ويبيت أحيانا على الأسفلت بالقسم، وكلما لقي العنت من جنود الشرطة ورأى الشطط من رجال السياسة امتلاً صدره بالسخط وفار مده بالحماسة.

اضطرب حيناً مع الوقود، وجاهد حيناً مع (الإخوان)؛ ثم كفر بهؤلاء وهؤلاء باختلاف وجهتهم مع الوطن وتعارض غايتهم مع الدين، وانصرف إلى السعي على أهله، حتى جد الجد وأغار العدو على القناة ودعا داعي الوطن إلى الفداء، فقامت

بنفسه رغبة شديدة في التطوع للجهاد والتبرع بالروح. فقالت له أمه ودموعها تتقاطر على وجهها الشاحب: -

إلى من تتركنا يا إبراهيم وأبوك قد أنكر أولاده وهجر بيته؟

- إلى الله يا أماه ! ولا أشك في أن أبي سيؤويكم إلى جناحه بعد رحيلي. فإن الضمير مهما تخدره المعصية سيصحو. وإن الدم مهما تعكره القسوة سيروق، والله الذي خلق لنا الأصدقاء، قد ضمن لها الأرزاق. ومصر أمي وأمك، فإذا دعت فهي أولى بأن تجاب. وسأجيب دعاءها يا أماه، وسأعود إن شاء الله إليها بالنصر وإليك بالفخر !.

وعجز نجيب الأم ونشيج البنات وتوسل الجيران عن صرف الفدائي عن وجهته وقطعه عن عزمه، فانتظم إبراهيم في كتائب الموت وانقطع خبره عن أهله.

وأبلى الفتى على القناة ثم على الحدود البلاء الحسن مع رفاقه الذين نذروا دماءهم لله، فأقضوا بالعرب مضاجع الإنجليز، وفزعوا بالهول مواطن اليهود، وفعلوا بالجيش المدرية والأسلحة الفتاكة ما تفعله العاصفة الهوجاء بالشجر القينان الغض !.

وفي إحدى الغارات الغادرات التي لا تحسن غيرها إسرائيل استشهد إبراهيم هو ونفر من رفاقه، فرفرت فوق أجسادهم الأعلام، واحتشدت لتحيتهم الكتائب، وسارت في جنازتهم الأمة، وأبنهم على المقبرة المعطرة عبد الناصر، وأطلقت أسماؤهم على بعض الشوارع، ودفعت القيادة إلى أسرة كل شهيد مائتي جنيه نفقة على مآتمه.

وكان أبو إبراهيم لهذا المال بالمرصاد فدسه في جيبه، وأوهم زوجته وبنه أنه هو الذي أنفق ! وترامي إلى الأم بعد أيام ما أخذ الأب فشكت إلى قيادة قوة الحرس الوطني أمرها، وقصت على القائد خبرها من يوم فارقتها الزوج الهاجر إلى يوم فارقتها الابن الشهيد.

فمحا القائد عنوان الوالد وأثبت عنوان الوالدة، وأرسل إليها على هذا العنوان التعويض السخي الذي ضمن لها ولبنيتها العيش الشريف مدى الحياة.

ورأى الزوج أن الخير كله قد أصبح في يد زوجته فعاد إليها ذليل النفس خاضع الإرادة فالتأم الشمل وصلاح الأمر واتسعت الدار.

وهكذا كان موت الفدائي حياة لأمتة وسعادة لأسرته !.

أول ما عرفت جورجي زيدان

كان ذلك في السنة الثامنة أو التاسعة من هذا القرن. وكنت حينئذ مدرساً للغة العربية وأدبها بكلية الفرير بالخرنفس من القاهرة. ثم زادوني حصة كل يوم بمدرسة الفرير الابتدائية بالفجالة. وكان تلاميذي بهذه المدرسة من الصبية الذين تختلف أسنانهم بين الثامنة والعاشرة، وأكثرهم من أبناء الجالية اللبنانية التي تكثر في هذا الحي، فكانوا صباح الوجوه حسان الهندام، ولكنهم كانوا من حيوية الطفولة ومرح الحداثة في حركة دائمة وزقزقة مستمرة ! فكنت أتسع لهم حيناً فأندرهم باللسان، وأضيق بهم حيناً فأزجرهم باليد.

وكان من بينهم صبي خفيف لا يكاد يستقر على حالة ولا يستمر على وضع لا يكتفي بالعبث في موضعه ولا بالحديث مع جاره، وإنما ينتقل من درج إلى درج، ويقوم من تلميذ إلى تلميذ: يأخذ من هذا أيقونة أو صورة، ويعطي ذاك لعبة أو " بلية ". وفي حالي الأخذ والعطاء لا بد من كلمة مسموعة أو حركة خشنة أو ضحكة مرتفعة. فكنت أستدعيه إلي وألويه بالكلمة اللينة وأمنية " بالعلامة الطيبة " فيسكن قليلاً ثم يثقل على أعصابه السكون فينفجر بالحركة انفجاراً يزعج هدوء الأطفال ويهوش نظام الفصل. فأستدعيه ثانية وأستبقيه بجوار المنصة، رجلاه مصفوفتان ويداه مرسلتان ووجهه إلى الحائط. فلا يلبث على هذا الوضع إلا دقيقة أو أقل ثم يهز كتفيه ويطلق يديه، ثم يستدير بوجهه ويرسل عينيه في جوانب الفصل فتشخص إليه الأبصار. وتفتقر له الشفاه وينتظر الأطفال ماذا يكون من أمر هذا البطل الذي يتحدى سلطان المعلم. فلم أجد بداً من ضربه " علقه " على يديه بكعب الكتاب. فتلقى الضربات كاظماً على جرّته حتى انتهت، ثم مضى مسرعاً إلى مقعده وكفأ وجهه على يديه فوق الدرج وأخذ يبكي. وخشع رفاقه من الخوف فلزموا الهدوء، وأحسنوا السماع حتى دق الجرس.

وفي اليوم التالي أقبل علي في أول الحصة هذا التلميذ المتمرد وقد اتخذ هيئة الرجل الجاد وسمت الغاضب المبتسم فألقى إلي رسالة كانت في يده، ثم عاد إلى مكانه في هدوء وقعد في صمت. ففضضت الرسالة فإذا فيها ما نصه:

أستاذنا الفاضل؛

" ولدك وولدي شكري زيدان يشكو من معلمه لا يعامله بالعطف الذي يعامل به الآخرين، وأنه قسا عليه بالأمس قسوة لم يتعوّدها منه. والأطفال بطبيعته يبالغون. ولكن الأستاذ الفاضل يتفق معي على أي حال في أن أنجح الوسائل في التربية الحديثة هي تحبيب الأطفال بالنظام والعمل من طريق الملاينة والحيلة. وأرجو مستقبلاً أ، يجد الأستاذ من تلميذه ما يحب من الطاعة، وأن يجد التلميذ من أستاذه ما يرغب من العطف. وانتهاز هذه الفرصة لأقدم إلى الأستاذ تحيتي...

المخلص

" جرجي زيدان "

طويت الرسالة ووضعتها في جيبى لأعيد قراءتها بعد. ونظرت إلى شكري وكان يحاول أن يقرأ أثرها وجوابها في وجهي، فابتسمت له وابتسم لي، وجرت الريح بيني وبينه رخاء بالسلام والحب حتى انقضى العام. وباعدت بيننا مفارق الطريق واتجاهات الحياة فلم أره إلى اليوم !.

عدت إلى الرسالة فقرأتها مرة أخرى، ثم أخذت أصعد النظر فيها وأصوبه وأنا أقول لنفسي: إذن هذا الصبي المضروب هو ابن جرجي زيدان، وهذا الكلام المقروء هو كلام صاحب الهلال، وهذا الأدب الرفيع مؤرخ الإسلام ! لقد قرأت لصاحب هذه الرسالة القصيرة ووالد هذا الرسول الصغير، كل ما كتب من قصص وألف من كتب ونشر من بحوث، فنشأت بيني وبينه على البعد تلك الصلة الروحية التي تصل بين الفكر الناشئ والفكر المنشئ، وتربط بين الطالب المريد والأستاذ الواصل.

وكان جرجي زيدان يومئذ قد انفرد في العالم الإسلامي كله بالتأليف والكتابة فيما ليس للعرب والمسلمين به علم من تاريخ العروبة والأدب والحضارة والإسلام بالأسلوب الواضح والتقصي العجيب والعرض الطريف، فكان ما ألفه من الكتب في تاريخ آداب اللغة العربية، وما أنشأه من القصص التاريخية الإسلامية على نحو ما فعل ولترسكوت، فتحاً مبيئاً في ميدان الثقافة العربية قرب الموارد لكل باحث، ومهد السبيل لكل كاتب.

وكنت في هذه السنة نفسها طالبا بالجامعة المصرية الأولى بجانب صديقي طه حسين ومحمود زناتي، فترامى إلينا أن مجلس إدارة الجامعة قد قرر تعيين الأستاذ جرجي زيدان أستاذاً لكرسي التاريخ الإسلامي بالجامعة، فهزنا هذا الخبر وسرنا أن نكون تلاميذ للمؤرخ الكبير عن طريق المحاضرة، بعد أن تلمذنا إليه طويلاً عن طريق القراءة، ولكن بعض الآراء المتمتة الرجعية قد ساورت بعض الأذهان المتخلفة الغبية. فحملت الأستاذ الكريم السماح على أن يعتذر من قبول هذا المنصب بعد أن أعد المحاضرات وصور الخرائط ! واستمر البغاء على الكرسي الجامع الوثير، تردد ما قال الطبري وابن الأثير !.

ثم عدت إلى الرسالة مرة ثالثة أتملاها وأتأملها ثم كتبت الجواب عنها بالاعتذار والشكر وأرسلته مع البريد. ثم رأيت بعد أيام أن أوره في إدارة الهلال، فتكشف لي من لقائه الجميل، وحديثه العف، وإطلاعه الواسع، وتواضعه الجم، عن طراز من العلماء فريد لم ألق مثله فيمن لقيت من العلماء في الأزهر ودار العلوم والجامعة. والحق أن جرجي زيدان مدين بعلمه وفضله ونجاحه لأخلاقه. وأشد أخلاقه أثراً في حياته صدقه وجده ودأبه ومثابرته.

تخرج في أكثر العلوم على نفسه، وشق طريقه في الصخر بسن قلمه، واختار لجهاده الأدبي الميدان البكر وأعد له ما استطاع من قوة الصبر وصدق العزيمة، فانتصر انتصاراً عز على غيره، وعاد بالنفع والخير على قومه.

ولزيدان شرف الريادة لمنتجعي الأدب، وفضل سبق إلى فن القصة، وحسن القدوة في مهنة الصحافة، وحق الأستاذية في الهلال على كل قارئ. وتاريخ الأدب العربي الحديث يعترف بالمرجل بكل أولئك.

لم أكن حين عرفت صاحب الهلال على حال من السن والثقافة تؤهلني لصداقته. كنت في بداية الشباب وكان في نهاية الكهولة. وكنت من شدة الأدب وكان من أقطاب العلم، فضلت العلاقة بيني وبينه علاقة طالب بأستاذ وصلة قارئ بمؤلف. فلما قويت أناقلي على حمل القلم، وصلاح تفكيري لتغذية الهلال، كان قلمه جف وذهنه قد انطفأ!. لذلك آثرت أن يكون أول ما أكتب للهلال تحية من القلب العروف أقدمها لذكراه، وباقية من الأدب الصدوق أثمرها على قبره.

أول ما عرفت الشنقيطي

- 1 -

كنت في مولد هذا القرن غلاماً ناشئاً أهوى الأدب وأحفظ الشعر وأعالج القريض. وكان مجلسي المختار في الركن الغربي من الرواق العباسي بالأزهر، في رفقة من الطلاب كانوا كأنجم الثريا لا يفترون لا في الدرس ولا في المذاكرة ولا في الرياضة. وكنا على خلاف إخواننا الأزهريين في ذلك العهد نقرأ الصحف ونغشى الأندية ونتبع المعارك الأدبية في الضياء لليازجي ومصباح الشرق للمويلحي، و " المؤيد " لعلي يوسف. وكان حديثنا وحديث المتأدبين يدور على ما تتناقله الأفواه وتتداوله الصحف من الجدل المضطرم الحاد بين الحافظ الحجة الشيخ محمد محمود الشنقيطي وخصومه من علماء الأزهر وأدباء العصر. وكان الشيخ قد هاجر منذ قريب من مدينة الرسول إلى القاهرة المعز فوجد من الإمام محمد عبده لقاء جميلاً وعطفاً كريماً، فأجرى عليه رزقا من الأوقاف، ووكل إليه إحياء الأمهات العربية الكبرى، فنشر المخصص وحرر القاموس وأملى الأراجيز، وإلى ذلك يشير في رثائه لنفسه من قصيدته الميمية المطولة:

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد	سوى كتب تختان بعدي أو علمي
وغير الفتى المفتى محمد عبده	صديقي الصدوق الصادق الود والكلم
فغصم العلوم كنت أنزلها له	إذا اعتاصت أرواها على كل ذي فهم
مخصصها المطبوع يشهد مفصلاً	بحفظي عند الحذف والبقر والخرم
بذا يشهد المفتى وأصحاب طبعه	ولا يكتمون الحق كتمان من بكى
وقاموسها المشهور يشد في الضحى	بذاك وفي بيض الليالي وفي الدهم

وكان الأزهر قد درج طويلاً على إغفال اللغة والدب من مناهجه حتى أدخلهما الأستاذ الإمام في الدراسة الحرة، وجعل دراسة اللغة للشيخ الشنقيطي، ودراسة الأدب للشيخ المرصفي. وكان ابن التلاميذ آية من آيات الله في حفظ اللغة والحديث والشعر والأخبار والأمثال والأنساب لا يند عن ذهنه من كل أولئك نص ولا سند ولا رواية.

وكان شמוש الطبع حاد البادرة قوي العارضة، يجادل عن نفسه بالجواب الحاضر والدليل المفحم واللسان السليط.

كان لا ينفك يتحدى رجال اللغة بالمسائل الدقيقة والنوادر الغريبة مستعينا على جهلهم بعلمه، أو على نسيانهم بحفظه، حتى هابوا وكرهوا لقاءه، وأصبحت حياته سلسلة من الخصومات الأدبية سجلها بالشعر اللاذع والنثر القارص في كتابه (الحماسة). وأكثر هذه الخصومات كانت بينه وبين أحمد البرزنجي في المدينة، والنبيلي في تونس⁽¹⁾، وحمزة فتح الله وإبراهيم اليازجي وسليم البشري وعبد الكريم سلمان في القاهرة.

اجتمع ليلة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في دار السيد عبد الباقي البكري بجماعة من كبار العلماء يتصدرهم إمام المالكية الشيخ سليم البشري. فحلا لبعضهم أن يتحرش به فسأله سؤال المنكر عن رأيه في صرف عمر وخروجه على إجماع النحاة، فقال له: إنما صرفته بالأدلة القاطعة والشواهد الصريحة، وخطأت جميع النحويين من سيبويه إلى ابن هشام في قولهم إن عمرا ممنوع من الصرف لأنه معدول عن عامر، والحق اليقين أنه جمع لعمره وهي الحج الأصغر، وبه سمي عمر ابن الخطاب ومن قبله ومن بعده، فهو علم منقول عن جمع نكرة، وما كان كذلك من الأعلام صرف ابتاعا لأصله، ككلاب وضباب وأنصار وأنمار، وجمعت من الشواهد على صرف عمر مائة شاهد ونيفا، منها كعب الأشقر:

يا أيها الزاري على عمرٍ قد قلت فيه غير ما تعلم
ومنها قول بشار العقيلي:
إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ثم نم

(1) كان موضوع الخصومة بينه وبين أديب المدينة وعالم تونس أنحنأ لحنا الإمام مالكا رضي الله عنه في قوله في باب النذور من موطئه: (وعليه هدى: بدنة أو بقرة أو شاة إن لم يجد إلا هي) فهما يقولان: إن مقتضى الظاهر أن يقول: إن لم يجد إلا إياها، وهو يقول: إن وجد معنى غني من الوجد وهو الغني فلا تحتاج إلى مفعول، وقد أفردوا في المسألة مؤلفين، مؤلفا لهما ومؤلفا له.

فقال الشيخ عبد الكريم سلمان: ولم لا يكون التنوين في البيت بشار للضرورة، وتكون الرواية في بيت كعب بالفتح الممدود لا بالكسر المنون؟ فقال له في حدة عصبية ولهجة مغربية: إنك بالعروض أجهل منك بالنحو، ومثلك لا يناقش !.

فهم بالرد الشيخ سلمان، ولكن الشيخ البشري مال بالنقاش إلى جهة يراء القوم فيها أحد الأحاد وهي السنة. فقال للشنقيطي: إنك تلبس خفين أسودين وذلك من لباس النصارى. فقال له إنما ألبس ما كان يلبس الرسول. أما أنتم فتلبسون الخفاف الحمر وهي لباس نساء المغرب، والخفاف الصفر وهي لباس نساء المشرق، فأنكر البشري أن يكون الرسول صلوات الله عليه قد لبس خفين أسودين، وقال إن الإجماع منعقد على خلاف ذلك. فرد عليه بأن رواية الإنبات تثبت أن النجاشي أهدى إلى الرسول خفين أسودين فلبسهما. ثم انفجر عليه بما روى الترمذي وابن ماجة وأبو داود والبيهقي، يؤديه عن ظهر قلبه كأنما كان يتلو من كتاب. فلم يجد الشيخ البشري رحمه الله درءاً لهذا السيل إلا أن يطعن في الرواية والرواة، وانتقلت المجادلة من دار البكري إلى دور الصحف، فكتب الشيوخ. ورد الشيخ، واستطار بينهم الخلاف أكثر العام فسماه الناس "عام الخفين الأسودين".

- 2 -

ترامى إلى مجلسنا بالرواق ذات ليلة أن الشيخ الشنقيطي قد نشر كتابا سماه (الحماسة السنية، الكاملة المزية، في الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية) صدرها بمطولة له في خمسة ومائتي بيت من بحر الطويل وقافية الميم مطلعها:

ألا طرقت ميّ فتى مطلع النجم غريبا عن الأوطان في أمم العُجم

روى فيها حديث سفره إلى مدينة استوكهلم عاصمة السويد إجابة لدعوة ملكها أسكار الثاني ليشهد مؤتمر المستشرقين الثامن الذي اجتمع بها في سنة 1306 هـ، فوصف الحلة ومدح الداعي وذكر جملة من أمر حياته ورحلاته وتحقيقاته، ثم ختمها برثاء نفسه وسرد لأسماء أشهر القبائل العربية جريا على المنهج الذي اقترحه عليه سفير السويد بمصر الكونت كارلودي لندبرج، وهو مستشرق سمي نفسه (عمر السويدي) ونشر بعض المخطوطات العربية كشرح ديوان زهير للأعلم الأندلسي الشتمري. وكان

الشيخ يومئذ في الآستانة فسافر إليها ليلقاه وبدعوة. فشرط عليه الشيخ بعد إذن الخليفة عبد الحميد الثاني أن يصطحب ثلاثة من علماء العربية ومؤذنا من لمتعلمين وطاهيا من المسلمين. فأجابه إلى ما شرط. ولكن الرحلة لم تتم لأسباب يعرفها قصر الخلافة.

كان الشيخ لا يبيع هذا الكتاب وإنما كان يهديه إلى من يحسن القراءة فيه من طلاب العلم أمامه. وكنت في ذلك الحين هش العود لا أظني أثبت على عجمه ! فتفاديت ذلك الحرج بنظم قصيدة في مدحه من بحر قصيدته وقافيتها. ثم حملتها متوكلا على الله وذهبت إليه. وكان صديقي الطيب الذكر محمود حسن زناتي قد سبقني إليه فأثبت قدرته وأخذ نسخته. فصحبني إلى داره وقت الأصيل - وكانت بأول شارع الباطنية من حي الأزهر - فدخلناها فإذا هي دويرة ذات طابقين صغيرين ونصف طابق فوق السطح كان يسكنه هو وزوجته وخادمه. صعدنا إليه في درج براه الزمن وعوجه فلا تستقر عليه قدم. ودخلنا عليه ردهة غير مسقوفة انسدلت على نافذتها ستارة فلا تطلع على غيها عين. كان جالسا على فروة بيضاء فوق كليم انبسط على نصف المكان وانتشرت على حواشيه بعض الأدوات المنزلية.

لم أكن رأيت الشيخ من قبل. كان شخصا ينصر كما يقولون في صرة: هيكلا ضئيل، وبدن نحيل، ووجه ضامر، ولون أخضر، وصوت خفيض فمن يره أول مرة لا يصدق أن هذا الجرم الصغير قد جاب البر والبحر، وطاف الشرق والغرب، وكافح الأنداد والخصوم، ووعي صدره الضيق معاجم اللغة وصحاح السنة ودواوين الشعر وعلوم الأدب. وكان يلبس قفطانا أبيض من القطن، ويرتدي جبة دكناء من الصوف، ويعتم عمامة مكية قد أرخى لها عذبة على ظهره. فلما رآها هش بعينه وبش بفمه، فقلبنا يده ثم جلسنا بين يديه. كان كل ما في الردهة يرف بالهدوء ويشف عن النظافة، فلا حس ولا حركة ولا هبأة إلا ما يقع في أسماعنا من أصوات الباعة على بعد وكانت الخادم الحبشية العجوز قد أقبلت في سكون وأدب بأكواب الشاي الأخضر فشربنا. ثم أخرجت القصيدة من جيبي وأخذت أتلوها في رجفة خفيفة وهيبة ظاهرة، والشيخ يستمع ولا يظهر على مخايل وجهه البرنزي ما ينم على استحسانه أو استهجان؛ حتى بلغت إلى قولي منها:

رفعت درّفس الدين بالعلم والتقوى وصنت لسان العرب بالحفظ والفهم
فقال: ما الدرّفس؟ قلت: الراية. فقال: أتحفظ شاهدا عليها؟ قلت: نعم، قول
البحثري:

والمنايا موائل وأنو شر وإن يزجى الصفوف تحت الدرّفس
فقال: أحسنت، بارك الله فيك. وانتهت التلاوة والزيارة بأخذ النسخة. ثم لزمته بعد
ذلك إلى أن فارقنا إلى لقاء ربه.

لزمته أنا وأربعة أو خمسة من الرفاق فكنا نصلي معه الجمعة من كل أسبوع في
الجامع الأزهر. ثم نجلس أمامه بالجانب الأيمن من المنبر فنقرأ عليه ساعة وبعض
الساعة ثم ينصرف إلى داره، قرأنا عليه كتابه (الحماسة) ثم ديوان المعلقة. وكانت
طريقته في التلقين أن يعني بدقة الضبط وصحة الرواية؛ فلا يشرح لفظاً ولا يفسر معنى
إلا إذا سألناه.

ومن النوادر التي أذكرها أن طالبا ممن كانوا معنا كانت فيه سذاجة وغفلة. وكانت
إحدى عينيه مظلمة. وكان أحدنا يقرأ مطولة الشيخ الأولى وفيها قوله: إلى مثلها يصبو
الحليم صباية.

فقال الطالب: إن هذه الشطرة مسروقة من معلقة امرئ القيس. فقال الشيخ في
غضب وحدة: المسروقة عينك العوراء! إن للعرب أبياتاً وأشطاراً شاعت شيوع الأمثال
فلكل شاعر أن يستعملها كقولهم.

وقوفا بها صحبي على مطيهم. وقولهم، تبصر خليل هل ترى من طعائن وقولهم:
فدعها وسل الهم عنك بحسرة، وهذا من ذاك.

كذلك أذكر أن للشيخ كان كلما أنقلت من صلاة الجمعة دعا بالشيخ إمام السقا
خطيب الجامع الأزهر في تلك الأيام، وكان رجلاً طاهر القلب ظاهر الورع. فإذا جاءه
أخذ يعنفه أشد التعنيف على اقترافه الكذب على الرسول بما أورد من الأحاديث
الموضوعة في خطبته. ثم لا يخلية حتى يستغفر الله ويتوب.

فلما تكرر هذا الموقف كان الشيخ السقا يتحاشاه فلا يكاد يخرج من الصلاة بالتسليم حتى يخرج من المسجد بالركض !.

رحم الله الشيخ ومن جرى ذكرهم معه من الشيوخ، وجزاه الخير وجزاهم على ما قدموا للغة القرآن وفقه السنة وعلم العربية من حسن القول وإخلاص العمل وصدق الغيرة.

على بئر أريس

من ذكريات ربيع الأول في طيبة

في غداة ضاحية من غدوات ربيع الأول، وفي درب هادئ من دروب طيبة المقدسة، خرج الرسول صلوات الله عليه إلى ظاهر المدينة يطلب الخلوة إلى نفسه، والخلوة عند ربه.

وكان صاحب الغار المهجور من جبل النور لا يزال يستحب العزلة، ويستطيب الوحدة، إمعاناً في القرب من الله بالفكر والذكر والتأمل، فجعل وجهه إلى غربي المدينة تلقاء مسجد قباء، ومشى وحده تحوم عليه العيون وتهفو إليه القلوب من وراء الجدر وعلى حواشي الطريق وهو مطأطئ الرأس مطمئن النفس حتى بلغ بئر أريس⁽¹⁾.

وكانت هذه البئر العذبة الرحبة تستكن من الريح والشمس بظله من جريد النخل لها باب منه، وتنظر إلى حقول خضر وبساتين فيح تستمد من مائها المعين النماء والخصب، فهي مستراض ومستراح ومنظر. دخلها الرسول على عادته في كل يوم اثنين دخول المعتكف المسجد، فتوضأ وصلى ثم جلس على قفّها⁽²⁾ وكان طوله ثلاثة أذرع، واستغرق في عبادة صامته لا يتخالجها أمر من أمور الدنيا ولا شأن من شئون الناس. ومثل هذه العبادة الروحية النبوية التي تصل الرسول بالله والأرض بالسماء والشرعية بالحقيقة والمحدود باللامحدود، لا يستطيع أن يدرك كنهها العقل القاصر، ولا أن يبلغ وصفها البيان الناقص.

وما كانت عبادة النبي في بئر أريس بعد الهجرة إلا معنى من عبادة محمد في غار حراء قبل البعثة؛ استيحاء لحكمة الله وقدرته أن يؤيد دعوته بروحه، وأن يجمع أمته على كتابه.

* * * * *

(1) حديث بئر أريس الذي جعلناه لباً لهذا المقال رواه البخاري ومسلم.

(2) قف البئر: الدكة التي تقام من حول رأسها.

وكان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قد أصبح ونيته معقودة على أن يلزم الرسول عامة يومه، جلاء لصدره من صداً الدنيا، وصفاء لنفسه من كدر العيش، فطلبه في مسجده فلم يجد، فسأل عنه فقليل له: اتخذ طريقه إلى حي قباء. فما زال يتقصص خبره وأثره حتى تأدى إلى بئر أريس، فدخلها فوجد الرسول جالساً على قفّها وقد كشف عن ساقيه وأدلاهما فيها. فسلم عليه، ثم عقدت لسانه الهيبة والجلالة فارتد إلى الباب وهو يقول لنفسه: لأكونن بواب الرسول هذا اليوم.

وما هي إلا هنيهة حتى دفع الباب دافع. فقال البواب الأواب: مَنْ بالباب؟ فقال: أنا أبو بكر. فقال أبو موسى: يا رسول الله، هذا أبو بكر يستأذن عليك. وكان صاحب الدعوة حينئذ يستحضر في ذهنه ما لقي في سبيلها من البلاء في نفسه وفي أهله وفي صحبه. وقد مثل في خاطره وفاء المهاجرين بعدهم إلى الله، واحتمالهم الغربة والفاقة والقلّة والأذى ابتغاء مرضاته، فأكبر ما فعلوه وما بذلوه. وما هو إلا أن سمع أبا موسى يذكر اسم صديقه في الدار وصاحبه في الغار حتى قال له: ائذن له وبشره بالجنة. فلما أخبره بالإذن والبشرى دخل فجلس عن يمين رسول الله فوق القفّ وحذا حذوه، فكشف عن ساقيه وأدلاهما في البئر. ورجع الأشعري إلى مقامه بالباب، وكان قد ترك أخاه يتوضأ ليلحق به عند الرسول، فقال في نفسه: إن يرد الله خيراً بأخي يأت به. يرجو أن ينال من هذا الفيض النبوي ما ينفعه في آخرته. ولكن الله أراد هذا الخير لعمر، فقد كان في تلك اللحظة وراء الباب يحركه، فلما قال أبو موسى في سرعة ولهفة: مَنْ هذا؟ قال: أنا عمر بن الخطاب، فقال: على رِسلك يا عمر. ومضى إلى الرسول يستأذن فقال له عليه صلوات الله وسلامه: ائذن له وبشره بالجنة! فدخل عمر وجلس على القف عن يسار الرسول وصنع ما صنع. وعاد الأشعري إلى الباب يتسمع من ورائه أن تدب رجل أن يندّ صوت رجاة أن يكون أخوه قد قدم. فلم يمض غير يسير حتى لقلق الباب إنسان، فحفق فؤاد أبي موسى وضاء بالأمل وجهه، وصاح: مَنْ القادم؟ فقال: أنا عثمان ابن عفان. فاستأناه وعاد إلى الرسول يستأذن له. فقال من اصطفاه الله لحمل رسالته وارتضاه لعلم غيبه: ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه، فلما بشره وأنذره دخل الشهيد على

الثلاثة فلم يجد معهم مجلسًا على القف. فتحول حتى جاء قبالتهم من الشق الآخر وجلس، ثم كشف عن ساقيه وأدلاهما في البئر.

وهكذا شاء الله أن يجتمع في هذه البئر الباضة بالخير النابضة بالحياة، في وسط هذه الرمال القاحلة والصخور الصلدة، خمسة نفر كان لهم في حياة العروبة أثر بالغ، وفي تاريخ الإنسانية خطر أبلغ: خليفة الله الذي قاد بنوره ركب البشرية التائه العامة في الطريق الأقوم إلى الغاية الأكرم؛ وخليفتا الرسول اللذان حملوا دعوته من بعده فلاأما صدعها يوم السقيفة، وقويًا ضعفها سنة الردة، ونشرا ضوءها وراء الجزيرة؛ وخليفة الشورى الذي صدقت فيه نبوءة الرسول فأصابته البلوى التي فرقت الكلمة ومزقت الأمة؛ وقاضى التحكيم الذي داهاه ابن العاص وداوره حتى حكم حكمًا جعلت نتيجته الخلافة خلافتين والأمة أمتين والدين المحكم القيم اثنتين وسبعين فرقة !.

* * * * *

على أن بئر أريس كانت لها في حياة الخليفة الثالث دلائل خاصة: فجلوس الرسول والعمرين معًا على شق، وجلوسه منفردًا قبالتهما على شق؛ تأوله سعيد بن المسيب باجتماع قبور الثلاثة في حجرة عائشة وانفراد قبره هو في موضع آخر، وإنذار الرسول إياه بالبلوى التي أصابته وأصابت المسلمين معه كان طائفًا من الهم يعتاده الحين بعد الحين فلا يصرفه عنه إلا اعتقاده الوثيق بالله، وإيمانه العميق بالقدر؛ وإمضاؤه النية على الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه. ثم سقوط الخاتم النبوي من يده في هذه البئر كان نذير شؤم ومثار قلق؛ فقد كان محمد خاتم النبيين قد اتخذ خاتمًا من فضة جعله في يده بقية حياته، ثم كان في يد أبي بكر مدة خلافته، ثم تختم به من بعده عمر، ثم انتقل من يده بعد مصرعه إلى يد عثمان. فكان معتزًا به حريصًا عليه، حتى ذهب يومًا إلى بئر أريس يجلس في مجلس الرسول وينعم بذكرى يومه فيه. وكانت هذه الزيادة ديدنه كما كانت ديدن الصديق والفاروق منذ اجتمعوا فيه برسول الله. فأخرج الخاتم من إصبعه وجعل يعبث به فسقط في الماء. واختلف هو والناس إلى البئر ثلاثة أيام ينزحونها ويبحثون فيها فلم تقع يد عليه، كأنما ضنت به الأرض فابتلعتة، أو تاقَت إليه السماء فرفعتة، فاكتاب عثمان ووقع في نفسه أن قوة كانت تسنده غابت في الماء؛ وأن نورًا كان

يرشده تبدد في الريح، وأن الخاتم النبوي كان في يده عقدة تمسك عليه الناس وترىض له الأمر، فتمضي خلافته كما مضت خلافتا الشيخين في وحدة لا تشت وعروة لا تنفصم وسبيل لا تجور. فلما سقط منه في البئر وأعجزه الحصول عليه لم يئأس من روح الله، ولكن شكاً اختلج في نفسه الراضية المطمئنة ألا يكون كعمر بطل السقيفة، وأبي بكر بطل الردة، صلابة رأي وصرامة عزيمة، ففوض الأمر إلى بعض أهله فحكموا الناس بالهوى وفرقوهم بالمصيبة وساسوهم بالمحابة، حتى اضطرب الحبل وشاعت الفتنة وقتله الثوار في داره وعلى مصلاه قتلة لا يزال يرعد من هولها الدهر.

كانت هذه الدلائل رموزاً من لغة القدر خطها على صفحة وجهه وفي صحيفة حياته يوم جلس وحده تجاه الرسول وصاحبيه على بئر أريس، فسرتها الأحداث رمزاً بعد رمز، وكابدها ممول جيش العسرة دلالة بعد دلالة. وما كانت فراسة الرسول الكريم في عثمان وماله سواء أكانت إعلماً من الوحي أم إلهاماً من الروح إلا دليلاً على ألمعية في القائد الأعظم تكشف ما استكن من سر الطباع، وتعلم ما استسر من عقبي الحوادث. ولولا هذه الألمعية المستمدة من علم الله أو من لقانة الرسول لما تسنى لصاحب الرسالة أن يختار أسنادها وأمدادها من هذه الصفوة القليلة من المهاجرين الذين غرس في قلوبهم البذرة، ووضع في أيديهم الشعلة، وألقى على كواهلهم التبعة، ثم لحق بالرفيق الأعلى، وهو ينظر إليهم من ستور النور وهم يرفعون مسجده فوق إيوان كسرى، وينصبون منبره على عرش قيصر.

صوم رمضان اشتراكية روحية

إن الاشتراكية المادية التي ندعو إليها ونعمل لها ونعيش فيها لا يمكن أن تقوم ولا أن تدوم إلا على ركن شديد من الاشتراكية الروحية. ذلك أن الروح هو سر الله في كل حي وفي كل نظام وفي كل مجتمع. به يحيا الهامد ويتسق النافر ويجتمع المتفرق. هو الذي نسميه حباً أو جاذبية أو وحدة. وهو الذي يجمع قلوب المواطنين على عبادة إله واحد، وحب وطن مشترك، وتقديس شعار متحد، وطاعة زعيم قائد. فإذا ضعف في النفوس هذا الروح، واحتجب عن الأذهان هذا السر، تناكرت المعارف وتدابرت الإخوة، فلا يتشاركون في خير، ولا يتعاونون على بر، ولا يتناصرون في شدة، وإذا تصبح القوانين الاشتراكية والأنظمة التعاونية كلاماً لا معنى له وعملاً لا رجع منه.

إن المجتمع الإنساني إذا خلا من هذا الروح الإلهي أصبح مجتمعاً حيوانياً لا يعطف الفرد فيه إلا على وليده مدفوعاً بغريزة حفظ النوع. فإذا بلغ الوليد أشده واستوي تقطعت الرحم وتباعدت القرابة وانقلب الولد نداً لأبويه يدافعهما عن نفسه، ويصارعهما على قوته، وصار الاشتراك أو الإيثار الذي انبثق من الأمومة والأبوة فردية باغية وأثرة شديدة.

على أن هذه الغريزة تنهذب في بعض أمم الحيوان كالنحل والنمل فتتسمو وتندوم حتى تصبح اشتراكية مثالية تنتظم فضائل المجتمع الإنساني المرجو، من فناء المفرد في الجمع، وجهاد الكل للكل، وما يحقق ذلك من تضامن وتعاون وإخلاص وإيثار وتضحية حتى بلغ من سمو الاشتراكية في هاتين الأمتين أن النحلة أو النملة تعمل لنوعها كله لا لنفس دون نفس، ولا لطائفة دون طائفة.

وهذا السمو الاجتماعي فيها لا تجد له نظيراً في مجامع الذباب والقرود والناس. فلكل فرد من أفراد الإنسان وهو أرقاها شأنه الذي يغنيه، ورزقه الذي يكفيه. فإن فضل شيء منه عن حاجته فلزوجه وبنيه.

أما علاقته بغيره وغير أهله فهي علاقة الصائد الخاتل أو اللص القاتل، يحتال ويغتال ويغتصب ويستأثر، ولا يبالي أن يهلك العالم وتخرب الدنيا ما دام بدنه معافي وداره عامرة.

هذا السمو في الاشتراكية المادة لم يجعله الله أصلاً في جبلة الإنسان (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وإنما جعله في الشرع الذي أوحاه وفي الكتاب الذي أنزله. فمن يرد إصلاح الفاسد من حال المجتمع دون أن ييث في أعضائه هذا الروح، وينشر في جوانبه هذا النور، أخطأ الطِّبَاب الناجع لهذه العلة، وضل السبيل الجامع لهذه الغاية.

إن دين الله اشتراكي بحكم طبيعته ومقتضى رسالته. شرعه الله نظاماً للدنيا وسلاماً للناس على أساس من علمه وتقدير من فضله ومنهاج من هداة، فالملك ملكه، والمال ماله، والفقراء عياله، والأغنياء عباده، والمصير كله إليه.

على هذا الاتصال الروحي بين الخالق والمخلوق اجتمع الشمل في الأسرة الإسلامية الكبرى فكان الناس فيها سواسية، والحكم شورى، والإيمان أخوة، والرزق شركة، والجماعة وحدة. وإذا تدبرت الأركان التي بني عليها الدين والأركان التي جاء بها الشرع. تجلت لك من مطاويها ومراميها تلك الاشتراكية التي تؤلف القلوب بألفة الروح، وتجمع الشعوب بجمعة الحب، وتفرض على الواجد معونة الفاقد، وتوجب على الجميع نصرة الواحد، وتجعل من المسلمين جميعاً جسماً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى كما قال الرسول الأعظم.

خذ مثلاً واحداً من ألف: صوم رمضان. أليس هذا الشهر المبارك مظهر الاشتراك الروحي بن المسلمين في جميع أقطار الأرض؟ يصومون في وقت واحد، ويفطرون في وقت واحد، ويكادون يتفقون على طعام واحد، ثم ينصرفون عن اللذات الحسية والنفسية، ليتجهوا بالتأمل والتعبد والخشوع إلى الله، فيغضوا أبصارهم عن المنكر، ويكفوا ألسنتهم عن الفحش، ويصمّوا آذانهم عن اللغو، ويغلوا أيديهم عن الأذى، ويصدوا أهواءهم عن السوء، ثم يسمتون جميعاً صائمين ومفطروهم سمت الصالحين، فيمسكون السبحة، ويتقنون الشبهة، ويصنعون المعروف، ويتقلدون تقاليد رمضان،

فيهجر السكير الكأس، ويترك المقامر الورق، ويؤجل الشرير الشر، وينسى المجرم الجريمة، ثم يشركون المساكين في طعامهم تكافلاً ورحمة ن ويؤتون الفقراء من أموالهم تعاطفاً وصدقة، ويولمون الولايم لإخوانهم تواصلوا ومودة، ويشعرون أن أجسادهم المتفرقة المختلفة يسري فيها روح واحد يصدر عنه هذا الوجود المتحد وهذا الشعور المشترك.

هذه الروح الإلهي إنما أبقاه وقواه في نفوس الصائمين عقيدة ووراثة وسنة ولو أنه وجد في الوطنية ما وجد في العقيدة من الإيمان، وفي النشأة ما وجد في الوراثة من العمق، وفي القدوة ما وجد في السنة من الصلاح، لشاع في نفوس المسلمين وجعل منهم مواطنين اشتراكين يعمل كل امرئ منهم لوطنه كما يعمل لبيته، ويحب لمواطنه ما يحب لنفسه، ويكون لدولته كما يكون الإنجليزي لإمبراطوريته، يخلص لها إخلاصه لعقيدته، ويبر بها بره بأمه، ويفني فيها فناءه في أسرته. ويومئذ ترى المصري أو العربي كما ترى الإنجليزي، يقذف بنفسه في المطرح البعيد والمنزل النابي، ليعمل لقومه، أو ليكدح لنفسه، فلا يضع أمام عينه ولا طي صدره إلا جمهوريته: يمثلها أحسن تمثيل، ويخدمها أخلص خدمة، ويدعو إليها أصدق دعوة. يدعو إليها بفعله قبل قوله، وبقلبه قبل لسانه، وبخلقه قبل علمه. ويومئذ لا تعود ترى أو تسمع أن المصري أو العربي يعيش في الغربة مقطوع الأسباب عن بلده وقومه، لا يعرض من وطنه على الناس إلا صورة الباطل، ولا يتكلم عن أخيه في الغيب إلا كلمة السوء. ذلك لأن الروح الوطني الاشتراكي الذي يستمد سناؤه وسناه من روح الله إذا سري في نفس ابن آدم جعل فديته قومية، وأنانيته غيرية، وعصبيته إنسانية، وخاصته من الخير لله وفي الله عامّة.

كلمات قصار⁽¹⁾

23 يوليو سنة 1952

كنا في ذلك اليوم برأس البر، نصبح ونمسي كنتلاء السجن من غير حرية ولا متعة، ونعدو ونروح كدُمى الأراجوز من غير إرادة و شعور. وكان الجو الاجتماعي في كل مكان متأثراً بالجو السياسي في القاهرة: حرارة عالية، ورطوبة شديدة، وضيق يكرب الصدور، وخناق يقطع الأنفاس.

وكانت التجارب الوزارية في عابدين ورأس التين كالتجارب الذرية في روسيا وأمريكا، ترج الوجود المصري رجاً عنيفاً، وتزلزل الكيان القومي زلزلاً مخيفاً.. وكل أولئك وأيدي الحكام والساسة مشلولة لا تتحرك، وأعينهم مطروفة لا تبصر، وألستهم معقودة لا تلغو.

وكان الذي قلب نظام الطبيعة وعاق سير الفلك شخصية واحدة ! شخصية أخطبوطية من عمل الشيطان مدت خراطيمها المتشعبة القوية إلى كل ناحية من نواحي المجتمع، فكانت في نوادي القمار جرافة تجرف الفيش، وفي مواخير الفسق ذراعاً تخاصر الدعارة، وفي بيوت المال خطافاً يلهم الذهب، وفي أركان اللذة مدية تذبج الفضيلة، وفي أركان الجريمة خنجراً يغتال البراءة، وفي وزارات الحكم قدماً تطمس العدالة، وفي رئاسة الوزارة يداً من جسم الخلافة تقبل، وفي مشيخة الأزهر بقية من نسل النبوة تقدس⁽²⁾!!

وكانت الدلة قد غلبت على نفوس الشعب من طول الظلم واستبطالة الإرهاب فاستنم للهوان.

فما هو إلا أن ضرب الجيش ضربته حتى انفجر الطاغية المنفوخ، وانطوى الإخطبوط المنتشر، وخشع السلطان الفاجر، وخنس الشيطان الغالب وتقوض الحكم

(1) كتبت هذه الكلمات أيام تأميم القناة وعدوان إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر.

(2) إشارة إلى ما أذيع يومئذ من أن فاروقا نبعة من نبعات الرسول.

الذليل، وعز الشعب المنتصر، واعتدل الزمان المائل، وانتظم الفلك الدائر، وأعادت الثورة مصر لأهلها بعد 2480 سنة قضتها تحت حكم الغريب الواغل، تمسك الفأس وهو يمسك الكرباج، وتأكل التراب وهو يأكل الذهب. فأثبتت للشعوب المستذلة أن أغلال العبودية وأثقال الطغيان مهما تهد من بنيانها على تتابع القرون، وتضعف من إيمانها بتوالي الخطوب، لا بد أن تشعر يوماً من الأيام أن لها قوة تأتي العجب إذا أرادت، وأن لها إرادة تحقق المستحيل إذا وعت.

هنالك سمع المصطفون نبأ الثورة من الإذاعة فأخذوا يتعانقون في الشوارع من غير معرفة، ويتزاورون في العشش من غير ميعاد، ويتقبلون في الفرح والمرح والتهنئات والتهنئات حتى الصباح !.

الصليبية التاسعة

باسم السيد المسيح الذي كفرت به أمريكا فجعلت إسرائيل التي صنعت صليبه، وتولت تعذيبه، سادنة لقبره وكاهنة لكنيسته. باسمه غزت فرنسا وانكلترا سورية وفلسطين ومصر ثماني غزوات صليبية في مدى قرنين من العصر الوسيط، كان فيها لويس السابع يقاتل بجانب كونوراد الثالث، وفيليب أغسطس يجاهد بجانب رتشارد قلب الأسد، فلقوا من السلطانين نور الدين وصلاح الدين ما أراهم في النهار نجوم الليل، وأذاقهم في الدنيا عذاب جهنم. ثم انخلع قلب الأسد ففر إلى انجلترا ولم يعد !.

وانفردت بالغزوتين السابعة والثامنة السيدة فرنسا فأقبل ملكها لويس التاسع إلى قبرص ! وقضى بليماسول فصلي الشتاء والربيع يجمع جموعه ويحشد سفنه ويهيئ عتاده ويجهز مؤنه، ثم أفلع بجيشه الجرار وأسطوله الضخم إلى دمياط فاحتلها. ثم زحف إلى المنصورة فوجد الجيش المصري ينتظره مع الموت بالحديد والنار، والشعب المنصوري يترصده بالقتل في كل شارع وفي كل دار ! فقتل أخو الملك وهلك جيشه، وارتدت لهزيمة النكراء إلى القديس لويس ومن معه من الأمراء والنبلاء والقادة شرقي (البحر الصغير) فوق أسيراً في يد الجيش، واقتيد صاغراً إلى دار ابن لقمان فلبث فيها سجيناً حتى فدوه بثمانية ألف دينار، ورحل عن مصر مكلاً بالخزي والعار !.

واليوم، وبعد سبعة قرون من فرار رتشارد وأسر لويس تعود انكلترا وفرنسا فتتزلان قبرص مرة أخرى لتحاولا باسم الطماعية والصوصية، لا باسم المسيحية والفروسية، أن تشنا الغزوة التاسعة على مصر !.

فكيف تطمع الغبيتان في النصر على صلاح الدين الثاني ومعهما حمق إيدن وكفر جي موليه، بعد أن بالتا الهزيمة أمام صلاح الدين الأول وكان معهما بطولة العاهل الفارس وإيمان الملك القديس؟.

فكروا طويلاً يا جناء (دنكر) ويا أذلاء (سيدان) ! واعلموا أننا في المنصورة أبداً جيشكم بالقتل، ووسمنا ملككم بالذل، ولم يكن دم المماليك هو دم العرب، ولا جيش طوران شاه هو جيش عبد الحكيم، ولا مصر الملك الصالح هي مصر الرئيس عبد الناصر !.

لجنة وجيش

لجنة وجيش، أم حماقة وطيش؟ ولم لا تكون الأربعة جميعاً؟ لجنة للمداورة تمثل عقلية أمريكا، وجيش للمناورة يمثل عقليتي انجلترا وفرنسا، وحماقة تمثل سياسة إيدن، وطيش يمثل سفاهة جي موليه !.

هل سمعت بهذا في آبائنا الأولين؟ عصابة من الدخلاء الثقلاء يقتحمون عليك بيتك ليشتروه أو يستأجروه فيفاوضونك فيه باللسان المعسول والوداد الخادع، ويلوحون لك بالخير العاجل والثلثين الربيع، ويجعلون بينهم وبينك الموائيق والقوانين، ثم تنظر من النافذة فترى حول البيت نطاقاً مضروباً من البنادق المصوبة والخناجر المشرعة، تطلب منك أن تنزل عن البيت، وإلا عرضت نفسك لكيت وكيت !.

المنطق غير هذا: إما أن تناقش ومعك الحق، وإما أن نهوش ومعك القوة أما أن تجمع بين الحلو والمر، أو بين اللين والخشونة، أو بين الحلم والسفه، فذلك منطق لا يصدر إلا عن قوم أطبق عليهم الجنون، وسقطت عنهم التكاليف !.

إن مهزلة قبرص جعجعة ولا طحن، وسراب ولا ماء. وإن مصر وسورية ولبنان اليوم غيرهم بالأمس: ملمسهم خشن ولحمهم مرّ .

وإن البيان الذي صرح به الرجل الصموت العمول الجاد عبد الحكيم عامر عن استعداد الجيش المصري ليخرق الآذان الموقورة وينفذ إلى الأذهان الصلدة ! وأن عبد الناصر لا يزال يحفظ قول الشاعر العربي الأبي الصادق:

وحارب إذا لم تط إلا ظلامه شبا الحر خير من قبول المظالم

الاستعمار يَأْتَمِر !!

تتعاوى اليوم دول الاستعمار في لندن، كما تتعاوى الذئاب الجياع في الغابة !.
يتعاون على الفريسة التي بحث من بين أصدقاءهم المتحلبة بمعجزة ! ويتباكون على ما أصاب الحق والحرية والسلام من نجاة القناة ! ومعهم في قاعة المؤتمر أقوام آخرون، يسمعون ويسخرون، لأنهم جربوا في أنفسهم مفعول هذه الكلمات الحلوة المسمومة أيام استضعفهم هؤلاء البربر فاستعبدوهم باسم الحرية، وظلموهم باسم العدالة، وأكلوهم باسم الحق، وجندوهم باسم السلام، ولم ينقذهم من كلاليب " جون بول " وألاعب " مريان " إلا أنهم عرفوا كيف يستعملون السكين !.

ذلك في لندن. أما في القاهرة فيقف منقذ القناة وحده بقوامه الفارع، ووجهه المتهلل، وعزمه المشبوب يسمع إلى عوائهم في هدوء، وينظر إلى شعبه في ثقة، ثم يقول بصوته الجهير لمدوي لديدان العلق التي تمتص دم الحي، وتفسد ماء الحياة، يقول لهذه الديدان ذوات الخراطيم الدامية ومدافع الأساطيل مصوبة إليه، وألسنة الأباطيل مؤلبة عليه: كذبتُم ! ليس لهذه الكلمات في لغاتكم مدلول صحيح إن الحق هو الذي أفعله، وإن السلام هو الذي أريده، وإن الحرية هي ما صرنا إليه لا ما كنا فيه. وسنلقاكم في إحدى الساحتين: ساحة القانون أو ساحة السيف. والحكم بيننا وبينكم هو الضمير العالمي الذي استيقظ، والإباء العربي الذي استعدَّ.

إن مؤتمر لندن بقية من مؤامرة الاستعمار على العرب، وصورة من محاوره الذئب للحمل، ولكن العرب بعد أن ثار في دمائهم تاريخ الفتوح وعصفت في رءوسهم نخوة الجنس، لم يعودوا غلة للاستعمار ولا فريسة للذئب.

ولعل الله أن يخفف الصمم عن مسامع إيدن، وجي موليه، ودلاس، فيسمعوا صوت الحق في دوى هذه الرعود، ويفرقوا بين مأمأة الخراف وزمجرة الأسود ! !.

فضوه !!

نعم فضوه، فض الله أفواه من عقدوه ومن أيدوه !.
وَفَضَّ أفواه الأفاعي أمان من لدغاتها القاتلة، وضياح لسمومها السائلة. وليست
الأفاعي على عدائها الموروث لبني آدم أضر عليهم من أولئك الساسة الذين يغذون
دولهم بلحوم الناس، ويشوون سمكهم في حريق العالم !.

لقد كان مؤتمر لندن خزيًا لعقل الغربي وضميره. عقده من لا يملك عقد بالحق،
ودعا إليه ما يشايح رأيه بالباطل، ثم أسلف له القرار قبل الانعقاد، وأعد له الحكم قبل
المداولة، وضمن له التصديق بالخوف والطمع، وطلب له التأيد بالجيش والأسطول !.
وكان المتوقع أن يظل الشرق شرقا والغرب غرباً كما قال كبلنج وكما فعلت الهند
وروسيا وإندونيسيا وسيلان، ولكن شرقيين مثلنا تتحد قلوبهم وقلوبنا في العقيدة
والقبلة، وترتبط شعوبهم وشعوبنا بالجوار والمصلحة، وتتجاوز أسمائهم وأسمائنا في
قرارات باندونج، أبوا إلا أن يكونوا أجراساً في ذيول الأفاعي، وإبراً في قرون الشياطين،
وغربيين أكثر من أهل الغرب !.

نعم كان مؤتمر لندن خزيًا لعقل الإنسان وضميره، وكان أخزى ما فيه أمران:
أولهما أن الإنسان الغربي لا يزال يعيش كما كان يعيش الإنسان البدائي في الغابة: هواه
إلهه، وشهوته شرعه، وغريزته دليله، وقوته عدته.

والآخر أن أكثر الدول الإسلامية لم تتحرر بعد من الخوف ولم تتخلص من
التبعية: وليست علة ذلك أنها فقيرة فهي غنية، ولا أنها ضعيفة فهي قوية، وإنما علته أنها
لا تعتقد دينها الاعتقاد الحق، فلو أنها آمنت بقول الله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾
[الحجرات:10] وبقول رسوله: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " لما
ضمت باكستان وإيران وتركيا أيديها إلى أيدي الذين يسددون الطلقات إلى مصر كنانة
الله في أرضه ! ولكني أمسك ولا أزيد.

قالَت الضفدع قولاً رددتـــه الحكمــــــــاء

في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء؟

والماء الذي في فمي أمل في أن يؤمن المسلم، ويتحرر العبد، ويهتدي الضال إلى
طريق الجماعة.

كيف أخذوا امتياز القناة

بطبق " المكرونة " التي كان يعبدها سعيد، وبحلوى " البلادونة " التي كان يعشقها إسماعيل، استطاع دلسبس أن يظفر بامتياز القناة !.

كان الغبي البطين سعيد يموت في المكرونة، وكان طاهي دلسبس يجيد صنع هذا اللون. وكان الشهوان البدين إسماعيل يذوب في البلادونة، " المرأة الحسنة "، وكان نابليون الثالث يحسن تقديم هذا الصنف !.

والله الذي جعل عقول الناس في أنصافهم العليا، جعل عقول الخديويين في أنصافهم السفلى ! فبنو آدم يفكرون بما في الرأس، وبنو محمد علي يفكرون بما في البطن ! وبهذا المركب الحيواني الشاذ حكموا مصر قرناً ونصف قرن من الزمان كانت فيه جنة قصف وفسق ولذة للحاكمين، وجحيم عبودية وسخرة وعذاب للمحكومين !.

أما تكاليف هذه القناة التي بيعت ببعض الأكلات الدسمة والحفلات الأثيمة فهي مائة ألف عامل سخروا لحفرها من غير أجر، ومائة وعشرون ألف قتيل ذهبوا ضحاياها من غير تعويض، وأربعة ملايين من الجنيهاً الذهب أنفقت في افتتاحها على النساء والملوك، وأربعة وأربعون في المائة من أسهمها أخذها الإنجليز منا من غير ثمن !.

ثم كان من جرائر خروج القناة من أيدينا أن كانت هي الباب الخلفي الذي فتحه دلسبس للجيش الإنجليزي فدخل منه خلصة إلى التل الكبير، ثم كانت المحافظة عليها بعد ذلك حجة الذئب في يد بريطانيا بررت بها احتلالها مصر أربعاً وسبعين سنة !.

نكبتان مدمرتان نكبت بهما مصر في مدى أربع عشرة سنة على أيدي ثلاثة ألواح من الشجرة العلوية الملعونة: احتلال فرنسا للقناة، واحتلال انجلترا للقاهرة ! سلطتان قاهرتان استبدتا بأمر الدولة، واستقلتا بخير الوطن، والتوتا بسير الشعب. ثم اجتمعتا أخيراً بمدن القناة فأقامتا بها حكومة داخل الحكومة، وسلطاناً فوق السلطان، وجيشاً ضد الجيش، حتى أراد الله للنكبتين أن تزولا، وللدولتين الباغيتين أن تدولا، فاجتشت قيادة الثورة تلك الشجرة الخبيثة من فوق الأرض حتى لا يكون لهما بين أوكارها وكر، ثم ضربهما عبد الناصر ضربته القاضية فخرتا صريعتين على أرض بور سعيد، ورفع بيده

القوية علم مصر على أقوى حصن من حصون الاستقلال، كما رفعه من قبل على آخر صرح من صروح الاحتلال.

هذه الضربة القاصمة الحاسمة التي قضت على دولتي الاستعمار في القناة؛ وفتحت لدول العرب باب النصر على مصراعيه إلى فلسطين، تستحق الفرح والفخر والبهتاف هنا، كما تستحق الفزع والهلع والهذيان هناك.

الاستعمار يموت !

من حكايات الريف أن طماعاً من ذوي المكر والخديعة كان يدير عزبة لشاب من أهل البيوت الكريمة، فكان يحول دائماً بينه وبين المجيء إلى العزبة بما يلقيه في روعة من فتك الذباب والبعوض، وسطو القتلة واللصوص، حتى شب جاهلاً بأمور المزرعة، لا يميز الحمار من البغل، ولا يفرق بين القمح والرز. وكان الناظر الخبيث يقدم إلى المالك الطيب في آخر كل عام ميزانية مفصلة بالوارد والمنصرف لا يغادر منهما كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، فكان ذلك يزيد في ثقة الفتى به ويحمله على الاستئمان إليه. وكان يقيد عليه فيما يقيد مائتي جنيه كل سنة ثمناً لكذا بلعاً للجمال⁽¹⁾ فيقرأ الشاب هذا الرقم فلا يشك في أن الجمل ينتعل البلغة كما ينتعل الحصان الحدوة. واستمرت الحال على ذلك أعواماً حتى نضج عقل الفتى وازداد علمه، فسأل نفسه وسأل الناس: لماذا تنفرد الجمال بانتعال والبلغ دون البقر والجاموس؟ ثم انتهى به التفكير والمعاناة إلى أن في الأمر جريمة. فدعا الناظر إليه وقال له في إنكار وتعجب:

يا فلان ! إني علمت أن الجمال لا تلبس البلغ فكيف...

فقاطعه الناظر وقال في استسلام وأسف: الله ! أنت عرفت أن الجمال لا تلبس البلغ؟ الآن انقطع عيشي من عندك. ولن أخدمك بعد اليوم !.

كذلك فعل الاستعمار بالشرق ! حجب عن عينه النور وعن عقله المعرفة. ثم استقل دونه بأمره وخيره. فاحتجز أكثر أمواله لنفسه ثم قيدها في الميزانية أثمناً لنعال الذهب للجمال، وعمائم القصب للبالغ، وفساتين الحرير للبقر ! وما كانت الجمال ولا البالغ ولا البقر إلا بنيه وموظفيه من بريطانیا وفرنسا وهولندا، حتى كشف الله الغفلة عن عيم الشرق فرأى المستعمر تحت سلطان الحماية والوصاية والاحتلال والانتداب يعبث في أرضه بالفساد، ويذر في رزقه بالسفاهة، فصاح به من كل جانب في أفريقيا وآسيا أن أخرج أيها اللص بالرضا وإلا خرجت بالكره !.

(1) البغ جمع بلغة وهي ضرب من الأحذية غليظ النعل والجلد ولا عقب له.

فحاول الماكر أن يجعل السرقة شركة والمخلفة محالفة، ولكن وعينا كان أقوى من مكره، وعزمنا كان أنفذ من تصميمه. والسكتة الناطقة التي سكتها الشرق مع مصر يوم الإضراب الشامل ساعة افتتح اللصوص مؤتمر لندن كانت أقتل للاستعمار، من بأس الحديد وقوة النار !.

اتفاق سنة 1904

كان اتفاق لصوص على سرقة، وتعاون أشرار على عدوان !.

وأصله أن انجلترا وفرنسا اللتين دخلتا في الدول " العظمى " من باب الغش والتدليس، أو من نافذة الفحش و " التهليس " توهمتا أن موطن العروبة - وهو مصدر الحضارات ومشرق الديانات - قد أصبح بفضل " العبقريّة " التركية موطن الثراء المتروك وموضع الرقيق المملوك، فاتفقتا على اقتسامه أولاً بالنفوذ والمال، ثم على امتلاكه ثانياً بالاحتلال والاستغلال. وبدأتا بتطبيق هذا الاتفاق الجنائي على مصر وشمال أفريقية. وعلى حين فجأة انتفض المارد العربي الراقد انتفاضة قذفت بالمتفقتين خارج الحدود !.

فلما نهضتا من السقطة وأفاقتا من الدهشة أقبلتا معاً في رعاية ذلك الاتفاق إلى شواطئ قبرص ترصدان غفوة المارد، وترقبان سنوح الفرصة !.

لا يا مستر إيدن، ولا ان يا مستر جي موليه ! ! لقد عقدتما ذلك الاتفاق في سنة 1904 حين كان على تراث محمد اتركي الفاتح الناطور الذي كنتم تسمونه " الرجل المريض "، وعلى تراث محمد العربي الرسول المارد الذي كنتم تسمونه المارد الحبيس ! ونحن اليوم وأنتم في سنة 1956، فهل نسيتم أن الرجل المريض " تركيا " قد مات، وأن وراثته قد آلت إليكم بطريق التبعية السياسية والعبودية المالية، وأن المارد الحبيس قد انفض عنه خاتم القمقم فطاول السماء بهيكله، وحجب الأفق بدخان، وأرعد العالم بصوته، وزلزل الأرض بقدمه، ثم نفخ على وطنه المغصوب من لهيبه ففرت الذؤبان، وطارت الغربان، وهلك المكروب، وخلصت لأهلها الأرض الطيبة !.

لقد طال شعر شمشون⁽¹⁾ يا دليلة ! فقولني لدولتي الاستعمار، إذا لم تكتفيا من شمشون بفك الحمار، فسيقوض عليكم الهيكل وينجو !.

(1) قصة شمشون الجبار ودليلة المحتلة معروفة، كانت قوته كامنة في شعره، فلما جذته ذهبته، ولما طال عادت. ومن أخباره أنه فتك بمع من أعدائه ولبس في شعره إلا عظم فك حمارة.

حرية وجمهورية !

اتخذ مقعده في الدرجة الأولى من السيارة الحافلة العامة، ومكن لنفسه في الجلوس بأربع هزات من نصفه الأعلى ضغط بها على قاعدة الكرسي وظهره... ثم قطب من وجهه وشمخ بأنفه ووضع ساقاً على ساق... ثم أخذ نفساً طويلاً من سيجارته ونفثه في الهواء بقوة... ثم جعل يتلفت إلى اليمين وإلى الشمال وإلى الخلف، ينظر إلى جميع الركاب من سيدات وسادة نظر التحدي والاستفزاز، يريد أن يجرؤ أحدهم فينبهه إلى أنه في الدرجة الأولى لا في الدرجة الثانية. وكان من المحتمل أن يصدر هذا التنبيه من أحد، لأن خشونة الشاب في لباسه وحركاته كانت تحمل على الظن بأنه أخطأ موضعه.

كان قد خرج لتوه من الورشة وعليه ثياب العمل: بنطلون من الكاكي الأصفر عليه بقع واسعة من الزيت والشحم، وقميص من التيل الأبيض فيه خطوط عريضة من الغبار والعرق، وحذاء من الجلد الغليظ لا تدري لطول عهده بالصنغ على أي لون كان... ولكن الناس كانوا مشغولين بهمومهم عنه لم يشأ أحد منهم أن يفجر القنبلة التي في صدره.

وقف المحصل أمامه وفي نظراته إليه بعض الشك والاستفهام، فصرخ الشاب في وجهه وقال:

بتبص لي كده ليه؟ أنا راكب بفلوسي.. دي حرية.. دي جمهورية.. خد...

وأخذ المحصل النقود وأعطاه التذكرة.

وأستطيع أن أقول للشاب الآن وأنا بعيد عن مرمى شفتيه ويديه: إن كل ما قلته يا أخي حق، ولكن الحرية لا تنافي الذوق، والجمهورية لا تعادي النظافة. وإن دينك وهو دين الجماعة قد سن للاجتماع سننا يجب أن تتبع، وفرض للسلوك آداباً يحق أن تراعي. وإذا كان من سنن الدين ألا تأكل الثوم ولا البصل ولا الكرات يوم الجمعة، وأن تغتسل وتزين وتتعطر قبل الذهاب إلى الصلاة، فإن من سننه أيضاً ألا تركب مع الراكبين وأنت قذر الثياب، وألا تجلس مع الجالسين وأنت مريض البدن.

من آثار العبودية

بأمر الثورة وحكم الدستور أصبحنا جميعاً سادة، فلا عبودية لصاحب الحكم، ولا تبعية لمالك الأرض، ولا طاعة لغير القانون.

واقتضت المساواة في السيادة أن تلغي الرتب والألقاب فتحقق بذلك المثل القائل: كل إنسان، في نفسه سلطان !.

ولكنك لا تستطيع بالأمر أن تمنع الكلب أن يصبص لك بذينه، ولا القط أن يتمسح فيه بجنبه. وسر الوراثة الذي يعلم الفرخ الخارج من البيضة كيف يلقط الحب وينشر الجناح، هو الذي يفرض على سلائل المستعبدين أن يحنوا الرأس ويدهنوا اللسان.

لقد ألغيت الرتب والألقاب من سجلات الحكومة وقوانين الدولة، ولكن لفظي الباشا والبك وتوابعهما من صاحب المعالي وصاحب السعادة وصاحب العزة لا تزال لاصقة بالأفواه لصوق الريق، تتردد في الخطاب، وتتدخل في الحديث، وتُنشر بين قوسين في الصحف. وليس لذلك موجب إلا هوان النفس على النفس، واعتياد الدليل للذل.

إن الفقير أو الضعيف لا يزال ينظر إلى الغني أو القوي من خلال الهالة التي ضربها هو من حوله بفقره أو بضعفه. فهو بحكم العادة يخاطبه خطاب الأدنى للأعلى، ويرى من الصعب على نفسه أن يسمى صاحب الطين والعقار، ورب الدائرة والدوار، ومالك الحياة والموت عليه بالأجرة أو الإيجار: (علي حمدي) بعد أن ظل أكثر عمره يسميه "علي باشا حمدي".

وابن آدم كما يشهد تاريخه الطويل وضيع بطبعه. يضع لنفسه من الحجر أو الشجر صنما يعبد، إذا لم يجد في جنسه من الملوك والطغاة من يستعبده.

وهو يرضى هذه الضعة فيه بلذة الخضوع لذوي المال أو الجاه وإن لم يأت من ناحيتهم نفع.

قال شاعرنا المتنبي:

وقفت يوما على فاكهاني ببغداد اشتري منه بطيخًا. فساومته عليه بكذا درهما فأبى أن يبيعي إياه إلا بضعف ما فصلت. ومر عليه وأنا واقف رجل من ذوي الهيئات فأعطاه في البطيخ نفسه أقل مما قدمت فقبل، وأمره أن يحمله إلى داره فأطاع. فلما قلت له: رفضت أن تبيني البطيخ بالثمن الأكثر، وقبلت أن تبينه ذلك الرجل بالثمن الأقل. وحملته إلى داره بنفسك وكنت إذا اشتريته أنا لا أكلفك هذا الحمل. فما معنى هذا؟.

فقال لي الفاكهاني: أتدري من هذا؟ قلت: لا. قال: هذا فلان صاحب الضياع التي لا تحد، ومالك الأموال التي لا تعد ! !.

فسلمت لمنطق الطبع وطلبت المال منذ ذلك اليوم !.

أي أيامك أروع يا جمال؟

أيوم نفخت في الصور يا ثائر فبعثت شعبنا من رمسه..
 أم يوم قذفت بفاروق في البحر يا قائد فطهرت أرضنا من رجسه.؟
 أم يوم صرعت الإقطاع يا مصلح فأنقذت قومنا من يؤسه.؟
 أم يوم أعلنت الجمهورية يا عظيم فاستخلصت عرشنا من غاصبيه.؟
 أم يوم حققت الجلاء يا بطل فاسترجعت استقلالنا من ساليه.؟
 أم يوم أمت شركة القناة يا رئيس فاسترددت مالنا من ناهيه.؟
 كل يوم من هذه الأيام الستة ملحمة فريدة فصولها آيات بطولة، وتاريخ حافل
 صفحاته سجلات مجد، ومعركة فاصلة تنتهي بعهد وتبتدئ بعهد !.

وإن أيامك يا جمال من أيام الله وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون !.
 سمعتك يا جمال وأنت تخطب في الإسكندرية خطبتك الأخيرة الخطيرة فتلقى في
 سمع الزمان أقوالك بالحق، القاطعة بالعزم، القوية بالإيمان، وأقطاب العالم كله سكوت
 حول الراديو يستمعون لما تقول، ويهتمون بما تقرر، ويتخوفون مما ترمي، ويتشاورون
 فيما نريد، فتذكرت رجلين كنت أسمعهما وأنا في عهد الشباب يتكلمان فينصت الدهر
 وتميد الأرض وتخضع الدول وتهتز أسلاك البرق وتفيض أنهار الصحف، أحدهما السير
 إدوارد جراي في لندن، والآخر الإمبراطور غليوم في برلين. وربما كان التصريح الذي
 أعلنه هذا، أو الخطاب الذي ألقاه ذاك، عبثاً من العبث. أو يخفا من السخف، ولكن قوة
 الكلام من قوة المتكلم. فالأول كان وراءه أقوى أسطول في البحر، والثاني كان وراءه
 أقوى جيش في البر.

وأراك يا جمال بلغت اليوم ما بلغ ذاك الرجلان من غير أسطول كان من بعض
 قواده نلسون، ولا جيش كان من أقل جنوده هتلر !.
 فبأي شيء بلغت هذا المبلغ في أربعة أعوام وقوى الشر كلها في الداخل وفي
 الخارج كانت حرباً عليك.؟

قل بفضل الله الذي اصطنعك واصطفاك، وبفضل الله الذي كفأك من سوء ما
 كفأك، وبفضل الله الذي أرشدك ورعاك.

في المصعد

دخلنا المصعد معاً. ثم أغلت السمرء الباب ومدت يدها إلى لوحة الأزرار وعينها إلى الشقراء الجميلة تسألها بالنظر إلى أي طابق تصعد.
الشقراء - العاشر من فضلك.

السمرء - وأنا أيضاً في العاشر. أظنك زائرة. فإني لم أرك من قبل في سكان الشقق السبع

الشقراء - أنا مدعوة إلى العشاء عند بعض الأصدقاء.

ثم نظرت في ساعة يدها وعادت تقول:

كان الموعد الساعة الثامنة فتأخرت نصف ساعة بسبب المواصلات البطيئة.

السمرء - أوه ! لعن الله المواصلات ! تصوري أنني قطعت المسافة بين مصر الجديدة وهنا في ساعة ونصف ! ولولا أن زوجي استأذني أن يتعشى في النادي هذا المساء لطلبت إليه أن يجيئني بالسيارة.

وكنت في أول النهار قد استأذنته أن أبيت عند أمي المريضة هذه الليلة فأذن في ألم ظاهر وضيق شديد. فلما وجدت حالتها أحسن فضلت أن أبيت في بيتي وألا أشق على زوجي...

وكان المصعد قد وقف على باب الطابق العاشر فخرجت منه السيدتان ووقفت الشقراء مترددة تلتفت ذات اليمين وذات الشمال وتنظر في أرقام الشقق فسألتها الشقراء:

عن أي رقم تبحثين؟

-: عن رقم 45

-: 45 !! عند جلال " بك "؟

-: نعم:

- إن شقته لجوار شقتي فتعالي معي.

وقفت الدليلة أمام الشقة الخامسة والأربعين وتطوعت بغمز الجرس. فسمع السيدتان من خلف الباب قدمين تقبلان في سرعة، ويدين تفتحان في لهفة. وفتح المصراع الأيمن فإذا جلال أمام زوجته وصديقه وجهها لوجه !.

دخلت الزائرة الحسناء وهي تحسب أن رفيقة المصعد قد انصرفت إلى شقتها المجاورة ونظرت أمامها فإذا جلال قد تهالك على الكنبه غائب الوعي فاقد الحركة.

ونظرت وراءها فإذا سعاد قد أغلقت الباب وأطبقت يدها على المفتاح ثم أسرع إلى التليفون فأرادت الأرقام: 1، 2، 2 ولم يمض غير قليل حتى فتحت الباب ثانية لشرطة النجدة فأثبتت في محضرها الكباب والشراب وحضور العشيقة وغيبة الخدم !.

قص علي هذا الحادث الأستاذ.. ك. محامي الزوجة وعقب عليه بقوله: لم يدم هذا الزوج غير ثمانية أشهر، لأن الزوج كان من طراز إلهامي حسين يتخذ الزواج من الأميرات والغنيات حرفة. يعيش معهن عيش الخادم فيمالق وينافق ويتواضع. ويعيش مع غيرهن عيش السيد فيتأله ويتأبه ويتعالى. وهو في الحالين يبيع من كرامته ليشتري ملذاته، ويأخذ من زوجته ليعطي عشيقاته.

خروف العيد

حيوان وديع مطيع ساذج، كتب الله عليه منذ ولد آدم قابيل وهابيل، وابتلى الله إبراهيم بذبح إسماعيل، أن يكون سفك دمه تكفيراً عن خطيئة خاطئ أو فداء عن حياة هالك. والقرايين من الحيوان الضعيف الأليف شعيرة من شعائر الأديان كله. وكان من هذه القرايين ما يحرق وكان منها ما يذبح. وإذا خفيت عن العقول حكمة الأضحية المحروقة فإن الأضحية المذبوحة نوع من الصدقة دليل على التقوى. ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: 37].

والخاطر الذي استبد بفكري وأنا أسمع مأمأة الخراف ترتفع ليل نهار من الشوارع والبيوت أن ضعف هذا الحيوان هو الذي قضى عليه بهذا المصير ! فلو أن له مخلباً كالأسد أو ناباً كالنمر لأفتى ابن آدم بعلمه الواسع أنه من الأنواع التي لا يجوز شرعاً أن تقدم قرباناً ولا أن تذبح تضحية.

وقانون الطبيعة الذي لا ينسخ ولا يلغى ولا يعطل. في البر والبحر، وفي الغابة أو المدينة، وفي عصر الحجر وعصر الذرة، أن الأقوى يفترس القوس، وأن الأضعف يختل الضعيف.

وبمقتضى هذا القانون الأزلي الأبدي كان في الأرض قطعان من الإنسان، كما كان فيها قطعان من الخرفان، هذه وتلك تؤمن وتضمن لتقدم طعاماً شهياً على موائد الطغاة، أو قرباناً زكياً على مذابح الآلهة !.

والعاصم الوحيد من مدية الكاهن أو الجزار، أن تكون من ذوات الأنياب والأظفار، لا من ذوات الأصواف والأوبار.

وإياك أن تغتر بكلمات الإنسانية والمدنية والديمقراطية والأخوة والعدالة فإنها الطعم للصائد الماكر إذا صعب عليه أن يغترف السمك بيديه !.

اجتهد دائماً أن يكون في يدك السكين لا أن يكون في عنقك الحبل !.

كومنولث العبيد

أول ما خطر ببالي وأنا أفكر في عنوان مقالي أن أجعله (الكومنولث الإسلامي) ولكن عز عليّ أن أنسب إلى الإسلام وهو دين الحرية والسمو عملاً ليس فيه أثارة من حيه ولا دلالة من معناه، فقلت أجعله: (الكومنولث المتطوع) ولكن التطوع لا يكون إلا من ذات النفس لذات الخير، وهذا العمل جبر لا خيار فيه، وشر لا خير منه.

فقلت أنحت له اسمًا من أسماء أعضائه الأربعة، فأخذ من تركيا (تر) ومن باكستان (با) ومن العراق (عر) ومن إيران (أن) وأقول الكومنولث التبرعاني.. ولكنني وجدته أخذ الحرفين من لفظ العراق وكان الحق أن آخذهما من لفظ (نوري) فإن العراق العربي الأبّي المسلم لا يخرج على إجماع العروبة وهو مختار. ولا يخالف عن أمر الإسلام وهو حر. فضلا عما في الاسم المنحوت من التبر والبر وأدب الحديث عن الدول مهما تسيء بنفر من هذه الحروف. ولذلك عدلت عنه إلى العنوان الذي تراه.

* * * * *

وأمر الذي أكرهني على أن أخوض حديث هذا الكومنولث المتطفل أني رأيت أكثر أعضاء الكومنولث البريطاني قد ضاقوا ذرعا بجرائم (جون بول) فنزعوا إلى الانفصال عنه أو شاركوا الأحرار في الإنكار عليه إلا العضو المسلم فيه فقد ازداد إيمانه به واشتد إخلاصه له حتى رأى من شرف الجهاد في سبيله أن يؤلف هو وثلاث دول أخرى تشهد معه أن لا إله إلا الله كومنولث آخر يشارك الأول في الولاء لتاج الملكة، وينفرد هو بالعبودية لقبة إيدن، فيعادي من تعادي ويوالي من توالى، ولا يجري في معاداته أو موالاته على منفعة يجرها عليه أو مضرة يدفعها عنه، وإنما يجري فيهما على شعور العام بلذة التبعية التي غلبت على غريزة الحرية فيه، فهو يجافي روسيا لمنفعة غيره، ويصافي إسرائيل لمضرة نفسه ! ولا أدري لماذا تنقلب الأوضاع وترتكس الطباع في هذه الدول التي تعتقد الإسلام دون غيرها من سائر الدول؟ فهل في الإسلام ما يبرر هذا المسخ النفسي الذي يستحب العبودية على الحرية والتبعية على الاستقلال؟ حاشا لدين الله الذي كرم بني آدم وربأ بهم أن يسجدوا ليشر أو حجر أن يكون جرثومة لهذه الآفة

الإنسانية في هؤلاء المرضى وهو الذي وضعهم من قبل موضع الصدارة من العالم
 فمكن لرشيد العراق أن يقول للسحابة: أمطري حيث شئت فإن خراجك لي، ويسر
 لفتاح الترك أن يجلس على عرش القيصر في القسطنطينية، وهياً لأسلاف باكستان أن
 يملكوا الهند؛ ألم يقل الله لهم في كتابه الذي يؤمنون بتنزيله، ويستدلون بدليله: ﴿يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ
 الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ
 وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: 1] بلى
 قال الله ذلك وسمعوه، ولكنهم لم يطيعوه، لأن العبودية التي تخللت مشاعرهم
 وضمائرهم ذلك الدهر الطويل قد أماتت في نفوسهم روح الحرية، وطمست في
 رؤوسهم معنى الاستقلال، فأصبحوا كالنساء لا يشعرون بالوجود إلا بجانب زوج، أو
 كالأرقاء لا ينعمون بالأمان إلا في حمى سيد !

* * * * *

ولعلك سمعت بخبر ذلك العبد الذي قضى أكثر عمره يخدم سيده بجدة، ويرعى
 ماله بذمة حتى أراد السيد، يمن عليه بالحرية، جزاء على إخلاصه في العبودية، فقال له
 العبد في ذلة ومسكنة: وماذا أصنع بالحرية يا مولاي؟
 أتكسوني حرיתי مثل هذا الكساء، وتغذوني مثل هذا الغذاء. وتسكنني مثل هذا
 القصر؟ لا يا مولاي ! أنا عبدك ما حييت. تطعمني فأطعم، وترعاني فأسلم. وهل العيش
 إلا شبع وأمن؟.

تلك هي الفلسفة الحيوانية التي عبر عنها امرؤ القيس بقوله:

إذا ما لم تكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصي
 فتملاً بيتنا أقطاً وسمناً وسبك من غني شبع ورئى

والإبل في لغة حلف بغداد هي أمريكا أو الدولار، فإذا لم يجدوا السبيل إليها
 اكتفوا بالمعزى وهي انجلترا أو الجنيه. لذلك لم يكادوا يعلمون أنفي مشروع (أيزنهاور)
 للشرق الأوسط الإبل الحلوب والعشار حتى كانوا أول من صدق به وصفق له !.

ولو أن دول هذا الكومنولث الجديد أبعد نظرا من ذلك العبد وأسمى فكرا من هذا الشاعر لأدركوا أن وراء الغذاء والأمن، أو الأقط والسمن، أو الجنيه والدولار، حياة سياسية أخرى تليق بالإنسانية الرفيعة، لا تقتصر على مآرب الجسد، ولا تنحصر في مطالب الإقليم، ولا تستكين للأمير مكيافلي ولا للوزير نوري، ولا تعتمد إلى وحدة العرب فتشتتها بالطمع، وإلى جماعة المسلمين فتفرقها بالشقاق، ولا تستغل بلايا الاستعمار في الشعوب من جهل وفقر ومرض لتحملها على المركب الهاوي في غيابة اللجنة.

هذه الحياة الخيرة المتحررة المستقلة هي التي تعوز حلف بغداد ! وليتهم سموه حلف أنقرة فإن ساستها به أحق، وسياستها به أشبه !.

* * * * *

إن الاستعمار الذي يركله الحذاء العربي في كل مكان يتجمع اليوم بحقده وعناده وجرائمه في إسرائيل ليهجم هجومه الأخير الحاسم على أرض العرب، وسيجعل الصهيونية في هذا الهجوم رجله وحلف بغداد يديه.

فهل يدري هؤلاء الساسة عاقبة ما يفعلون؟ وهل تدري شعوبهم حقيقة ما يبيّتون؟ وهل تبلغ بهم لذة العبودية للغرب وشهوة السيادة على الشرق أن يتخلوا في سبيلها عن أخوة الجنس وإخوانية الدين وحرمة الجوار ومدافعة الخطر العام واستنقاذ الوطن المشترك؟ لو أنهم كانوا فقراء لقلنا جياح يجرون وراء الرغيف، ولكنهم يملكون من موارد الرزق ومصادر الثروة ما تتحلب له أشداق الأمم الأخرى. ولولا ما في أيديهم من يناعيع النفط لما نشأ استعمار ولا نشبت جرب.

* * * * *

فإلي متى أيها المسلمون في تركيا والعراق وإيران وباكستان تستكينون لشياطينكم الذين يحاربون بكم إخوانكم في دين الله وشركاءكم في تراث محمد وزملاءكم في جهاد الإنجليز؟ هل تظنون أنه يغني عنكم في الدنيا أن تقولوا: إخواننا ! أنا معكم بقلوبنا فلا تؤاخذونا بما فعل المأجور والدخيل، ولا يشفع لكم في الآخرة أن تقولوا: ربنا إنا

أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل.. لا يا إخواننا لا معذرة منا ولا مغفرة من الله !
 إن هذا الزمن زمن الشعوب. وما هؤلاء الذين يبيعونكم للاستعمار بالثمن البخس إلا
 أفراد ضعاف الحول لهم ألسن تعرض وأيد تقبض. أما نتم فالسيوف التي تضرب
 والسواعد التي تنتج والقوى التي تنفذ. ما لكم تلقون بأنفسكم وأموالكم في أتون
 الصراع بين الرأسمالية والشيوعية وقد جعلكم الله أمة وسطا تأمرون بالمعروف وتنهون
 عن المنكر وتؤدون رسالة والوئام والمحبة؟.

ما بالكم تتبعون هؤلاء الغواة الذين يريدونكم على أن تظلوا توابع لشمس كسفها
 الله فلا ضوء ولا حرارة، وعما قليل سيكوّرها فلا يكون جرم ولا فلك.

ذكروا هؤلاء الخادعين الطامعين أن شمس المدينة قد أرسلت علينا أول أشعتها في
 صبح الوجود، ثم متع ضحاها فغمرتنا بالنور والشعور والقوة، ثم انحدرت إلى المغيب
 في بلاد المغرب حتى بلغت خيوطها أطراف الشفق. إنها ستعرب لا محالة، وإنها
 ستشرق لا محالة. وإن غروبها لا يكون إلا هناك، وإن شروقها لن يكون إلا هنا. وها
 هي ذي تبشير الصباح قد لاحت في آفاق مصر وسورية وهيئات أن ينكروها بالألسن
 أو يستروها بالأكف !.

الرسالة والأزهر والميثاق

التجدد والتقدم والاتساع والشمول من طبيعة الرسالة المحمدية لأنها رسالة الدهر كله والناس كله. تضمن أصلها السماوي الخالد سر المجتمع البشري المثالي كما تتضمن النواة سر النخلة السحوق، والنطفة معنى الإنسان الكامل، فهي تسير مع الزمن، وتتطور مع الناس، وتتسع مع العمران، وتتعمق مع العلم، ليكون فيها لكل غاية منهج، ولكل أمة دستور، ولكل علة علاج، ولكل قضية حكم.

تفطرت هذه النواة عن سرها الإلهي على يد غارسها الأعظم بالمدينة، فغذاها الوحي، وسقاها الإيمان، وتعهدها النبوة، حتى قام في ظلها البادئ مجتمع الأنصار والمهاجرين على الوحدة والأخوة والتعاون، ثم انبسط الظل في بوادي الجزيرة كلها فجعلها واحة للعدل والإحسان على قدر ما تتقبله الحياة البدوية والطبيعة الجافة، ثم امتدت الرسالة مع خلافة الراشدين إلى مشارف الشام وأرياف العراق وجنات مصر، فنفتخت في الحضارتين الرومية والفارسية من روح الله فنفت عنهما الخبيث، وأبقت منهما الطيب، وساستها على نظام فريد من نظم الحضارة الروحية المسلمة. بم أدركت الخلافة الأموية في دمشق وهي تمد عينها إلى أبهة البلاط الكسروي وترفه فكسرت من نظراتها الرغبية، وشغلته بالفتح الزاحف، وأسعفتها بالتشريع المقيد، وأقرتها على اقتباس النظم السياسية والإدارية والاجتماعية مما لا يخالف أصلاً من أصول الإسلام ولا يجافي خلقاً من أخلاق العروبة.

ثم انتقل سلطانها مع بني العباس إلى العراق وكان العرب قد فتحوا أكثر المعروف يومئذ من الدنيا القديمة، فامتد ملكهم من الهند والصين شرقاً إلى جبال البرانس غرباً، فأوت إلى ظلها الوارف وكنفها الرحب أجناس الناس وحضارات الأمم وثقافات الشعوب، فلم تضق بعلم ولا فن، ولم تبرم بحضارة ولا عمارة، ولم تتجهم لزخرف ولا زينة، ولم تعي عن جواب ولا حل، ولم تصد عن تطور ولا تقدم، وإنما أخرجت مما خلفته القرون من العادات والاعتقادات والمذاهب والنظم مزاجاً من العقلية العربية والمدينة الإسلامية كرم الإنسان وعدل الميزان ومدن العالم.

وها هي ذي تتقبل اليوم النظام الاشتراكي العربي في مصر كما يتقبل الأصل فرعه الذي اشتق منه لا تنكره ولا تزور عنه. وما كان لرسالة محمد أن تنتكر للاشتراكية العادلة المعتدلة وهي التي جعلت للفقر حقاً معلوماً في مال الغني لا يكمل دينه إلا بأدائه، وعالجت الفقر علاج من يعلم علم الاضطرار أنه أصل كل داء ومصدر كل شيء. وقد أوشك هذا العلاج أن يكون بعد توحيد الله أرفع أركان الإسلام شأننا وأكثر أوامره ذكراً وأوفر مقاصده عناية.

ولو ذهبت تستقضي ما نزل من الآيات وورد من الأحاديث في الصدقات والبر، لحسبت أن رسالة الإسلام لم يبعث بها الله آخر الدهر إلا لتنقذ الإنسانية من غوائل الفقر وجرائر الجوع. وحسبك أن تعلم أن آي الصيام في الكتاب أربع، وآي الحج بضع عشرة، وآس الصلاة لا تبلغ الثلاثين، أما آي الزكاة والصدقات فإنها تربي على الخمسين.

فأنت ترى أن هذه الرسالة التي نزلت على جبل النور في واد غير ذي زرع لم تلبث بفضل ما استكن فيها من نور الله وعلمه أن سارت مسير الشمس من مشرقها تتدرج مع طاقة العقل وحاجة الناس في الارتفاع والاتساع حتى أضاءت كل مكان وأحيت كل هامد. تدرجت من خلافة عمر في المدينة إلى ملكية معاوية في دمشق، ومن إمبراطورية الرشيد في بغداد إلى جمهورية عبد الناصر في القاهرة، ولم يخب لها نور، ولم يفتر لها حرور، ولم تسكن لها حركة. وإذا حدث في بعض العصور المتخلفة أن احتجبت أشعتها الهادية عن النفوس فأصابها البرود والهموم والغفلة، فذلك لأن فساد الزمن وذهاب السلطان واستعجام اللسان تنشئ سحاباً ثقالاً من الجهل والشك تحول بين الأبصار والهدى، وتفصل بين البصائر والحكمة.

في عصر من هذه العصور التي غامت فيها الآفاق الإسلامية بهذا الركام انقطع الأزهر وهو وريث النبوة عن دنيا الناس فلم يتصل بها منه إلا أعلام قلائل كانوا كالضوى في هذه المفازة يصطفاهم الله من حين إلى حين ليجددوا دعوته ويعلنوا كلمته. كان الأزهر يعيش حينئذ على بعض التراث الإسلامي من فقه وحديث وتفسير وما يعين عليها من نحو وصرف وبلاغة. ولم يكن يعني من الفقه إلا بالعبادات وهي مناط

الصلة بين العبد وربّه. أما المعاملات وهي مناط الصلات بين المرء وغيره فلم يكن يعني بها ويتفقه فيها إلا رجال القضاء والحكم في الدولة. ولا تسلب بعد ذلك عن علوم الدنيا من طب وفلك ورياضة وزراعة وكيمياء وفيزياء وصيدلة، فقد كانت من الفضول الذي لا يعبأ به أحد ولا يفرغ له بال.

زار القاهرة في عهد محمد علي مستشرق أوربي فطلب أن يجتمع بعالم أزهرى له دراية بعلم الفلك فلم يجدوا له بعد طول البحث إلا شيخا واحدا درس هذا العلم على نفس هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتي.

كان ذلك ولا ريب ميلا عن طريق الرسالة المحمدية التي جاءت لتصل الأرض بالسماء، وتنظم بالدين، وتحيي المادة بالروح، وتكشف الجهالة بالعلم، وتمحو الضلالة بالهدى، ولكنه كان ولا ريب أيضاً عرضاً زائلاً ومرضاً موقوتاً لا تلبث علته أن تزول متى انجابت تلك السحب وتجلّى من ورائها دين الله نور السموات والأرض فجمع المتفرقين على الوحدة وحفز المتخلفين إلى التقدم. لذلك لم تكد عواصف الثورة تبدد السحب عن وجه الشمس حتى عاد الأزهر إلى مداره من فلك الرسالة وقد بلغت عصر الذرة، يقتبس منها أشعة الهدى والعلم ليسهم في بناء الاشتراكية العربية التي وضع قواعدها (ميثاق عبد الناصر) على أسس ثابتة من الدين والخلق والعلم والعمل والعدل والكفاية والحرية والسلام والوئام والوحدة، وهي أسس كانت في كل عهد مضى وفي كل جيل خلا أحلاماً لا تحقق ومبادئ لا تطبق حتى جمعها الله في رسالته وأوحاها إلى رسوله فصلح عليها الناس ما داموا على طريقها المستقيم الواضح. فلما توقع المنكر واستهتر البغي واستحكم الجهل انطفأت أضواؤها السماوية في نفوسهم فأمنوا بها إيماناً أثريا ظاهرياً لا يتعدى تحريك الألسنة والجوارح بالآيات والصلوات للتبرك أو العادة!.

ولكن الثورة التي أطاحت بالطغيان وبطشت بالإيقاع وبشرت بالديمقراطية ودانت بالاشتراكية واتخذت سنّها وهداها من كتاب الله وسنة الرسول وإرادة الشعب لن تدع بعد ذلك سبيلاً إلى علة تصيب الحكم ولا آفة تفسد المجتمع.

قال الأزهر للثورة يوم دخلت عليه المحراب تستنهضه ليتبوأ الصدر من قيادة الإصلاح وإمامة النهضة: نعم ونعم عين ! إن الثورة من طبعي، وإن الاشتراكية من روحي، وإن الهداية من واجبي، وستجديني في طوري الجديد إن شاء الله مظهراً لرسالة التأثر الأعظم فأكون كما كنت طباقاً من العلم والعمل، ونظاماً من الدين والدنيا، أخرّج العالم المجتهد الذي يجعل من فقهه رسالة ومن بيانه دعوة، والطبيب الروحي الذي يجعل من عبادته عبادة ومن مرضاه إخوة، والمهندس التقى الذي يجعل من عمله جهادا ومن خلفه قدوة، والموظف المتدين الذي يؤثر رضا ربه على رضا نفسه في كل نزعة أو نزوة. وهذا هو الإصلاح الجوهرى الشامل الذي تمنى بعضه المصلحون فلم يجدوا من أرباب السلطان والحكم معينا عليه ولا سبيلا إليه.

إن (ميثاقك) الذي عاهدت الله على الوفاء به، وعاهدك الشعب على اللقاء عليه، حروف من كلمات الله يؤلفها أحد من قبلك في أي عهد؛ لا في القديم والحديث، ولا في الشرق والغرب. لم يبق شيء في نفوس المعذبين في الأرض والمستضعفين من الناس إلا وجدوه فيه. ولو كان واضعه ممن جرب عليه للكذب وعرفت عنه الخديعة لقلنا سراب ولا ماء، وقعقة ولا طحن، ودوحة فينانة من شجر الصفصاف: خضرة في العين، ولا ثمر في اليدين ! ولكنه عبد الناصر الذي عود العالم في عشر سنين ألا يقول إلا بعد ن يعمل ويجتهد، وألا يفعل إلا بعد أن يعلم ويعتقد.

فسيرى أيتها الثورة على بركة الله وأنا أسعى بين يديك بكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.

الشاعر الصعلوك

كان الشاعر الشاب عبد الحميد الديب⁽¹⁾ غفر الله له نمطاً وحده في شعراء العصر، كان ظهوره رجعة إلى نوع انقرض من الشعراء الهجائيين المستهترين المكدين الذين لم تهيئهم طباعهم للعمل الكاسب فأخلدوا إلى التبطل وحملوا عجزهم وعوزهم على لؤم الناس وظلم القدر، من أمثال أبي الشمقمق الذي يقول:

إن العيال تـركتهم بالمصر خبزهم الغضارة
وشرابهم بول الحمار مزاجه بول الحمارة
ويقول:

ولقد أهزلت حتى محت الشمس خيالي
ولقد أفلسـت حتى حل أكلـي لـيـالي
من رأى شيئاً محالاً فأنا عين المحال
وأبي فرعون الذي يقول:

وصبية مثل فراخ الذر سود الوجوه كسواد القدر
عاد الشتاء وهم بشر بغير قُـمـص وبغير أزر
حتى إذا لاح عمود الفجر وجاءني الصبح غدوت أسري
وبعضهم ملتصق بصدري وبعضهم منحجر بحجري
أسبقهم إلى أصول الجدر هذا جميع قصتي وأمري
أنا أبو الفقر وأم الفقر

هؤلاء المفاليك المجان الذين جعلوا الشعر وسيلة إلى العيش بالهجاء الفاحش، والمدح المكذوب، والشكوى المستمرة، كانوا طبيعيين في المجتمع العربي القديم الذي كان يفهم الشعر على هذا النحو. فلما ذهبت بقايا هذا النوع بذهاب خليل نظير، وإمام العبد، وأحمد فؤاد، وأضرابهم، وأصبح للشعر في الأدب الحديث مفهوم آخر

(1) تقدم لكتاب (عبد الحميد الديب) الذي وضعه فيه صديقه الدكتور عبد الرحمن عثمان.

وأغراض آخر، كان شعر الديب شذوذاً في نسق مطرد، ونشوزاً في نغم مؤتلف، ولكنه ككل شاذ وكل غريب متجه الأسماع ومضطرب الألسن.

ذلك إلى أنه كان يجري على أسلوب الحطيثة وابن الرومي في قوة الهجاء، وعلى أسلوب ابن حجاج وابن سكرة في فحشن المجون، وكان يختلف عن هؤلاء جميعاً بألوان من الصور والتشابه انتزعها من بيئته ونقلها عن واقعة.

نشأ الديب في أسرته الصغيرة الفقيرة كالنبته البرية في الرملة الجافة لا يمسكها أصل راسخ، ولا يسندها جذع قوي، ثم عاشت على علالة الجذب وبلالة الندى فاخضرت من غير نضارة، وأشوكت من غير زهر، وظلت في العراء تقاسي السموم والقيظ، وتكابد السغوب والظما، حتى اقتلعتها الريح وألقت بها هشماً في أهدود من أحاديث الأرض.

قست الطبيعة على الديب فلم تزوده بما تزود به الحي الكامل العامل بالكفاية الكافية لابتغاء العيش السائغ الهنيء، فكان رغبة جامحة لا تحققها قدرة، وشهوة عارمة لا تضبطها إرادة. ورأى نعم الله تفيض من حوله على من يراهم مثله أو دونه، وليس له منها مورد ولا فضل، فأطال لسانه الحقد، ورفع عقيرته الجوع، وألهب شعوره الألم، وأمض نفسه الحرمان، فصدر عنه شعره كما يصدر الأنين عن المجروح، والصراخ عن المظلوم، والزمجرة عن الساخط. ولم يفهم الشعر على أنه فن يلذ أو رسالة تؤدي، وإنما فهمه على أنه سلاح يحمي، أو شخص يصيد. وكان منشأ ذلك الفهم القديم للشعر الحديث أنه كان كأكثر الشعراء القدماء لم يعرف الحياة على أنها جد وكد، وإنما عرفها على أنها لهو وصعلكة، ولذلك قضى حياته البوهيمية البهيمية شهوان لا ينام إلا على المسكر والمخدر، ولا يتيقظ إلا على الجوع والظما.

ولعل حظه العاثر المتخلف لم ينهض به في حياته وبعد مماته إلا مرة واحدة، تلك المرة هي التي أتاح له فيها قلم صديقه الدكتور عبد الرحمن عثمان، فحمد ذكره بهذا الكتاب القيم، ذلك الكتاب الذي لم يظفر بمثله شوقي ولا حافظ.

رسم الكتاب فيه صورة الديب فأقام هيكلها من شعره، ثم جعل فيها اللون والظل والبروز مما عرف من سيرته، واكتنه من سريره، وكشف من أموره، فجاءت الصورة

واضحة الملامح، بينة الحدود، واقعية الدلالة، يترجم عنها بيان مشرق، ويدلل عليها منطق صائب. فذا تأملت هذه الصورة أو قرأت هذا الكتاب بدا لك الديب عريان على الفطرة بعُجره وبُحره، بناه وقرمه، بعوائه وجولانه، بسره وعلنه. وذلك غاية ما ترجمه من كاتب يكتب للتاريخ، ومن كتاب يترجم لشاعر.

إبراهيم مصطفى⁽¹⁾

لم يكد الخالدون⁽²⁾ الفانون يكفكفون دموعهم على فقد زميلين عزيزين هما المؤرخ شفيق غربال، والعالم إسماعيل مظهر، حتى عادت فتقاطرت على فقد زميل عزيز ثالث هو الأديب إبراهيم مصطفى. والأسرة المجمعية يحزنها أمض الحزن أن ترى المنايا السود يتخطفن أبناءها واحدًا بعد واحد في أزمان متقاربة وهي لا تملك لهم إلا عبرات تجف على حر الأسى، وذكريات تمحى على كر السنين.

نعم إن المجمعين كالأنواء في السماء كلما سقط نجم منها في المغرب طلع بحيله نجم آخر في المشرق، فلا يزال العالم الأدبي منهم في ضوء مستمر وغيث متصل، ولكن غروب الغارب ينسي شروق الشارق ويسلم النفس إلى ليل من الحزن طويل موحش. والناس أمواج في خضم الحياة، تتولد من بعيد، ثم تتعاقب وتتدافع فترتفع وتنخفض، وتضطرب وتضطفق، وترغي وتزيد، حق تبلغ الساحل فتتكسر على صخورها أو تغيب في رماله! ونحن الشيوخ نرى بأعيننا الكليلة صخور الشاطئ ورمال القفر على مدى قريب، ف نجد في أنفسنا الرضا بحلول أصدق المواعيد لأنه العاقبة التي لا مفر منها والغاية التي لا معدى عنها. وسنة الله في خلقه أن يشيخ الشاب ويهيح الزرع ويجيء الأجل ويموت الحي، ولكن الإيمان بيقين الموت والاطمئنان إلى نهاية الحياة لم يستطيعا أن يحبسا في العين دمة الحزن. ولا أن يخففا عن القلب لوعة الفراق.

والحزن على نوابغ الشيوخ هادئ ولكنه عميق، لأنه مبعثه فكرة والفكرة ولود. أما الحزن على نواضر الشباب فهو ثائر ولكنه ضحل، لأن مبعثه عاطفة والعاطفة عقيم.

الحزن على فقد الشاب لجميل حزن على زهر ذوي وزرع آف وأمل خاب وسند تحكم، ولكن الحزن على الشيخ العظيم حزن على ثروة ضخمة من العلم والخلق والمواهب والتجارب والمرانة، عمل في تكوينها مع الطبيعة الحرة والزمان الطويل

(1) نص الكلمة التي أقيمت في حفل التأبين الذي أقامه مجمع اللغة العربية بداره للفقيد في يوم 28 مارس من سنة 1962 .

(2) لقب يطلق على أعضاء مجمع اللغة العربية وأمثاله في كل بلد.

عوامل جمة وأحوال مختلفة حتى أصبحت قوة ي طاقة الإنسانية وقطعة من ثروة العالم، يحدث فقدانها في سير الحياة من الخلل ما يحدثه فقد الضرس الصغير في الدولاب الكبير.

وإذا قال أبو تمام:

إن الفجعة في الرياض تواضرا لأشد منها في الرياض ذوابلا

فقد صور الحزن العاطفي على جميل فقد، ولم يصور الحزن العقلي على نافع ذهب. إن في كل ساعة من ساعات الليل والنهار ألوفاً من الأنفس تبتلعها القبور فلا يعقب فقدهم فراغاً ولا دهشة، ولكن فقد عظيم واحد في العلم أو الأدب أو الفن أو السياسة أو الإصلاح يحدث في العالم من الخسران ما عبر عنه عبدة ابن الطبيب بقوله في قيس ابن عاصم:

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه ببيان قوم تهدما

* * * * *

لم يكن إبراهيم مصطفى علماً على شخص وإنما كان علماً على ثروة. كان ثروة ضخمة من علوم القرآن وفنون اللسان تجمعت بالحفظ والدرس والتحصيل والتمحيص والدأب والصبر والإيمان في خمس وسبعين سنة من يوم مولده إلى يوم وفاته.

نشأ الفقيد في بيت من بيوت القرآن، فقد كان أبوه رحمة الله قارئاً لكتاب الله مقرئاً إياه، فأخذته منذ الحداثة بحفظه وتجويد لفظه وقراءته على الأحرف السبعة التي أنزل عليها. ثم غرس في ذهنه البكر أصول العلوم. فحفظه الألفية في النحو والتلخيص في البلاغة والكنز في الفقه والشاطبية في القراءات. عرف ذلك منه لدته في العمر ورفيقه في الدرس المرحوم أحمد أمين حين تلاقيا أول مرة بأحد المساجد الكبرى في السنة الأولى من هذا القرن، وكانا مجاورين بالأزهر: أحمد في سن الخامسة عشرة، وإبراهيم يصغره بسنة. فعجم كل منهما عود صاحبه بسؤاله عما يحفظ وعما يعلم. فلما وقف أحمد أمين على مقدار تحصيله قال: فأكبرته واستصغرت نفسي. ومن ذلك الحين تصادفنا، وكان موطن الصداقة أول الأمر هذا المسجد لسعته وهدوئه. وكنا نجتمع

لمذاكرة الأدب نحفظ من مقامات بديع الزمان ومما نختار من رسائله، ونستظهر ما نختار من أمالي القدر، ونقرأ في بلوغ الأرب من أحوال العرب للألوسي، وأمثال الميداني، ولا مرشد يرشدنا إلى ما نقرأ وما لا نقرأ. ثم تفرقت بنا السبل وإن لم تفرق صداقتنا. فاتجه إلى مدرسة اللغة والأدب والصرف والنحو وهي مدرسة دار العلوم. واتجهت إلى مدرسة الفقه والقانون وهي مدرسة القضاء الشرعي، ولكننا كنا نجتمع في الإجازات الصيفية فنتمم ما بدأناه من دراسة الأدب".

من هذا الجذع الغليظ العميق من فنون العلم تفرعت في ذهن إبراهيم شجرة المعرفة. وبهذه الحصيصة الأولية القوية من مختلف المحفوظ دخل إبراهيم دار العلوم، فلم يكد يظفر لملكاته الموهوبة بالعلم الصالح والجو الملائم والمنهج المؤدى حتى نمت في ذهنه تلك البذور، وانشعبت من أصلها هذه الفروع، وأصبح إبراهيم بين أقرانه ورفاقه الغصن الذي يطول، للزهرة التي تعد.

قال زميله وزميلنا الأستاذ زكي المهندس - مد الله في عمره -: "كان من حظي أن أزال الفقيده في الدراسة خمس سنوات كوامل، يضمنا فصل واحد، وتجمعنا آمال مشتركة. وأشهد أنه أجودنا حفظاً لمنون اللغة وفن التجويد وعلم القراءات، وأشدنا شغفاً بالبحث في كتب النحو والصرف، وأكثرنا إلماماً بنصوصها وشواهدا وشروحها وحواشيها. فما من مسألة لغوية عويصة عرض لها الأساتذة إلا كان له فيها جولة تم عنه اطلاع واسع وذكاء ملحوظ حتى دعاه أستاذنا لمرحوم سلطان محمد بسيوييه الصغير. ولقد ظهرت في الفقيده بواكير الحرية في التفكير والنزعة إلى التجديد في هذه الفترة من حياته، فلم يكن كغيره من الطلاب يسلم بما بقوله الأساتذة من غير نقاش ولا بحث، وما زالت أذكر نقاشاً حاداً جرى بينه وبين أستاذ الأدب المرحوم الشيخ علام سلامة حين قرر أن أمدح بيت قالته العرب قول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فقد فند هذا الرأي المأثور وأخذ يدلل على خطئه بأبيات من شعر حسان وغيره".

وكذلك كان أمره مع سائر الأساتذة في قضايا النحو والصرف. ولعل صوت الطالب إبراهيم مصطفى كان أول صوت ارتفع في دار العلوم بالدعوة إلى تحقيق المأثور عن القدامى من هذه التعليقات الفاسدة والأقوال الخاطئة. وكان من أعز أمانيه وهو في دار العلوم أن يكون يوماً مدرسا بها. وكانت الخطوة الأولى في سبيل هذه الغاية أن تبعثه الدار إلى إنجلترا ليستفيد ويستزيد. وقد رشحته فعلاً للبعثة، ولكن فشله في الفحص الطبي حال بينه وبين ما تمنى.

لم يرض لنفسه أن يكون هذا التخلف القهري عن الدراسة في الخارج سبيلاً إلى تخلفه عن أُنْداده المبعوثين في العلم والمكانة.

وإنما رضي لها أن يكون حافظاً ألهب طموحه إلى التفوق وأرهف عزمه على التكمّل فأنف أن يسلك سبيل المتخرج العادي البادئ فلم يعمل في المدارس الأميرية وإنما عمل في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ليكون الأفق من أمامه أرحب، والأرض من تحت أقدامه أثبت، والحرية في تطبيق أحكامه أطلق، والمكافأة على جهوده أجزل، فكان معلماً فناظراً فمفتشاً، حتى إذا عاد أقرانه من إنجلترا وجدوه في المنصب المرموق بالمرتب المضاعف. ثم سمت به كفايته إلى كرسي الأستاذية بكلية لآداب من جامعة القاهرة، فسطع فيها نجمه وتجلّى بها نبوغه. تخصص في تدريس النحو فاستقصى أطرافه واستجلى غوامضه، وأولع بقراءة كتاب الحجة لأبي علي الفارسي في القراءات يستوعبه ويستوحيه ويجد في جلاء لما تخالج في صدره منذ صغره من اختلاف القراءات وتعدد اللهجات وتنوع العلل. فجره ذلك إلى النظر في فلسفة النحو وإصلاح ما أفسده النحاة المناطقة منه فبدأ بالعمل. والعامل كما تعلمون هو المحرك لسكون الكلمات ولا محرك غيره. فالاسم مثلاً يرفع لعامل وينصب لعامل ويخفض لعامل ويجزم لعامل. فإذا لم يكن العامل ظاهراً قدره، وإذا لم يكن موجوداً أولوه. ولما سئلوا عن العامل في رفع المبتدأ قالوا إنه الابتداء، وعن العامل في رفع المضارع قالوا إنه التجرد من الناصب والجازم. فقل لهم إن في جعل الابتداء عاملاً في رفع المبتدأ تكلف لا يسيغه ذوق ولا يسوغه منطق، وإن تجرد المضارع من الناصب والجازم عدم والعدم لا يعمل، فردوا على ذلك بكلام لا غناء فيه ولا طائل من ورائه.

هدم الفقيه هذه القاعدة وأنكر أن يكون الرفع والنصب والجر أثر العامل وقرر أن العربي حين يرفع الاسم يلحظ فيه أنه مسند إليه أو مخبر عنه وأنه أساس الجملة. فإذا جره لحظ فيه الإضافة إما بأداة أو بغير أداة، أما إذا نصبه فلأن الفتحة هي الحركة المستحبة عند العرب يستخفونها إذا لم يدعهم داع إلى الرفع أو الجزم. وعلى هذا الأساس بني نظريته في إعراب الاسم، وعلى هذه النظرية وضع كتابه (إحياء النحو).

ولم يجد هذا الرأي مساعدا في عقول النحاة العصريين فردوه وفندوه، ولكنه كان صحيحة فيهم لإصلاح هذا النحو وتيسيره لا يزال رجوعها يدوي في دار العلوم والأزهر والمجمع اللغوي حتى اليوم.

مضى إبراهيم في جهاده اللغوي المرهق المثمر، يحاضر الطلاب ويوجه المعلمين ويعاونون في وضع الكتب، ويشارك في رسم المناهج، حتى تولى العمادة في دار العلوم فأعطاهما أكثر مما أخذ منها، وأبلغها فوق ما بلغ بها. وفي سنة 1949 انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية ليجلس على كرسي المرحوم علي الجارم فاستوي عليه استواء الند الكريم والخلف الصالح، واضطلع بأعبائه في لجنة الأصول وفي لجنة المعجم الوسيط وفي لجنة تيسير الإملاء وفي لجنة معجم ألفاظ القرآن فنهض بها نهوض الكفّي الضليع لا يتخفف منها لأنها رسالة حياته، ولا يتبرم بها لأنها حاجة نفسه. ولقد قال في خطبة استقبله بالمجمع: "لقد أمضيت سنوات في مسألة من النحو قيل إنني رأيت فيها رأيا واتخذت في دربها نهجا. والآن أستبشر أنني في ظل المجمع أستطيع أن أخطو خطوة ثانية، وأن أجد ما أحتاج من التسديد والإرشاد والعون". وكانت هذه الخطوة الثانية أن تبنى في المجمع المشروع الذي وضعه قواعده في لجنة تيسير النحو بوزارة التربية والتعليم وكانت مؤلفة منه ومن زملائه طه حسين وأحمد أمين وعلي الجارم فجادل عنه بالحجة، ودعا إليه بالحكمة، حتى أقره المجمع ومؤتمره.

وكان لهذا التيسير أثره في تعديل المنهج وتأليف الكتاب وتوجيه المعلم، فأخذته صحيحة من النقد العاصف في القاهرة وفي دمشق، وكان وهو وليه ونصيره يومئذ يقاسي

دورًا من أدوار علته المزمنة، فلم يستطع رد الكيد عنه ولا صد الهجوم عليه، فقتل في القاعة التي ولد فيها من قاعات (دار العلوم).

ثم وجه همه إلى تيسير الكتابة العربية، وهي المشكلة الثانية من مشكلات اللغة بعد النحو، فكان له رأي في رسم الهمزة واقتراح في كتابة الألف اللينة واشتراك في اختصار حروف الطباعة. أما في لجنة المعجم الوسيط فقد عمل فيها على هدي ما تأصل في نفسه من هوى الإصلاح والتجديد. كان يبالغ في حذف المهجور من الألفاظ والتراكيب، وبغير من بعض المأثور من الأمثلة والتعاريف، ويرانا نقف في إثبات الجديد من الألفاظ عند قرارات المجمع وإجماع الناس وضرورة الحاجة، فيثبت هو إذا ما انفرد بالعمل في بعض الحروف، بعض الكلمات الخالصة في العجمة: كالبكس والنياترو والتايريتير، وكان الكتاب قد ارتضوا من قبل ذلك الملاكمة والمسرح والآلة الكاتبة، ولكنها النزعة الطاغية التي استبدت بالفقيد في مجال التقريب بين الفصحى والعامية.

وفي لجنة معجم ألفاظ القرآن كان قطبا من أقطابها الذين يدور عليهم البحث ويرجع إليهم الحكم. وبحسبكم دليلا على مكانته منها وحسن بلائه فيها أن الشيخين الأكبرين إبراهيم حمروش، ومحمود شلتوت، وهما ما هما بين أعضاء هذه اللجنة، جاءاه يوما وهو جالس معي في قاعة المجلس يعتبان عليه أن ينقطع عن العمل معهم في المعجم لخلاف في الرأي لا يصعب الاتفاق فيه، ويرجوان منه في إلحاح أن يصل ما انقطع من مشاركته. كان إبراهيم يلقي المعاذير ويظهر التأبي، فقال لي الشيخ شلتوت عافاه الله: ما الحكم فيمن يهجر مجلس القرآن ويصر على الهجر؟ فقلت له مازحًا: يدخل في منطوق حكم الله الذي قضاه بقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: 124] فأخذ الشيخان يدفعان بيديهما في صدره ويقرآن بقية الآية الكريمة ويرددانها وهو يستغيث بي ويقول أفقيتهما بقتلي وتضحك؟.

وحزّص الفقيهين الكبيرين على بقاءه معهما في لجنة المعجم القرآني شاهد على طول باعه في تفسير الكتاب وانفساح ذرعه في فقه مراميه، ولهايتين الفضيلتين من فضائله اختاره الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر عضواً في مجمع البحوث الإسلامية.

أما اختلافه معهما في النظر إلى حد الاعتزال فدلّيل على استقلاله في الرأي، واجتهاده في الفهم. والاستقلال والاجتهاد كانا من أخص صفات الفقيه، فقد كان له في كل مسألة رأي، وعلى كل رأي اعتراض، ومن هنا كانت حياته العامة كلها حياة تجديد ومعارضة.

* * * * *

سيداتي: سادتي ! كان إبراهيم مصطفى رجلاً ظاهر الرجولية بارز الشخصية في كل رأي رآه وفي كل عمل تولاه، وكان مظهر رجولته ومبرز شخصيته في اعتداده برأيه، واعتزازه بنفسه، وامتيازه في علمه.

كان من أثر اعتداده برأيه إنعتاقه من عبودية النص وانطلاقه من إसार التقليد، فهو في الدين مجتهد، وفي اللغة متطور، وفي النحو متحرر.

كان على تبحره في النحو وتخصّصه فيه وتعيشه عليه لا يتعصب له ولا يتزمت فيه، كان في لجنة وضع المناهج للمدارس الابتدائية والثانوية يصّر على حذف بعض الأبواب والأعضاء يخالفونه في هذا الحذف.

وكان في لجنة المعجم الوسيط يسرف في إغفال بعض المواد والأعضاء يراجعونه في هذا الإغفال.

وكان في لجنة معجم ألفاظ القرآن يجتهد في فهم معنى اللفظ والأعضاء يعارضانه في هذا الاجتهاد.

وكان غالباً ما يسفر الجدل بين التقيد والانطلاق عن رأي سليم يقف من المسألة عند حد الوسط.

على أن اعتداده برأيه كان يحمله أحياناً على أن يصطنع لهجة الأستاذية في خطاب بعض زملائه فيكدر ذلك من صفو المودة بينهم وبينه.

وكان من أثر اعتزازه بنفسه أن اعتراه ما يشبه الحساسية المرضية لكل ما يجافي شعوره أو ينافي كرامته. توثقت عري المودة بينه وبين سرى من أعيان السراة كان ولياً على شئون الجمعية الخيرية الإسلامية حين كان هو موظفاً بها، فأظله السرى بعطفه،

ورعاه بجاهه، وأزال الكلفة بينه وبينه. فما هو إلا أن بدرت من الرئيس المسلط كلمة تم عن سرواته أو رياسته حتى ملكته سورة العزة فانصرف عن مجلسه وصد عن لقائه، وكانت الخطوة لدى هذا الرئيس مطمح كل نفس ومطمع كل واصل. ولا أزال أذكر تلك القصة الرمزية التي شيع بها هذه الصداقة ونشرها في مجلة (السفور) بعنوان (وفاء كلب).

كذلك تأكدت بينه وبين الأستاذ أحمد أمين عقدة الحب فتساهما الإخاء منذ الصبا، وتقاسما الوفاء أكثر العمر، وخلط نفسه بنفسه حتى بلغ من حبه إياه أن سمى أحد ولديه باسميهما معا ليتحدا في اللسان لفظا كما اتحدا في القلب معنى: سماه أحمد أمين إبراهيم مصطفى. ولكن هذه المخالصة الشديدة لم تستطع أن تقاوم عزة نفسه حين حك في صدره شيء من تعالي صديقه، ولعل ذلك كان توهما منه ولدته الحساسية من اختلاف المنصب وذبوع الشهرة، ففتر الحب المضطرم، وفرغ القلب المشغول، وجرى الأمر بين الرجلين مجرى الزمالة المألوفة والصداقة العادية.

ثم كان من أثر امتيازاه في عمله أنه وصل ما انقطع من زعامة المصريين للنحو بعد ابن هشام وكانت هذه الزعامة قد انعقدت لمصر في القرنين السابع والثامن من الهجرة بمن نبغ فيها من أخلاف سيويه كطاهر ابن بابشاذ، وابن الحاجب وابن منظور وابن هشام والدماميني والأشموني والصبان. ولكننا إذا استثنينا من هؤلاء جمال الدين هشام الذي قال ابن خلدون: إنه أنحى من سيويه لنجد في الباقيين من نظر في النحو نظرة إبراهيم مصطفى. نظر القدامى في النحو على أنه غاية لا وسيلة ونظر لا تطبق، جعلوا النحو للنحو كما جعل قوم الفن للفن، وعالجوه معالجة المنطقي الفيلسوف لا معالجة اللغوي الأديب، فوسعوا أبوابه وعدادوا مذاهبه وشرحوا غوامضه ومحصوا حقائقه وفلسفوا علله، وبحثوا في كل شيء إلا في الموضوع الذي دار عليه والغرض الذي وضع من أجله. لم ينظروا فيه نظر الناقد المصلح الذي يرى المبهم فيوضه والمعوج فيقيمه والمشوش فيرتبه، وإنما اتخذوا منه رياضة ذهنية ومتعة جدلية تتسابق فيها الإفهام بالتقديرات الغريبة والتعليلات الباطلة. إبراهيم وحده هو أول من تمرد على هذا المنهج القديم وحاول أن يجعل من النحو وسيلة مباشرة لإحسان الكلام والكتابة بأيسر جهد

وفي أقصر وقت. ففضى أكثر عمره يخطط هذا النحو على النحو الذي يريد، وإلى الوجه الذي يقصد. فإذا أعجله الموت عن تنفيذ ما أمل فإن الفكرة الطيبة كالبذرة الطيبة تتعهدا الطبيعة بالغذاء والري حتى تخرج بإذن ربها نامية باقية.

كان رحمه الله عملياً يضع أمام عينيه الهدف الذي يعينه ثم يرميه من اقرب الجهات وأقصد السبل. فكر مرة أن يلغي النحو والصرف من مناهج التعليم الابتدائي والثانوي اكتفاء بتنشئة التلاميذ على النطق الفصيح والكتابة الصحيحة بالسليقة والمحاكاة كما كان يصنع العرب الأولون، فطلب من وزارة التربية والتعليم تخصيص لهذه التجربة فصلاً من فصول المدرسة النموذجية وكانت تسمى يومئذ الفصول التجريبية، وظل يمارس هذه التجربة عاما بطوله، ولا أدري ماذا كانت النتيجة.

كان إبراهيم إذن من نحاة الطبع لا من نحاة الصنعة، وكان علمه بالأدب وأساليبه لا يقل عن علمه بالنحو ومذاهبه. كان من النحاة الأدباء كالمبرد والزمخشري وابن جني، يكتب فيجيد، وينقد فيصيب، ويحاضر فيمتع. ولكنه أوتي اللسان الذلق والبديهة الحاضرة والقريحة الطيعة فطغت فيه ملكة الخطابة على ملكة الكتابة.

ذلكم أيها السادة بعض الكلام في جانب من جوانب الرجل الذي فقدناه، وإن جوانبه الأخرى لأرحب وأخصب. وإذا جل الخطب بفقده اليوم فإنه سيكون غداً بافتقاده أجل؛ لأن الغني عن مثله عسير، والعوض عن كفايته أعسر. واللغة العربية في محنتها الحاضرة يوهي من دفاعها ومنعتها أن تصاب في أبنائها الأحرار الأبرار الذين وقفوا جهودهم عليها، واستنزفوا أعمارهم فيها، وكانوا لها وزار في الشدائد وجئة.

أخانا إبراهيم !

إن إخوانك لا يزالون بعد أربعين يوماً من انصرافك إلى جوار ربك يغالبون الجزع عليك ويرادون العزاء عنك، ولكن كرسيك الذي لن يشغل في المجمع، ومكانك الذي لن يحتل في المجمع، وجهادك الذي لن يعوض في الأدب، يجعل الصبر على مصابك أمراً لا يدرك إلا بالزمن الطويل.

أخي إبراهيم !

دخلنا المجمع معا في يوم واحد وخرجت منه قبلي. والباب الذي خرجت منه مفتوح أبداً، لا يضيق ولا ينغلق. إنه الباب الوحيد الذي فتحه الله على حدود الدنيا ليجتازه كل حي إلى حيث يفنى كالبهيم، أو إلى حيث يبقى كالملك وأنت يا إبراهيم في الحياتين خالد: خالد في دنيا الناس بالذكر الحسن، وخالد في جنة الله بالعمل الصالح.

إن من بكاك فسوف يُبكي؛ وإن من رثاك فعما قريب يُرثى:

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار
فاذهب كما ذهب غواصي مزنة أثنى عليها السهل والأوعار

وسلام الله عليك يوم فقدناك.

وسلام الله عليك يوم نلقاك.

الجزيرة تنتفض مرة أخرى

تنتفض الجزيرة العربية اليوم انتفاضتها الأخرى، وكانت الأولى منذ أربعة عشر قرناً حين شاء الله أن تخفق على الجبال الصهب، فوق الرمال الصفر، أجنحة الوحي نازلة بنور السماء وعبير الجنة وسلام الروح ووحدانية الله وحرية الإنسان وعدالة الحق، على بلد أوبقته الوثنية وأهلكته العصبية وأكلته الحروب واستعبده الطغيان واستذله الحرمان وهان على الدنيا حتى أكل القذر وشرب الكدر وعبد الحجر وشرذ عن ركب الحياة.

فلما أصابه الغيث الإلهي اهتز القفر، وربا الصخر، وأنبت هذا البلد الجديد أخصب العقول بالرأي الحكيم، وأرطب القلوب بالإيمان الصادق، وأثبت الأيدي بالسيف الرادع وهؤلاء هم أصحاب محمد الذين بسطوا ظلال الله على صحاري الجزيرة؛ فنبضت بالحياة ورتعت في النعيم واطمأنت بالأمن ثم انتقل منها طلوعها الخصب مع الرياح اللواقح إلى كل أرض! ...

* * * * *

تلك كانت الانتفاضة الأولى للجزيرة التي وضع فيها أول بيت للناس، وبعث بها آخر رسول لله، انتفضتها بروح من عند الله ما شاء أن تنتفض، ثم انقبض عن صحاريها الظل، وخبا في أرجائها النور، فعادت كما كانت بالأمس قطعة مئبته متروكة، لا هي في عداد الناس ولا هي في حساب الزمن!.

جمدت الجبال فلا توحى، وصمتت الرمال فلا تهمس، فلم تعد له في النفوس معاني الوحي، واستعجم العرب فلم يعودوا يتدبرون آي القرآن. وقضت الجزيرة شمالها وجنوبها ألفا ومائتي سنة في ردة عامة ورقدة شاملة، لا يسعى فيها إلا ملك يطغى، وإمام يجور، وفاتك يلض، وشارد يهيم، وجائع يتضور. وانطمست آثار العمرين والخالدين⁽¹⁾ تحت أقدام الطغاة الفجرة من آل الحسين وآل سعود وآل حميد الدين، وتحطمت أصنام الشرك في مكة لتعود حية ناطقة في قصور الحجاز ونجد واليمن.

(1) العمران: أبو بكر وعمر. والخالدون: خالد وسعد.

جثمت هذه الأصنام الثلاثة بصدورها الحجرية على إنسانية الشعب العربي وكرامته وإرادته وثروته لا تتحلحل ولا تريم، يشربون ويسكي انجلترا وهو يشرب أبوال الإبل، ويأكلون خنازير أمريكا وهو يأكل دواب الأرض، وينفقون أمواله على حسان الترك والإنجليز وهو عاري الجسد خاوي الجوف لا يشعر بالحياة ولا تشعر به الحياة؛ حتى جاء عصر الذرة الذي راد السماء وزلزل الأرض وبلبل الأنفس وزعزع العروش فصاح بالنائم أن يستيقظ، وبالغافل أن يعي، وبالمتخلف أن يلحق.

وهبت على العالم العربي هبة من جانب مصر فيها ريح النبوة، ولها صوت الحق، يقول للشعوب الخائفة: إنكم مسلمون والمسلم لا يدين إلا الله، وإنكم عرب والعربي لا يستكين للذل، وإنكم أصحاب الأرض وما فوقها من زرع وضرع، وما تحتها من بترول وركاز، فليس من شهامة العربي ولا من كرامة المسلم أن تدعوا هؤلاء الطفيليين الفضوليين يستأثرون بخيرها دونكم، وما قوتهم إلا منكم ولا سطوتهم إلا بكم.

فإذا جردوا من الألقاب المزيفة، وأزيلوا عن العروش المستعارة، عادوا ناسا أقل من الناس؛ لأنهم كما قلت أصنام ينطق في أفواههم الشيطان ويوسوس في صدورهم المستعمر. ورحم الله شاعرنا الذي قال:

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم في الموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها

هنالك استجاب المستضعفون في الأرض والمعذبون في الناس لدعاء عبد الناصر إلى المبادئ الخالدة التي نزلت من عند الله على محمد رسوله، وأدركوا بعد لأي أن الأمر شورى، وأن الزرق شركة، وأن الحكم عدالة، فتحرك الأردن فصرخ الطفل، وتمردت السعودية فكش الملك، وثارَت اليمن فطاح الإمام !.

وعى عرب الجزيرة أن بواديهم لم تعد رملا ولا صخرًا، ولا آباراً تبض بالماء، ولا مراعي تظن بالعشب، وإنما أصبحت بفضل الأبحر السود التي تعج من تحتها بالنفط، مناجم تقذف بالتبر، وقصوراً تضج بالجواري، وجنانا تفيض بالنعيم. ولكنهم رأوا أولئك كله احتوشته فئة باغية لتكنزه في مصارف سويسرا ولندن، وتنفقه في مواخير كبرى وباريس، فقالوا للمارق السارق: حسبك ! إن الراعي الفرد يستطيع أن يسوق

القطيع الضخم بعصاه فيجتز صوفه ويبتز لبنه ويجتز رأسه ما دام لا يعرف أن له قروناً
تبقّر البطون، وتقلق الرؤوس، فإذا عرف ذلك - ولا بد أن يعرف - انقلبت قرونه دبابات
تحطم، وحوافره مقذوفات تبید.

بهذا الوعي الذي أيقظته سورة تاريخ، وأنضجته عبقرية جنس، وأكملتة عقيدة دين،
سرت في العالم العربي روح من قلق الروح لا يصبر على الهون ولا يرضى بالدون ولا
يعنو وجهه لغير ربه.

وبهذا الروح القلق الذي ملك الجزيرة كلها رأسها وقلبها وأطرافها، تلاقت
العذنانة في الشمال والقحطانية في الجنوب على موعد من مواعيد الحق، ليضعوا
الأغلال التي عليهم في أعناق من استعبدهم باسم الدين، واستذلّوهم بقوة الجهل،
ولينطلقوا إلى حياة أفضل ومكان أكرم يلقيان بالجيل الجديد في الوجود الجديد.

* * * * *

ظلت اليمن حقباً طوالاً معرة العالم المتحضر المتحرر، تجري عليها حركات
الدهر وهي ساكنة سكّون الجماد لا تشعر بالفلك وهو دائر، ولا بالعالم وهو سائر، لأن
(الأئمة) - أخذهم الله بما صنعوا - استعانوا على عزله عن الوجود بالفقر ولجهل
والمرض والقات⁽¹⁾ والترهات والشعوذة فما كان يظن ظان أن من ألح عليه الخدر
يفيق، ولا أن من استبد به الضرر يطيق.. ولكن حدثت المعجزة وانشقت أرض صنعاء
وتعز عن أبناء التبابعة والأذواء، يتساءلون في تباشير الفجر: من الذي أطبق على نفوسنا
الليل، وأطفأ في عيوننا النهار، حتى حسبنا أن الظلام سرمد؟. وكان الجواب دويّا كنّفخة
الصور انبعث من مصر يقول: ومن غير الأئمة من آل حميد الدين يستطيع أن يجعل آية
النهار عمياء ولسان الحق أبكم؟ وتكاتفت الثورتان: ثورة السلال وثورة عبد الناصر على
أن تحطما السد الذي حجر الماء والنماء والتقدم عن اليمن السعيدة. فألقى الملكان
الضيّالان سعود وحسين بجثتيهما النخرتين أمام السد لمنهار ليؤخرا ساعة انقضاذه،
فما زاده إلا ضعفا على ضعف !.

(1) القات نبات مخدر يمضغ أوراقه أهل اليمن فينتشون.

أعلمت كيف كانت تحكم اليمن؟.

إليك مثلاً واحداً من آلاف: حدثني المغفور له صديقي الدكتور عبد الوهاب عزام وكان سفيراً لنا في السعودية واليمن، أنه بات ليلة من ليالي الشتاء في ضيافة الإمام يحيى هو وبعض صحبه، وكان البرد قارصاً، وكانوا قد وضعوا على كل سرير بطانية واحدة من غير لحاف. فاستعان كل منهم على الدفء بمعطفه إلا واحداً لم يكن عليه معطف، فطلب السفير من القيم على دار الضيافة بطانية أخرى للضيف المقرور، فحك القيم قفاه وقال إن في هذه المسألة مشكلة: لا بد أن يرفع إلى الإمام طلب بهذا الطلب تشرح فيه الحال الداعية إلى هذه البطانية، فإذا اقتنع بالأسباب - وقليلاً ما كان يقتنع - أخرج مفتاح المخزن من سلسلة في عنقه، ودفعه إلى أمينه الخاص فيخرج المطلوب إلى المتعهد ثم يعود به إليه. والإمام قد دخل مخدعه الآن فلا سبيل إلى الدخول عليه!!.

بماذا تريد أن أعلق على هذه الواقعة، واستبداد الإمام قد تغلغل إلى خيط الإبرة وشرك النعل وسير اللجام؟ أليس هذا الفرعون الصغير واقعاً في مرمى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ [القصص: 4 - 5]. صدق الله العظيم.

صديقي الأول

من ذكريات العيد في القرية

سأترك العيد الذي بزغ سنه اليوم في هلال شهر شوال إلى الناعمين الغارين من براعم الصبا وأزهار الشباب، فإن العيد صحة وزينة وبهجة ومتعة، والشيوخ لم يعد لهم من كل أولئك شيء. لم يعد لهم إلا الذكريات الحلوة تعاودهم من عيد إلى عيد. وقد عاودتني في صباح يوم الفطر وأنا أنظر بعيني الكليلة من شرفة البيت إلى زمر الأطفال يمرحون في أنوابهم الجديدة، ويلهون بألعابهم المختلفة، ذكرى من ذكريات القلب في الطفولة، وصورة من صور العيد في القرية، لا أزال أجد أثرهما في النفس حيًا على موت الذاكرة، جديدًا على بلى العمر. فأنا أتخيلهما اليوم كما أتخيل حقيقة الواقع، وأتمثلهما الساعة كما أتمثل حوادث الأمس.

كان ذلك وأنا في العاشرة من عمري، أعدوا إلى الكتاب في الصباح وأروح إلى البيت في المساء، ومعني في الغدو والرواح رفيق من لداتي في السن ومن جيرتي في الحارة، لا نكاد نفترق بياض النهار وقليلًا من سواد الليل... كان هذا الرفيق هو صديقي الأول في المرحلة الأولى من مراحل العمر. وكنت أحبه دون سائر الرفاق لمشابه بيني وبينه في الخلق والطبع والهيئة، فضلًا عما كان يتميز به من وسامة تلوح على وجهه، ووداعة تشع من عينه، ورقة تشيع على فمه، وطيبة تنبعث من قلبه. كان رفيقًا في لعبه فلا يعمد إلى الخشونة، عَفَا في حديثه فلا يميل إلى الفحش، مؤثرا لإخوانه فلا يخص نفسه بلعبة أو متعة، فكرته لكل لاعب، وكتابه لكل قارئ، وعونه لكل محتاج. وكان مقيمًا للصلاة في أوقاتها الخمسة. فإذا أقبل شهر رمضان تعاقبنا التبليغ وراء سيدنا، وهو يصلي التراويح إمامًا في بيت الله، وتناولنا تلاوة القرآن معه وهو يحيى رمضان قارئًا في بيت العمدة.

كان أبوه الفلاح النجار من الأجراء (التملية) في تفتيش علي باشا شريف، لا نزيد يوميته على ثلاثة أرباع القرش، ولا سنويته على فدا من أرض الدائرة يزرعه شعيرًا أو ذرة. لذلك كان لا يملك من الثياب إلا جلبابًا واحدًا يشتريه له أبوه في العيد الصغير

فيلبسه على اللحم العام كله لا يبدله. وكان يحرص على صيانة هذا الجلباب أشد الحرص، فلا يمزقه باللعب العنيف ولا يبليه بالغسل البالغ. ومع ذلك كان راضياً مطمئناً لا يمد عينه إلى متعة ولا يحسد غيره على نعمة.

* * * * *

ذهبت أيام رمضان الغر ولياليه الطهر من تلك السنة ذهاب النسمات الرخية هبت على الدنيا نم رياض الجنة فعطر الأنفاس ولطفت الطباع وقربت ما بين السماء والأرض. وأصبح يوم (الوقفة) فإذا الكهول والشباب من القرية يمتطون حميرهم في نشاط، ويسلكون طريق السوق في زياط، ليشتروا من المنصورة حاجة العيد من لحم و (فطرة). وكان أكثر الفطرة التمر والخروب وأقلها البندق وعين الجمل. وكان ضعاف الدين يسمون يوم (الوقفة) عيد الشباب، لأنهم كانوا يستميحون فيه الإفطار ليملاؤوا بطونهم بالمجان من أصناف الفطرة بحجة انتقاء الأجود منها قبل الشراء. وكان تجار النقل يتسامحون في هذا الاختيار - وإن أسرفوا فيه - استمالة لهواهم واجتلابا لسواهم. وكان من تخلف في القرية من النساء والأطفال ينتظرون رجوع العير بالإخراج الموقرة على صبر نافذ وشوق شديد. فإذا ما رجعوا نفحوا المتشوقين بقبضات مختلفات من التمر فيزقرق البنون ويزغرد البنات ويقع البيت كله في زياط شديد. ولكنهم يتذكرون أن رمضان الحبيب يلفظ أنفاسه الأخيرة مع الشمس الغاربة فتخشع الأصوات وتنهمل العبرات ويخامر الناس الخوف من انطلاق الشياطين المقيدة، فيجلس الصبيان على أبواب الحجرات يكررون البسملة ويضربون حديداً بحديد، حفظاً من دخول الشيطان مريد.

فإذا دوى مدفع الإفطار الأخير من البندر ورفعت صواني الطعام من الحارة، وقضيت صلاة المغرب في المسجد، خرج أهل القرية جميعاً إلى المقبرة مع كل أسرة فانوس يحمله الرجل وسبت من الفطير تحمله المرأة، حتى إذا بلغوها وضعوا المصابيح على أوجه القبور وجلسوا أمامها يستذكرون ويستعبرون وقد اختلط نذب النساء بتلاوة الفقهاء: أولئك يعددون مناقب الموتى بمراثيهم الموقعة، وهؤلاء يقرءون على كل قبر سورة يس بتلاوتهم المسرعة. ثم تعود القرية الحية من القرية الميتة ليتجهزوا للعيد

بجهازه فيقضون الهزيع الثاني من الليل في طسوت الاستحمام أو في دكان المزين. والاغتسال بالماء الحار لا يعرفه الفلاحون إلا ليلي العيد وليلة العرس ويوم الموت؛ ثم يعدون زينتهم فيكورون العمام ويصبغون الأحذية. ومن لا يحسن لوث العمامة أو لا يملك علبة (الورنيش) ذهب بطربوشه أو حذائه إلى قريبه أو جاره، والقرية كلها أسرة واحدة يكمل بعضها نقص بعض. فإذا فرغوا من ذلك ناموا بقية الليل على هدهدة الأحلام ومناغاة المنى، وتركوا النساء أمام الأفران والكوانين ينضجن الخبز ويطهون اللحم ويصنعن الحلوى حتى الصباح.

* * * * *

فرغت أنا وصديقي عبد الحافظ النجار من قراءة ما تيسر من كتاب الله على أرواح موتانا ورأينا الناس ينصرفون فانصرفنا ولم يبق من شمعة فانوسي إلا عقب لا يكاد بنا الدار. وفي أثناء الطريق قال لي رفيقي بصوت خافت ولهجة حزينة: ربما لا أراك غدا فكل عام وأنت طيب. فقلت له وأنا أحده بنظري في استغراب ودهشة: ولم لا تراني يا عبده؟ لقد أعددت لك الكرة لتلعب والحب لتأرجح. فقال: لا أحب أن يراني الصبيان وليس على جسدي جديد ولا في رجلي حذاء، ولا في يدي قرش ولا في جيبي فطرة. لم يستطع أبي أن يحقق لي شيئاً من ذلك لأنه مرض منذ ستة أشهر فانقطعت أجرته من وسية الباشا بانقطاع عمله.

فقلت له وأنا أربت على كتفه: هون عليك يا عبده فإن أكثر الأطفال على مثل هذه الحال. وما دمنا معا فكل شيء جديد، وكل يوم عيد. فقال لي بلهجة العزوم الصارم: لن أجعل الصبيان يشعرون أنني أصغر منهم شأنًا وأن أبي أضعف من آبائهم قدرة. وسأقضي مع أبي المريض وأمي البائسة وجدتي العجوز العيد الذي اختار، لنا القدر. فقلت له وقد يئست من صرفه عن عزمه: ليكن ما تريد. وسأعيد معهم ومعك.

وغدوت عليه في داره بعد صلاة العيد وزيارة المقبرة ووجبة الإفطار ومعني نصيبي كله من النقل والكمك، وقضينا يوماً من أسعد الأيام نلعب بآلات النجارة، ونلهو بأوراق اللعب، ونستذكر ما حفظنا من السور القصيرة، ثم نركض وراء الكرة من الفناء إلى الحظية، ومن الحظيرة إلى الفناء. وذهبت فجئت بحبل المحراث وشدناه من طرفيه

إلى عرق غليظ في سقف الزريبة وأخذنا نتأرجح. وكان كل شيء في الدار مبتهجا بابتهاجنا مغتبطا لاغتباطنا. فالأب قد نسى مرضه وقعد القرفصاء يرامقنا بعين قريرة ونفس مطمئنة؛ والأم تركت عملها وجعلت تبارك مرحنا بالنظر الحنون والقلب العطوف، وتحمد الله على أن جاء العيد لابنها في الدار حين رفض أن يذهب إليه في القرية؛ والكلب الليف كاد يتبع خطواتنا من مكان إلى مكان، وهو ينيح كأنه يضحك، ويصبص بذيله كأنه يجامل. والدجاجات قد أدخلت لنا صحن الدار فجثمت تحدث الجدار القصير وأخلدت إلى السكون إلا إذا حركتها طبيعة الحياة فيصيح ديك أو تغوئ دجاجة. حتى إذا قضينا حاجتنا من منع العيد كلها جلسنا عن جانبي الجدة الطيبة وألقينا إليها السمع لتساقط فيه الكلم العذب من (حدوتة) طويلة مشوقة حتى بدت جفينا فترة النعاس فغفونا على حصيرتها إلى أن انطلقت مدافع الغروب على شاطئ المنصورة، ولعلع صوت أبي عامر على سطح الزاوية.

* * * * *

كان هذا العيد المحصور بين صحن الدار وحظيرة البقرة ومجلس الجدة أسعد من عيد الآخرين الطليق بين ساحة القرية ومجالي الحقول وملاهي البندر، لأنه كان عيد قلبيين صغيرين لم تترسب فيهما أكدار الحياة بعد، فخلوا من الهم والحقد، وامتلاً بالرضا والغبطة. والأرض على رحبها تختصر أحيانا في مكان، والسعادة على تفرقها تجتمع كلها في وجودك مع إنسان. والصداقة الطفلية الأولى عميقة لأنها احتلت القلب على خلوه، لاصقة لأنها خالطت الشعور عن جاذبية، باقية لأن حدثان الدهر تجري عليها وهي راسخة في القاع.

* * * * *

ظلت صداقتنا البريئة الحلوة تنمو مع مشاعرنا وعواطفنا ثلاث سنين طبعنا آثارها في المكتب وفي الملعب وعلى ضفاف بحر شبين حتى دها مصر وباء الكوليرا سنة 1902 فصحا أهل القرية يوما فإذا كل قرية فيها مريض، وإذا كل ساعة فيها جنازة. فهان الموت ورخصت الأموات حتى لا يعاد مختصر ولا يشيع ميت ولا يعزي حي.

كان الموت الوحي الزريع يتخطف جيرتي في الحارة واحدا بعد واحد، فخلت الملاعب من الأطفال والمصاطب من الرجال والمكاتب من الصبية. وهجم الوباء الهندي الأصفر على دار عبد الحافظ فاخطف والديه في أسبوع وبقيت الجدة على حصيرتها الخشنة تبكي الابن وتندب الكنة وتحنوا بأضلاعها الهشة على الحفيد؛ ولكن حنوها الشديد لم يدفع قضاء الله فأصبح عبد الحافظ يشكو ظمأ لا ينفعه ماء، وقيئاً لا يمنع دواء وإسهالاً لا يقطعه شيء، فعلمت جدته أنه الموت ! فضجت بالصراخ ورنّت بالعويل. وسمع الجيران جزعها فشاركوها من بعيد. وكان أبي قد حرم علينا غشيان الدور ومخالطة الناس، ولكني تسللت إلى دار المريض العزيز فوجدته يكابد هول الداء وحده، فلا أبوه يخفف عن كبده سعار العطش، ولا أمه تمسح عن ثوبه رجع القيء، فأنهلت بواذر دمعي، وأحسست حرقة الحزن في صدري. وكان بيتنا يشرب الماء مغلي فلم يُصب أحد منا بسوء. فظننت أن الدواء في هذا الماء، فحملت منه قلة إليه كما حملت مثلها بالأمس إلى (زهرة) بنت لحارة صديقتي وصديقتها. فلما رآها في يدي افترت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة غائمة فجرعته منها جرعات. ثم جلست بجانبه أرطب حلقه اليابس بالقلة من لحظة إلى لحظة حتى وقف الماء فيه فلم يستطع أن يسيغه. ثم شخص بصره وحشرج صدره وأخذهُ فُواق ضعيف ثم لفه سكون شامل !.

أبدأً لن أنسى هذين اليومين من حياة صديقي الأول: يوم قضيت معه يوم العيد وهو يقاسي هم الوحشة، ويوم قضيت معه يوم الموت وهو يكابد ألم الوحدة ! !.

واحسرتاه على قرיתי الصغيرة؟ لقد أقبل عليها عيد الفطر في تلك السنة الحزينة والموت قد ختم على أكثر الدور، ونقل نصف أهلها من الدور إلى القبور.

أدب المرأة

تقديم لكتاب الدكتورة نعمات أحمد فؤاد (في بلادي الجميلة)

الأدب العربي - وإن شئت قلت الأدب العالمي - فقير في أدب المرأة. ومعنى الفقر هنا يقترب كثيراً من معنى الخلو، لأنك إذا عدت إلى مراصد التاريخ ترقب منها سماوات الأدب في الشرق والغرب لا تجد في آفاقها الرُّحب إلا نجمة تلمع من حقبة إلى حقبة لمعان الشُّها تظهر من بعيد لتختفي من قريب !.

وهذه الأنجم النواذر يلمعن في الأدب لا في العلم، وفي النظم لا في النثر وفي فن الرجل لا في فن المرأة !.

تستطيع إذن أن تضرب الأمثال على ضالة الأدب الحوائي بجانب الأدب الآدمي من كل أدب في كل بلد وف يكل زمن؛ لأن هذه الظاهرة تكاد ترجع إلى الاستعداد أكثر مما ترجع إلى الاستبداد والجهالة... وفعل المقاربة (تكاد) يمنع من إطلاق الحكم على شاعرية المرأة؛ لأن المفهوم الشائع أنها انفعال مجسد وإحساس مرهف وتعبير بارز. وربما يصحح هذا المفهوم أنها على الجملة لم ترزق الخيال المجنح ولا التأمل العميق ولا التصوير المجرد ولا التفكير المستقل. إنها منذ خلقها الله من ضلع آدم مصابة بالتبعية للرجل. فالحب مثلاً هو أخص صفاتها الطبيعية تشعر به أشد الشعور، ولكن حياؤها الذي تأصل في طبعها من حياطة الرجل لها ورقابته عليها يمنعها من التعبير الحر عن هذا الحب فتركه للرجل. ولو أنها تغلبت يوماً على هذا الحياء بجرأة الحرية وضعف الوازع ففعلت ما فعلته الكاتبة الفرنسية فرانسواز ساجان، أو الكاتبة العربية خولة الخوري⁽¹⁾ لكان ذلك بدعا في المجتمع يسترعى النظر ويستدعي الفضول.

والبغض أيضاً يساير الحب في طبيعة المرأة، فهي تبغض ولكن بغضها من نوع خاص لا يطلب التعبير العلني وإنما يكتفي بزفرة في الصدر أو بعبرة في العين. وهي لا تخطر ببالها أن تمدح لتستجدي أو تهجو لتستعدي، فإن الرجل قد آمنها من الجوع والخوف بكفه وسيفه.

(1) سماها جدها فارس الخوري (خولة) وأبت هي إلا أن تسمي نفسها (كوليت) !.

دنيا المرأة هي عش الزوجية الذي تحلم به وهي في رعاية الأب، ثم تستكن فيه وهي في حماية الزوج. وكل آلتها لهذا العش جمال وحب تمسك بهما الرجل، وحنان وعطف ترأم بهما على الولد. والتعبير عن هذه العواطف الطبيعية يكون بالفعل لا بالقول، وبالشعور لا بالشعر. فإذا خرجت عن دنياها الخاصة إلى الدنيا العامة فتفاعلت مع الأحداث وتأثرت بأحوال الناس حملت نصيبها من أمانة الأدب ورسالة الفكر.

في هذه النواحي العضوية والنفسية والاجتماعية يجب أن نلتمس الأسباب الجوهرية لندرة الأدب النسوي في العالم قديمه وحديثه وشرقيه وغربيه، فإن تلمس هذه الأسباب في حرمان المرأة من الحرية وتخلفها في الثقافة وانعزالها عن المجتمع لا يعلل هذه الندرة في الغرب، وإن تلمسها في انكبابها على العمل وانغمارها في المادة وانطلاقها من القيد لا يعلل هذه الندرة في الشرق. وإذا تذكرت أن هذه الندرة ملحوظة في أدب اليونان والرومان، وفي أدب الهند والفرس، وفي أدب اللاتين والسكسون، أدركت أن هذه الظاهرة المحيرة أعمق من أن تحلل في كلمة موجزة، وأوسع من أن ترد إلى سبب واحد.

خذ الأدب العربي مثلاً: شغلها الأدب العريق الزمن من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن العشرين، وطبق الأرض من أقصى بلاد الشرق إلى أقصى بلاد الغرب، ووسع آداب الخليفة منذ طفولة الإنسان إلى اضمحلال الحضارة العربية. وأنت مع ذلك إذا عرضت عصوره الخمسة على ذاكرتك لا تجد فيها من نوابع النساء في الأدب إلا الخنساء وتوابعها من خَزْنَق بنت بدر، وليلى بنت لَكِيز، وجليلة بنت مرة، في العصر الجاهلي، وإلا سَكِينة وليلى الأخيلية بين تسعين شاعراً في العصر الأموي، وإلا عُليّة بنت المهدي في العصر العباسي، وإلا ولادة بنت لمستكفي وحمدونة في العصر الأندلسي؛ ثم تنتظر طويلاً لتعثر في طوايا ذاكرتك على السيدة عائشة الباعونية تنتقل بين دمشق والقاهرة في أوائل القرن العاشر الهجري !.

نعم أوافقك على أن في الآفاق السحيقة نجيمات دقاً لا يدرك ضوءهن المرصد، ولكن ذلك على صحته لا ينفي الندرة ولا يغير النسبة، فإن في الرجال أيضاً آلافا غمرهم الخمول فلم يقعوا في سمع الزمان وبصره لا بالرواية ولا بالرؤية.

أما ما روي عن أبي نواس من أنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة، وما روي عن الخوارزمي من أنه قصد صاحب ابن عباد بأرجان، فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى صاحب وقال: إن بالباب أديبا يستأذن في الدخول. فقال الوزير: قل له قد ألزمت نفسي ألا يدخل علي إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب. فقال أبو بكر للحاجب ارجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أو من شعر النساء؟ فلما أخبر بذلك صاحب قال هذا أبو بكر الخوارزمي، فإن ذلك وشبهه إذا أطفأت لمعة التمويه والتهويل فيه لا يبقى تحت منه إلا تلك المقطعات التي جمعها الرواة واللغويون من شعر أعرابيات مجهولات كن ينشدنه إلهاء لأنفسهن وهن يهددن الطفل أو يدرن المعزل أو يرعين القطيع.

قلت إن المرأة الموهوبة إذا خرجت من نفسها إلى الناس، ومن بيتها إلى المجتمع، فشعرت بالشعور العام وأسهمت في الوجود المشترك، تفتحت قريحتها عن الجزء الإلهي المكنون في كل نفس وهو الأدب فعبرت به عن مشاعر شعب أو أحاسيس عالم. مصداق ذلك تجده في أدبنا النسوي في هذا القرن على تفاوت شديد فيه بين ربه الأول وربه الثاني.

تيقظت المرأة المصرية على صيحة قاسم أمين، ولم تكد تمسح عن جفניה فتور الكرى الثقيل الطويل حتى ضاقت بالحجاب وبرمت بالقيد وتطلعت من خصائص الأبواب وثقوب النوافذ إلى المراد الرحب والفضاء الفسيح والشاعر اللجب، فقررت أن تحطم القيد وتكسر الباب وتهصر الستار وتخرج إلي الدنيا لتشارك الرجل في العلم والعمل والأمل، فتفعل كما يفعل وتقول كما يقول وترجو كما يرجو. وساعدها على هذه الانطلاقة حدوث الهبة العامة في مصر عقب الحرب العالمية الأولى. وسهولة النشر والإعلام بالطباعة والصحافة والإذاعة. وكانت البواكير الأدبية بالحقل النسائي قد أخذت أكمائها تشقق عنها في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، فظهرت وردة اليازجية وعائشة التيمورية. وزينب فواز وأنيسة وعفيفة الشرتونيتان ولبية هاشم وملك ناصف ومي زيادة.

ثم اكتمل شباب الربيع واكتهل غراس النهضة فظهرت الطبقة الثانية من الأدبيات وكانت أنضر عوداً وأذكى أريجاً وأعلى ثمرأً وأعلى فائدة. طبقة سهير القلماوي وعائشة عبد الرحمن ونعمات فؤاد ووداد سكاكيني وفدوى طوقان وملك عبد العزيز ونازك الملائكة وروحية القليني وشريفة فتحي ولطيفة الزيات ثم جاذبية صدقي، وقد تقسمن الفنون الأدبية على حسب استعدادهن واجتهادهن، فمنهن الناقدة البصيرة والباحثة المحققة والكاتبة البليغة والأدبية الموفقة والشاعرة الرقيقة والقصصية المجيدة. ولكل واحدة منهن أسلوب في النشر أو النظم صاغته من طبيعتها ونشأتها وثقافتها واستعدادها، فيه الغموض والاختلاط، وفيه الوضوح والتميز؛ ومنه الوصفي الرصين السليم ومنه التقريري السقيم المهلهل. ولست هنا بسبيل البحث الموضوعي في هاتين الطبقتين فأبين العوامل المؤثرة فيهما، والخصائص المميزة بينهما، وأحلل الأعمال الصادرة منهما، فإن ذلك موضعه تاريخ الأدب.

إنما أنا في هذه الكلمة بسبيل كاتبة وكتاب. الكاتبة هي الدكتورة نعمات فؤاد، والكتاب هو كتابها الحادي عشر (في بلادي الجميلة)، وما أريد أن أعرض لنعمات هنا إلا من جهة الفن، ولا لفنها اليوم إلا من جهة الأسلوب. ومن يعرض لفن الكاتب وأسلوبه بالكشف والصوف والتحليل فقد عرض لكل شيء فيه. وهل الأسلوب كما قيل بحق إلا الكاتب أو الكاتبة في صورة مؤتلفة من عقله وفكره وشعوره وخلقه وذوقه وطابعه؟.

لقد كتبت نعمات ف البحث والنقد والوصف والتراجم، ولكن هذه الفنون المختلفة يؤلف بينها أسلوب واحد إذا عرفته عرفت طريقتهما في هذه الفنون وحقيقتها من هذه المعاني.

إن الأسلوب مركب فني من عناصر مختلفة يستمدّها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه. تلك العناصر هي الأفكار والصور والعواطف، ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة والموسيقية المعبرة. والمراد بالصورة إبراز المعنى العقلي في صورة محسنة، وبالعاطفة تحريك النفس لتميل إلى المعنى المعبر عنه أو لتنفّر منه. والأسلوب بهذا المعنى لا يكتسب بالتعليم ولا بالتقليد. وإنما هو هندسة روحية وملكة

ذهنية تتمثلان في قالب معنوي غير موصوف ولا معروف تخرج منه الفكرة والعاطفة والخيال والصورة متسقة على الوضع الذي ارتضاه الذوق الرفيع في الإنسان الذي علمه الله البيان وآتاه الحكمة.

ولعلنا إذا استثنينا النساء الشواعر في القديم والحديث لا نجد في الكاتبات العربيات من ينطبق على أسلوبهن هذا الوصف إلا كاتبتين اثنتين في هاتين الطبقتين: الأولى في الأولى مي زيادة، والأخرى في الأخرى نعمات فؤاد. ذلك لأن أسلوبها يتميز من سائر الأساليب النسوية بالشاعرية والأناقة والتنويع والتلوين والحركة. وتزيد نعمات على صاحبتهما بالعمق والدقة والسلامة وتوليد المعنى من المعنى ومزاوجة اللفظ للفظ واستبطان دخائل الموضوع واستقصاء أطرافه حتى تدع فيه معنى يخطر على بال. وكل ذلك في غير تكرار ولا إملال ولا سقط، وكل ذلك في حسن نسق وجمال إيقاع من غير تكلف ولا شطط.

وموسيقى نعمات ألحان من المعنى وأنغام من اللفظ لا يبلغ بدونها الكلام ولا يقوي غيرها الأثر. وهي موسيقى معبرة لأنها من بنية الأسلوب في باطنه لا من حلية التركيب في ظهره. وهي في بعض الكتاب والكواكب سجية وطلع، فكما لا يستطيع البلبل أن يكون غراباً ينعب ولا ضفدعاً تنق كذلك لا يستطيع الفنان الصادق أن يكون فجاً على الذوق ولا ثقيلاً على الأذن.

أذكر أن نعمات كانت في بعض أعمالها أمانة للجنة النشر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، فكانت تكتب محاضر الجلسات بالأسلوب الرفيع تختار له اللفظ الملائم، وتتفني له التعبير المؤدي، ولكن أعضاء اللجنة وهم من أقطاب الكتاب أنكروا عليها أن تستبدل بأسلوب الدواوين أسلوب البيان والتبيين. فآثرت أن تظل بلبلاً يطرب على أن تصير غراباً ينعب، وانصرفت عن هذا العمل إلى غيره.

إن أسلوب نعمات أصيل صادق لأنه ينم عن طبيعة المرأة ويكشف عن جوهر الأنوثة. ولا يشاركها في هذه الخصيصة إلا الأنسة مي. أما غيرهما من الكاتبات النواغ فقد تقرأ لهن الأسلوب الجزل والبيان المحكم والرأي النصيح، ولكنك تستشف من وراء ذاك محاكاة الرجل في فحولة منطقته وطريقة فنه.

أنت من نعمات بين زوج وفية وأم رءوم وأخت مواسية ومواطنة مخلصه وعاشقة للنيل تنشد على ضفافه الخضر أناشيدها المؤلفة من عبرات إيزيس، وضحكات كليوباترا، وصلوات عمرو، وغزوات صلاح الدين.

ونعمات منك بمثابة بياتريس من دانتى تطوف بك في مجالي الطبيعة ومشاهد الكون (في الورد) و (في الريف) و (في الليل) و (في المقطم) و (الهرم) و (في الفرح) كما طافت بالشاعر الإيطالي حبيبته الروحية الملهمة مجالي الفردوس ومشاهد عدن. حاشاك أن تحمل كلامي عن نعمات على المجاملة والمهاوأة لأنها امرأة وللنساء على الرجال لين القول وحسن المصانعة، أني أقول وبين يدي الدليل وأحكم وأمام عيني السند.

اقرأ على سبيل المثال مقالها في (البيت) أو في (الريف) أو في (المدرسة) أو في (الطريق) أو أي مقال شئت، ثم حاول من طريق الفن أو من طريق الذوق أن تطبق ما وصفت لك من أسلوبها على ما قرأت أنت من كلامها، فإذا لم تخرج من التصور إلى التصديق، ومن التطبيق إلى التحقيق، جاز لك أن تقول إنني رجل يقول على الأدب بغير علم، ويحكم على الأدباء من غير بينة.

* * * * *

ذلك بعض القول في الكتابة، أما الكلام عن الكتاب فقد تضمنه الكلام عن أمه. وإن الثمرة فيها سر الشجرة كله، فمهما أقل لك إن الشجرة ريانة الأصول فينانة الفروع رفاقة الورق وارفة الظل حلوة الجنى، لا تجد في هذا القول على صدقة من الكفاية والرضا ما تجده في الثمرة حين تقطفها بيديك، وترمقها طويلا بعينيك، ثم تدسها في فمك، فتذوق من حلاوة العصير، وتشم من فوحة العبير، ما يقنعك أن النبعة كريمة وأن الشجرة مباركة:.

لقد حدثتك عن الكتابة لأنها لا تتحدث عن نفسها، أما الكتاب فسأدعه وإياك ليحدثك عن نفسه.

عصرنا الذهبي الرابع⁽¹⁾

سيدي الرئيس:

إن العصور الذهبية العربية التي تقدم فيها العلم وازدهر الأدب وارتقت الحضارة وتطورت الحياة، ثلاثة:

عصر الرشيد وابنه المأمون في بغداد، وعصر العزيز وابنه الحاكم في القاهرة، وعصر الناصر وابنه الحكم في قرطبة. وهذه الأعصر الثلاثة كانت مراحل للتقدم البشري في طريق الكمال الممكن، إلا أنها كانت تتسم بسمات الارستقراطية، فلا يكاد خيراها يجاوز النطاق الخاص؛ فقاعات العروش، وأبهاء القصور، ودواوين الحكم، كانت تفيض بالثراء والنعمة، وتزخر برجال العلم والأدب والحكمة.

أما الشعوب فكانت قطعانا تستغل، وموارد تستنزف، وطبقا يعلو بعضها بعضاً بحكم النسب أو السلطان أو الثروة، فما كان ينالهم من فضل العصر إلا القدر المحتوم من الرخاء العام والخير المشترك، حتى أراد الله أن يكون للعرب عصر ذهبي رابع يكمل نقص هذه الأعصر جميعاً، فكان عصرك يا سيدي الرئيس ! عصرك الذي أشرق إشراق الشمس وأقبل إقبال الربيع؛ فيه الحرارة والنور، وفيه النضارة والخصب. عصرك الذي طبقت فيه مبادئ الإسلام التي فهمت ولم تعتقد، أو اعتقدت ولم تطبق، فالأمر شورى، والحكم عدل، والرزق شركة، والناس سواسية، والشعب حاكم.

عصرك يا سيدي الرئيس قد انفرد من بين العصور بأنه عصر الإنسان الكريم، والمواطن الحر، والعامل الكادح، والعالم المجتهد، والأديب المستقل. فكل منهم يشعر اليوم بأن له حقاً يناله، وواجباً يؤديه، ورزقاً يكفيه، ووطناً يعتز به.

عصرك عصر السلام والوئام والوحدة، فأنت تسعى دائماً للسلام الدائم بين الدول، وللوئام الكامل بين الشعوب، وللوحدة الشاملة بين العرب، لا تبتغي من وراء أولئك كله إلا ما ابتغاه ذوو الرسائل من قبلك.

(1) نص الكلمة التي ألقى في عيد العلم نيابة عن الفائزين بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية سنة

وسيتشتر ضوء ميثاقك المحكم الهادي في كل نفس، وفي كل أرض انتشار كلمة الله لأنه الحق الذي وضعه الله في شرعه، والمنهج الذي سنه لجميع خلقه. سيدي الرئيس:

إن الأدب الذي تكرمه الليلة في أهله قد بشرك ومهد لك ودعا إليك ففي أغسطس من عام 1925 قالت مجلة الرسالة:

"نحن في مجموع الناس أوزاع وأتباع ننظر إلى الأمم تعمل وإلى العالم يسير بعين بلهاء لا يجاوز بصرها مدى العجب، وعلتنا أن ساستنا وقادتنا كلهم من رجال القول لا من رجال الفعل، ومن أرباب القلم لا من أرباب السيف، ومن جنود القانون لا من جنود (الأوامر). ثقفوا على مباحث الكتب. ودربوا على مكاتب الدواوين، وحرموا التربية العسكرية وهي وحدها القائمة على الخطة والنظام والأمر والتنفيذ والتضحية والشرف".

وفي إبريل من سنة 1940 تنبأت الرسالة بالرجل المنتظر فقالت ما نصه: "إن للرجل الذي تنتظره الأمة العربية آيات تمهد له وتدل عليه. فمن الآيات المهيأة لظهوره انحلال الأخلاق فلا تتماسك في قول ولا فعل، وتقاطع القلوب فلا تتواصل في وطن ولا دين، واستئثار النفوس فلا تتعفف في صداقة ولا نسب، وجموع الشهوات فلا تنقذ بلين ولا شدة.

ومن آياته المنبئة بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه، ولأمته قبل أسرته، ولإنسانيته بعد وطنيته. ومصداق تلك الآيات أن تموت (الأنثى) في لسانه وتحبى في ضميره. ويتحد في ذهنه ذاته بوجود شعبه، فهو يحس ألمه لأنه مجتمع شعوره، ويدرك نقصه لأنه مجتلى عقله، ويملك قيادته لأنه مظهر إرادته. وهو في سمو نفسه ونزاهة هواه قد ارتفع عن أوزار الناس وأقدار الأرض، فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة، ولا يحابي لأن فضله أرفع من العصبية، ولا يقول قولاً ولا يعمل عملاً إلا إذا وافق الدين الذي يعتقده والمبدأ الذي يؤيده والشعب الذي يقوده. ثم هو في ألمعية ذهنه ورصانة لبه وصلابة عوده وبعد همته يعظم على الأحداث ويعلو على

الحوائل، فلا ينضج رأياً إلا أمضاه، ولا يرمي غرضاً إلا أصابه، ولا يروم أمداً إلا أدركه".

ثم ختمت الرسالة مقالها بهذا الدعاء.

"رباه: لقد امتد بنا التيه في مجال الأرض إلى قرون. وفسد في نفوسنا الإيمان بالحياة حتى تحول إلى ظنون. فمتى نخرج من التيه يا رباه خروج موسى، ونتبوأ من صدر الحياة العاملة مكان محمد؟ اللهم إنا نسألك الراعي الذي يطرد الذئب، والخيط الذي يجمع الحب، والدليل الذي يحمل المصباح، والقائد الذي يرفع العلم، والأستاذ الذي يعلمنا أن نصنع الإبرة والمدفع، وتشق المنجم والحقل، ونوفق بين الدين والدنيا، ونوحد بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة. وكل أولئك يا رباه يجمعهم رجل واحد هو أبه الناس بالمهدي المنتظر والمسيح الموعود".

ذلك يا سيدي الرئيس ما تنبأت به الرسالة قبل قيام ثورتك المباركة باثنتي عشرة سنة. وقد صدقت النبوءة واستجيب الدعاء فهل كانت تنظر إليك بلحظ الغيب؟.

سيدي الرئيس:

إذا تفضلت الليلة على رجال العلم والفن والأدب بالتقدير والتشجيع فإنك تقدر سلاحاً من أمضى أسلحتك، وتشجع جنوداً من أخلص جنودك. وإنني أتقدم بأسمائهم جميعاً وباسمي إلى سيادتك بأصدق الشكر وأععمقه، ونسأل الله أن يديم عصرك، ويعز نصرك، ويتم عليك وعلى أصحابك نعمة التوفيق.

يا حسرتا على العراق !

كان العراق يوم كان حكامه ناسًا كالناس وعربًا كالعرب مظهرًا للقومية العربية، ومصدرًا للقوة الإسلامية، ومجمعًا للقيادة الروحية والثقافية والحضارية للشرق والغرب. فنى في وجوده العارم الخصب كل جنس فلم يبق متميزًا غير العرب، وكل دين فلم يبق ظاهرًا غير الإسلام، وكل لسان فلم يبق حيًا غير العربية، وكل سلطان فلم يبق قاهرًا غير الخلافة. ثم كان الفلك حينئذ بدور عربيًا على ملكوت محمد من شرق آسيا إلى غربي أوروبا، فتشرق شمس الحياة والمعرفة من أفق الرشيد وابنه المأمون في بغداد، لتلقي أضواءها الهادية على ملك العزيز بالله وابنه الحاكم في القاهرة. ثم ترسل من هناك أشعتها المحيية على سماء الناصر وابنه الحاكم في قرطبة، ومن هذه الخلافات الثلاثة التي انبتت من العراق في القارات الثلاثة ظهرت كلمة الله، وبهرت حقيقة العلم، وازدهرت مدينة الإنسان، واتسعت العرب.

كذلك كان العراق أيام كان من خلفائه هرون والمأمون، ومن وزرائه الفضل وجعفر، ومن فقهاءه أبو حنيفة وأبو يوسف، ومن أدبائه الأصمعي وأبو عبيدة، ومن شعرائه بشار وابن الرومي، ومن متصوفيه الحسان البصري وابن سيرين. فلما غربت الشمس وجزر المد ووهن السلطان واستعجم اللسان وجفت مشارع الرافدين فنفت فوقها الضفادع وسعت حولها الأفاعي، آل الحكم فيه إلى عبد الإله ونوري. ثم أستوخم الأمر واستفحل الشرف آل بعدهما إلى قاسم والمهداوي. ومنذ يومئذ غامت سماء العراق بركام من السحاب الجون، لا تحمل الماء ولكن تحمل الدم، ولا ترسل الغيث ولكن ترسل السم. وتحت رعودها القاصفة وبروقها الخاطفة تنساب في الظلام الداجي زمر من شياطين الإنس، يمجّون الكفر، ويشيعون الفحش، وينشرون الإرهاب، ويلحون على المؤمنين الآمنين بالقتل والسحل والتعذيب، ليخرجوهم من الإسلامية إلى الشيوعية، ومن العربية إلى الشيعية، ومن شعب له كون بارز في الوطن العربي الأكبر، إلى مجتمع من أخلاط كردية وتركمانية وعربية لا يجمع بينها لسان ولا مجد ولا تاريخ.

وارحمنا للعراق الحبيب؟ بلغ به ذل الحال وسوء المآل أن يستبد بأمره رجلان من الطراز الأدنى أحدهما يحكمه بالنار والدمار والتفريق والفوضى ويزعم أن المجزر حكومة، والآخر يحاكمه بالطيش والفيش والتهريج والسفه ويزعم أن الملعب محكمة ! ولولا الظلام لما أبصر اليوم ورفرفت الخفافيش، ولولا الانقسام لما تسلط (الزعر) وحكمت (الحرافيش):

خلت الرقاع من الرخاخ ففرزنت فيها البيادق !

لقد ابتلى العراق من قبل بالحجاج والقرامطة والزنج والتار والترك والإنجليز فما صنعوا به جميعاً ما صنع به قاسم وحده ! لم يستطيعوا بما أوتوا من ملكوت وجبروت أن يطفئوا نور الإسلام ولا أن يخفتوا صوت العروبة، ولكنه استطاع في أقل من عام أن يحمل بعض المسلمين العرب على أن يصيحوا في شارع (الرشيد) وفي ساحة (المأمون): لا إسلام ولا عروبة !.

وقوة هذا الرجل إنما أنته من ضعفه، فلو لم يكن ضعيفاً لما احتلت جسده قوى غيره، فهو كالصنم. شيء حقير في ذاته، ولكن الصنم - كما كانوا يتوهمون - تحل فيه الشياطين فينظرون بعينه وينطقون بلسانه ويبطشون بيده، ولذلك كان يعبد. وقاسم صورة من الإنس الأنيس ركب كل جارحة فيه عفريت. وللعفاريات أهواء متباينة تظهر آثارها في قوله وفعله؛ فهو كافر ومؤمن، وشيوعي ورأسمالي، وروسي وإنجليزي، وصهيوني وعربي؛ وهو أهل لأن يكون أي شيء إلا أن يكون عراقياً، لأن هذه القوى المتضاربة التي تجمعت فيه إنما كانت إلماً على العراق وحده ! فبفضل هذه القوى الابن أباه، وقتل الأخ أخاه، وكفر المسلم بربه، وبغى العربي على قومه. وبفضل هذه القوى قسم القاسم العراق على نفسه، وزعزع بالفتنة الحمراء (والكراسة الرمادية) الإيمان والاطمئنان في نفوس أهله، وقتل الناس بعضهم ببعض حتى زهقت في سبيل روحه همسة آلاف روح.

وأصبحت القتلى تمج دماءها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ذلك قاسم. أما المهداوي، أو هامان فرعون، فعلى النقيض من زعيمه: زعيمه قادر بغيره وهو قادر بنفسه. وزعيمه جهاز تسجيل يستقبل، وهو محطة إذاعة ترسل، وزعيمه

رأس حكومة " الثورة " سنة وبعض السنة فهدم ولن يبين، وانفعل ولم يفعل، ورأس هو
 حكمة " الشعب " دون هذه المدة، فأتى بما لم يأت به أحد في تاريخ الإنسان: اخترع
 لم يخطر مثاله على بال عاقل ولا مجنون: مسرح في ملهى رخيص، في صدره منصة
 جلس عليها العداة والخصوم وقالوا إنهم القضاة، وعن اليمين منضدة جلس إليها
 الأفاكون السفاكون وقالوا إنهم المدعون، وعن الشمال قفص حشر فيه الشرفاء الأبرياء
 وقالوا إنهم المتهمون، وفي الساحة مقاعد اقتعدها المجرمون الحقيقيون وقالوا إنهم
 المتفرجون ! فإذا بدأت المحاكمة افتتحها الرئيس الصخاب السباب بخطبة حمقاء يسب
 فيها الخلاء من ضباط الجيش، والعلماء من رجال الدين، والزعماء من قادة العرب.
 ثم يفرغ للبريء المتهم فيفرغ عليه كل ما في فمه من بذاء وكل ما في صدره من حقد،
 ثم يغتصب حق الادعاء فيفند الحق ويؤيد الباطل ويفتعل الوقائع لتساوق الأسباب إلى
 تبرير الحكم الذي أعده من قبل أن يفتح الجلسة ويسمع القضية. ثم تنقلب المحكمة
 سوقاً للمدح والهجاء على نحو ما كان " المربد " في البصرة، فينهض الشعراء الحمر
 فينشدون في الزعيم " الأوحـد " والقاضي الفرد ما تشده الصراير القذرة في المستنقع
 العفن. وفي الختام يقوم المهداوي في هوسة من الزمر والرقص والتصفيق والهتاف
 العدل والقانون والخلق في ساحة المحكمة شنعاً حتى الموت !.

* * * * *

والهفتة على أبطال العراق وشبابه ! ثاروا على البغي والفساد والاستبداد في الرابع
 عشر من تموز فطهروا الأرض وحرروا الناس، حتى إذا أخذوا يعوضون ما فقد،
 ويصلحون ما فسد، ويجمعون ماشيت، قامت قيامة الشيوعية المحلية فانبعث عبد الإله
 في عبد الكريم، وحلت روح " نوري " في جسد " فاضل " ولازرتهما عناصر الشر
 جمعاء، فأطفأوا الثورة بدماء من شبوها من الضباط الأحرار، وفجعوا الوطن العربي كله
 في صفوة من بنيه الأبرار، وأغلقوا بيوت الموصل وكركوك وبغداد على أيامي ويتامي
 وعجزة، قتلوا عائلهم أو اعتقلوا أهاليهم، وتركوهم للدروع والجوع والقلق والخوف
 والقلق والخوف كالأغصان الأمليد والأزهار النواضر اجتثت أصولها من فوق الأرض
 فما لها من قرار.

أزمة وتنفرج، وغمرة وتنجلي، وأمه يصهرها القدر في بوتقة الخطوب، وستكشف إما عن حديد خبث وإما عن ذهب خالص. وخلوص الجوهر هو المعهود في طبع العراق والمعروف من تاريخه لم يغمض أبداً على قذى، ولم يصبر طويلاً على ضيم، إنما يصبر بمقدار ما يتحفز للوثوب، فإذا وثب كسر القيود وحطم الأغلال وأدب الطغاة.

إن العراق يعوق ولكنه لا يضل. ويستذل ولكنه لا يذل. فالخوف عليه من خطر الانحلال السياسي الذي يفقده الإرادة ويسلبه الاختيار ويحرمه الأمن ليس له سند محقق من ماضيه؛ إنما الخوف المحقق عليه هو من عقبي هذه الظاهرة المخيفة التي بدت فيه بعد أن قتل الثوار وزيفت الثورة؛ هذه الظاهرة هي ارتداد فريق منه عن عقيدته وعروبه استجابة إلى دعوة هدامة. ومثل هذه المحنة التي تصيب الشعب في دينه أو ضميره لا يكشف ضررها غير الله. والله في العراق جنوداً وأولياء يتولاهم لماء السنة وفقهاء الشيعة، وقد أهاب بهم الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن يعلنوا الجهاد الروحي في سبيل الله والوطن ليردوا الضوال الشوارد إلى القطيع، ويرجعوا الآراء المتفرقة إلى الرأي الجميع. والله رب العالمين وولي المؤمنين قد تكفل بالحفظ لخبر دين أنزل بالحق، وبالنصر أمة أخرجت للناس.

أحمد لطفي السيد كما عرفته

بين السحر والفجر من يوم الثلاثاء الخامس من شهر مارس لسنة 1963 حين ينسلخ النهار من الليل، وينبثق النور من الظلام، تخلصت روح لطيفة من قيدها المادي الغليظ وصعدت إلى مصدرها الأول ومرجعها الأخير:

تلك هي روح الأستاذ الفيلسوف أحمد لطفي السيد، لفظها في غير قلق ولا ألم كما ينسم الطفل النائم الهادئ. وموت الشيخوخة المطمئنة نقلة روحية سعيدة من فناء منقطع إلى بقاء متصل، فهو موت وحياة في وقت معاً. كالشمس تغيب عن قوم فتكون غروباً في المغرب، وتطلع في الوقت نفسه على آخرين فتكون شروقاً في المشرق.

وشيوخوخة لطفي السيد كانت ككهولته وشبيته سلاماً وطمأنينة لم يكدر صفوها حقد على أحد ولا طمع في شيء، فكانت حياته الوداعة النافعة أشبه بحياة الجدول السلسل الرقراق تفيض على جوانبه الري والخصب من غير هدير ولا طغيان ولا كدر.

كان في كل أعماله العلمية والإدارية والسياسية يستار سيرة العلماء ويستن سنة الفلاسفة، لا يقول قولاً ولا يعمل عملاً إلا في حدود المنطق والخلق والقانون، وكان لعبقريته وبلاغته يرسل القول فيكون مثلاً أو حكمة، ويفعل الفعل فيكون مثلاً وقدوة.

وكان في رزانة الحكيم ووقار الحليم يتحدث أو يناقش فلا يستفزه نزق جاهل، ولا يستخفه غضب مكابر. فإذا اشتد الجدل في حضرته بين اثنين في مسألة فعلا الصوت واحتد اللسان قال لهما: علام الخصومة والخلاف؟ في المسألة رأيان، فأحدكما من رأى والآخر من رأى.

وكان على شغوف بدنه باهر الجلالة ظاهر الأبهة، لا يقبل اللغو في مجلسه ولا يبالغ في التعبير عن شعوره. فإذا ضحك لا يضحك بملء فمه، وإذا عبس لا يعبس بكل وجهه، وإنما هي الابتسامة الحلوة في كل ما يحب أو يكره.

وكان أظهر مزايا لطفي السيد حديثه؛ فقد كان آخر طبقة شهبوا ببراعة الحديث من أمثال محمد عبده وسعد زغلول وإبراهيم الهلباوي، فأنت في حضرته لا تشتهي الكلام لأن لذتك في أن تسمع، ولا تثير الجدل لأن همك في أن تستفيد. ولطفي السيد

كان محدثاً نقي الصوت حلو النغمة متدّ الأداء واضح الجرس فكه اللسان متخير اللفظ، فلو ذهبت تكتب ما يقول لكان قريب الشبه مما تكتب. وكان ينثر في خلال حديثه الكلمة الفرنسية أو اللهجة (الشرقاوية) فتكسبه ظُرفاً ورقة.

وكان مجلسه أشبه بمجلس صديقه أرسطو زعيم المشائين في مماشيهِ المظلمة، أو شيخه الأفغاني إمام المصلحين في قهوته المفضلة، يتوخى فيه الفائدة واللذة؛ فسامعه لا ينفك راضي العقل ريان العاطفة. وكان بارعاً في سلسلة الحديث سريعاً إلى اقتناص المناسبة، فلا تخشى على الحديث في مجلسه أن يبوخ، ولا على الصموت في حضرته أن يخرج.

وكان أسبق معاصريه إلى التجديد فلم تعرف قبلة في الشرق كلمات الحرية والديمقراطية والاستقلالية بمعناها المطلق. وأجلي مظهر لهذا التجديد كان في نزعتِه السياسية وطريقته الكتابية؛ ففي صحيفة (الجريدة) التي كانت لساناً لحزب الأمة وكان هو رئيس تحريرها نهج للناس سياسة مصرية خالصة لا تتصل بالدعوة العثمانية ولا بالجامعة الإسلامية.

وفي هذه الجريدة ابتكر أسلوباً للكتاب لفظه قدر لمعناه، ووصفه طبق لموصوفه، وسبيله قصد لغايته، فكان مذهباً جديداً جرى عليه الكتاب والصحفيون إلى اليوم. وكان من سبقه إلى التجديد أن دعا إلى إصلاح الخط العربي وإنشاء المجمع اللغوي وتعليم الفتاة المصرية.

* * * * *

قالوا فيه: إنه أستاذ الجيل، وكان الأصدق الأحق أن يقولوا: إنه أستاذ أجيال ثلاثة، فمنذ أن صدرت (الجريدة) في عام 1908 كان فيها وفي ندوتها مصدر توجيه ومشعل هداية. كان يندو إلى مجلسه صفوة الشباب والطلاب فيفتح قلوبهم للآراء الجديدة، ويهيئ نفوسهم للقيادة الرشيدة، ويجنبهم مزالق التطرف الجامح والتصرف المرتجل: وقرأ لهم منطق أرسطو وسياسته فتخرج عليه طائفة من الكتاب والمحامين تزعموا الإصلاح وقادوا النهضة. وظلت أستاذه متصلة الأثر من يوم أن خرجت الجريدة إلى الناس إلى يوم أن دخل هو في جوار الله.

كان في السنين الثماني عشرة الأخيرة من حياته الطويلة الخصبة رئيسًا لمجمع اللغة العربية فكان لهذه الأستاذية من قوة الشخصية وحضور الذهن وصدق التوجيه وسعة الاطلاع واستقامة المنطق وحدة النشاط الأثر البالغ في اضطلاع المجمع بعبء رسالته. كان من أفهم الأعضاء لطبيعة اللغة ووظيفة المجمع وحقيقة التطور، يرى كما يرى أن اللغة ملك للمتكلمين بها لا للواضعين لها، فهم أحرى أن يتصرفوا فيها تصرف الوارث فيما ورث، يعدل ويكمل وفقًا لحالته وطبقًا لحاجته. ففي عهده رد المجمع الاعتبار إلى المولد وقبل السماع من المولدين، وقرب المسافة بين الفصحى والعامية بقبول ما وضع الصناعات والزراعات والتجار وغيرهم من كل ذي حرفة.

* * * * *

كان تفكيره الحر وتجديده الواعي أصيلين في فطرته ظهر أثرهما على رأيه وهو في رونق شبابه. حدثني رحمه الله عن سبب اتصاله بالإمام محمد عبده قال: كان الشيخ ينتدب في كل عام لامتحان طلاب الحقوق في السنة النهائية، وكانوا قد اقترحوا علينا في امتحان الإنشاء أن نكتب في هذا الموضوع: (كيف كان للحكومة حق عقاب المجرم) وجعلوا زمن الإجابة عن هذا السؤال أربع ساعات على ما أذكر، فكتبت المذاهب الأربعة التي قررها العلماء في هذه المسألة ثم عقت عليها ففندتها جميعًا ونفيت أن يكون للحكومة (حق) عقاب المجرم لأنها قائمة على القوة لا على الحق. وأسرفت في التدليل على ذلك حتى ملأت الكراسة. ثم خرجت فذكرت لرفاقي ما كتبت فاكتبوا وقرروا جميعًا أنني لا محالة راسب. واشتد من جانبهم اللوم والتقريع حتى ذهب من نفسي كل أمل في النجاح. فلما كان يوم الامتحان الشفوي وقف الشيخ فقرظ موضوعي وكان قد وضع له الدرجة العليا، ولكنه نصح لي أن أقتصد الآن في هذه الآراء إشفافًا علي. ومنذ ذلك اليوم لزمته.

كان أول يوم اتصلت فيه بأسبابي بالفقيد العظيم يوم زرتة في مكتبته بالجريدة أنا وصديقاى طه حسين ومحمود الزناتي نشكو إليه فصلنا من الأزهر ونحن في السنة النهائية من الدراسة فيه لخلاف ثار بين الطلاب في درس أستاذنا المصرفي حول فقرة من خطبة للحجاج رواها المبرد في "الكامل"، وكان الخطيب الجريء قد أساء الأدب

في حديثه عن الطواف بقبر الرسول فكفروه لذلك. وكنا نرى أن سوء التعبير يوجب التعذير ولا يوجب التكفير. فلما دخلنا عليه هش بنا وبش لنا وسمع منا وسمعنا منه، ثم قال بلهجته الرزينة: إن الأمر أيسر من ذلك. ورفع سماعة التليفون وقال للشيخ حسونة النواوي وكان شيخ الأزهر يومئذ: إن عندي ثلاثة من طلاب الأزهر فصلتموهم لرأي رأوه. ولعل من الخير ألا تقتلوا في الشباب حرية الرأي ما دامت لا تخالف أصلاً من أصول العقيدة ولا نصاً من نصوص الأحكام. وسأله أن يلغي قرار الفصل ففعل، وانصرفنا من عنده وليس أحد من رجال الفكر وأصحاب البيان أحب إلينا منه.

* * * * *

كانت ثقافة لطفي السيد راسخة الأصل متينة القواعد، أقام ركنها العقلي على فلسفة أرسطو وأفلاطون، وركنها الأدبي على كتاب الله وشعر العرب. كان يحمل القرآن على ظهر قلبه وطرف لسنه، يؤديه آية آية كأنما يتلو في مصحف منشور. وكان كثير المحفوظ من الشعر يستمده من أوعية شتى ويرويه عن أعصر مختلفة، فكنا في مجلس المجمع كلما ندّ عن ذاكرتنا شاهد من القرآن أو الشعر أسعفنا به.

وليس معنى ذلك أنه وقف في فلسفته عند اليونان وفي أدبه عند العرب، وإنما كان يسائر الفلسفة في كل مذهب، ويتابع المعرفة في كل وجه.

ولطفي السيد بعد أولئك كله كان حليماً رحيماً يرتاح للخير ويدل عليه، ويجنح للسلام ويدعو إليه. وكان لنشأته السرية وبيئته القروية يسمت سمت الأرستقراطيين في الهندام والمظهر، ويقصد قصد الديمقراطيين في المعاملة والسلوك. وهو الوحيد في علماء العصر الذي طال أجله وحسن عمله، وجمع بين ثقافة النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

رحمه الله رحمة واسعة وعوضنا من علمه وفضله خير العوض.

أمة التوحيد تتوحد

كان العرب في جاهليتهم قوى مبعثرة على رمال البوادي ومياه الأنهار يفني بعضهم بعضاً بالغزو والثأر حتى أراد الله الذي يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس أن يجعل منهم أمة وسطاً بين مادية اليهود وروحانية النصارى تصلح الدنيا بالدين وتصل الأرض بالسماء فألف قلوبهم على حبه، ووحد شعوبهم على رسالته، وأخرجهم من الجزيرة يحملون مشاعل الهدى وسيوف الحق ليقيموا الميزان ويحطموا الطغيان ويبينوا للناس معالم الطريق إلى الغاية التي تنتهي إليها الجماعة وتتم عندها الوحدة.

ونفذت إرادة الله على ما سبق من علمه وجرى في حكمه فتوحد الشتات والتأم الشمل وبلغت وحدة العرب والمسلمين غايتها من الشمول والقوة في عهد الرشيد حتى قال يوماً لغمامة مرت من فوقه: (أمطري حيث شئت فإن خراجك لي). وظلت هذه الوحدة شاملة قوية حتى خلافة المتوكل، ثم نجمت رءوس الشياطين من الأعاجم في الدولة تنشر الشعوبية والزندقة والفرقة فانقطع الخيط وانفرط العقد واختلط اللسان وتفرقت الكلمة وانشعبت الخلافة الإسلامية ثلاث شعب: شعبة في العراق ترفع العلم الأسود، وشعبة في مصر ترفع العلم الأخضر. وشعبة في الأندلس ترفع العلم الأبيض. ثم جف الثرى بين الإخوة فتصارعوا على الحكم وتنازعوا على السلطان:

وتفرقوا شيعاً فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبر

ثم دها العالم العربي الاستعمار الإنجليزي والفرنسي مع الحروب الصليبية ففرق ليحكم وقسم ليستغل وفجر ليستبد فنشأت العصية الإقليمية لدرء خطره أو تخفيف ضرره، ولكنه كان قد استشرى واستضرى وتوقع، ففسد النظام واختل الميزان وذل الحق وأفلس المنطق وأصبح من فوق الطاقة ووراء الإمكان أن تناضل الأهواء المتفرقة الرأي الجميع، وأن ينازل الحق الأعزل عدوان الباطل المسلح، وكان لابد للعرب أن يعالجوا ضعف الفرقة بقوة الجماعة، وأن يتركوا بنيات الطريق إلى سواء الجادة.

وما كان للعالم العربي وهو يرى الخطوب تتوالب على جوانبه والنوازل تتفاقم في أحشائه أن تظل كل دولة من سادرة في مشاعب هواها تتلهى بالنظر الغرير إلى حركات

زعمائها وهم يتكالبون على عرض الدنيا ويتواثبون إلى كراسي الرياسة كأن السلامة والسلام أمران يجريان من حياتها مجرى الأمور الطبيعية كالنوم واللذة والضحك فهي لا تشغل بهما البال ولا تدبر عليهما الفكر. وكأن غريزة حب الحياة التي جعلت من ضعاف النمل أممًا متحدة ومن بغاث الطير أسرابًا متعاونة لم تكن من غرائز أهله ولا من نحائر حاكميه !.

لذلك شعرت كل أمة من أممه في وسط هذه الكوارث السود التي تتفجر عليها من الداخل والخارج بما تشعر به الشاة الشاردة عن القطيع ركبها الغرور والضلال ساعة من الزمن فنسيت أن قرننها الحاد لا يقوى على الناب الأعصل، وأن عيشها مقيدة مع الراعي خير من عيشها حرة مع الذئب، وأن أسهل على الطبيعة أن تعيد اتحادًا ألفه الله من صلة الدوم ونسب الروح ووحدته المصير من أن تبدئ اتحادًا صنعه الشيطان من جون بول وحسين، ومن العم سام وسعود، ومن السيدة مريان⁽¹⁾ وعشاقها من هنا وهناك، فإن هذا الاتحاد الذي ألفه الدينار والدولار والفرنك من دول ثلاث ومن أفراد ثلاثة لا يدوم إلا ريثما تأنف الشعوب وتعضب. والأنفة والغضب من شيمة الأبي الحر، والإباء والحرية أصلا في طبع العربي لا ينفكان عنه إلا بالقهر، والقهر وما يتبعه من الذل والفقر معناها الاستعمار، فمتى تحلل كابوسه الفادح عن صدر الأمة العربية وجدت نفسها الضائعة وأدركت وجودها المتميز فنهضت تجمع أطرافها وتصل أجزاءها وتسأل عن صلة القربى الواشجة كيف قطعها الدخيل، وعن رقعة الوطن المتصلة كيف مزقها المستعمر، وعن هذه الأسماء المتعددة لهذه الأمة الواحدة كيف افتعلها الدخلاء والعملاء ليكون لكل اسم منهما دخيل في يده أصابع قرد، ولكل دخيل فيها عميل في أصابعه مخلب قط. وما هذه الثمرات المأكولة بالباطل إلا رزقي ورزقك ورزقه من أبناء هذه الأمة الكادحة المحرومة اقتطعها الملوك بالصوالجة واغترفوها بالتيجان ليقدموها قرايين غير مقدسة إلى آلهة الخمر والقمر والفسق والرزيلة.

* * * * *

(1) جون بول لقب إنجلترا، والعم سام لقب أمريكا، ومريان لقب فرنسا .

شعر بمخاطر الاستعمار ومخازيه ضباطنا الأحرار وتبلورت فيهم ثورة الشعب فدكدكوا حصونه عليه، وكبكبوا سماسرته صرعى من حواليه، وطهروا من أوزاره وآثاره مصر وسورية والعراق وحطموا من بينها الأسوار والحدود، وكسروا من حولها الأغلال والقيود، فتلاقى الإخوة وجهاً لوجه ولساناً للسان ويداً ليد، وفي أيديهم أعلام العباسية والفاطمية والأموية مصورة في علم واحد ذي ثلاث ألوان وثلاث نجوم يتذكرون أمانى الأخوة، ويتناشدوا أغاني الوحدة، ويتساقون كؤوس المودة مترعة من كوثر النيل ورحيق بردى وسلاف دجلة، ويمثلون الأقطار الثلاثة في اتحاد عام يوحد فيه الاسم والرئيس والعلم والجيش والدستور والتعليم والاقتصاد والخطة والغاية فلا يبقى وراء ذلك كله إلا شئون محلية يختص بها إقليم دون إقليم، ويختلف فيها قطر عن قطر.

هذه الأقطار الثلاثة هي أساس الوحدة الشاملة وضعه الثوار على تقوى من الله ورضوان تقوم فوقه الجمهورية العربية المتحدة بأقطارها الثلاثة عشر.

ولو علمت أن كل قطر من هذه الأقطار الأساسية الثلاثة قد قامت فيه خلافة وتمكنت فيه دولة وازدهرت به حضارة، وأن الأقطار التسعة الباقية إنما كانت أقماراً توابع لها تدور في فلكها وتجري لمستقرها، وأن الحوائل العارضة التي كانت تحول بين الفرع وأصله، وتفصل بين الجزء وكله، قد زالت أو كادت، علمت يقيناً أن الوحدة في الوطن ستم وإن بعدت في بعض أرضه الشقة، وأن النجوم الثلاثة عشر ستبزغ في العلم وإن تراكمت في بعض سمائها السحب.

* * * * *

إن الوحدة السياسية المحمدية كانت كلية عامة لأنها قامت على العقيدة ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول. وإن الوحدة الصلاحية كانت جزئية خاصة لأنها قامت على السلطان والسلطان يعتريه الوهن فيزول. أما الوحدة الناصرية المقترحة فباقية نامية لأنها تجديد للوحدة المحمدية؛ فهي باشتراكيتها وحريتها وديمقراطيتها مظهر للإسلام مطبقاً بالفعل، منفذاً بالقانون، مؤيداً بالسلطان. والاشتراكية في الرزق والحرية في الرأي والديمقراطية في الحكم ضمان دائم للوحدة ألا تستأثر فتستغل، وألا تستبد

فتطغى، وألا تحكم فتتحكم. والأثرة والطماعية والطغيان والحسد كانت وما زالت علة العلل في فساد الزمان وهلاك الأمم.

* * * * *

بعد قرابة ألف سنة من تمزق الوحدة المربية بين الترك والفرس والمغول والكردي والجرکس والأسبان والعثمانيين والفرنسيين والإنجليز والطلّيان يعود التراث المحمدي إلى أهله ومعه ما ضيع الجهل والفقر والانحلال من كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة فيسعى بعضه إلى بعضه، وينضم قاصيه إلى دانيه، ويشعر ثمانون مليوناً من العرب يعيشون بين المحيط والخليج بأن لهم كياناً طبيعياً تميز بالجنس واللغة والدين والتاريخ والموطن والمجد والثقافة، فمن حقهم أن ينزلوا في مكانهم من صدر الوجود، وأن يشاركوا بإمكانهم في سياسة الدنيا، وأن يقولوا للكتلتين الرأسمالية والشيوعية إن الكتلة العربية هي التي تملك غرس الوثام في النفوس وإقرار السلام في العالم، لأنها تقوم على الإيمان المحض، وتنزل في خير مكان من الأرض، وتهيمن على الموارد الأولى في الاقتصاد، وتدين بالأديان السماوية المثلى للاجتماع، وتشرق أعمالها في الصفحات العظمية من التاريخ، فافسحوا لها في الطريق، ومدوا إليها يد الصديق، وأريحوا أنفسكم من الكيد لها والائتمار بها، فقد جربتم معها كل سلام ما عدا سلاح الحق فجربوه ولو مرة.

فهرس

5	مقدمة التحقيق
9	ترجمة المؤلف
14	عملنا في الكتاب
15	قبل أن تقرأ
28	أول ما عرفت الأدب
32	قرآن الفجر
36	المعركة التي أنقذت الإسلام والعروبة
44	من الفتوة الإسلامية
48	المُرَابي الذي دخل الجنة
52	آخر فارس في آخر مدينة
56	لماذا يُقدّس المصريون الخبر؟!
60	من أمجاد الجيش المصري (ديسمبر سنة 1956)
64	ساعة خرجة من يوم عَصيب
68	قريتي منذ ستين سنة (صورة من الذاكرة)
73	جزيرة الروضة في التاريخ
78	كانت وكُنّا، ثم صارت وصِرْنَا

- 82 بَيْنَ الواقعيّة والكليّة
- 87 الواقعيّة لا تُعادي الفن
- 91 الأدب يُوجّه ولا يُوجّه
- 94 قصّة الشّعر المُرسَل
- 103 قوى الإسلام الثّلاث
- 107 الإسلام سرّ الفدائيّة
- 110 عاد الشّعُر في العالم كما بدأ
- 114 وللأمم أيضًا من رجالها عناوين
- 118 العميلُ الأوّل للاستعمار
- 122 ناشئ يطرق أبواب الأدب
- 126 العدوان الثّلاثي على مصر
- 126 تحت حذاء هتلر
- 127 مصر في ساحة الجهاد
- 128 أضعف الإيمان
- 129 واحد لثلاثة
- 130 من الوطنية إلى الفدائيّة
- 130 من أنت يا مصر؟

- 131 عناصر النصر الأربعة
- 132 بورسعيد
- 132 مصر والعالم
- 134 الجهاد فريضة في الدين وفضيلة في العرب
- 138 الأثافي الثلاث في مطبخ الاستعمار
- 142 من ذكريات بغداد (نورا)
- 168 كيف كان الأزهر حصناً للغة العربية؟
- 183 محمد حافظ إبراهيم
- 194 شخصية البحري
- 207 محمد رسول الله أول من أعلن حقوق الإنسان
- 211 من المهود المظلّمة أشرق نورُ الله
- 215 شهرُ ربيع الأول في حياة الرسول
- 219 من ذكريات المحرم: هجرة في سبيل الله وشهادة في سبيل الحق
- 223 يومان من أيام رمضان: يوم القرآن ويوم الفرقان
- 231 مكنّوا للأزهر في أفريقيا الجديدة
- 235 الشعب الذي تحدى حلف الأطلسي
- 238 ثورائنا الثلاث تعوزهنّ رابعة

- 242 الثورة الرابعة تتحقق
- 245 وطننا يصنع المعجزات
- 247 من حديث الفدائيين
- 249 أول ما عرفت جورجى زيدان
- 252 أول ما عرفتُ السَّنْقِيطِي
- 258 على بئر أريس من ذكريات ربيع الأول في طيبة
- 262 صوم رمضان اشتراكية روحية
- 265 كلماتٌ قِصار 23 يوليو سنة 1952
- 267 الصليبية التاسعة
- 268 لجنة وجيش
- 269 الاستعمار يَأْتَمِر !!
- 270 فضوه !!
- 271 كيف أخذوا امتياز القناة
- 273 الاستعمار يموت !
- 275 اتفاق سنة 1904
- 276 حرية وجمهورية !
- 277 من آثار العبودية

279	أي أيامك أروع يا جمال؟
280	في المصعد
282	خروف العيد
283	كومنولث العيد
287	الرسالة والأزهر والميثاق
291	الشاعرُ الصعلوك
294	إبراهيم مصطفى
304	الجزيرة تنتفض مرة أخرى
308	صديقي الأول من ذكريات العيد في القرية
313	أدب المرأة
319	عصرنا الذهبي الرابع
322	يا حسرتا على العراق !
326	أحمد لطفي السيد كما عرفته
330	أمة التوحيد تتوحد
334	الفهرس

